

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

الشرق الأدنى

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الثاني من المجلد الأول

٢



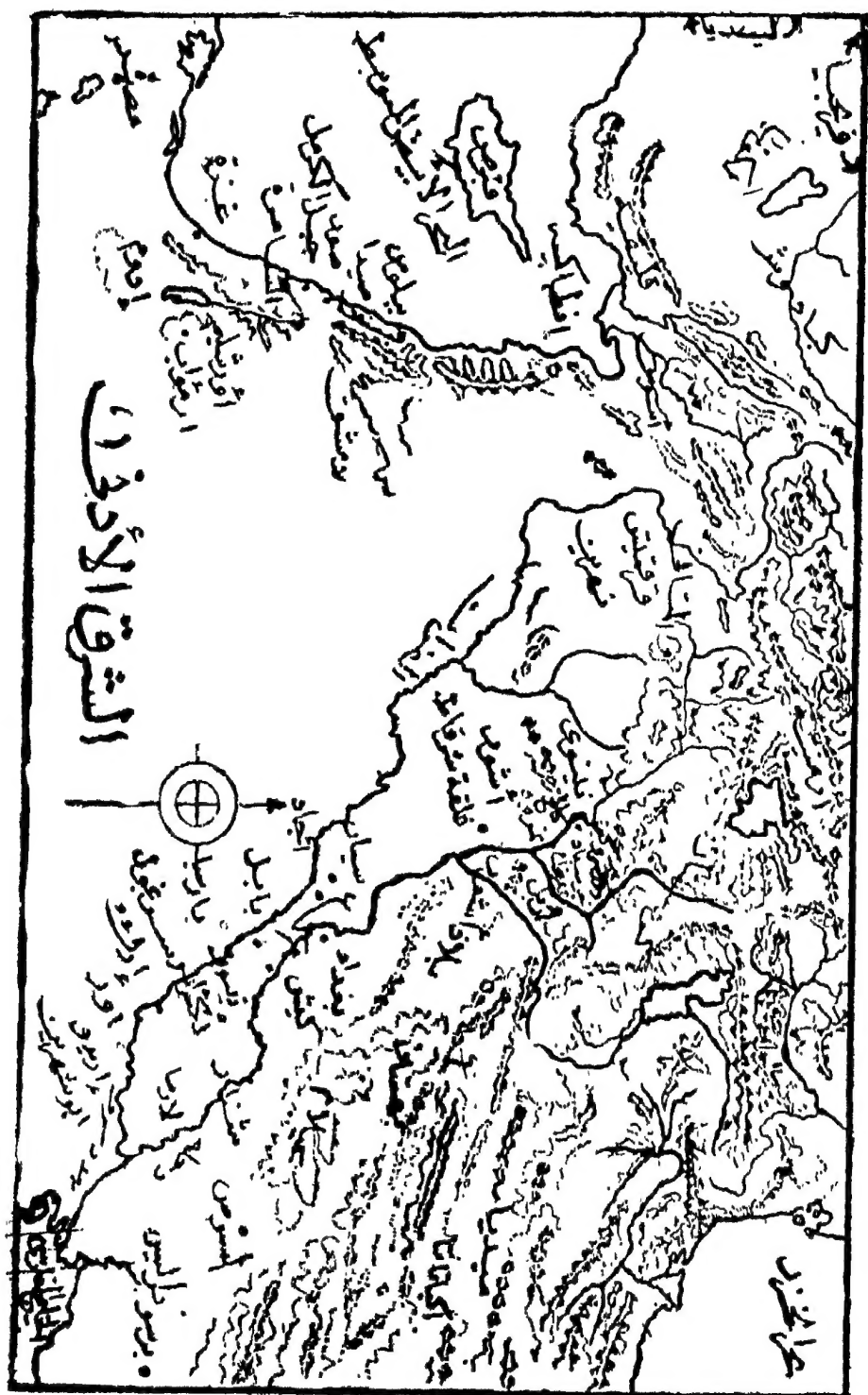
تونس



بيروت



تمثال من الحجر الأصيل (الجرافيت) لرمسيس الثاني
من المتاحف في القاهرة



الكتاب الأول

الشرق الأدنى

« وفي ذلك الوقت نادتنى الآلهة ، أنا حورابى ، الخادم الذى سرت
من أعماله ، . . . والذى كان عوناً لشعبه فى الشدائد ، . . . والذى
أناء عليه الثروة والوفرة . . . ، أن أمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء
وأفشر النور فى الأرض ، وأرعى مصالح الخلق » .

قانون حورابى - المقدمة

جدول مسلسل لتاريخ الشرق الأدنى^(١)

ق . م	مصر	ق . م	غرب آسية
١٨٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى	٤٠٠٠	ثقافة العصر الحجري
	العصر الحجري القديم		المديم فى فلسطين
١٠٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى	٩٠٠٠	ثقافة عصر البرنز فى
	العصر الحجري الحديث		التركستان
٥٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى	٤٥٠٠	الحضارة فى السوس
	عصر البرنز		وكيش
٤٢٤١	ظهور التقويم المصرى	٣٨٠٠	الحضارة فى كريت
٤٠٠٠	ثقافة ألبادى		(إترىطش)
٣٥٠٠ - ٢٦٣١	١ - الدولة القديمة	٣٦٣٨	الأمرة الثالثة فى كيش
	الملكية	٣٦٠٠	الحضارة فى سومر
٣٥٠٠ - ٣١٠٠	من الأسرة الأولى إلى	٣٢٠٠	أسرة أكشاك فى سومر
	الثالثة	٣١٠٠	أور - نينا الأول
٣١٠٠ - ٢٩٦٥	الأمرة الرابعة -		ملك لكش
	الأهرام	٣٠٨٩	الأمرة الرابعة من ملوك
٣٠٩٨ - ٣٠٧٥	خودو (كيوبس حسب		لكش
	تسمية هيرودوت)	٢٩٠٣	الملك أوروكاجينا يصلح
٣٠٦٧ - ٣٠١١	خفرع (خفرن)		لكش
٣٠١١ - ٢٩٨٨	منقرع (ميمريفس)	٢٨٩٧	لوجال - زيجزى يفتح
٢٩٦٥ - ٢٦٣١	الأمرة الخامسة		لكش
	والسادسة	٢٧٧٢ - ٢٨١٧	سرجون الأول (يوحنا
٢٧٣٨ - ٢٦٤٤	بيبسى الثانى (أطول حكم		سومر وأكد)
	عوف فى التاريخ)	٢٧٩٥ - ٢٧٣٩	نارام - سن ملك
٢٦٣١ - ٢٢١٣	عصر الإقطاع		سومر وأكد
٢٣٧٥ - ١٨٠٠	ب - الدولة الوسطى	٢٦٠٠	جوديا ملك لكش
	الملكية	٢٤٧٤ - ٢٣٩٨	عصر أور الهيبى
٢٢١٢ - ٢٠٠٠	الأمرة الثانية عشرة		كتاب القوانين الأول
٢٢١٢ - ٢١٩٢	أمينمحييت الأول	٢٣٥٧	العمالاميون يهزون أور

(١) التواريخ كلها قبل الميلاد ، وما كان منها قبل عام ٦٦٣ ق . م فهو تقريبي ؛
والتواريخ المذكورة إلى جانب الحكام تميز تواريخ حكمهم لا تواريخ حياتهم .

ق. م	غروب أسية
٢١٦٩ - ١٩٢٦	الأسرة الأولى البابلية
٢١٢٣ - ٢٠٨١	حورام ملك بابل
٢١١٧ - ٢٠٩٤	حورام يفتح سومر وعيلام
١٩٢٦ - ١٧٠٣	الأسرة الثانية البابلية
١٩٠٠	ظهور الحضارة الحثية
١٨٠٠	الحضارة في فلسطين
١٧٤٦ - ١١٦٩	سيطرة الكاشيين على بابل
١٧١٦	نهضة دولة آشور في عهد شمشي أداد الثاني
١٦٥٠ - ١٢٢٠	استعباد اليهود في مصر
١٦٠٠ - ١٣٦٠	سيادة مصر على فلسطين وسوريا
١٥٥٠	حضارة ميتاني
١٤٦١	برا - برياقس الأول ملك بابل
١٢٧٦	سلما نصر الأول يوحد دولة آشور
١٢٠٠	استيلاء اليهود على كنعان
١١١٥ - ١١٠٢	تغلث فلاسر الأول يوسع دولة آشور
١٠٢٥ - ١٠١٠	شاؤل ملك اليهود
١٠١٠ - ٩٧٤	داود ملك اليهود
١٠٠٠ - ٦٣٠	العصر الذهبي لفنيقية (١) وسوريا
٩٧٤ - ٩٣٧	سليمان ملك اليهود
٩٣٧	انقسام اليهود : دولتا يهوذا وإسرائيل
٨٨٤ - ٨٥٩	آشور ناصر پال الثاني ملك آشور
٨٥٩ - ٨٢٤	سلما نصر الثالث ملك آشور

(١) تكتب أحيانا فونيقية .

ق. م	مصر
٢١٩٣ - ٢١٥٧	سنوسريت (سيزوستريس) الأول
٢٠٩٩ - ٢٠٦١	سنوسريت الثالث
٢٠٦١ - ٢٠١٣	أمنمحيث الثالث
١٨٠٠ - ١٦٠٠	سيطرة الهكسوس على مصر
١٥٨٠ - ١١٠٠	ح - الإمبراطورية المصرية
١٥٨٠ - ١٣٢٢	الأسرة الثانية عشرة
١٥٤٥ - ١٥١٤	تحتس الأول
١٥١٤ - ١٥٠١	تحتس الثاني
١٥٠١ - ١٤٧٩	الملكة حتشبسوت
١٤٧٩ - ١٤٤٧	تحتس الثالث
١٤١٢ - ١٣٧٦	منحوب الثالث
١٤٠٠ - ١٣٦٠	عصر رسائل تل الهارة
	ومخرج غرب أسية على مصر
١٣٨٠ - ١٣٦٢	أمنحوتب الرابع (إخناتون)
١٣٦٠ - ١٣٥٠	توت منخ آمون
١٣٤٦ - ١٢١٠	الأسرة التاسعة عشرة
١٣٤٦ - ١٣٢٢	حار محب
١٣٢١ - ١٣٠٠	سيتي الأول
١٣٠٠ - ١٢٣٣	رمسيس الثاني
١٢٣٣ - ١٢١٤	مرنپتاح (منفتاح) سيتي الثاني
١٢٠٥ - ١١٠٠	الأسرة العشرون
	ملوك يسمون باسم رمسيس
١٢٠٤ - ١١٧٢	رمسيس الثالث
١١٠٠ - ٩٤٧	الأسرة الحادية والعشرون
٩٤٧ - ٧٢٠	الملك الويسون ، الأسرة الثالثة والعشرون
	ملوك بوسطة
٩٤٧ - ٩٢٥	شيشق الأول
٩٢٥ - ٨٨٩	أسركون الأول

ق . م	غرب آسية
٨١١ - ٨٠٨	سلحانصر (سحر اميس)
	في آشور
٧٨٥ - ٧٠٠	عصر أرمينية الذهبى
	(أورارتو)
٧٤٥ - ٧٢٧	تغلت فلاصر الثالث
٧٣٢ - ٧٢٢	استيلاء آشور على دمشق
	والسامرة
٧٢٢ - ٧٠٥	سرجون الثانى ملك آشور
٧٠٩	ديوسين ملك الميديين
٧٠٥ - ٦٨١	سنحريب ملك آشور
٧٠٢	إشياء الأول
٦٨٩	سنحريب يجب بابل
٦٨١ - ٦٦٩	عصر هلون ملك آشور
٦٦٩ - ٦٢٦	آشور بانينال (مرناهايس)
	ملك آشور
٦٦٠ - ٥٨٣	زردشت (زرتسترا)
	أوزروستر عند اليونان
٦٥٢	جيجيس ملك ليديا
٦٤٠ - ٥٨٤	سياخار ملك الميديين
٦٣٩	سقوط السوم وخاتمة عيل
٦٣٩	هوش ملك اليهود
٦٢٥	نبو پولصر يبعث إلى بابل
	استقلالها
٦٣١	بدايات الكتب الخمسة الأولى
	من العهد القديم
٦١٢	سقوط نينوى وخاتمة آشور
٦١٠ - ٥٦١	ألياطس ملك ليديا
٦٠٥ - ٥٦٢	نبوخذناصر الثانى ملك بابل
٦٠٠	لارميا فى اورشليم ، سك
	العملة فى ليديا
٥٩٧ - ٥٨٦	نبوخذناصر يستولى على
	اورشليم
٥٨٦ - ٥٣٨	أسر اليهود فى بابل
٥٨٠	حزقياى فى بابل
٥٧٠ - ٥٤٦	كروسم ملك ليديا

ق . م	مصر
٨٨٠ - ٨٥٠	أمركون الثانى
٨٥٠ - ٨٢٥	شيشنق الثانى
٨٢١ - ٧٦٩	شيشنق الثالث
٧٦٣ - ٧٢٥	شيشنق الرابع
٥٨٠ - ٨٤٥	الأسرة الثالثة والعشرون
	ملوك طيبة
٧٢٥ - ٦٦٣	الأسرة الرابعة والعشرون
	ملوك منف
٧٤٥ - ٦٦٣	الأسرة الخامسة والعشرون
	الملوك الإثيوبيون
٦٦٣ - ٦٨٩	طاهرقا
٦٨٥	انتعاش مصر التجارى
٦٧٤ - ٦٥٠	احتلال الأشوريين مصر
٦٦٣ - ٥٢٥	الأسرة السادسة والعشرون
	ملو ساو (سايس أو صان
	الحجر)
٦٦٣ - ٦٠٩	أبسماتيك (ابسماتكس) الأول
٦٦٣ - ٥٢٥	انتعاش الفن المصرى فى
	عهد ملوك ساو
٦١٥	اليهود يبعدون فى الزوج
	إلى مصر
٦٠٩ - ٥٩٣	نسكو (نخاو) الثانى
٦٠٥	نخاو يبدأ بإدخال الحضارة
	الهيلينية فى مصر
٥٩٣ - ٥٨٨	أبسماتيك الثانى
٥٦٩ - ٥٢٦	أحموس (أماسين) الثانى
٥٦٨ - ٥٦٧	نبوخذناصر الثانى يغزو مصر
٥٦٠	ازدياد نفوذ اليونان فى مصر
٥٢٦ - ٥٢٥	أبسماتيك الثالث

الباب السابع

سومر (*)

وجيه - فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية

لنمد انقضى منذ بلماية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشئون البشرية التي وصل إلينا عامها . وإذا ذكرنا هذا اللفظ المهم في هذا الكتاب فلإننا نقصد به جميع بلاد أسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوب روسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضاً - وإن خرجنا في هذا على مقتضيات الدقة أكثر من ذى قبل - على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم كما كانت مركزاً انتشرت منه الحضارة الشرقية . على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الأهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة ، والتحليل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطب ، والحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والخبر ، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلق المصقول والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج ، واستخدمت أدهان التجميل والحلي ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور - عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوروبا وأمريكا

(*) ويكتبها بعض المؤرخين السومر والبعض الآخر شومر . (انظر رسم)

ثقافتها على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان ، وقصارى القول أن « الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة - بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة لإنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف للذخير من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغنم التجارة والحرب . فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإننا بذلك نعترف بما علمنا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يرمدى من زمن بعيد .

الفصل الأول

عيلام

ثقافة السوس - دجلة الفخاري - صجات المركبات

إذا نظر القارئ إلى مصور لبلاد إيران ومر بإصبعه على نهر دجلة - مبتدئاً من الخليج الفارسي حتى يصل إلى العمارة ، ثم اتجه به شرقاً مخترباً حدود العراق إلى مدينة شوشان الحديثة ، إذا فعل هذا فقد حدد لنفسه موقع مدينة السوس القديمة - التي كانت فيها مضي مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام - أي الأرض العالية . في هذا المصنع الضيق الذي تحميه من غربه المناقع ومن شرقه الجبال الخافة بهضبة إيران العظيمة ، أنشأ شعب من الشعوب لا نعرف أصله ولا الجنس الذي ينتمي إليه إحدى المدن الأولى المعروفة في تاريخ العالم . وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون في هذا الإقليم منذ جيل مضى آثاراً بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق م (١) (٢)

ويبدو أن أهل عيلام كانوا في ذلك الوقت قد خرجوا توا من الحياة البدوية ، حياة صيد الحيوان والسمك ، ولكنهم كانت لهم وقتئذ أسلحة وأدوات من النحاس ، وكانوا يزرعون الحبوب ويؤنسون الحيوان ، وكانت لهم كتابة مقدسة ووثائق تجارية ، ومزايا وحلى ، وتجارة تمتد من مصر إلى الهند (٣) . ونجد بين أدوات الظران المسواة التي ترجع هنا إلى العصر الحجري الجديد مميزات كاملة الصنع رشيقة مستديرة عليها رسوم أنيقة من أشكال هندسية أو صور جميلة تمثل الحيوان والنبات ، نعد بعضها من أجل ما صنعه الإنسان في عهود التاريخ

(*) يعتقد الأثريون أن ده مرجان وبمبلي وغيرهما من العلماء قد بالغوا في قده ١٥٠٠
الثقافة وثقافة أور (٢)

كله^(٤) . ولسنا نجد في تلك البلاد أقدم ما عرف من عجلات الخزاف وحسب بل نجد فيها أيضاً أقدم ما عرف من عجلات المركبات ، ذلك أنالاً نعثر مرة أخرى على هذه المركبة التي كان لها شأن متواضع ، ولكنه شأن حيوى في نقل المدنية من مكان إلى مكان ، إلا بعد هذا الوقت في بلاد بابل ، ثم بعد ذلك أيضاً في مصر^(٥) . ثم انتقل العيلاميون من هذه البدايات المعقدة إلى حياة السلطان والغزوات الأعباء الثقيل ، فامتلكوا سومرو بابل ، ثم دارت عليهم الدائرة فاستولت عليهم هاتان الدولتان كلتاهما بعد الأخرى . وعاشت مدينة السوس ستة آلاف من السنين ، شهدت في خلالها عظمة إمبراطوريات سومو ، وبابل ، ومصر ، وأشور ، وفارس ، واليونان ، ورومة ، وظلت ، باسم شوشان ، مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع عشر الميلادى . ومرت بها في خلال تاريخها الطويل فترات مختلفة نمت فيها ثروتها نموا عظيما . وحسبنا شاهداً على هذا وصف المؤرخين لما عثر عليه فيها آشور بانيبال حين استولى عليها ونهبها في عام ٦٤٦ ق . م من ذهب وفضة وحجارة كريمة ، وجواهر ملكية ، وثياب ثمينة ، وأثاث فخيم ، ومركبات ساقها الفاتحون وراءهم إلى نينوى ، ذكر المؤرخون هذه المغنم كلها ولم يحاولوا الانتقاص من شأنها أو الاستخفاف بها ، وهكذا بدأ التاريخ دورته المحزنة فبدا في وقت قصير من فنها المزدهر حرباً وخراباً

الفصل الثاني

السومريون

١ - تاريخهم

الكشف عن أرض سومر - جغرافيتها - أهلها وجنسياتهم - مظاهرهم -
المزقان السومري - الملوك - مصلح قديم - سرجون ملك أكاد - عصر أور الذهبى

إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتبعنا المجرى المشترك المكون من
نهرى دجلة والفرات من مصبه في الخليج الفارسى إلى أن ينفصل المجرىان
(عند بلدة التمرنة الحديثة) ، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب ، وجدنا
في شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة وهى : إربلو (أبوشهرين
الحديثة) وأور (المُمَقِيسَّر الحديثة) وأروك (وهى المسماة إرك في التوراة
 والمعروفة الآن باسم الوركاء) ولارسا (المسماة في التوراة باسم إلسار
 والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سببلا الحديثة) ونهور (نفر) .
تتبع بعدئذ نهر الفرات في سيره نحو الشمال الغربى إلى بابل التى كانت في يوم
من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض ما بين النهرين) تجدد إلى شرقها مباشرة
بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت في هذا الإقليم ، ثم سر مع النهر صعدا
قراية ستين ميلا حتى مقر أجاد قصبة مملكة أكَّد في الأيام الحالية . ولم يكن
تاريخ أرض الجزيرة القديم من إحدى نواحيه إلا صراعاً قامت به الشعوب
غير السامية التى تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها أمام الهجرات السامية
والزحف السامى من كش وأجاد وغيرهما من مراكز العمران الشمالىة .
وكانت هذه الأجناس المختلفة الأصول في خلال هذا الصراع تتعاون دون
أن تشعر بتعاونها - ولعلها كانت تتعاون على الرغم منها - لتقيم صرح

حضارة هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة شاملة فذة ، وهي من أعظمها إبداً وإنشاء (*) .

وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينحس هؤلاء السومريون ، أو أى طريق سلوكه حتى دخلوا بلاد سومر . ومن يدري لعلهم جاءوا من آسية الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينية واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متبعين في سيرهم مجرى دجلة

(*) لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة في علم الآثار . لقد كان الرومان واليونان واليهود ، وهم الذين نسميهم القدماء جهلا منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ ، لا يعرفون شيئاً عن سومر ، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شيء عن هؤلاء الأقوام ، وإذا كان قد وصل إلى علمه شيء عنهم فقد أغفل أمرهم لأن صيدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا . ولم يكن ما يعرفه بروسس ، وهو مؤرخ يئلى كتب حوالى ٢٥٠ ق . م عن سومر إلا مزيجاً من الخرافات والأساطير . فقد وصف في تاريخه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج الفارسى ، وأدخل في البلاد فون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بنى الإنسان كل الأشياء التى تصلح أمور حياتهم ولم يخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن » (٦) . ولم تكشف بلاد سومر إلى العالم إلا بعد ألى سنة مما كتبه عنها بروسس . فقد تبين هكذا في عام ١٨٥٠ أن كتابة مسارية — تكتب بصفت قلم معدنى ذى طرف دقيق على طين اين ، وتستخدم في لغات الشرق الأدنى السامية — أن كلمة من هذا النوع قد أخذت عن أقدم عهداً من الساميين الذين استعملوها فيما بعد كانوا يتكلمون لغة كثرة ألفاظها غير سامية . وقد أطلق أوبرت على الشعب الذى ظنه صاحب هذه الكتابة اسم الشعب « السومرى » (٧) . وكشف رولنسن ومساعدوه في نفس الوقت تقريباً بين الخرائب البابلية أواحاً نقشت عليها كلمات من هذه اللغة القديمة وبين سطورها ترجمتها إلى اللغة البابلية كما يفعل علماء الجامعات في هذه الأيام (٨) . وفي عام ١٨٥٤ أزاح عالمان إنجليزيان الثرى عن مواقع مدن أور ، وإريدو ، وأرك . وكشف العلماء الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر عن أنقاض لكش وعثروا بينها على ألواح نقش عليها تاريخ الملوك السومريين ، وفي أيامنا هذه كشف ولى الأستاذ بجامعة بنسلفانيا وكثيرون غيره من العلماء عن مدينة أور العتيقة حيث أنشأ السومريون كما يلوح حضارة لهم قبل عام ٤٥٠٠ ق . م . وهكذا تداول العلماء من مختلف الأمم على كشف السر النامض من تلك القصة العجيبة التى لا آخر لها . وأخذوا يتعقبون الحقائق التاريخية بلا ملل تعقب رجال الشرطة البرية للصوص والمجرمين . حل أننا مع هذا لم نعد بعد بداية البحث والتنقيب في بلاد سومر . ولنا ندرى ماذا يسفر عنه هذا البحث من حضارة ومن معلومات تاريخية ، بعد أن تحفر الأرض وتدرس المواد المستكشفة كما سحر العلماء أرض مصر ودرسوا آثارها في خلال المائة السنين الأخيرة .

والفرات - حيث توجد - كما في آشور مثلاً - شواهد دالة على ثقافتهم الأولى ؛
أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائي من الخليج الفارسي - كما تروى الأساطير -
أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخلوا سبيلهم نحو الشمال متبعين على مهل
النهرين العظيمين ، أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس
من الأسفلت فيه خواص الجنس السومري كلها . بل إن في وسعنا أن نذهب
إلى أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولي قديم موغل
في القدم . ذلك بأن في لغتهم كثيراً من التراكيب الشبهة بلسان المغول^(٩)
لكن علم هذا كله عند علام الغيوب .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئ الجسم ، لهم أنوف شم
مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدره قليلاً إلى الوراء ،
وعيون مائلة إلى أسفل . وكان كثيرون منهم ملتحمين ، وبعضهم حقيقيين ،
وكثرتهم العظمى يحفون شواربهم . وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ،
ومن الصوف المغزول الرفيع ، وكانت النساء يسدلن من أكتافهن اليسرى
مآزر على أجسامهن ، أما الرجال فكانوا يشدون على أوساطهم ويتركون
الجزء الأعلى من أجسامهم عارياً . ثم علت أثواب الرجال مع تقدم الحضارة
شيئاً فشيئاً حتى غطت جسمهم كله إلى الرقبة . أما الخدم رجالاً كانوا أو نساء
افقد ظلوا يمشون عراة من الرأس إلى وسط الجسم إذا كانوا في داخل البيوت .
وكانوا في العادة يلبسون قلانس على رؤوسهم وأخفافاً في أقدامهم ، ولكن
نساء الموسرين منهم كن ينتعلن أحذية من الجلد اللين الرقيق غير ذات كعاب
عالية ، وذات أربطة شبيهة بأربطة أحذيتنا في هذه الأيام . وكانت الأساور
والقلائد والخلاخيل والخواتم والأقراط زينة النساء السومريات التي يظهرن
بها ثراء أزواجهن كما تظهره النساء الأمريكيات في هذه الأيام^(١٠) .

ولما تقدم العهد بمدنيتهم - حوالي ٢٣٠٠ ق . م حاول الشعراء والعلماء

السومريون أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم ، فكتب الشعراء قصصاً عن بداية الخلق ، وعن جنة بدائية ، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وخرّبها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين^(١١) . وتناقل البابليون والعبرانيون قصة هذا الطوفان وأصبحت بعدئذ جزءاً من العقيدة المسيحية .
وبينا كان الأستاذ ولي ينقب في خرائب أور عام ١٩٢٩ إذ كشف على عمق عظيم من سطح الأرض ، عن طبقة من الغرين سمكها ثمان أقدام ، رسبت — إذا أخذنا بقوله — على أثر فيضان مروع لنهر الفرات ظل عالقاً بأذهان الأجيال التالية ومعروفاً لديهم باسم الطوفان . وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان ، وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبي لتلك البلاد .

وحاول الكهنة المؤرخون في هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنفوسهم عجائب الحضارة السومرية فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسرة المالكة التي حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢٠٠٠ عام^(١٢) ، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام وهما تمور وجلجميش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة في الأدب البابلي . أما تمور فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين وأصبح فيما بعد أدنيس اليونان . ولعل الكهنة قد تغالوا بعض الشيء في قدم حضارتهم ، ولكن في وسعنا أن نقدر عمر للثقافة السومرية تقديرًا تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نپور تمتد إلى عمق ست وستين قدماً ، وأن ما يمتد منها أسفل آثار سرجون ملك أكد يكاد يعدل ما يمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية (أي إلى بداية القرن الأول من التاريخ الميلادي) .

وإذا حسبنا عمر نپور على هذا الأساس رجع بنا إلى عام ٥٢٦٢ ق . م . ويلوح أن أسراً قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت في كوش حوالي عام ٤٥٠٠ ق . م وفي أور حوالي ٣٥٠٠ ق . م وإننا لنجد في التنافس الذي قام بين هذين المركزين الأوين من مراكز الحضارة القديمة أول دور من

أدوار النزاع بين السامية وغير السامية ، وهو النزاع الذى يكون فى تاريخ الشرق الأدنى مأساة دموية متصلة تبدأ من عهد عظمة كش السامية وتستمر خلال فتوح المملكين الساميين سرجون الأول وحمورابى إلى استيلاء القائدين الآريين قورش والإسكندر على بابل فى القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وإلى اضطراع الصليبيين والمسلمين لامتلاك قبر المسيح ، وإلى التسابق التجارى ، وتمتد إلى هذا اليوم الذى يحاول فيه البريطانيون جاهدين أن يسيطروا على الأقوام الساميين المنقسمين على أنفسهم فى الشرق الأدنى وينشروا السلام فى ربوعه .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق.م. تروى السجلات المكونة من ألواح الطين التى كان الكهنة يحتفظون بها ، والتى وجدت فى خرائب أور ، قصة دقيقة دقة لا بأس بها عن قيام ملوك المدائن وتتويجهم وانتصارهم غير المنقطع وجنائزهم الفخمة فى مدن أور ولكش وأرك وما إليها . وما أكثر ما غالى المؤرخون فى هذا الوصف ، لأن كتابة التاريخ ونحيز المؤرخين من الأمور التى يرجع عهدا إلى أقدم الأزمان . وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوروكاچينا ملك لكش ملكا مصلحاً ومستبداً مستثيراً ، أصدر المراسيم التى تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس . وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب « ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولى على ضريبة من الفاكهة » . وخفضت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية . وكان مما يباهى به الملك أنه « وهب شعبه الحرية » وما من شك فى أن الألواح التى سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة فى التاريخ وأقلها ألفاظاً وأكثرها عدلا .

واختتمت هذه الفترة الواضحة من تاريخ أور كما تختتم فى العادة مثيلاتها من الفترات على يد رجل يدعى لوجال - زجيزى ، غزا لكش ، وأطاح بأور وكاچينا

وثهب المدينة وهى فى أوج عزها ورخائها ، وهدم معابدها . وذبح أهلها فى الطرقات ، وساق أمامه تماثيل الآلهة أسيرة ذليلة : ومن أقدم القصائد المعروفة فى التاريخ قصيدة كتبت على لوح من الطين لعل عمرها يبلغ ٤٨٠٠ سنة یرثى فيها الشاعر السومرى دینجیردأمو انتهاب إلهة لكش ويقول فيها :

وا أسفاه ! إن نفسى لتذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز .
وا أسفاه ! إن نفسى لتذوب حسرة على مدينتى جرسو (لكش) وعلى الكنوز .

إن الأطفال فى جرسو المقدسة لنى بوئس شديد

لقد استقر (الغازى) فى الضريح الأنخم

وجاء بالملكة المعظمة من معبدها .

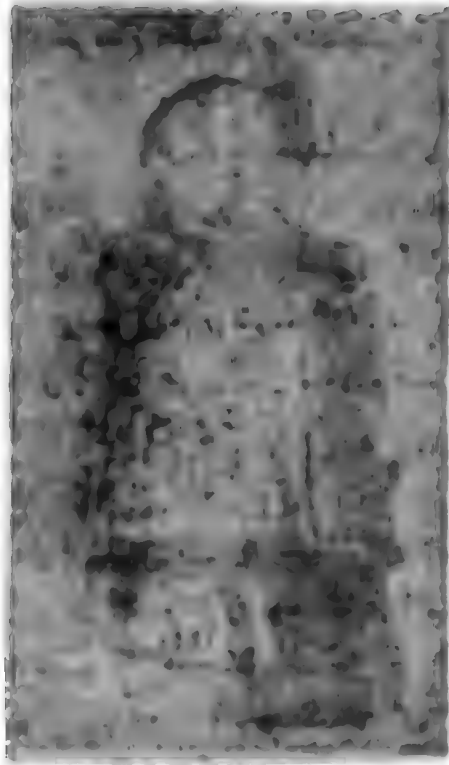
أى سيدة مدينتى المقفرة الموحشة متى تعودین ؟ (١٥)

ولا حاجة بنا إلى الوقوف عند السفاح لوجال — زجيزى وغيره من الملوك السومريين ذوى الأسماء الطنانة الرنانة أمثال لوجال — شجنجور ، ولوجال — كيجوب — تدوده ، ونيجى — دبتى ، ولوجال — أندرونجنجا
وفى هذه الأثناء كان شعب آخر من الجنس السامى قد أنشأ مملكة أكد بزعامة سرجون الأول ، واتخذ مقر حكمه فى مدينة أجاد على مسيرة مائتى ميل أونحوها من دول المدن السومرية من ناحية الشمال الغربى . وقد عثر فى مدينة سومر على أثر ضخم مكون من حجر واحد يمثل سرجون ذا الحية كبيرة تخلع عليه كثير من الهابة ، وعليه من الثياب ما يدل على الكبرياء وعظيم السلطان . ولم يكن سرجون هذا من أبناء الملوك : فلم يعرف التاريخ له أباً ، ولم تكن والدته غير عاهر من عاهرات المعابد (١٦) : ولكن الأساطير السومرية اصطنعت له سيرة روتها على لسانه شبيهة فى بدايتها بسيرة موسى ، فهو يقول : وحملت بى أمى الوضيعة الشأن ، وأخرجتنى إلى العالم سرّاً ووضعتنى فى قارب من الأسل كالسلة ، وأغلقت علىّ

الباب بالفار، (١٧) . وأنجاه أحد العمال ، وأصبح فيما بعد ساقى الملك ، فقربه إليه وزاد نفوذه وسلطانه ، ثم خرج على سيده وخلعه وجلس على عرش أجداد ، وسعى نفسه « الملك صاحب السلطان العالمى » وإن لم يكن يحكم إلا قسماً صغيراً من أرض الجزيرة . ويسميه المؤرخون سرجون « الأعظم » لأنه غزا مدناً كثيرة ، وغنم مغانم عظيمة ، وأهلك عدداً كبيراً من الخلائق . وكان من بين ضحاياه لوجان - زجيزى نفسه الذى نهب لكش وانتك حرمة إلهتها ، فقد هزمه سرجون وساقه مقيداً بالأغلال إلى نپور . وأخذ هذا الجندى الباسل يخضع البلاد شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً فاستولى على عيلام وغسل أسلحته فى مياه الخليج الفارسى العظيم رمزاً لانتصاراته الباهرة ، ثم اجتاز غرب آسية ووصل إلى البحر المتوسط (١٨) وأسس أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، وظل يحكمها خمسا وخمسين سنة ، وتجمعت حوله الأساطير فهبأت عقول الأجيال التالية لأن تجعل منه إلهاً . وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة فى جميع أنحاء دولته .

وخلفه ثلاثة من أبنائه كل منهم بعد أخيه . وكان ثالثهم نارام - سين بنسأ عظيماً وإن لم يبق من أعماله كلها إلا لوحة تذكارية تسجل انتصاره على ملك خامل غير ذى شأن . وقد عثر ده مورجان على هذه اللوحة ذات النقش البارز فى مدينة السوس عام ١٨٩٧ ، وهى الآن من كنوز متحف اللوفر ، وتمثل نارام - سين رجلاً مقتول العضلات ، مسلحاً بالقوس والسهم ، يبطاً بقدميه فى خيلاء الملوك أجسام من ظفر بهم من أعدائه ويدل مظهره على أنه يتأهب لأن يرد بالموت العاجل على توسل أعدائه المنهزمين واسترحامهم . وصور بين هؤلاء الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض مختضر ، وتطل هذا المنظر من خلفه جبال زجروس د وقد سجل انتصار نارام - سين على أحد التلال بكتابة مسهارية جميلة . وتدل هذه اللوحة على أن فن النحت قد توطدت وقته قواعد وأصبحت له تقاليد مرعية طويلة الأمد .

على أن إحراق مدينة من المدن لا يكون في جميع الأحوال من الكوارث
الأبدية التي تبتلى بها ، بل كثيراً ما يكون نافعاً لها من الناحيتين العمرانية
والصحية وهذه القاعدة تنطبق على الكش في ذلك العهد ، فقد ازدهرت هذه



(شكل هـ) • جوديا الصغير »

تمثاله في متحف اللوفر

المدينة من جديد قبل أن يحل القرن السادس والعشرون قبل الميلاد ، وذلك في عهد
ملك آخر مستنير يدعى جوديا تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقي من آثار
فن النحت السومري ، وفي متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثل
في موقف من مواقف التقوى ورأيه ملفوف بحصاة ثقيلة كالتي نشاهدها
في التماثيل المقامة في مسرح الكالوسيوم ، ويداه مطويتان في حجره ، وكشفاه

وقدماه عارية وساقاه قصيرتان ضخمتان يغطيها ثوب نصفي مطرز بطائفة كبيرة من الكتابة المقدسة . وتدل ملامحه القوية المتناسبة على أنه رجل مفكر ، عادل ، حازم ، دمث الأخلاق . وكان رعاياه يملونه ، لا لأنه جندي محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أورليوس الروماني ، يختص بعنايته للشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التي تدرسها بها البعثات التي كشفت عن تماثله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء . ويفصح نقش من نقوشه التي عثر عليها عن سياسته التي من أجلها عبده رعاياه واتخذوه إلهاً لم بعد موته : « في خلال سبع سنين كانت الخادمة نداءً لخلاصها ، وكان العبد يمشي بجوار سيده ، واستراح الضعيف في بلدى بجوار القوى » (١٩) .

وفي هذه الأثناء كانت « أور مدينة الكلدان » تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهاراً ، امتد من عام ٣٥٠ ق . م (وهو على ما يلوح عهد أقدم مقابرها) إلى عام ٧٠٠ ق . م . وأخضع أعظم ملوكها أور — أنجور جميع بلاد آسية الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع القنولة السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم . وفي ذلك يقول : « لقد أقيمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمس الصالحة العادلة » (٢٠) . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التي انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينة من بعده فشرع يحمّلها بإنشاء الهياكل ، وإقام فيها هي وغيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا وأوروك ونهور كثير آ من الأبنية . وواصل ابنه دنجي طوال حكمه الذي دام ثمانية وخمسين عاماً أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكماً عادلاً حكيماً ، جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته إلهاً . ويصفونه بأنه الإله الذي أعاد إليهم جنهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التي كانت تنعم

وقتئذ بالرخاء والفراغ والسلم أهل عيلام ذوو الروح الحربية من الشرق ،
والعموريون الذين علا شأنهم وقتئذ من الغرب ، وأسروا مملكتها ، ونهبوها
ودمروها شر تدمير . وأنشأ شعراء أور القصائد التي يندبون فيها انتهاب تمثال
إشتار أمهم الإلهة المحبوبة التي انتزعها من ضريحها الغرارة الآثمون . ومن الغريب
أن هذه القصائد التي صيغت في صيغة المتكلم ، وأسلوبها مما لا تسر منه آذان
الأدباء السوفسطائيين ، ولكننا على الرغم من هذا نحس من خلال الأربعة
الآلاف من السنين التي تفصل بيننا وبين الشاعر السومري بما حل بالمدينة
وأهلها من خراب وتدمير . يقول الشاعر :

لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين .

انتهكت يداه حرمتي وقضيّ عليّ من شدة الفزع .

آه ، ما أتعس حظي ! إن هذا العدو لم يظهر لي شيئاً من الاحترام ،

بل جرّدني من ثيابي وألبسها زوجه هو ،

وانتزع مني حلبي وزين بها أختي ،

وأنا (الآن) أسيرة في قصوره — فقد أخذ يبحث عني

في ضريحي — واحسرتاه . لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذي أخرج فيه ،

فقد أخذ يطاردني في هيكلتي ، وقذف الرعب في قلبي ،

هناك بين جدران بيتي ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط

على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت في كهف .

وأخذ يطاردني في ضريحي كما يطارد الطير ،

طاردني من مدينتي كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأنا دى :

« إن هيكلتي من خلقي ، ما أبعد المسافة بينه وبينى » (٢١) .

وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتي

عام تبدوا لأعيننا كأنها لحظة لا خطر لها .

ثم أقبل من الشمال حورابى العظيم ملك بابل واستعاد من العيلاميين أورك
وليسين ، وظل ساد كناً ثلاثاً وعشرين سنة غزا بعدها ببلاد عيلام ، وقبض على
ملكها ، وبسط حكمه على عمور وأشور النائية ، وأنشأ إمبراطورية لم يعهد
التاريخ من قبل لها مثيلاً فى قوتها ، وسن لها قانوناً عاماً نظم شئونها . وظل
الساميون بعد ذلك الوقت قرونًا كثيرة يحكمون ما بين النهرين حتى قامت دولة
الفرس ، فلم نعد نسمع بعدئذ شيئاً عن السومريين إذ طويت صفحاتهم القليلة
فى كتاب التاريخ .

٢ — الحياة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — طبقات الناس — العلوم

انقضى عهد السومريين ، ولكن حضارتهم لم يقض عليها ، فقد ظلت
سومر وأكد تخرجان صناعات وشعراء وفنانين وحكام ورجال دين ، وانتقلت
حضارة المدن الجنوبية إلى الشمال على طول مجرى الفرات ودجلة حتى وصلت
إلى بلاد بابل وأشور ، وكانت هى التراث الأول لحضارة الجزيرة .

وكان أساس هذه الثقافة هو تربة الأرض التى أخصبها فيضان النهرين
السنوى ، وهو الفيضان الناشئ من سقوط الأمطار الشتوية . وكان هذا الفيضان
ضاراً ونافعاً ، فقد هدى السومريين إلى أن يجروا ماءه جرياناً أميناً فى قنوات
لرى تخرق البلاد طولاً وعرضاً ، وقد خلدوا أخطاره الأولى بالقصص التى
نتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمر ونجا
الناس من شره (٢٣) . وكان نظام الرى المحكم الذى يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ سنة
قبل الميلاد من أعظم الأعمال الإنشائية فى الحضارة السومرية ، وما من شك فى
أنه كان أيضاً الأساس الذى قامت عليه . فقد أخرجت الحقول التى عنوا برىها
وزرعها محاصيل موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة

المختلفة الأنواع ، وظهر عندهم المحراث من أقدم العصور تجره الثيران كما كانت تجره في بلادنا حتى الأمس القريب . وكان يتصل به أنبوبة مثقوبة لبلور البلور ، وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان من الطران تفتت القش ليكون علفا للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاماً للناس (٢٤) .

والقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواح كثيرة . فقد كان السومريون يستعملون النحاس والقصدير ، وكانوا يخلطونهما في بعض الأحيان ليضعوا منهما البرنز ، وبلغ من أمرهم أنهم كانوا من حين إلى حين يصنعون من الحديد آلات كبيرة (٢٥) . ولكن المعادن مع هذا كانت نادرة الوجود قليلة الاستعمال ، وكانت كثرة الآلات السومرية تتخذ من الطران ، وبعضها ، كالمناجل التي يقطع بها الشعير ، يصنع من الطين ؛ أما الدقيق منها كالأبر والمناقب فكان يصنع من العاج والعظام (٢٦) . وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار يشرف عليها مراقبون يعينهم الملك (٢٧) على أحدث طراز من الإشراف الحكومي على الصناعات عرف حتى الآن . وكانت البيوت تبنى من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف في الشمس . ولا يزال من اليسير العثور على منازل من هذا الطراز في الأرض التي كانت من قبل بلاد سومر ، وكان لهذه الأكواخ أبواب من الخشب تدور في أوقاب منحوتة في الحجارة ، وكانت أرضها عادة من الطين ، وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثني إلى أعلى ، أو مستوية مصنوعة من الغاب المغطى بالطين المبسوط فوق دعائم من الخشب . وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول في المساكن في رفقة الإنسان البدائية . وكان ماء الشرب يؤخذ من الآبار (٢٨) .

وأكثر ما كانت تنقل البضائع بطريق الماء وإذا كانت الحجارة نادرة الوجود في بلاد سومر فقد كانت تنقل إليها من خارج البلاد عن طريق الخليج الفارسي أو من أعالي النهرين ، ثم تحمل في القنوات إلى أرفصة المدن النهرية .

لكن النقل البرى أخذ ينمو وينتشر ، وشاهد ذلك ما كشفته بعثة أكسفورد في كشف من مركبات هـى أقدم ما عرف من المركبات ذات العجلات في تاريخ العالم^(٢٩) ؛ وقد عثر في أماكن متفرقة على أختام مهتدل منها على وجود صلات تجارية بين سومر وبين مصر والهند^(٣٠) . ولم تكن النقود قد عرفت في ذلك الوقت ، ولهذا كانت التجارة تبادل عادة بطريق المقايضة ، ولكن الذهب والفضة كانا يستعملان حتى في ذلك الوقت البعيد لتقدير قيم البضائع ، وكانا يقبلان في العادة بدلا من البضائع نفسها — إما على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة وإما بكيات تقدر قيمتها حسب وزنها في كل صفقة تجارية . وكانت الطريقة الثانية أكثر الطريقتين استعمالا . وإن كثيراً من ألواح الطين التي وصلت إلينا وعليها بعض الكتابة السومرية هـى وثائق تجارية تكشف عن حياة تجارية جمّة النشاط . ويتحدث لوح من هذه الألواح في لغة تدل على الملل والسآمة عن « المدينة التي تعج بضوضاء الإنسان » . وكان لديهم عقود مكتوبة موثقة يشهد عليها الشهود ، ونظام للائتمان تقرض بمقتضاه البضائع والذهب والفضة ، تؤدي عنها فوائد عينية يختلف سعرها من ٢٥ ٪ إلى ٣٣ ٪ في السنة^(٣١) . ولما كان استقرار المجتمع يتناسب إلى حد ما تناسباً عكسياً مع سعر الفائدة فإن لنا أن نفترض أن التجارة السومرية كانت كتجارتنا يحيط بها جو من الارتياح والاضطراب الاقتصادي والسياسيين .

وقد وجدت في المقادير كيات كبيرة من الذهب والفضة منها ما هو حلّ ومنها ما هو أوان وأسلحة وزخارف ، بل إن منها ما هو عدد وآلات . وكان أهل البلاد الأغنياء منهم والفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة ، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم^(٣٢) . ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة وقد علا شأن الطب عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل يختلط

بالدين ويعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام . وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاه إلى اثني عشر شهراً قرياً يزيدونها شهراً في كل ثلاثة أعوام أو أربعة حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس . وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة (٢٣) .

٣ - نظام الحكم

الملوك - الخطط الحربية - أمراء الإقطاع - الفانزون

والحق أن كل مدينة كانت شديدة الحرص على استئمتلها ، تعض عليه بالنواجذ ، وتستمتع بملك خاص بها تسميه باتيسى أو الملك - الكاهن فتدل بهذه التسمية نفسها على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين ، وما وافى عام ١٨٠٠ ق . م حتى نمت التجارة نمواً جعل هذا الانفصال بين المدن أمراً مستحيلاً ، فنشأت منها جميعاً « إمبراطوريات » استطاعت فيها شخصية قوية عظيمة أن تخضع المدن والملوك - الكهنة لسلطانها ، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية . وكان هذا الملك الأعظم صاحب السلطان المطلق يحيط به جو من العنف والخوف شبيه بما كان يحيط بالملوك في عصر النهضة الأوروبية . ذلك بأنه كان معرضاً في كل وقت إلى أن يقضى عليه بنفس الوسائل التي قضى بها على أعدائه وارتقى بها عرشه . وكان يعيش في قصر منيع له مدخلان ضيقان لا يتسع الواحد منهما لدخول أكثر من شخص واحد في كل مرة . وكان عن يمين المدخل وشماله مخابئ يستطيع من فيها من الحراس السريين أن يفحصوا عن كل زائر أو ينقضوا عليه بالخناجر (٢٤) . بل إن هيكل الملك كان هو نفسه مكاناً سرياً مخفياً في قصره يستطيع أن يؤدي فيه واجباته الدينية دون أن تراه الأعين ، أو أن يغفل أداءها دون أن يعرف الناس شيئاً عن هذا الإغفال .

وكان الملك يخرج إلى الحرب في عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسي والسهام والحراب . . وكانت الحرب تشق لأسباب صريحة هي السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية ، فلم يكن يخطر لهم ببال أن يستروا هذا الغرض بستار من الألفاظ يخدعون بها أصحاب المتل العليا . من ذلك أن منشوسو ملك أكد أعلن في صراحة أنه يغزو بلاد عيلام ليستولى عى ما فيها من مناجم الفضة ، وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التى تخلد ذكره في الأعقاب - وتلك هي الحروب الوحيدة في التاريخ التى تخوضها الجيوش لأغراض فنية . وكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيداً ، فإذا لم يكن في بيعهم ربح ذبحوا ذبحاً في ميدان القتال . وكان يحدث أحياناً أن يقدم عشر الأسرى قرباناً إلى الآلهة المتعطشة للدماء ، فيقتلوا بعد أن يوضعوا في شباك لا يستطيعون الإفلات منها . وقد حدث في هذه المدن ما حدث بعدئذ في المدن الإيطالية في عصر النهضة ، فكانت النزعة الانفصالية التى تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن فيها ، ولكنها كانت كذلك باعثاً على العنف والنزاع الداخلى ، فأدب هذا إلى ضعف الدويلات جميعها وإلى سقوط بلاد سومر بأكملها (٣٥) .

وكان نظام الإقطاع وسيلة حفظ النظام الاجتماعى في الإمبراطورية السومرية . فقد كان عقب كل حرب يُقطع الزعماء البواسل مساحات واسعة من الأرض ويعفيها من الضرائب . وكان من واجب هؤلاء الزعماء أن يحافظوا على النظام في إقطاعاتهم ، ويقدموا للملك حاجته من الجند والعتاد . وكانت موارد الحكومة تتكون من الضرائب التى تجبى عيناً وتحترق في المخازن الملكية وتؤدى منها مرقبات موظفى الدولة وعمالها (٣٦) .

وكان يقوم إلى جانب هذا النظام الملكى الإقطاعى طائفة من القوانين تستند إلى سوابق كثيرة من عهد أور - أنجور وذنحى اللذين جمعوا قوانين أور ودونهاها .

فكانت هي المعين الذي استمد منه حورابى شريعته الذائعة الصيت . وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بدائية من الشرائع اللاحقة ، ولكنها كانت أيضاً أقل منها قسوة .

مثال ذلك أن الشرائع السامية تقضى بقتل الزوجة إذا زنت ، أما الشريعة السومرية فكل ما تجيزه أن تسمح للزوج بأن يتخذ له زوجة ثانية ، وأن ينزل الزوجة الأولى منزلة أقل من منزلتها السابقة (٢٧) . والقانون السومرى يشمل العلاقات التجارية كما يشمل العلاقات الزوجية والجنسية بوجه عام ، وينظم شؤون القروض والعقود ، والبيع والشراء ، والتبني والوصية بكافة أنواعها . وكانت المحاكم تعقد جلساتها فى المعابد وكان معظم قضاتها من رجال الدين ، أما المحاكم العليا فكان يعيّن لها قضاة فيون مختصون . وخير ما فى القانون كله هو النظام الذى وضعه لتجنب التقاضى ، ذلك أن كل نزاع كان يهرض أولاً على محكمّ عام واجبه أن يسويه بطريقة ودبة دون أن يلجأ المتنازعون إلى حكم القانون (٢٨) ، فهذا هو ذى مدينية بدائية يجدر بنا أن نتلقى منها درساً نصالح به مدينتنا .

٤ — الدين والأعراس

مجمع الآلهة السومرية — طعام الآلهة — الأساطير — التعليم — صلاة

سومرية — عاهرات المعابد — حقوق المرأة — أدهنة الشعر والوجه

نشر أور — أنجور فى البلاد شرافعه باسم الإله الأعظم شمش ، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما فى الالتجاء إلى الدين من ذوائد سياسية . فلما أن أصبح الآلهة ذوى فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ، ولكل ولاية ، ولكل نوع من النشاط البشرى ، إله موح مدبر . وكانت عبادة الشمس قد تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر ، وكان مظهرها عبادة شمس « نور الآلهة » الذى كان يقضى الليل فى الأعماق الشمالية حتى يفتح

له الفجر أبوابه فيصعد في السماء كاللهب ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء ، ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبته النارية (٢٩) . وشيدت مدينة نهور المعابد العظيمة للإله إنليل ولصاحته ننهيل ، وأكثر ما كانت تعبّد أوروك إلهة لإنيني العذراء إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكّد الساميين باسم إستير ، والتي تشبه عند أهل الشرق الأدنى أفرديتي - ديمتر الفاجرة الغمليجة عند الغربيين . وعبدت مدينتا كيش ولكش أمماً لهما حزينة هي الإلهة نذكرساج التي أحزنها شقاء البشر فأخذت تشفع لهم عند الآلهة الذين كانوا أشد منها قسوة (٣٠) ؛ وكان تنجرسو إله الرّى و«ربّ الفيضانات» . وكان أبوأوتوموز إله الزرع ؛ وكان سين* إله القمر ، وكانوا يمثلونه في صورة لإنسان يعلو رأسه هلال أشبه شئء بالهالات التي تحيط بربّوس القديسين في العصور الوسطى ، وكان الهواء كله في زعمهم مملوءاً بالأرواح - منها ملائكة خيرون لكل سومري ملك منهم يحميه ، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرده الروح الخير الواقى وتقمص جسم الآدى وروحه .

وكانت كثرة الآلهة تسكن المعابد حيث يقرب لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج ، وتنص ألواح جوديا على الأشياء التي ترتاح لها الآلهة وتفضلها عن غيرها ، ومنها الثيران ، والمعز ، والضأن ، واليمام ، والدجاج ، والبط ، والسمك ، والبلح ، والتين ، والخيار ، والزبد ، والزيت ، والكعك (٣١) . ولنا أن نستدل من هذا الثبوت على أن الموسرين من أهل البلاد كانوا يتمتعون بالكثير من أصناف الطعام ، ويلوح أن الآلهة كانوا في بادئ الأمر يفضلون لحم الآدميين ، فلما ارتقت أخلاق الناس لم يجدوا بلداً من الاقتناع بلحم الحيوان .

وقد عثر في الخرائب السومرية على لوحة نقشت عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذر الدينية الغربية : « إن الضأن فداءاً لحكم الآدميين ، به افتدى الإنسان حياته » (٣٢) ، وأثرى الكهنة من هذه القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة في المدن السومرية ، وحتى كانوا هم الحكام

المتصرفين في الشئون ، حتى ليصعب علينا أن نحكم إلى أى حد كان البابائيسى كاهناً ، وإلى أى حد كان ملكاً .

فلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض اورو كاجينا كما نهض لوثر فيما بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتمهم بالرشوة في توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم . وأفلح وقتاً ما في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدي للمعابد ، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأموال (٣٤) . لكن العالم كان قد عمر حتى شاخ ، وتأصلت فيه الأساليب القديمة التي غشّاها الزمان بشيء من التبجيل والتقديس .

واستعاد الكهنة سلطانهم بعد موت أورو — كاجينا كما استعادوا سلطانهم في مصر بعد موت إخناتون ، ذلك أن الناس لا يترددون في أن يؤثروا أغلى الأثمان لكي يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم ، وكانت جذور الأساطير الدينية حتى في ذلك العهد السحيق قد أخذت تتأصل في العقول ، ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، لأن الطعام والأدوات كانت تدفن مع الموتى في القبور (٣٥) ، ولكنهم كانوا يصورون الدار الآخرة ، كما صووها اليونان من بعدهم ، عالماً مظلماً تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخاد ، قد استقرت بعد في عقولهم ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً « في الحياة الخالدة » ، بل كانوا يتقدمون بهما طمعاً في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا (٣٥) . وتصف إحدى الأساطير المتأخرة كيف علمت إلهة الحكمة أداًباً حكيماً يريدو جميع العلوم ، ولم تخف عنه من أسرارها إلا سرّاً واحداً — هو سر الحياة الأبدية التي

لا تفتشى بالموت (٤٦) . وتقول أسطورة أخرى إن الآلهة خلقت الإنسان منعماً سعيداً ، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله ، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو نجتوج الحائك ، وإن نجتوج هذا خسر الحياة الخالدة والعاقبة لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة (٤٧) .

وكان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك في أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلاً إلى تعليم الناس ما يريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويفرسون في نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح ، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتابة . ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرائب والقسم ، والجلود الترييبية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية (٤٨) . ويستدل من أحد الألواح احتوية على خلاصة لتاريخ الإنسان الطبيعي على أن ما كان يتلقاه أطفال ذلك العهد من هذا العلم لم يكن أسخف كثيراً مما يتلقاه أبنائنا في هذه الأيام . فقد جاء في هذا اللوح : « إن الإنسان في أول خلقه لم يكن يعرف شيئاً عن خبز يواكل أو ثياب تلبس ، فكان الناس يمشون مكبين على وجوههم ، يقتلعون الأعشاب بأفواههم ليقننوا بها كما تقتات بها الأغنام ، ويشربون الماء من حفر في الأرض (٤٩) » .

ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين - وهو أول الأديان التي عرفها التاريخ - من نبل في التعبير والتفكير ، ذلك الدعاء الذي يتضرع به الملك جوديا للإلهة « بو » راعية الكش ونصيرتها :

أي ملكتي ، أيها الأم التي شيدت لكش

إن الذين تلاحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان ،

والعابد الذي تنظرين إليه تطول حياته ،

أنا ليس لي أم - فأنت أي ،

وليس لى أب — فأنت أنى ، ، ، ؛
 أى إلهتى بو ؟ إن عندك علم الخير ؛
 وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة ،
 وسأقيم فى كنفك أعظمك وأجّذك ،
 وأحتسى بحماك يا أمّاه (٥٠) .

وكان يتصل بالهياكل عدد من النساء منهن خادما ، ومنهن سرارى
 للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض ؛ ولم تكن الفتاة السومرية
 ترى شيئاً من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وكان أبوها يفخر
 بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل
 وسآمة ، وكان يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة ، ويقرب القرابين
 فى هذا الاحتفال ، كما كان يقدم بائنة ابنته إلى المعبد الذى تدخله (٥١) .

وكان الزواج قد أصبح وقتئذ نظاماً معقداً تحوطه شرائع كثيرة . فكانت
 البنت إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من بائنة ؛ ومع أن زوجها
 كان يشترك معها فى القيام على هذه البائنة ، فقد كان لها وحدها أن تقرر
 من يرثها بعد وفاتها . وكان لها من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ،
 وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع
 كما تدير البيت . وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ،
 وأن تحتفظ بعبدها أو تطلق سراحهم . وكانت تسمو أحياناً إلى منزلة الملكية
 كما سمت شوب — آد ونحكم مدينتها حكماً رحيماً رغداً قوياً (٥٢) ، غير أن
 الرجل كان هو السيد المسيطر فى الأزمات جميعها وكان من حقه فى بعض
 الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من الديون . وكان
 الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى على المرأة حتى فى
 ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شؤون الملكية
 والوراثة . فرنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ،

أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، فقد كان ينتظر منها أن تاد لزوجها وللدولة كثيراً من الأبناء ، فإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقاً . ولم يكن للأطفال شيء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرعوا منهم علناً أن يحملوا ولاية الأمور على نفيمهم من المدينة (٥٣) .

غير أن نساء الطبقات العليا كن يحبين حياة مترفة ، وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات ؛ شأنهن في هذا شأن النساء في جميع الحضارات ، فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر العاديات في المقابر السومرية وقد كشف الأستاذ ولى في قبر الملكة شوب — آد عن مدهنة صغيرة من دهنج (*) أزرق مشرب بنخضرة ، وعلى دبائيس من الذهب رءوسها من اللازورد ، كما عثر أيضاً على مثبنة عليها قشرة من الذهب الخرم . وقد وجدت في هذه المثبنة التي لا يزيد حجمها على حجم الخنصر ملعقة صغيرة لعلها كانت تستخدم في أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة . وكان فيها أيضاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة الجلد ، وملقط لعله كان يستعمل لتزجيح الحاجبين أولنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر . وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب وكان أحدهما مطعماً بفصوص من اللازورد ، وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد . وما أصدق المثل القائل إنه لا جديد تحت الشمس وإن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة ليتسع له سم الخياط .

(*) الدهنج كجعفر كالزمرد ويسى أيضاً الملخيت Malachite . (الترجم)

(٣ قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)

• - الأدب والفن

الكتابة - الأدب - الهياكل والقصور - صناعة التماثيل -

صناعة الفخار - الحلى - كلمة موجزة عن المدينة السومرية

الكتابة أروع ما خلفه السومريون ، ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيم الرقى ، صالحة للتعبير عن الأفكار المعقدة في التجارة والشعر والدين . والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش ، ويرجع عهدها إلى عام ٣٦٠٠ ق . م (٥٤) ، وتبدأ الألواح الطينية في الظهور حوالي ٣٢٠٠ ق . م . ويلوح أن السومريين قد بدءوا من ذلك الوقت يحدون في هذا الكشف العظيم ما ترتاح له نفوسهم وما يفي بأغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا أن سكان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل ، بل كتبوا على الطين الطرى ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين . وكانوا في ذلك جدمهرة ، فاستطاع كتابهم بفضل هذه المادة اللينة أن يحتفظوا بالسجلات ، ويدونوا العقود والمشارطات ، ويكتبوا الوثائق الرسمية ، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع ، ويخلقوا من هذه كلها حضارة لم يكن القلم فيها أقل قوة من السيف ، وكان الكاتب إذا أتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطيني في النار أو عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً أبقي على الدهر من الورق ، ولا يفوقه في طول عمره إلا الحجر وحده . وكانت نشأة هذه الكتابة المساهية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية .

وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ، والبابليون فيما نعلم هم أول من كتب من اليسار إلى اليمين . ولعل الكتابة في سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التي جرى بها العرف والتي كانت تصور وتنقش على الأواني الخزفية السومرية البدائية (*) . وأكبر الظن أن الصور الأصلية قد صغرّت وبسطت

(*) - ارجع إلى ما قلناه عن الكتابة في الجزء الأول .

خلال القرون الطوال وبسبب الرغبة في سرعة كتابتها ، حتى أصبحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف في شكلها اختلافاً تاماً عن الأشياء التي كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء . ولنضرب لهذا مثلاً من اللغة العربية يوضح هذه الطريقة وهو صورة العين . فإذا افترضنا أن صورة العين قد صغرت وبسطت وصورت حتى لم يعد معناها العين نفسها بل كان هو الصوت الخاص الذي تمثله مع حركتها (وهو الفتحة في هذه الحال) والذي ينطق به مع حروف أخرى في كلمات مختلفة كالعسل مثلاً ، كان هذا شبيهاً بما حدث في اللغة السومرية(*) . ولم يخط السومريون الخطوة التالية في هذا التطور فيجعلوا الرسم ممثلاً للحرف وحده دون الحركة فيفضلوا الحركة عنه حتى يمكن استخدام العلامة الدالة على العين في ألفاظ مثل عنب وعرقوب ومعمل تختلف حركة العين فيها عن الفتحة . وظلت هذه الخطوة التي أحدثت انقلاباً عظيماً في طرق الكتابة حتى خطها قدماء المصريين(٥٥) .

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب تطلب عدة مئات من السنين . فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم في الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، وقوائم البضائع التي تنقلها السفن ، والإيصالات ونحوها ، ولعلها كانت بالإضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشئون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية . والإجراءات المنبئة في الاحتفالات والمراسم ، والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لا يتبدد ولا يدخل عليها المسخ والتغير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق . م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ في المدن السومرية . فقد كشف ده سرزك في مدينة تلو مثلاً ،

(*) هذا المثل من وضعنا . وأما المؤلف فقد ضرب مثلاً حرف b الإنجليزي ومركبه bee (النحلة) ، being كائن . كذلك عدلنا الكلام في الفقرة التالية حتى يتفق مع المثل العربي . والمعنى رغم هذا التمييز واحد ويوضح ما يرى إليه المؤلف ، ولنا بعد هذا نصراً في الترجمة بل نراه واجبا ضرورياً للترجمة الصحيحة . (المترجم)

وفي أنقاض عمائر معاصرة لعهد جوديا . مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح موضوع بعضها فوق بعض في نظام أنيق منطقي دقيق^(٥٦) . وبدأ المؤرخون السومريون من عام ٢٠٠٠ ق . م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضريهم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم . ووصلت إلينا أجزاء من هذه السجلات ولكنها لم تصل إلينا في صورتها الأصلية بل جاءتنا مقتبسة في تواريخ المؤرخين البابليين ، على أن من بين ما بقى من هذه الكتب في صورته الأصلية لوحاً عثر عليه في نپور كتب عليه الأصل السومري البدائي للمحمة جلجميش التي سندرسها فيما بعد في الصورة التي تطورت إليها عند البابليين^(٥٧) . وتحتوي بعض الألواح المخططة مرثى ذات قوة لا بأس بها في أسلوب أدبي خليق بالتقدير . وفي هذه الألواح تبدأ خاصة التكرار اللفظي الذي تمتاز به أغاني الشرق الأدنى ، فترى ألفاظاً بعينها تتكرر في بداية السطور ، كما ترى كثيراً من الجمل تكرر المعنى الذي ذكر في جمل سابقة أو توضحه . وفي هذه الآثار التي نجت من عوادي الأيام ترى النشأة الدينية للأديب في الأغاني والمرثى التي يرددها الكهنة . فلم تكن القصائد الأولى إذن أراجيز ولا أناشيد غزلية بل كانت صلوات وأدعية دينية .

وما من شك في أن قروناً طويلة من النماء والتطور في سومر وفي غيرها من البلاد قد سبقت هذه البدايات الثقافية الظاهرة ؛ فهذه الثقافات لم يبتدعها السومريون في هذه الحقبة بل نمت عندهم وتطورت . وكما يبدو في الكتابة أن السومريين قد ابتدعوا الخط المسماري ، كذلك يبدو في العمارة أنهم ابتدعوا الأشكال الأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب والعقود^(٥٨) . ويخيل إلينا أن الفلاح السومري كان في أول الأمر ينشئ كوخه بأن يغمس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة ، وينشئ أعلاها حتى تجتمع ، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أو عقد أو قبة^(٥٩) ؛ فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية . وقد عثر المنقبون في

خرائب نهور على مجرى مائى معقود أنشئ منذ خمسة آلاف من السنين ،
وعثر فى مقابر أور الملكية على عقود يرجع تاريخها إلى عام ٣٥٠٠ ق . م .
وكانت المداخل المعقودة مألوفة فى أور منذ عام ٣٠٠٠ (٦٠) ق . م . وكانت
عقودها عقوداً حقاً أى أن أحجارها كانت صَنْجِيَّة الرص — كل حجر منها
على هيئة إسفين يتجه طرفه الرفيع إلى أسفل محكم الوضع فى مكانه .

أما الأغنياء من أهل المدن فكانوا يشيدون قصوراً يقيمونها على رُبى
تعلو عن أرض السهل قرابة أربعين قدماً فى بعض الأحيان ، وكانوا يجعلونها
منبعة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ، وبذلك يستطيع كل عظيم
سومرى أن يتخذ قصره حصناً له . وإذا كانت الحجارة نادرة الوجود فى
تلك البلاد فقد كان أغاب هذه القصور يُبنى من الآجر ، وكانت الجدران
الحمراء تغطى بحليات من الآجر نفسه ذات أشكال مختلفة — منها لوائب ،
ومقرنصات ومثلثات ، ومنها معينات أو مشجرات ، وكانت الجدران
الداخلية تغطى بالحصص وتنقش نقشاً بسيطاً . وكانت الحجرات والمرافق تقام
حول فناء يقى البيت وهج شمس البحر الأبيض وحرها . ولهذا السبب عينه
مضافاً إليه رغبة القوم فى الأمن من الأعداء كانت الحجرات تطل على هذا
الفناء الداخلى بدل أن تطل على العالم الخارجى . أما النوافذ فكانت من
الكماليات أو لعلهم كانوا فى غير حاجة إليها . وكانت المياه تؤخذ من
الآبار ، وكان ثمة نظام واسع للمجارى وتصريف الفضلات من الأحياء
المأهولة فى المدن . وكان أثاث البيوت قليلاً بسيطاً ، ولكنه لم يكن يخلو من
طابع الفن والنوق ، وكانت بعض الأسرة تطعم بالمعادن أو بالعاج ، وكانت
لبعض الكراسى السائدة أحياناً أرجل تنتهى بما يشبه مخالب السباع (٦١) على
النحو الذى نشاهده فى كراسى المصريين الأقدمين .

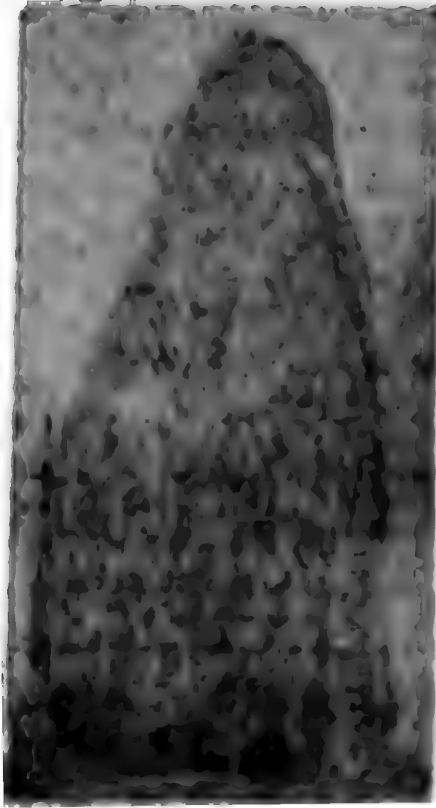
أما الهياكل فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية وكانت تزِين
بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة . وكان هيكل

ناتوا في أور طرازاً تحنّيه سائر هياكل أرض الجزيرة ، فكانت جدرانها مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت تكسوه ألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو تطعم بالرخام والمرمر والعقيق الظفري والجماني والذهب وكان أعظم هيكل في المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع أو سبع في بعض الأحيان ، يحيط به سلم لولبي ذو بسطة عند كل مقلب . وكانت هذه الأبراج أعلى صروح في المدائن السومرية ، ومساكن أعظم آلهتها ، وكان في وسع الحكومة أن تجد فيها آخر حصن روحى وطبيعى يعصمها من الثوار أو الغزاة (*) (٦٢) .

وكانت الهياكل تزينها أحياناً تماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بنى الإنسان . وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة في صناعتها تمثل القوة والعظمة ولكنها ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . ومعظم ما بقى منها يمثل الملوك جوديا . وهى منحوتة من حجر الديوريت الصلب نحتاً واضح المعارف ولكنه مع ذلك فج ساذج . وفد عثر في خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تماثيل صغيرة من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمة ثورية . وفي مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة في قبر الملكة شب — آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى عظيم ، وإن كان الدهر قد عدا عليها حتى لم يعد فى وسعنا أن نقدرها التقدير الذى هى خليقة به . وإن هذا الحكم ليؤيده ما بقى من النقوش المحفورة تأييداً

(*) وقد أوحى هذه الأبراج إلى المهندسين الأمريكيين بطراز جديد من المباني الشاهقة . ولم يسع القائمين على أعمال التنظيم فى تلك البلاد إلا أن يرغبهم على الرجوع بالطبقات العليا من المباني إلى الداخل حتى لا يحجبوا الضوء عن جدرانهم . وإذا ما مثل الإنسان لنفسه أبراج السومريين التى أقيمت من الآجر منذ ٥٠٠٠ عام وأبراج مدينة نيويورك المقامة من الآجر فى هذه الأيام إذا مثل الإنسان لنفسه هذه وتلك تضاد الزمن أمامه حتى لم يعد أطول من طرفه عين .

لا يكاد يترك مجالا للشك فيه : كذلك تظهر خشونة الفن السومري في « لوحة



شكل (٦) لوحة نارام - سن
المحفوطة في متحف اللوفر

الصقور ، التي أقامها
إينسا - نوم ملك
لكش ، واسطوانة
لإبشار المصنوعة من
الرخام السماقي (٦٣)
الصور الهزلية (. وهي
بلا شك هزلية) التي
تمثل أور - نينا (٦٤) ،
وبخاصة في « لوحة
النصر ، التي أقامها
نارام - سن ،
ولكنها مع ذلك تنم عن
حيوية قوية في الرسم
والنحت لا تكاد تترك
مجالا للشك في وجود
فن ناشئ سائر في
طريق الازدهار .

أما صناعة الخزف فليس في وسعنا أن نحكم عليها هذا الحكم السهل الذي
أصدرناه على صناعة النحت . ولعل عواذى الزمن من أسباب الخطأ في هذا
الحكم ، فقد يكون ما بقى لنا من آثار هذه الصناعة ألقاها شأناً . ولعل هؤلاء
الناس كانت لديهم قطع منه لاتقل في إتقانها عن الأواني المنحوتة من المرمر التي
عثر عليها في إريدو (٦٥) ، ولكن معظم الخزف السومري - وإن كانت عجلة
الفخار قد استخدمت فيه - لا يعدو أن يكون آنية ساذجة من الفخار لاتسمو

إلى مستوى مزهريات عيلام . أما صناعة الذهب فقد بلغت مستوى رفيعاً كما يدل على ذلك ما وجد في أقدم مقابر أور التي يرجع تاريخ معظمها إلى عام ٤٠٠٠ ق . م من أوانٍ من الذهب تم عن ذوق راق ومصقولة أبجل صقل . وفي متحف اللوفر مزهرية من الفضة كجسم جوديا ولكنها مزينة بطائفة كبيرة من صور الحيوانات المنحوتة نحتاً جميلاً (٦٧) . وأجل ما وجد من هذه القطع الفنية غمد من الذهب وخنجر مطعم باللازورد عثر عليهما المتقبون في أور (٦٨) . وإذا كان لنا أن نحكم على هذه الآلة الفنية من صورها الشمسية(*) حق لنا أن نقول إن الفن يكاد يسمو فيها إلى ذروة الكمال . وقد كشف في هذه الخرائب عن عدد كبير من الأختام الإسطوانية معظمها مصنوع من المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة ، وعليها نقوش منحوتة فيما لا يزيد على بوصة مربعة أو بوصتين . ويلوح أن السومريين كانوا يستخدمون هذه الأختام فيما نستخدم فيه نحن الإمضاءات ، وكلها تشهد بما بلغت الحياة والأخلاق في تلك الأيام من رقي وتهذيب ينقض ما لدينا من فكرة ساذجة عن تقدم الإنسان المتواصل من ثقافات الأيام الخوالي المنحوسة إلى ثقافات هذه الأيام التي بلغت الحد الأقصى من الكمال !

وإن كان أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً في هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التي أوفت على الغاية في الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع في بعض الأحيان . وفي تلك البلاد — على قدر ما وصل إليه علمنا في الوقت الحاضر — نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، وأولى قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول

(*) وأصل هذه التحفة محفوظ الآن في متحف بغداد .

أصبغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور
والهياكل ، وأول استعمال للمعادن في الترصيع والتزيين . وهنا نجد في البناء
أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة في التاريخ
المعروف بعض مساوئ الحضارة في نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد
وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة ،
مهذبة ، موفرة النعم ، معقدة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس
تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل
المتواصل لسائر الناس . وفي تلك البلاد كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من
اختلافات يخططها الحصر .

الفصل الثالث

الانتقال إلى مصر

أثر السومريين في أرض الجزيرة - بلاد
العرب القديمة - أثر بلاد الجزيرة في مصر

على أننا إذا ما تحدثنا عن السومريين نكون جده قريبين من بداية التاريخ قريباً يصعب علينا معه أن نحكم حكماً دقيقاً أى الحضارات التي نمت في بلاد الشرق الأدنى والتي يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال - نقول أى هذه الحضارات كانت أسبق من أختها أو أيها أعقبت الأخرى ؟ . إن أقدم مدونات كتابية وصلت إلينا هي المدونات السومرية وإن كان هذا في ذاته لا يقوم دليلاً على أن الحضارة السومرية أولى الحضارات ، فقد يكون هذا الكشف وليد الظروف المحضة ، وقد يكون نتيجة عبث الموت والافناء بمخلقات الأقدمين . وقد عثر على تماثيل صغيرة وآثار أخرى شبيهة بآثار السومريين في بلدتي آشور وسامراء وهما من البلاد التي شملتها فيما بعد دولة آشور . ولسنا نعرف أكانت هذه الثقافة القديمة مستمدة من بلاد سومر أم انتقلت إليها من مكان آخر عن طريق نهر دجلة ؟ . كذلك تشبه شرائع حمورابي شرائع أور - أنجور ودنجي ، ولكننا لا نستطيع أن نثبت أن الأولى تطورت عن الثانية ، وليست تطوراً لشريعة أخرى أقدم منهما عهداً ، وأن كلتا الشريعتين استمدت أصولها منها . وكل ما في وسعنا أن نقوله هو أننا نرجح ، ولا نؤكد ، أن حضارة البابليين والآشوريين مستمدتان من سومر وأكد ، أو أن سومر وأكد لحقتا الحضارتين البابلية والآشورية بلقائهما^(٦٩). ذلك أن آلهة بابل ونيوى وأساطيرهما الدينية ليست في كثير من الأحوال إلا آلهة وأساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور ، وأن

العلاقة التي بين اللغتين البابلية والآشورية وبين اللغة السومرية لتشبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والإيطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة أخرى. ولقد لفت شوينفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر، وهي أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح، وتأنيس الماشية والمعز والضأن، وإن ظهرت كلها في مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة، لا توجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر بل في بلاد آسية الغربية وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، وهو يستدل من هذا على أن الحضارة — وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة — قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب، ثم انتشرت منها في صورة « مثلث ثقافي » إلى ما بين النهرين (سومر، وبابل وأشور) وإلى مصر (٧٠)، ولكن ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن ليلبغ من القلة حدا لا نستطيع معه إلا أن نقول : إن هذا مجرد فرض بجائز الوقوع.

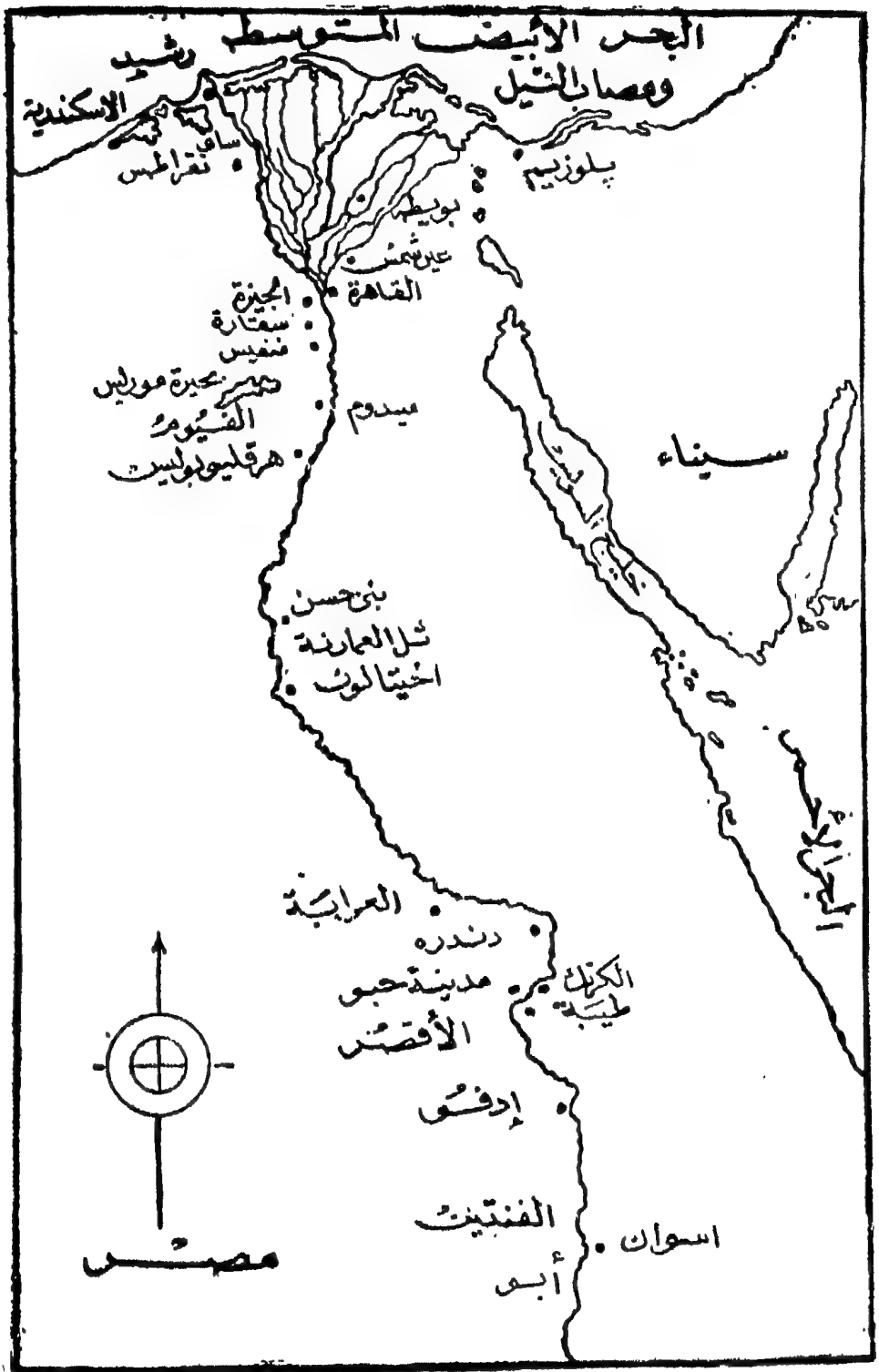
وأكثر من هذا احتمالاً أن عناصر بعينها من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين. فنحن نعلم أن مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة — وخاصة بطريق برزخ السويس — ولعلهما كانتا تتبادلان أيضاً بالطريق المائي طريق مصاب الأنهر المصرية القديمة في البحر الأحمر (٧١). وإن نظرة إلى الخريطة لتوضح لنا السبب في أن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمي إلى آسية الغربية أكثر مما تنتمي إلى أفريقية. لقد كان من السهل أن تنتقل التجارة والثقافة إلى مصر من بلاد آسية بطريق البحر المتوسط. ولكنها لا تلبث أن تعترضها الصحراء التي تفصل هي وجنادل النيل بلاد مصر عن سائر بلاد أفريقية. ومن ثم كان من الطبيعي أن نجد في الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين.

وكلما رجعنا إلى الوراء في درس اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من

وصلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية (٧٢) ، ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين (٧٣) . والخاتم الأسطواني — وأصله بلا شك من بلاد الجزيرة — يظهر في أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر ، ثم يستخفى ، وقد كان أسلوباً قديماً دخيلاً استبدل به أسلوب وطني أصيل (٧٤) . وليست عجالة الفخار معروفة في مصر قبل عهد الأسرة الرابعة — أي بعد أن ظهرت في سومر بزمان طويل ، ولعالمها جاءت إلى مصر من أرض التهرين مع العربات والعجلات (٧٥) ، ورعوس الصولج المصرية لا تفترق في شيء عن البابلية (٧٦) . ومن بين الآثار المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتي عثر عليها في جبل الأراك سكين من الظران جميل الصنع عليه نقوش بارزة هي بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها (٧٧) . وأهل صناعة النحاس قد نشأت في غرب آسية ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر (٧٨) . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة في استخدام النقوش القليلة البروز لتزيين الجدران المتخذة من الآجر (٧٩) ، وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية وتماثيل الصغيرة وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها في أرض الجزيرة في كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بها بلاريب (٨٠) . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان في أنها من أصل آسيوي . ولقد كان الفنانون في أورينجتون التماثيل وينقشون النقوش التي يدل طرازها وما جرى عليه العرف في صنعها على قدم هذين الفنانين في بلاد سومر ، وذلك في الوقت الذي يلوح فيه أن الحضارة المصرية لم تتعدُ بدايتها (٨١) .

(*) حاول مؤرخ كبير هو إلبوت اسمح أن يعارض هذه الآراء بقوله إلى مصر وإن لم يعرف فيها الشخير والأذرة الرقيقة والقمح بأشكالها البرية الطبيعية ، كانت هي البلاد التي نجد فيها أقدم الشواهد الدالة على زراعة هذه النباتات . وهو يعتقد أن الزراعة والحضارة بوجه عام قد انتقلتا إلى بلاد سومر من مصر نفسها (٨٢) . وكذلك لا يؤمن الأستاذ برستد — أعظم علماء العاديات المصرية الأمريكيتين — بأسبقية الحضارة السومرية للحضارة المصرية ، وهو يعتقد أن المجالات قديمة في مصر قدمها في بلاد السومريين إن لم تكن أقدم ، ويرفض رأى شوينفرت ، وحجته في ذلك الرافض أن الحبوب قد وجدت في أشكالها البرية في مرتفعات بلاد الحبشة .

ولا غضاضة على مصر في أن تعترف بالسبق لبلاد سومر ؛ ذلك أنه مهما تكن الأصول التي استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هي بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة في التاريخ وأعلاها شأنًا وأعظمها قوة ؛ وهي مع ذلك من أكثرها رشاقة وجمالاً ، حضارة إذا قيست إليها السومرية لم تكن هذه إلا بداية فجأة ، بل إن حضارتى اليونان والرومان لا تفضلانها في شيء .



الباب الثامن

مصر

البعضل بالإنل

هبة النيل

١ - في الوجه البحرى

الإسكندرية - النيل - الأهرام - أبو الهول

هذا مرفأ أمين أوفى على الغاية فى الأمان . فى خارج حاجز المياه ترى الأمواج الصاخبة يعلو بعضها فوق بعض ، أما فى داخله فالبحر مرآة من اللجين . هناك ، على جزيرة فاروس الصغيرة ، فى عهد من عهود مصر الموغلة فى القدم ، شاد سُسُتراتس من الرخام الأبيض منارته العظيمة ورفعها خمسمائة قدم لتكون هادية لجميع الملاحين الضاربين فى مياه البحر المتوسط ، ولتكون إحدى عجائب العالم السبع .

ولقد عفت آثار هذه المنارة بفعل الأيام والمياه العاضبة ، ولكن منارة جديدة قد حلت الآن محلها تهدى السفن التجارية بين الصخور إلى أرصفة ميناء الإسكندرية ، حيث أنشأ الإسكندر - ذلك الغلام السياسى العجيب - ملجئته العظيمة التى اختلطت فيها الأجناس ، والتى ورثت فيما بعد ثقافة مصر وفلسطين واليونان ، وفى مرفأ الإسكندرية يستقبل قيصر وهو فاخضب مكتئب رأس يمي مفصولا من جسده .

وإذا أطل المسافر من نافذة القطار وهو يتحرق المدينة لحت عيناه فى بعض

أجزائها أزقة وطرق غير مرصوفة ، وأمواجاً من الحرارة ترقص في الهواء ، وعمّالاً عراباً إلى أوساطهم يكسحون في مختلف الأعمال ، ونساء ذوات مآزر سود يحملن الأثقال ، وشيوخاً عليهم جلابيب بيض فاخرة وعمام تكسوهم المهابة والوقار . وتقع العين من بعيد على ميادين فسيحة وقصور فخمة لا تقل جمالاً عما شاهده فيها البطالة حين كانت الإسكندرية ماتى العالم كله . ثم لا يلبث الإنسان أن يرى نفسه فجأة في الريف ويرى المدينة من ورائه تترجع إلى أفق دال النهر الخصيبة ، وهي ذلك المثلث الأخضر الذى يبدو في المصورات كجريد النخلة الساقطة محمولاً على جذع نهر النيل الرفيع .

وما من شك في أن هذه الدال كانت في يوم من الأيام خليجاً في البحر ؛ طمره النهر الواسع طمراً بطيئاً لا تدركه العين بما ألقاه فيه من الغرين الذى حمله معه آلاف الأميال (*) . وفي هذا الركن الطينى الصغير الذى يكتنفه مصباً النهر العظيم يُخرج ستة ملايين من الفلاحين قطعاً يصدرون منه إلى خارج بلادهم ما قيمته مائة ألف ريال في كل عام . وفي ذلك الصقع من أصقاع العالم يجرى أعظم نهر من أنهار الأرض وأوسعها ذكراً ، تسطع الشمس على مياهه البراقة الهادئة وتكتنفه من جانبيه أشجار النخل الرفيعة الساقطة والحشائش والحقول الناضرة . وليس وسع في المسافر أن يرى الصحراء الغربية من مجرى النهر العظيم أو الوديان الجافة التى كانت من قبل روافد له . ولا تستطيع في هذه المرحلة أن تدرك ضيق أرض مصر الشديد ، واعتمادها التام على نهر النيل ، وما يحيط بها على الجانبين من رمال سافية تناصبها العداة ؛

ويعمر التطار الآن وسط السهل الرسوبي المنغلى بعضه بالماء ، والذى تخترقه قنوات الري في كل مكان ، ويتشرف فيه الفلاحون بحمدون ويكسحون وليس عليهم

(*) يعتقد الجغرافيون الانغماء أنفسهم (استرايوان مثلاً) أن أرض مصر كانت فيما مضى تفرغها مياه البحر المتوسط وأن صحاريها كانت في قاع هذا البحر .

إلا القليل من الثياب والنهر يفيض في كل عام ويبدأ فيضائه وقت الانقلاب الصيفي ويدوم نحو مائة يوم : وماء الفيضان هو الذى أنصب للصحراء ، وأوجد مصر هبة النيل ، كما سماها هيرودوت ، ومن اليسر على الإنسان أن يدرك لماذا وجدت الحضارة في هذا الوادى موطناً من أقدم مواطنها ، ذلك أننا لا نجد في أى بلاد أخرى في العالم نهراً مثل نهر النيل سخياً بمائه ، يعلو بقدر ، ويسهل التحكم فيه ، وليس في وسع بلاد أخرى أن تضارع مصر في هذا إلا أرض الجزيرة ، ولقد ظل زراع مصر آلاف السنين يرقبون فيض النيل بقلوب واجفة ، ولا يزال المنادون إلى يومنا هذا في أيام الفيضان يعلنون أنباءه في كل صباح في شوارع القاهرة . وهكذا ينحدر الماضي إلى المستقبل انحدار هذا النهر الهادئ الدائم الجريان ماراً في طريقه بالحاضر مرا خفيفاً . إن تقسيم الأيام إلى ماض وحاضر ومستقبل عمل من صنع المؤرخين ، أما الزمن فلا يعرف هذا التقسيم .

لكن لكل هبة ثمنها ، ومهما يكن تقدير الفلاح لقيمة هذا الفيض العظيم فقد أدرك أنه إن لم يسيطر عليه فإنه لا يروى الحقول فحسب بل إنه يروها ويخربها ، ومن أجل هذا احتقر منذ عهود ما قبل التاريخ تلك القنوات التي تخترق أرض مصر طولاً وعرضاً وتتقاطع فيها تقاطع خيوط الشباك ، واحتبس فيها المياه الزائدة (*) حتى إذا ما انخفضت مياه النهر رفعها إلى الأرض في دلاء معلقة في قوائم طويلة وأنشد وهو يرفعها الأغاني التي استمع إليها النيل من خمسة آلاف من السنين . ذلك أن هؤلاء الفلاحين الذين نراهم الآن منقبضين لا يضحكون حتى في أثناء غنائهم لا يختلفون في شيء عن أجدادهم الذين عاشوا على ضفاف النهر طوال القرون الخمسين الماضية (٣) . وهذا الجهاز الذى يرفع به الماء ، والذي لا تزال نشاهده الآن ، قديم قدم الأهرام نفسها ، ولا يزال مليون من هؤلاء الفلاحين يتكلمون

(*) ليس الغرض من إنشاء القنوات الاحتفاظ بالمياه الزائدة بل العرض منها لإعسال

الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النهر . (المترجم)

(٤) - قصة الحضارة ، ج ٢ مجلد ١)

اللغة المنقوشة على الآثار القديمة رغم انتشار اللغة العربية في كافة أنحاء البلاد (*) (٤) .
وفي أرض الوجه البحري ، وعلى بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى
من الإسكندرية ، موقع مدينة نقراتيس القديمة التي كانت في يوم من الأيام
مدينة صناعية عظيمة يسكنها اليونان المحدثون ، وعلى بُعد ثلاثين ميلا إلى
شرق هذه المدينة موقع ساو (سايس أو صا الحجر) التي بعثت فيها الحضارة
القومية المصرية آخر مرة في القرون التي سبقت الفتح الفارسي والفتح
اليوناني . وعلى بعد مائة وتسعة وعشرين ميلا في جنوب الإسكندرية الشرقى
تقع مدينة القاهرة . والقاهرة مدينة جميلة ولكنها ليست مصرية خالصة ، فقد
شادها الفاتحون المسلمون في عام ٩٦٨ بعد الميلاد . ثم أقام الفرنسيون
المرحون في قلب الصحراء بارييس أخرى دخيلة غير حقيقية ، على النتائج أن
يجتازها في سيارة أو عربة تجرها الخياد ، إذا أراد أن يجتازها على مهل ،
ليشاهد مصر القديمة عند الأهرام .

ولشد ما تبدو هذه الأهرام صغيرة الحجم حين ينظر الإنسان إليها . من
الطريق الطويل المؤدى إليها ، فهل قطعنا نحن هذه الرحلة الطويلة لنرى هذه
الآثار الصغيرة ؟ لكنها لا تلبث أن يزداد حجمها كأن يداً قد رفعتها في الهواء .
ونصل إلى منحى في الطريق ، ونقبل فجأة على حافة الصحراء ، وتواجهنا الأهرام
عارية منعزلة في الرمال ، ضخمة شاهقة تسمو قممها في سماء مصر الصافية . ونبصر
عند سفوحها خليطاً من أجناس مختلفة — منهم رجال أشداء يركبون الحمير ذاهبين
بها إلى أعمالهم ، ومنهم سيدات في عربات نقل ، ومنهم شبان مرحون حتى ظهور
الخيول ، وفتيات يجلسن في غير اطمئنان على ظهور الجمال تاتبع ثيابهن الحريرية

(:) يقول المؤلف إنه استقى هذه المملوءات من كتاب إيرمن Erman « الحيات في مصر
القديمة Life in Ancient Egypt » . ولكننا لم نجد هذا القول أو ما يقرب منه في كتاب إيرمن .
ولعله يقصد بالملمون من الملاحين الذين يتكلمون اللغة المنقوشة على الآثار ، أقباط مصر ولكن
الأقباط لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة ولست اللغة القبطية هي بعينها لغة الآداب وإن احتوت
بعض ألفاظ منها . وحتى هذه اللغة لا يتحدث بها الأقباط وإن درسها بعضهم . (المترجم)

فوق سيقانهم في ضوء الشمس . ونرى في كل مكان الأدلاء العرب على استعداد لمعونة القادمين وتأدية ما يلزمهم من خدمات ؛ ونقف حيث وقف قيصر ونابليون ، ونذكر أن خمسين قرناً تطل علينا ، نقف حيث جاء أبو التاريخ (*) قبل أن يجيء قيصر بأربعمائة عام ، واستمع إلى القصص التي دهش منها بركليز . ثم يسقط من الصورة عامل الزمن فيبدو لنا قيصر وهيرودوت ونحن أيضاً كأننا كلنا يعاصر قديمتنا حديثنا ، ونقف ذاهلين أمام هذه المقادير التي كانت أقدم إلى قيصر وهيرودوت من اليونان بالنسبة إلينا .

ولإلى جوار الأهرام يربض تمثال أبي الهول ، نصفه أسد ونصفه فيلسوف ، يقبض بمخالبه القوية على الرمال ؛ ويحلق بعينه وهو ساكن لا يتحرك في الزاشرين العابرين وفي السهل الأزلى . إنه لتمثال ينتهى فيه جسم الأسد برأس إنسان ، له فكّان بارزان ، وعينان قاسيتان ، كأن المدنية التي صورته (٢٩٩٠ ق . م) لم تنس ما كان عليه الإنسان من وحشية في سابق عهده . وكانت الرمال تغطيه في الزمن القديم ، ولذلك لا يذكر هيرودوت كلمة واحدة عنه وهو الذي أبصر بعينه أشياء كثيرة لا وجود لها تلك البلاد .

ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء . وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم في طفولة التاريخ نفسها . لقد استطاعوا بترائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة سمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهي تزن عدة أطنان إلى عاو خمسائة قدم ؛ وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاماً كاملة في تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا ! وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقش وحده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شادوه من فجّل وثوم وبصل ، كأن

(*) يقصد هيرودوت . (المترجم)

هذه أيضاً أشياء لا بد لها أن تخلد(*) . على أننا نغادر هذا المكان في غير بهجة ، ذلك أننا نرى في هذا الحرص الشديد على الضخامة شيئاً من النزعة الحمجية البدائية أو النزعة الحمجية الحديثة . إن ذاكرة من يشاهدها وخياله وقد تضخما بفعل التاريخ وتأثيره ، هما اللذان يخلعان العظمة على هذه الآثار . أما هي ذاتها فلا تعدو أن تكون دليلاً على الغرور الباطل ، فهذه مقابر أراد بها الموتى حياة خالدة . ولعل الصور قد رفعت كثيراً من شأنها ، ذلك أن الصور الشمسية تستطيع أن تسجل كل شيء عدا الأقدار ، وأن تعظم من شأن أعمال الإنسان بما تحيطها به من مناظر الأرض والسماء . إن منظر غروب الشمس في الجيزة لأعظم في نظرنا من رؤية الأهرام .

٢ — مشرقة النهر

منف — روائع الملكة حتشبسوت — تمثالا ممنون —
الأقصر والكرنك — عظمة الحضارة المصرية

يركب المسافر من القاهرة باخرة صغيرة تصعد في النهر — أى تسير فيه جنوباً — سيراً بطيئاً يستمر ستة أيام تصل بعدها إلى الكرنك والأقصر ، وتمر على بعد ثلاثين ميلاً إلى جنوب القاهرة بموقع منف أقدم العواصم المصرية ، في هذه المدينة كان يحكم الملوك العظام ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة ، وقد بلغ عامرها في أيامهم مليونين من الأنفس ، والآن لا ترى العين فيها إلا صفاً من الأهرام الصغيرة وأيكة من النخل ، أما ما عدا هذا فهو صحراء لا آخر لها ، ورمال جرداء تغوص فيها الأقدام ، وتؤدي بوجهها العين وتسدم مسام الجلد ، وتغطي كل شيء ، وتمتد من مراكش مخترقة طور سيناء وبلاد العرب والتركستان والتبت إلى

(*) ينول ديودور الصقلي (وهو كاتب يجب أن يقرأ على الدوام بحذر) : إن نقشا على الهرم الأكبر زينس على (أن ١٦٠٠) وزنة أى ١٦٠٠٠٠٠ (٥) ريو قد أنفقت في شراء الخضر والمسجلات للعمال .

بلاد المغول . وفي هذه المنطقة الرملية التي تخترق قارتين من أكبر قارات العالم قامت مراكز الحضارة في الزمن القديم ، ثم عفت آثارها حين ارتد الجليد إلى الوراء فاشتدت الحرارة وقلت الأمطار : ويمتد بحذاء النيل من البحر المتوسط (*) إلى بلاد النوبة شريط ضيق من الأرض الحصبة يبلغ عرضه اثني عشر ميلا على كلتا الضفتين انتزع من الصحراء : وهذا هو المحيط الذي كانت تتعلق به حياة مصر . ومع هذا فما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو رومة بالقياس إلى السجل الحافل في حياة مصر الذي يمتد من مينا إلى كليوباترة ! وبعد أسبوع من بداية الرحلة تصل الباخرة للنيلية إلى الأقصر ؛ وفي هذا المكان الذي تقوم فيه قرى صغيرة من حولها الرمال السافية شيدت أكبر العواصم المصرية وأعنى مدينة في العالم القديم ، كانت معروفة عند اليونان باسم طيبة وعند أهلها القدامى باسم ويزى ، وفي . وعلى الضفة الشرقية لنهر النيل يقوم الآن الفندق المعروف بقصر الشتاء (ونتر بالاس) يتوهج سياحه بزهر الجهنمية . فإذا أطل المسافر على الضفة الغربية رأى الشمس تغرب من وراء مقابر الملوك في بحر من الرمال ، ورأى السماء مزدانة بصفحات براق ما بين أرجوانية وذهبية ، وتسطع في الغرب من بعيد أعمدة هيكل الملكة حتشيسوت الفخم ، إذا نظر إليه القادم من بلاد الغرب ظنه هو أعمدة شاده اليونان، أو الرومان الأقدمون .

فإذا أصبح الصباح ركب السائح قارباً بطيئاً يعبر به النهر فوق ماء هادئ ساكن ، فلا يخطر بباله أن هذا النهر بعينه قد ظل يجري على هذا المنوال قروناً يخطئها الحصر . فإذا عبر النهر إلى الضفة الغربية سار في الصحراء ميلا بعد ميل في طرق جبلية متربة . ماراً بقبور تاريخية قديمة حتى يصل إلى تلك الآلة الفنية الرائعة ، وأعنى بها هيكل الملكة حتشيسوت العظيمة ، التي ترتفع عمدهُ البيضُ

(*) لعله يقصد من القاهرة أما ما يقع شمالها حتى البحر المتوسط فهو دال النهر التي تمتد أرضها للزراعية أضعاف هذا القدر . (المترجم)

الساكنة في وهج السماء الصافية . وهنا اعتزم الفنان أن يحيل الطبيعة وتلاها إلى جمال أعظم من جمالها ، فشاد في مواجهة أجراف الحجر الأبل هذه العمدة التي لا تقل فخامة عن العمدة التي أقامها إكثينوس لبركليز . وليس في وسع من يشاهدها أن يخالجه شك في أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم من هذا الشعب المبدع المبتكر ، ولعلهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت . وعلى جدران هذا المعبد نقوش قليلة البروز تنبض بالحياة والحركة والفكر ، وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمات والملكة ليست أقل ملكاته شأنًا .

ويشاهد المرء في طريقه وهو راجع تمثالين كبيرين يمثلان أوفر ملوك مصر نعمة ، وهو الملك أمنمحتب الثالث ، ويسميهما الرحالة اليونان خطأ « تمثال منون » . ويبلغ ارتفاع الواحد منهما سبعين قدماً ؛ ويزن سبعائة طن ، وهو منحوت من كتلة حجرية واحدة . وعلى قاعدة أحدهما نقش خطته يد السياح اليونان الذين زاروا هذه الآثار منذ ألبى عام . وهنا أيضاً تتضاءل الدهور تضواؤلاً غريباً ويبدو هؤلاء اليونان في حضرة هذين التمثالين العظيمين معاصرين لنا نحن . وعلى بعد ميل منهما جهة الشمال آثار حجرية من عهد رمسيس الثاني ، وهو شخصية من أروع الشخصيات في التاريخ ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنساناً لا قيمة له ولا خطر . لقد عاش هذا الملك تسعة وتسعين عاماً جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ، وأنجب من الأبناء مائة وخمسين . وتراه هنا تمثالاً كان ارتفاعه في يوم من الأيام ستاً وخمسين قدماً ، أما الآن فيمتد على الأرض بين الرمال ستاً وخمسين يسخر منه الغادون والرائحون ، وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جارحة فيه فقدروا طول أذنه بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمسة أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن . وكان حقاً على نابليون أن يحياه بما حيا به الفيلسوف جوته فيما بعد إذ قال : « ها هو ذا الرجل ! » .

ومن حولنا في هذا المكان على شاطئ النيل الغربي مدينة الموتي حيث

كشفت علماء الآثار المصرية المنقبون في كل ناحية من نواحيها قبراً للملك من الملوك . ولقد كان قبر توت عنخ آمون في أثناء زيارتي مغلقاً ، مغلقاً حتى في وجه من كانوا يظنون أن الذهب تفتح له جميع الأبواب .

أما قبر سيتي الأول ففتوح ، وهنا في الأرض الظليلة المائدة إلى البرودة يستطيع السائح أن يبصر سقفاً وطرقاً منقوشة ، ويعجب بما كان للصناع في ذلك العهد من مهارة ، وما كان في البلاد من ثروة استطاعت بهما أن تنشئ أمثال هذه التوابيت الضخمة ، وأن تحيطها بهذا الفن الرائع . ولقد شاهد المنقبون في أحد هذه المقابر آثار أقدام العبيد الذين حملوا جثة الملك المحنطة ليوذعوها مقرها الأخير منذ ثلاثة آلاف عام (٢) ،

هذا ما يشاهده السائح على الضفة الغربية . أما الضفة الشرقية فهي مزدانة بأحسن الآثار وأجملها : ففي الأقصر القائمة على هذه الضفة بدأ أمنحوتب العظيم يقيم صرحه الضخم مستعيناً بالمغانم التي أفاءتها على مصر فتوح تحتمس الثالث . ولكن المنية عاجلته قبل أن يتمه ، فوقف العمل مائة عام كاملة حتى جاء رمسيس الثاني وأتمه بما يليق بالملوك من أبهة . ولا يكاد المرء ينظر إلى هذا البناء حتى تغمره روح فن العمارة المصرية التي لا تقتصر مزاياه على السعة والقوة بل تجمع إليهما الجمال الرائع ودلائل الرجولة السامية . لقد كان في هذا الصرح بهو عظيم فسيح الأرجاء تغطيه الرمال الآن ، ولكن أرضه في الأيام الحالية كانت كلها من الرخام ، وتقوم على ثلاثة من جوانبه عمد فخمة لا تضارعها إلا عمد الكرنك وعددها . وفي كل جهة حجارة عليها نقوش قليلة البروز وتمثال تنم عن العظمة حتى بعد أن عدت عليها عوادي الزمان . فليتمثل القارئ ثمانية أعواد طويلة من أعواد البردي - مهد الكتابة ولكنه هنا طراز من طرز الفن ؛ ومن تحت أزهارها التي لا تزال في أكامها خمسة أربطة قوية تشد هذه الأعواد فتجتمع بين

الجمال والقوة ، وليتصور بعدئذ أن هذه الخزمة كلها من صخر أصم ، تلك هي العمدة المقامة في الأقصر على هيئة نبات البردى . وليتصور القارئ هو أيضاً كله من هذد العمد مرفوعة عليها دعامات ضخمة وأكتان ظليلة . ليتصورها



شكل (٧) البهو والعمد في الهيكل العظيم في الأقصر

القارئ بالصورة التي تركتها عليها عوادي ثلاثين قرناً ، ثم ليحكم بعدئذ على أقدار الرجال الذين استطاعوا في ذلك العهد السحيق الذي كنا نسميه طفولة المدنية أن يفكروا في هذه الآثار العظيمة ثم يخرجوا أفكارهم إلى حيز الوجود .

ثم يحتاج السائح بين الأطلال القديمة والأقدار الحديثة طريقاً غير معبدي يودي إلى هياكل الكبرنك آخر ما احتفظت به مصر من آثارها لتعرضها على زائريها ، وقد اشترك في تشييدها نحو خمسين من الفراعنة منذ أواخر الدولة القديمة إلى أيام البطالمة . وأخذت هذه الهياكل تنمو ويزاد عددها جيلاً بعد جيل حتى غطت هذه الصروح - وهي أعظم ما قرّبه فن العمارة قديماً للآلهة - ما لا يقل عن ستين هكتاراً من الأرض . وثمة طريق نحف من الجاهل بين تماثيل أبو الهول يؤدي من هذه

الهيكل إلى المكان الذى وقف فيه شميليون واضع علم الآثار المصرية القديمة عام ١٨٢٨ وكتب :

« وجئت آخر الأمر إلى القصر أو بعارة أصبح إلى مدينة الآثار - إلى الكرنك : وفيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها وشاهدت كل ما تصوره الناس وما أخرجوه فى أكبر صوره . . . وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة ، هذه الفخامة . لقد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامته الواحد منهم مائة من الأقدام (٧) .

وليس فى وسع الإنسان أن يفهم هذا البناء على حقيقته إلا إذا كانت لديه خرائط ورسوم . وكان ملاماً بكل ما بلغه فن العمارة من رقى . فليتصور القارىء رقعة فسيحة مسورة مربعة الشكل ، طول ضلع من أضلاعها ثلث ميل ، كثيرة الأبهاء ، كانت تحتوى فى وقت من الأوقات ٨٦٠٠٠ تمثال (٨) . أهم ما فيها مجموعة من المباني يتألف منها هيكل أمون وطوله ألف قدم فى ثلاثمائة ، وبين كل بهو وبهو أبواب عظيمة ؛ وأعمدة النصر التى أقامها ناهليون مصر نحتمس الثالث وقد تهشمتم تيجانها ولكنها لا تزال تشهد بدقة النحت والتصوير ؛ ثم بهو الاحتفالات ذو العمدة المخددة التى شادها هذا الملك الباسل نفسه والتى تستبق كل ما فى العمدة الدورية المقامة فى بلاد اليونان من قوة وعظمة ، ثم هيكل پتاح الصغير ذو العمدة التى لا تقل رشاقة عن أشجار النخيل الحية القائمة بجوارها ، ثم المتنزه العظيم الذى أنشأه نحتمس أيضاً والذى يضم طائفة من العمدة العارية الضخمة . وأعظم من هذا كله البهو (٩) الأكبر ذو السقف العظيم المقام على أعمدة ضخمة تبلغ عدتها مائة وأربعين ، متقاربة بعضها من بعض لتقى من فيها حر الشمس اللافح وتمثل فى أعلاها رموس النخل منحوتة فى الحجارة ، وتحمل سقفاً من كتل

(*) فى متحف الفن بمدينة نيويورك نموذج لهذا البهو .

ضخمة من الحجارة منحوتة من الحجر الأصيل الصلب وممتدة من تاج عمود إلى تاج عمود . وبالقرب من هذه الردهة مسلتان رفعتان كلتاهما من حجر واحد ، مماثلتان أتم تماثل ومتساويتان في الجمال والرشاقة ، تقومان كأنهما



شكل (٨) صورة مستعادة للجزء من السقف المقام على العمود في الكرنك

عمودان من النور بين حطام التماثيل والحياكل ، وتذيعان بما عليهما من النقوش رسالة الملكة الفخورة حتشيسوت إلى العالم . وقد جاء في هذا النقش أن « هاتين المسلتين قد صنعتا من الحجر الأصيل الصلب الذى جرى به من عاجر الجنوب ، وأن رأسيهما من الذهب الإبريز الذى اختير من أحسن ما حوته منه البلاد الأجنبية . ويمكن مشاهدتهما على النهر من بعيد ونورهما الساطع يشع فى الأرضين . وإذا ما لاح قرص الشمس بينهما بدا كأنه يبرز حقاً فى أفق السماء . . . رأيتكم يا من ترون هذين الأثرين بعد زمن طويل ويا من تتحدثون من بعدى عما فعلت ، ستقولون : إنا لا ندرى ، لا ندرى كيف أقاموا جبلا كله من الذهب . . . لقد أنفقت فى تذهيبهما ذهباً كنت أكيله كيلاً كأنه أكياس الحب . . . ذلك أنى أعرف أن الكرنك أفق الأرض السماوى (٩) » .

أعظم بها من ملكة وأعظم بهم من ملوك ! أكبر الظن أن هذه الحضارة - أولى الحضارات العظيمة - كانت أجملها كلها ، وأكبر الظن أيضاً أننا لم نعدُ طور البداية في الكشف عن عظمتها . وفي جوار بحيرة الكرنك المقدسة رجال يحفرون الأرض ويحملون التراب في أسفاط صغيرة مزدوجة في



شكل (٩) عمد تحمل سقف البهو الكبير في الكرنك

عصا على الكتفين . وإلى جانبهم عالم من علماء الآثار المصرية مكب على نقوش هيروغليفية على حجرين أخرجوا من الأرض توا ، وهو واحد من آلاف الرجال أمثال كارتر ، وبرستد ، ومسيرو ، وييرى ، وكايار وويجال ، الذين عاشوا في تلك البلاد عيشة البساطة والقناعة في جراحة الشمس اللافحة والرمال السافية يحاولون أن يحلوا لنا طيلسّم أى الهول ، وأن يختطفوا من بين أحضان الثرى الضنين

فنون مصر وآدابها وتاريخها وحكمتها ، والأرض والسماء تعاكسهم في كل يوم ، والخرافات تلعنهم وتعوقهم ، والرطوبة وقوى التحات تغير في كل يوم على الآثار التي يخرجونها من باطن الأرض ، وهذا النيل الذي يفيض على البلاد بالخصب والتماء يتسلل في أيام فيضانه إلى خرائب الكرنك ، فيفك الأعمدة ويصدعها (*) ، ويترك عليها بعد أن ينحصر عنها طبقة من الأملاح تأكل الحجارة كما يأكل الجذام الأجسام .

والآن فلنستعرض مرة أخرى عظمة مصر ومجدها في تاريخها وحضارتها قبل أن تتصدع آثارها وتنهار بين الرمال .

(*) في ٣ أكتوبر سنة ١٨٩٩ تفكك أحد عشر عمود من حديد الكرنك بتأثير الماء وهوت إلى الأرض .

الفصل الثاني

البناءون العظام

١ - كشف مصر

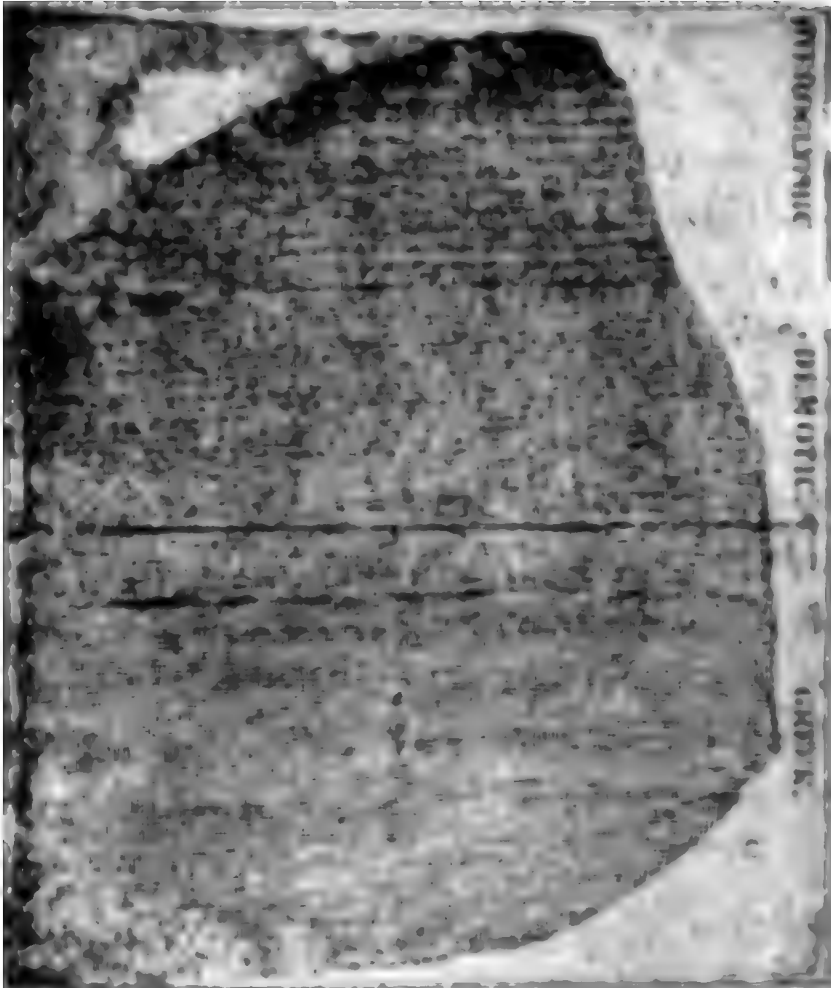
شمبليون وحجر رشيد

إن الكشف عن تاريخ مصر هو أروع فصل في كتاب علم الآثار . لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية ، وكان الناس في زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت في بلاد اليونان وحتى عصر الاستنارة(*) لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرام . وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية . ذلك أن القائد القورسبي العظيم ، لما قاد الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨ ، اصطحب معه طائفة من الرسامين والمهندسين ليرتادوا الأرض ويرسموها ، وشملت هذه الحملة أيضاً بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً يظنه الناس سخيفاً في تلك الأيام ، ويسعون لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ . وكانت هذه العصابة من الرجال هي التي كشفت للعالم الحديث عن هياكل الأقصر والكرنك : كما كان كتاب « وصف مصر » المحكم المفصل (١٨٠٩ - ١٨١٣) الذي أعدوه للمجمع العلمي الفرنسي أول خطوة هامة خطاها العلماء في دراسة هذه الحضارة المنسية(١٠) .

على أن هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالاً عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية . وليس ما بذله شمبليون أحد هؤلاء العلماء من جد وصبر أن

(*) يطلق هذا اللفظ على مصر الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر . (المترجم)

حل رموز الكتابة الهيروغليفية إلا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمي الذي امتاز به علماء تلك الحملة . وعثر شمشليون آخر الأمر على مسئة مغطاة بهذه « الرموز المقدسة » مكتوبة باللغة المصرية ولكن في أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوباترة . وخطر له أن إحدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتي يحيط بها الإطار الملكي



شكل (١٠) حجر رشيد
الأصل محفوظ في المتحف البريطانى

(الخرطوش) هي اسم الملك والملكة ، فتهدت هذه الفكرة (في عام ١٨٢٢) إلى تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية ؛ ولكن ذلك كان مجرد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف أول دليل على أن مصر كانت لها حروف هجائية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجددها على حجر أسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب رشيد . وكان على « حجر رشيد » هذا(*) نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها الهيروغليفية وثانيتهما « الديموطية » — الكتابة المصرية الدارجة — والثالثة هي اليونانية . واستطاع شمليون ، بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التي عرفها من المسئلة الأولى وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً ، أن يحل رموز هذا النقش كلها وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها . وأن يمهّد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من أعظم الكشوف في تاريخ التاريخ(**)(١١) .

٢ — مصر في عصر ما قبل التاريخ

العصر الحجري القديم — العصر الحجري الحديث
عصر البدائي — عصر ما قبل الأسر — جنس المصريين

إن المتطرفين في عصر من العصور هم أنفسهم الرجعيون في العصر الذي يليه ، ومصداقاً لهذه القاعدة نقول إنه لم يكن ينتظر من الرجال الذين أنشأوا عِلَم الآثار المصرية أن يكونوا أول من يؤمن بأن ما في مصر من مخلفات العصر الحجري القديم ينتمي حقاً إلى ذلك العصر . ذلك أن العالم بعد الأربعين لا يزال طامعاً بماها ولما أن كشفت أولى أدوات الظران في وادي النيل قال سير

(*) وهذا الحجر محفوظ الآن في المتحف البريطاني .

(**) وقد ساعد على هذا الكشف أكريلاد السجاسي السويدي (١٨٠٢) ونومس
ينج العالم الطبيعي الإنجليزي صاحب الكفائيات الممددة (١٨١٤) بحلها بعض رموز
حجر رشيد(١٢) .

فلندزيتري وهو الذى لا يتردد عادة فى قبول أكبر الأرقام فى تاريخ مصر ،
لأنها من صنع ما بعد الأسر . وعزاً مسيرو ، الذى لم يفسد علمه الغزير
أسلوبه المجتمع الجميل ، الفخار المصرى الباقى من العصر الحجري الحديث إلى
الدولة الوسطى . ولكن ده مورجان كشف فى عام ١٨٩٥ عن سلسلة
متدرجة تكاد تكون متصلة الحلقات من حضارات تنتمى إلى العصر الحجري
القديم — تطابق فى أكثر نواحيها الحضارات المماثلة لها والتي جاءت فى أوروبا
بعدها بزمان طويل . وكان ما كشفه من مخلفات هذه الحضارات المصرية
رعوس معاول يدوية ، ومطارد ، ورعوس سهام ، ومطارق عثر عليها على
طول مجرى النيل^(١٣) وتندرج مخلفات العصر الحجري القديم تدرجاً غير
ملحوظ إلى مخلفات العصر الحجري الحديث على أعمال تدل على أنها تنتمى
إلى العهد المحصور ما بين ١٠٠٠٠ ، ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد^(١٤) . وترقى
صناعة الأدوات الحجرية شيئاً فشيئاً ، وتزداد تهذيباً ، وتصل إلى درجة
من الحدة والصقل ودقة الصنع لا تضارعها فيها أى ثقافة أخرى وصل إلينا
علمها من ثقافات العصر الحجري الحديث^(١٥) وقبيل أواخر هذا العهد
تظهر صناعة المعادن فى صور مزهريات ومثاقب ودبابيس من النحاس وحلى
من الفضة والذهب^(١٦) .

ثم يتدرج ذلك العصر إلى العصور التاريخية وتظهر الزراعة فى أثناء هذا
التدرج . وكان أول ما كشف من آثار عصر الانتقال فى مصر ١٩٠١ حين عثر
فى بلدة البدارى الصغيرة (وهى فى منتصف المسافة بين القاهرة والكرنك) على
جثث بين أدوات تنتمى إلى عهد يرجع إلى ما قبل المسيح بنحو أربعين قرناً .
ووجدت فى أمعاء هذه الجثث ، التى أبقي عليها جفاف الرمال وحرارتها ستة
آلاف عام ، قشور من حب الشعير^(١٧) غير المهضوم . ولما كان الشعير لا ينبت
برياً فى مصر فقد استدلل من وجودها على أن البداريين كانوا يعرفون زراعة
الحبوب . وقد بدأ سكان وادى النيل من ذلك العهد السحيق أعمال الري

وقطعوا الأدغال ، وجففوا المستنقعات ، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفرامه ،
ووضعوا أسس الحضارة على مهل .

وتوحى إلينا هذه البقايا وبقايا أخرى غيرها بشيء من العلم عن حياة
المصريين قبل الأسر الأولى التي عاشت في الأزمنة التاريخية . لقد كانت
ثقافة ذلك العهد ثقافة وسطاً بين الصيد والزراعة ، بدأت منذ قليل
بإستبدال الأدوات المعدنية بالحجرية ، وكان الناس في أيامها يصنعون
القوارب ، ويطحنون الحَبَّ ، ويلبسون الكتان والبسط ، ويتحلون
بالخلى ، ويتعطرون بالعطور ، لهم حلاقون وحيوانات مستأنسة ، وكانوا
يحبون التصوير وبخاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان (١٨) ، وكانوا يسمون
على خرفهم الساذج صور النساء الخزانى وصوراً أخرى تمثل الحيوانات
والآدميين ، وأشكالاً هندسية ، وينحتون آلات غاية في الدقة والأناقة
يشهد بها سكان جبل الأراك ، وكانت لهم كتابة مصورة وأختام أسطوانية
شبيهة بأختام السومريين (١٩) .

وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأولون ، ويميل
بعض العلماء الباحثين إلى رأى القائل بأنهم مه لدون من النوبيين والأحباش
واللوبيين من جهة ، ومن المهاجرين الساميين والأرمن من جهة أخرى (٢٠) ،
فالأرض حتى في هذا العهد السحيق لم تسكنها سلالات نقية . ويرجع أن
الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسية قد جاءوا معهم بثقافة
أرق من ثقافة أهل البلاد (٢١) ، وأن تزاوجهم مع هؤلاء الأهلى الأقوياء
قد أنجب سلالة همجية كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن في جميع
الحضارات . وأخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بطيئاً حتى تألف من
امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م شعب واحد هو الشعب الذى
أوجد مصر التاريخية .

٣ - الدولة القديمة

الأقسام الإدارية - الشخصية التاريخية الأولى - كيريس - « خفرن »
الغرض من بناء الأهرام - فن المقابر - التحنيط

وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق . م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشأوا لهم حكومة من نوع ما . فقد انقسم الأهليون المقيمون على شاطئ النهر أقساماً ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد . وكان لهم شعار واحد ، ويخضعون لرئيس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً بمراسم وطقوس واحدة . وظلت هذه الوحدات الإقليمية قائمة طوال تاريخ مصر القديم ، وظل لحكامها نوع من السلطات يختلف قوة وضعفاً واستقلالاً باختلاف قوة الملك الأعظم وضعفه . وإذا كان كل نظام مطرد النمو تمنح أجزاؤه لأن يعتمد بعضها على بعض فإن هذه الأقسام أخذت تنظم نفسها مدفوعة إلى هذا التنظيم بحاجات التجارة النامية وتكاليف الحرب المتزايدة حتى تكونت منها مملكتان واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال ، ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الإفرقيين أهل الجنوب والمهاجرين الآسيويين أهل الشمال .

وقد سوى هذا النزاع الذي زاد من أثر الاختلافات الجغرافية والعنصرية تسوية مؤقتة حين ضم مينا (مينيس) - وهو شخصية لا تزال يكتنفها بعض الغموض - القطريين تحت سلطانه الموحد ، وأعلن في البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله تحوت (٢٢) ، وأقام أولى الأسر المالكة التاريخية ، وشاد عاصمة جديدة للملكة في منف (منفيس) و (علم الناس) كما يقول مؤرخ يوناني قديم استخدام النضد والأسرة ... وأدخل في البلاد وسائل النعيم والحياة المرفهة (٢٣) . ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنان وعالم ، وتلك هي شخصية إيموتب الطبيب والمهندس ، وكثير

مستشارى الملك زوسر (حوالى ٣١٥٠ ق . م) وكان له على الطب المصرى من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبدّه وتمخذه إلهاً للعلم ومنشئ علومها وفنونها . ويلوح فى الوقت نفسه أنه هو الذى أوجد طائفة المهندسين التى أمدت الأسرة التالية بأعظم البنائين فى التاريخ .

وتقول الرواية المصرية إن أول بيت من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وإنه هو الذى وضع تصميم أقدم بناء مصرى قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع فى تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذى وضع تصميم هيكل زوسر الجنازى وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهرة الأزورد (اللوطس) (*) وجدرانها المكسوة المتأمة من حجر الجير (٢٤) . وفى هذه الآثار القديمة القائمة فى سقارة ، والتى تكاد تكون بداية الفن المصرى فى العهود التاريخية ، تجد الأعمدة الأسطوانية المنقوشة التى لا تقل جمالاً عما شاهده اليونانيون فيها بعد (٢٥) كما نجد فيها نقوشاً بارزة تفيض واقعية وحيوية (٢٦) ، وخزناً أخضر ، وفخاراً ملوناً مطلياً مطبقة زجاجية - يضارع ما أنتجته إيطاليا فى العصور الوسطى (٢٧) . ونجد هناك أيضاً تماثلاً قوياً من الحجر لزوسر نفسه عدا عليه الدهر فطمس بعض معالمه التفصيلية ، ولكنه يكشف عن وجه ذى نظرات حادة ثاقبة وعقل مفكر (٢٨) .

ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التى جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة فى تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تكون الثروة المعدنية العظيمة التى استخرجت من أرض مصر فى عهد آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد تكون ما أحرزه التجار المصريون من تفوق فى تجارة البحر المتوسط ، وقد تكون قسوة خوفو (**) أول ملوك هذا البيت الحديد . وقد ترك لنا هيردوت مقاله له

(*) عن ابن البيطار .

(**) هو الذى يسميه هيردوت كيوبس (حوالى ٣٠٩٨ - ٧٥٠ ق . م) .



شكل (١١) رأس خفرع منحوت من حجر الديوريت

الكهنة المصريون عن منشئ أول هرم من أهرام الجيزة فقال :

« وهم يقولون لى الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ، وإن البرخاء عم جميع أنحاء مصر إلى أيام حكم رمسيس ، ثم حكم بعده كيوس فارتكب كل أنواع الجباث ، ذلك بأنه أغلق جميع الهياكل . . . وسخر المصريين لخدمته وحده . . . فعين طائفة منهم لقطع الأحجار من المحاجر في جبال العرب ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باستقبال الحجارة بعد أن تنقل في النهر على سفن . . . وكان يعمل منهم مائة ألف في كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر ، وظل هؤلاء يكدهون عشر سنين في إنشاء الطريق الذى كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفسه (٢٩) »

أما خضرع (*) خليفته على العرش ومنافسه فى البناء فلدينا عنه معلومات مستقاة من الآثار نفسها . وذلك أن تماثله المصنوع من حجر الديوريت والمحفوظ فى متحف القاهرة يصوره لنا بالصورة التى يمثل بها خيالنا من أنشأ هذا الهرم الثانى وحكم مصر ستاً وخمسين سنة إن لم يكن بالصورة التى كان عليها فعلاً . فعلى رأسه الباشق رمز السلطة الملكية ، ولولم يكن هذا الباشق على رأسه لأدركنا من هيئته ومن كل جزء صغير من جسمه أنه ملك (**) ، فالتماثل يصوره إنساناً مزدهياً ، صريحاً ، جريئاً ، ثاقب النظرات أشم الأنف ، قوياً فى تحفظ وهدوء . ويتضح من صورته هذه أن الطبيعة قد عرفت من زمن طويل كيف تصوغ الرجال ، وأن الفن قد عرف كيف يصورهم (+) .

ولم بنى هؤلاء الرجال الأهرام ؟ لقد كان هدفهم الدين لا فن العمارة ، فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية . ذلك أن الملك كان

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت خفرن (وقد حكم بين ٢٠٦٨ و ٣٤١١ ق م) .

(**) يردد المؤلف فى هذا الوصف ما قاله مسيرون عن هذا التماثل . (المترجم)

(+) لعل اللفظ الأجنبي للهرم يبرأ من المشتق من الكلمة المصرية بيروموس ومعناها ارتفاع لا من الكلمة اليونانية بير - ومعناها النار .

يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن في كل جسم حي تستقر قرينة - كما - لا تموت حتا إذا لفظ الجسم آخر أنفاسه ، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها بقاء كاملاً إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتزريق والبلى . وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هي الهرم لعلوه وضخامته وشكله وموقعه . وإذا نحن ضربنا صفحاً عن أركانه فقد كان شكله هو الشكل الطبيعي الذي تصير إليه طائفة متجانسة من المواد الصلبة إذا ما تركت تسقط على الأرض من غير أن يعوقها عائق ما . وإذا كان يقصد بها كذلك البقاء والخلود فقد وضعت الحجارة في صبر لا يكاد يطيقه إنسان كأنما هي قد علت من تلقاء نفسها على جانب الطريق ، ولم تقطع وتتمل من محاجر تبعد عن مكانها الحالى مئات الأميال . ويتكوّن هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية التي يبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طناً (٢٠) ومتوسط وزنها طنين ونصف طن ، وتبلغ مساحة قاعدته أكثر من نصف مليون قدم مربع ، ويعلو في الهواء إلى ارتفاع ٤١١ قدماً . وحجارتها مندرجة بعضها في بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبعض كتل ليكون طريقاً سريعاً تنقل فيه جثة الملك . ويرشد الدليل السائح الذي يسير مرتجفاً على أربع إلى الكهف الذي احتوى جثة الملك على ارتفاع مائة خطوة من القاعدة في قلب الهرم . وهناك في مكان رطب مظلم ساكن في أعماق ذلك الصرح لا يهتدى إليه إنسان استقرت فيما مضى من الأيام عظام الملك خوفو وزوجته ، ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقراً في مكانه ، ولكنه محطم وفارغ لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنج الجثة من أيدي اللصوص كما لم تنجها جميع لعنات الآلهة .

ولما كانت القرية في رأى المصريين الأقدمين صورة مصغرة للجسم نفسه فقد كان لابد من أن يقدم لها الطعام والكساء وما يلزمها من الخدماء بعد موت الجسد . ومن أجل هذا كانت تعد في بعض المقابر الملكية دورات مياه لتنتفع بها للروح بعد فراق الجسد ، وتحتوى بعض النصوص الجنائزية فقرات تعبر عن قلق

كاتيبها وخوفهم من أن تضطر القرينة إذا أعوزها الطعام إلى أن تطعم من فضلاتها^(٣١) ، ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن عادات الدفن عند المصريين الأقدمين إذا ما تتبعناها إلى بدايتها قد تؤدي بنا إلى تلك العادة البدائية عادة دفن أسلحة الحارب وعدده مع جثته ، أو إلى نظام شبيه بما كان يتبعه الهنود وهو دفن زوجات الرجل وعبده معه ، لكي يقوموا على خدمته وقضاء حاجاته بعد موته . وإذا كان في اتباع هذه العادات كثير من المشقة على الأزواج والعبيد فقد عمد المصريون الأقدمون إلى استخدام الرسامين والمثاليين لرسم للصور وحفر النقوش وصنع التماثيل الصغيرة التي تمثل الزوجات والعبيد . وقد جرت عاداتهم على أن ينقشوا عليها عبارات سحرية تبدل الصور والرسوم فتجعلها قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حقيقية . ولعل أبناء الميت قد ركنوا إلى التكاسل والاقتصاد في النفقات فجنحوا إلى إهمال الواجبات التي كان الدين يفرضها عليهم في أول الأمر ومنها تقديم الطعام للميت حتى في الحالات التي وقف فيها من ثروته ما يفي بهذه النفقات . ومن أجل هذا كانت الصور المتخذة بديلاً من الحقائق احتياطاً قائماً على الحكمة وحسن التدبير ، فقد كان في وسعها أن تمد قرينة الميت بالحقول الخصبة ، والثيران الثمينة ، والعدد الجم من الخدم والصناع النشطين بنفقة قليلة مغرية . ولما كشف المصريون عن هذا المبدأ أخذ الفنانون ينتجون الشيء الكثير من روائع الفن . ففي أحد القبور صورة لحقل يُحراث ، وفي قبر آخر ترى المحصول يحصد أو يدرس ، وفي غيرهما ترى الخبز يسوى ، وفي رابع ترى الثور يلقيح البقرة ، وفي غيره ترى العجل يولد ، وفي آخر ترى الماشية التي كبرت تذبح ، أو اللحم يقدم ساخنًا في الصحائف^(٣٢) . ويمثل نقش جميل على حجر جيري عثر عليه في قبر الأمير راح حوتب الميت يستمتع بمختلف الأطعمة على مائدة مبسطة أمامه^(٣٣) . لعمرك إن الفن لم يفعل للإنسان في عصر من العصور ما فعله لهؤلاء المصريين القدامى .

على أنهم لم يكتفوا بهذا بل رأوا أن يضمّنوا للقرينة طول الأجل بدفن الجثة في تابوت من أقسى الحجارة ، وبتحنيطها تحنيطاً كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة . وقد برعوا في هذا الفن براعة أبص على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . وما أجمل وأوضح ما وصف به هيرودوت فن التحنيط حين قال :

« أول ما يفعله المخطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقى منه بإدخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة في جنب الميت بمحجر حاد وأخرجوا منها جميع أحشائه ، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيد النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ، ثم ملأوا البطن بالمر النقي وبعطر العشب وغيره من العطور ، وأعادوه بالحيطة إلى ما كان عليه من قبل ، فإذا ما فعلوا هذا كله عمره في متقوع النظرون(*) وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فإذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه ، وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى جداره . وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التي يزيدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات(٣٤) » .

ويقول أحد الأمثال المصرية المأثورة : « إن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام(٣٥) » . غير أن هرم خوفورغم هذا قد نقص من ارتفاعه عشرون قدماً ، وزال عنه كل غطاءه الرخامي . ولعل الزمان لا يرهبه كل الرهبة بل يفعل به ما يفعل بغيره ، وكل ما في الأمر أنه يبلّيه على مهل . وإلى

(*) سلكات الصوديوم والألومنيوم .

جانب هذا الهرم الأكبر يقوم هرم خفرع ، وهو أصغر من الأول قليلا ، ولكن قوته لا يزال يكسوها غشاء من الحجر الأعبل (الجرانيت) الذى كان من قبل يغطيه كله ، وعلى مسافة من هذا الهرم الثانى يقوم هرم آخر متواضع هو هرم منقورع خليفة خفرع على عرش مصر (١٠) . وهذا الهرم لا يغطيه الحجر الأعبل بل تغطيه طبقة وضيفة من الآجر كأنها تعلن للعالم أن الدولة القديمة كانت تؤذن بالزوال حين كان الملك يشيد هذا الهرم ، ويصور ما وصل إلينا من تماثيل منقورع هذا الملك فى صورة رجل أكثر رقة وتهذبا وأقل قوة من خفرع (**) : إن الحضارة كالحياة تُنفى ما بلغت به حد الكمال ، ولعل النعيم والترف حتى فى هذا العهد السحيق ، ولعل ما طرأ على العادات والأخلاق من تطور ورقى ، لعل هذا كله قد جعل الناس يحبون السلم ويبغضون الحرب . وقام فجأة لإنسان جديد ، اغتصب عرش منقورع وقضى على أسرة بُناة الأهرام .

٤ - الدولة الوسطى

عهد الإقطاع - الأسرة الثالثة عشرة - سيطرة المكسوس

لم يكن الملوك فى بلد من البلاد بالكثرة التى كانوا بها فى مصر القديمة ، والتاريخ يضمهم جميعاً فى أسر ، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة ؛ ولكن عدد هذه الأسر نفسها يثقل الذاكرة التى لا تطيق كثرتها (١) ،

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت ميسرئيس (حكم من ٣٠١١-٢٩٨٥ ق . م تقريبا)

(**) انظر تماثيل منقورع وزوجته فى متحف الفن بفيوورك .

(١) وقد أراد المؤرخون أن يسهلوا الأمر على أنفسهم فجمعوا الأسر فى عصور هى

(١) عصر الدولة القديمة وتشمل الأسر من الأولى إلى السادسة (٣٥٠٠ - ٢٦٣١ ق . م)

وتليها فترة من الفوضى وتعقبها (٢) الدولة الوسطى وتشمل الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة

(٣) عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ، وتشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين

(٤) وأخيرا عصر انقسمت فيه البلاد أقساما وكان ما عدا

عواصم . ثم جاء (٤) عصر ساو (التى سميها اليونان سايس والى تسمى الآن صا الحجر) =

وحكم مصر يبيى الثانى أحد هؤلاء الفراعنة أربعاً وتسعين سنة (٢٧٣٨ - ١٦٤٤ ق م) وحكمه هذا أطول حكم فى التاريخ كله ، فلما مات عمت الفوضى البلاد وأدت إلى الانحلال وخسر خلفه عرشه ، وحكم أمراء الإقطاع المقاطعات حكماً مستقلاً . وهذا التعاقب بين السلطة المركزية وغير المركزية من الظواهر التاريخية تتوالى بانتظام ، كأن الناس يملّون الحرية المفرطة تارة والنظام المسرف تارة أخرى . وطغى على البلاد « عصر مظلم » سادته الفوضى أربعة قرون ، ثم قام بعدها رجل قوى الإرادة شبيه بشارلمان فى عصور أوربا المظلمة ، فقبض بيد من حديد على زمام الأمور ، وأعاد النظام إلى البلاد ، ونقل العاصمة من منف إلى طيبة ، وتسمى باسم أمينمحييت الأول ، وأسّس الأسرة الثانية عشرة . وفى عهد هذه الأسرة ازدهرت الفنون جميعها - مع جواز استثناء فن العمارة - وبلغت من الإتقان درجة لم تبلغها فيما نعرفه من تاريخ مصر قبل هذه الأسرة أو بعدها . ويتحدث إلينا أمينمحييت فى أحد النقوش القديمة بقوله :

كنت رجلاً زرع البذور وأحب إليه الحصاد ؛

وحياى فى النيل وكل وديانه ؛

ولم يكن فى أياى جائع ولا ظمآن ؛

وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عني .

وكان جزاؤه أن ائتمر عليه من أعلى شأنهم ووضعهم فى المراكز السامية من الوزراء والمستشارين . وقضى أمينمحييت على هذه المؤامرة ، وبطش بالمتآمرين ، ولكنه خلف لابنه - كما فعل پولونيوس من بعده - ملفاً من الأوراق يحوى نصيحة مُرّة ، هى فى واقع أمرها قاعدة عجيبة للحكم المطلق ، ولكنها ثمن باهظ يبتاع به الملك عرشه :

= ويشمل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥ ق م) . وكل التواريخ الواردة هنا ما عدا الأخير منها تواريخ تقريبية . ويجد علماء الآثار بعض التسايع فى تأخير هذه التواريخ أو تقديمها عدة قرون .

استمع إلى ما سأقوله لك ،
حتى تكون ملك الأرض . . . ،
وتزيد فيها الخمر

اقس عني جميع من هم دونك -
فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم ،
ولا تقترب منهم بمفردك ،
ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ ،
ولا تعرف صديقا . . . ،
وإذا نمت فأحرس بنفسك قلبك .
لأن الإنسان لا صديق له في أيام الشر (٣٦) -

ولقد أقام هذا الملك الصارم الذي يبدو لنا من خلال أربعة آلاف من
السنين حاكماً رحيماً ، نظاماً من الحكم والإدارة دام خمسمائة عام ، أثرت فيه
البلاد مرة أخرى ، وعاد فيه الفن إلى سابق عهده الزاخرة . واحتقر
سنوسريت الأول قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وصد الغزاة النوبيين وشاد
المياكل العظيمة في حين شمس والعراية والكرنك . ولقد نجت من عبث
الدهر عشرة تماثيل ضخمة تمثله جالساً ، وهي الآن في متحف القاهرة .
وبدأ سنوسريت آخر هو سنوسريت الثالث يخضع فلسطين لحكم مصر ، ورد
النوبيين الذين لم يكونوا ينقطعون عن الإغارة على حدودها الجنوبية ، ووضع
لوحة عند تلك الحدود كتب عليها أنه لم يضعها « رغبة في أن تعبدوها ، بل
طمعاً في أن تحاربوا من أجلها » (٣٧) . وكان أمنمحيث الثالث إدارياً حازماً
لغنى بحجر الترع وتنظيم وسائل الري ، وقضى (ولعله قد أسرف في هذا
القضاء) على أمراء الإقطاع ، وأحل محالهم موظفين معينين من قبل الملك .
وبعد ثلاثة عشر عاماً من موته عاد الاضطراب إلى مصر على أثر النزاع الذي قام
بين المتنافسين المطالبين بالعرش ، وانقضى عهد الدولة الوسطى في حال من الفوضى

والتي شكك دامت مائتي عام . ثم غزا الهكسوس ، وهم بدو من آسية ، مصر المتقطعة الأوصال ، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها ، وقضوا على كثير من معالم فنونها ، وأخضعوا وادى النيل مدى قرنين لحكم « ملوك الرعاة » (*) . لقد كانت المدنيات القديمة جزائر صغرى في بحار من الهمجية ، أو محلات رخية يحيط بها الجياع والحساد من الصيادين والرعاة ذوى النزعة الحربية . وكانت حصونها عرضة للتصدع والانهيار من حين إلى حين . بهذه الطريقة أغار الكاشيون على دولة بابل ، وهاجم الغاليون بلاد اليونان والرومان ، واجتاح الهون إيطاليا ، وهاجم المغول بيجنج .

لكن الفاتحين لم يلبثوا هم أيضاً أن سمنوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم ، وجمع المصريون شملهم وشنوا حرباً عواناً ييغون بها تحرير بلادهم ، فطردوا الهكسوس ، وأسسوا الأسرة الثامنة عشرة التى بلغت البلاد فى أيامها درجة من القوة والمجد لم تبلغها قط من قبل .

٥ - الإمبراطورية

الملكة العظيمة - تحتمس الثالث - ذروة المجد

لعل هذا الفتح قد جدد شباب مصر بما أدخله فيها من دم جديد ، ولكنه كان لبداً بابتداء كفاح طويل مرير بين مصر وغربي آسية دام ألف عام . ذلك أن تحتمس الأول لم يعزز قوى الدولة الجديدة فحسب ولكنه غزا سوريا أيضاً بحجة أن مصر يجب أن تسيطر على غربي آسية لكى تمنع الاعتداء على أراضيها فيما بعد ، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقيش فى الداخل ، ووضع فيها حاميات من عنده ، وفرض عليها الجزية ، ثم عاد إلى طيبة مثقلاً بالغنائم ومكلاً بالجدل الذى يكلل على الدوام هامة من يقتل بنى الإنسان . وفى آخر العام الثلاثين

(*) يعتقد كثيرون من المؤرخين أن ترجمة كلمة هكسوس بالرعاة ترجمة خاطئة وأنهم لم يكونوا رعاة بل « ملوك أقاليم » . (المترجم)

من حكمه رفع ابنته حتشبسوت إلى العرش لتكون شريكة له في الملك . وحكم من بعده زوجها وأخوها لأبيها باسم تحتمس الثاني ، وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه (٢٨) . ولكن حتشبسوت نَحَتْ هذا الشاب الذي علا نجمه فيما بعد ، واستأثرت دونه بالملك ، وأثبتت أنها لا تختلف عن الملوك في شيء إلا في أنها أنثى .

على أنها لم تعترف حتى بهذا الفرق . ذلك أن التقاليد المقدسة كانت تتطلب من كل ملك مصرى أن يكون ابن الإله العظيم أمون ، ومن أجل هذا أعدت حتشبسوت العدة لأن تكون ذكراً وأن تكون مقدسة ، فاخترعت لها سيرة نصت على أن أمون نزل على أمحتسي أم حتشبسوت في فيض من العطر والنور ، فأحسن هذه استقباله ، ولما خرج من عندها أعلن أن أمحتسي ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة (٢٩) . وأرادت الملكة العظيمة بعدئذ أن ترضى أهواء شعبها ، ولعلها أرادت أيضاً أن تشبع رغبة كامنة في صدرها ، فعملت على أن ترسم على الآثار في صورة محارب ملتحم من غير ثديين ، ومع أن النقوش الباقية من عهدتها تتحدث عنها بضمير المؤنث ، فإنها تسميها « ابن الشمس » و « سيد القطرين » . وكانت حين تظهر أمام شعبها تلبس ملابس الرجال ، وتلتحي لحية مستعارة (٣٠) .

ولعلها كان من حقها أن تقرر بنفسها أن تكون رجلاً أم امرأة ، وذلك لأنها أضحت من خير الحكام الذين جلسوا على عرش مصر — وهم كثيرون — ومن أعظمهم نجاحاً . فلقد وطدت دعائم الأمن والنظام داخل البلاد من غير أن تسرف في الاستبداد ، وحافظت على السلم خارج مصر من غير خسارة ، وأرسلت بعثة عظيمة إلى بونت (ويرجح أن بونت هذه هي شاطئ أفريقيا الشرقى) ، وافتتحت سوقاً جديدة لتجارة مصر ، وجاءت بكثير من الطلبات لشعبها . وعملت على تجميل الكرنك بأن أقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين ، وشيدت في الدير



شكل (١٢) هيكل الدير البحرى

البحرى الهيكل الفخم الذى اختطه أبوها ، وأصاحت بعض ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة ، وقالت فى أحد نقوشها تفخراً بأعمالها : « لقد أصلحت ما كان من قبل مخرباً ، وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده حين كان الآسيويون فى وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائماً قبلهم » (١) . ثم أنشأت لنفسها آخر الأمر قبراً سرياً مزخرفاً بجوار الجبال التى تطفى عليها الرمال على الضفة الغربية للنيل فى المكان الذى سمي فيما بعد « وادى مقابر الملوك » . وحذا خلفاؤها فى ذلك حذوها ، حتى كان عدد القبور المنحوتة فى التلال قرابة ستين قبراً ملكياً ، وحتى أخذت مدينة الموتى تنافس فى عدد سكانها طيبة مدينة الأحياء ، وكانت « الحافة الغربية » فى المدن المصرية القديمة مواطن الموتى من الطبقة العليا ؛ وكانوا إذا قالوا إن فلاناً « ذهب غرباً » قصصوا بقولهم أنه مات .

وهدام حكم هذه المملكة اثنتين وعشرين سنة كان فيها حكماً سليماً - حكماً .
ثم خافها تحتّمس الثالث وكان حكمه مليئاً بالحروب ، فقد انتهزت بلاد سوريا
فرصة موت حتشبسوت فثارت على مصر ، وظن أهلها أن تحتّمس الثالث ،
وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره ، لن يستطيع الاحتفاظ بالدولة التي
أقامها أبوه . ولكن تحتّمس لم يقعد عن العمل فسار على رأس جيشه في السنة
الأولى من حكمه عن طريق القنطرة وغزة بسرعة عشرين ميلاً في كل يوم ،
والتحم بالقوات الثائرة عند هار مجلو (أى جبل مجدو) ، وهى بلدة صغيرة
ذات موقع حربي منيع بين سلسلتى جبال لبنان على الطريق الممتد بين مصر ونهر
الفرات ، وهى بعينها مجدو التى وقعت فيها عدة وقائع حربية من ذلك اليوم إلى
أيام آلنبسى . وفى نفس الممر الذى هزم فيه الإنجليز الأتراك فى عام ١٩١٨
أثناء الحرب العالمية الأولى هزم تحتّمس الثالث السوريين وحلفاءهم قبل ذلك
بثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة وتسعين عاماً . ثم سار تحتّمس مظفراً مخترباً
غربى آسية يخضع أهلها ويفرض عليهم الضرائب ويجمع منهم الخراج :
وعاد بعدئذ إلى طيبة منتصباً بعد ستة أشهر من بداية زحفه (*) (٢٢) .

وكانت هذه الحملة أولى حملات بلغت عدتها خمس عشرة أنضع فيها تحتّمس
الباسل بلاد البحر المتوسط الشرق لحكم مصر . ولم يكن عمله عمل الفاتح
فحسب ، بل إنه عمل أيضاً على تنظيم فتوحه ، فأقام فى جميع البلاد المفتوحة
حاميات قوية وأنشأ فيها حكماً منظماً قديراً . وكان تحتّمس أول رجل فى التاريخ
أدرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم ، فأنشأ أسطولاً أخضع لسلطانه بلاد الشرق
الأدنى . وكان ما ظفر به من الغنائم عماد الفن المصرى فى عهد الإمبراطورية ،
كما كان الخراج الذى أخذ ينصب فى مصر من بلاد الشام منشأ حياة الدعة والنعيم
التي تمتع بها شعبه ، فوجدت فى مصر طيقة جديدة من الفنانين غمرتها بروائع الفن •
وفى وسعنا أن نتصور إلى حد ما ثروة الحكومة الإمبراطورية الجديدة إذا عرفنا

(*) نطلب هذا العمل نفسه من الذى ضمنى هذا الزمر ، وحاول نابليون أن يقوم
بمثله فى عكا وأخفق .

أن خزائن الدولة استطاعت في يوم من الأيام أن تخرج منها ما زنته تسعة آلاف رطل من سبائك الذهب والفضة^(٤٣). وراجت التجارة في طيبة رواجاً لم تعهده من قبل ، وناعت الهياكل بالقربان ، وارتفع صرح بهو الاحتفالات الملكية في الكرنك ، وأنشئ فيها المتزه العظيم بما يتفق مع عظمة الإله والملك . ثم عاد الملك من ميدان القتال ووجه عنايته للفن وإدارة شئون البلاد . ومن أجل آثار ذلك العهد المزهريرات البديعة النقش . وقال عنه وزيره ما كان أمناء سر نابليون المتعجبون المنفيون يقولون عنه « إن جلالته كان يعرف كل ما يحدث ، فما من شيء كان يحياه ؛ فقد كان إله المعرفة في كل شيء ، ولم تكن هناك مسألة لا يفصل فيها بنفسه^(٤٤) » . وتوفي الملك بعد أن حكم اثنين وثلاثين سنة (ويقول بعضهم إنها خمسة وأربعين) ، وبعد أن أتم لمصر زعامتها في عالم البحر المتوسط ؛ وجاء من بعده فاتح آخر هو أمنحوتب الثاني فأخضع مرة أخرى بعض عشاق الحرية في سوريا ، وعاد إلى طيبة وفي ركابه سبعة ملوك أسرى أحياء مطأطي الرعوس في مقدم السفينة الإمبراطورية . وقدم الملك ستة منهم قرباناً لأمون ضحى بهم بيده^(٤٥). ثم خلفه تحتمس آخر حاملي الذكر ، جلس بعده على العرش في عام ١٤١٢ أمنحوتب الثالث فحكم البلاد حكماً طويلاً ارتفعت مصر في خلاله إلى ذروة المجد بفضل ما تجمع فيها من الثروة خلال سيادتها التي دامت قرناً كاملاً . وفي المتحف البريطاني تمثال نصفي لهذا الملك يمثل في صورة رجل يجمع بين الرقة والقوة ، في وسعه أن يقبض بيد من حديد على زمام الأمور في إمبراطوريته التي ورثها ، وأن يعيش مع هذا في جو من الدعة والنعيم لعل بترونيس أو آل مديشي كانوا يحسدونه عليه . ولولا ما كشف من مخلفات توت عنخ أمون لما صدقنا ما تقصده الروايات وما تدونه السجلات من ثراء أمنحوتب ومظاهر ترفه . وقد بلغت طيبة في عهده من العظمة والفخامة ما بلغته أية مدينة أخرى في عهود التاريخ كلها . فكانت شوارعها غاصة بالتجار ، وأسواقها مملوءة بالبضائع الواردة من جميع أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومبانيها ، تفوق في فخامتها جميع

مبانى العواصم القديمة والحديثة ،^(٤٥) وقصورها الرائعة تستقبل الخراج من طائفة لا حصر لها من الولايات الخاضعة لسلطانها ، وهياكلها الضخمة ومحلاتها كلها بالذهب ،^(٤٦) ومزينة بروائع الفنون على اختلاف أنواعها ، وبيوتها ذات الحدائق وقصورها الفخمة وستزوماتها المظلمة وبحيراتنا الصناعية التى كانت مسرحاً لكل ما هو جديد من الأزياء والأنماط ، كما كانت رومة فى عهد الإمبراطورية^(٤٧) ، هذه هى عاصمة مصر فى أيام مجدها وفى أيام مليكتها الذى بدأ من بعده اضمحلالها وسقوطها .

الفصل الثالث

حضارة مصر

١ - الزراعة

كان من وراء هؤلاء الملوك والملكات بياق مجهولون ، ومن وراء تلك الهياكل والقصور والأهرام عمال المدن وزراع الحقول(*) . ويصفهم هيرودوت كما وجدهم حوالى عام ٤٥٠ ق . م وصفاً تسوده روح التفاؤل فيقول :

«لأنهم يحنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب ، . . لأنهم لا يضطرون إلى تحطيم أحاديث الأرض بالمحراث أو إلى عزقها أو القيام بعمل كالذى يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكي يحنوا من ورائه محصولاً من الحب ، ذلك بأن النهر إذا فاض من نفسه وأروى حقولهم ، ثم انحسر ماؤه عنها بعد إروائها ، زرع كل رجل أرضه وأطلق عليها خنازيره ، فإذا ما دفنت هذه الخنازير الحب في الأرض بأرجلها انتظر حتى يحين موعد الحصاد ، ثم . . . جمع المحصول»(١) .

وكما كانت الخنازير تدوس الحب بأرجلها كذلك أنست القردة ودربت على قطف الثمار من الأشجار(٢) ، وكان النيل الذى يروى الأرض يحمل لها في أثناء فيضانه مقادير كبيرة من السمك يتركها في المناقع الضحلة : وكانت الشبكة التى يصطاد بها السمك هى بعينها التى يحيط بها رأسه أثناء الليل لبتقى بها شر لدغ البعوض(٣) . على أنه لم يكن هو الذى يفيد من سخاء النهر ، ذلك بأن كل فدان من الأرض كان ملكاً لفرعون لا يستطيع غيره من الناس أن ينتفعوا به إلا بإذن

(*) كان سكان مصر فى القرن الرابع قبل المسيح يقدرون بنحو سبعة ملايين نسمة .

منه . وكان على كل زارع أن يؤدي له ضريبة سنوية عينية تتراوح ما بين عشر^(٥٢) المحصول وخمسة^(٥٣) . وكان أمراء الإقطاع وغيرهم من الأثرياء يملكون مساحات واسعة من الأرض . وفي وسعنا أن نتصور ما كانت عليه أملاكهم من الاتساع إذا علمنا أن واحداً منهم كان يملك ألفاً وخمسة مائة بقوة^(٥٤) ، وكانت الحبوب والسمك واللحوم أهم الأطعمة . وقد عثر على بقية من نقش يحدد ما يسمح للتأميم أن يأكله ويشربه ، وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعاً من لحم الحيوان والطيور ، وثمانية وأربعون صنفاً من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب^(٥٥) . وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ والفقراء بشراب الشعير المخمر^(٥٦) .

وكانت معيشة الفلاحين معيشة ضئيلة . فأما من كان منهم مزارعاً « حراً » فلم يكن يخضع إلا للوسيط والجاني ، وكان هذان الرجلان يعاملانه على أساس المبادئ الاقتصادية التي ثبتت تقاليداً على مدى الأيام ، فكانوا يأخذون من محصول الأرض « كل ما تتحمله وسائل النقل » . وإلى القارئ رأى أحد الكتبة الظرفاء في حياة معاصريه من الرجال الذين كانوا يطعمون مصر القديمة :

« هلا استعدت في خيالك صورة الزارع حين يجي منه عُشر حَبِّه ؟ لقد أتلَفَتَ الديدان نصف القمح ، وأكَلَتْ أفراس البحر ما بقي له منه ، وهاجمتها في الحقول جماعات كبيرة من الجرذان ، ونزلتْ بها الصراصير ، والماشية النهمة ، والطيور الصغيرة تختلس منها الشيء الكثير ، وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له في الأرض ، عدا عليه اللصوص . يضاف إلى هذا أن السيور التي تربط الحديد والمعزقة قد بليت ، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث . وفي هذه اللحظة يخرج الجاني من القارب عند المرسى ليطلب العشور ، ثم يأتي حُرَّاس أبواب مخازن (الملك) بعصيتهم ، والزنوج بحريده النخل ، يصيحون : تعالوا الآن ، تعالوا ! فإذا لم يأتهم أحد طرخوا الزارع أرضاً ، وربطوه ، وجروه إلى القناة وألقوه فيها

مبتدئين برأسه ، وزوجته مربوطة معه ، ثم يسلك أطفاله في السلاسل ، ويفرّ جيرانه من حوله لينقلوا حبوبهم^(٥٧) .

تلك بطبيعة الحال قطعة أدبية فيها كثير من المبالغة ، ولكن كاتبها كان في وسعه أن يضيف إليها أن الفلاح كان معرضاً في وقت إلى أن يسخر في العمل لخدمة الملك ، يطهر قنوات الري ، وينشئ الطرق ، ويحرق الأراضي الملكية ، ويجرّ الحجارة الضخمة لإقامة المسلات وتشييد الأهرام والمياكل والقصور . وأكبر ظننا أن كثرة العاملين في الحقول كانت قانعة راضية بفقرها صابرة عليه . وكان كثيرون منهم عبيداً من أسرى الحرب أو المدينين ، وكانت الغارات تنظم أحياناً للقبض على العبيد ، وكان يؤتى بالنساء والأطفال من خارج البلاد ليبيعن في البلاد لمن يؤدى فيهن أغلى الأثمان . وفي متحف ليدن نقش بارز قديم يصور موكباً طويلاً من الأسرى الآسيويين يسيرون مكتنبين إلى أرض الأسر ، وبرايم الإنسان أحياء على هذا الحجر الناطق وأيديهم موثقة خلف ظهورهم أروعوسهم ، أو موضوعة في أصفاد قوية من الخشب ، وعلى وجوههم إمارات الحقل المنبعثة من البأس .

٢ - الصناعة

المعدنون - الصناع - العمال - المهندسون -
الانقل - البريد - التجارة وشئون المال - الكتبة

وازداد الفائض من الثروة شيئاً فشيئاً نتيجة عمل الزراع ، وادخر الطعام لمن يعملون في التجارة والصناعة . وكانت مصر تستورد المعادن من بلاد العرب والنوبة لقلتها فيها . وكان يُعلم مراكز التعدين مما لا يغرى الأهالي باستغلالها لحسابهم الخاص ، ولذلك ظلت صناعة التعدين قروناً كثيرة محتكرة للحكومة^(٥٨) ، وكانت مناجم النحاس تغل بمقادير قليلة منه^(٥٩) ، أما الحديد فكان يستورد من بلاد الحبشيين ، وكانت مناجم الذهب منتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفي

بلاد النوبة ، كما كان يوثق به من خزائن جميع الولايات الخاضعة لسلطان مصر ، ويصف ديودور الصقلي (٥٦ ق . م) المعدنين المصريين وهم يتبعون بالمصباح والمعول عروق الذهب فى الأرض ، والأطفال وهم يحملون المعدن الخام ، والمهارس الحجرية وهى تطحنه ، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه . ولسنا نعرف بالضبط ما فى هذه الفقرة الشهيرة من تزييف مبعثه النعرة القومية العارمة :

« إن ملوك مصر يجمعون السجناء الذين أدانهم القضاء ، وأسرى الحرب وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا فى السجنون فى سورة من الغضب . وهؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ، ليقترض منهم عن جرائم ارتكبها المجرمون منهم ، أوليستخذموا فى الحصول على دخل كبير نتيجة كدهم . . . وإذ كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية بأجسامهم ، وليس لهم ثياب تستر عريهم ، فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودى الحظ تأخذ الرحمة بهم لفرط شقاوتهم . ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء ، أو يخفف العمل عنهم . ولكن هؤلاء كلهم يُلزمون بالنداب على العمل حتى تخور قواهم ، فيموتوا فى ذل الأسر . ولهذا فإن هؤلاء البائسين المساكين يرون مستقبلهم أتعس من ماضيهم لقسوة العقاب الذى يوقع عليهم ، وهم من أجل ذلك يفضلون الموت على الحياة (٦٠) ،

وعرفت مصر فى عهد الأسرات الأولى كيف تصنع البرنز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعت منه فى أول الأمر أسلحة برنزية كالسيوف ، والخوذ ، والدروع ، ثم صنعت منه بعدئذ أدوات برنزية كالعجلات ، والمهراسات ، والرافعات ، والبكرات ، وآلات رفع الأثقال ، والأوتاد ، والمخارط ، واللواب ، والمثاقب التى تثقب أقمى أحجار الديوريت ، والمناشير التى تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت ، وكان العمال المصريون يصنعون الآجر والأمننت والمصيص ويطلون الفخار بطبقة زجاجية ، ويصنعون الزجاج وينقشوه هو والفخار بمختلف

الألوان . وقد برعوا في حفر الخشب يصنعون منه كل ما يصلح لصنعه من قوارب وعربات وكراسي ، وأسرة ، وتوابيت جميلة تكاد تغرى الأحياء بالموت ، واتخذوا من جلود الأنعام ملابس وكنانات ودروعاً ومقاعد ، وقد صورت على جدران المقابر كل الفنون المتصلة بدبغ الجلود ، ولا يزال الأساكفة إلى الآن يستخدمون السكاكين المقوسة المصورة على تلك الجدران في أيدي دابغى الجلود^(٦١) . وصنع المصريون من نبات البردى الجبال والحصار والأخفاف والورق . وابتدعوا فن الطلاء بالمينا والورندش ، واستخدموا الكيمياء في الصناعة . ومن الصناعات من كان يعمل في نسج القماش من أدق الخيوط المعروفة في تاريخ النسيج كله . وقد عثر المتقربون على نماذج من الكتان منسوجة من أربعة آلاف عام ، وعلى الرغم من عوادي الأيام فإن « خيوطها قد بلغت من الدقة حداً لا يستطيع الإنسان معه أن يميزها من خيوط الحرير إلا بمجهر . وإن أحسن ما أخرجته المناسج الآلية في هذه الأيام ليعده خشناً غليظاً إذا قيس إلى هذا النسيج الذي كان يصنعه المصريون الأقدمون بأنوالهم اليدوية^(٦٢) . وفي هذا يقول بسكل : « إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن ، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية لا نكاد نفوقهم في شيء^(٦٣) » .

وكانت الكثرة الغالبة من الصناعات من الأحرار ، وقلتهم من الرقيق . وكان العاملون في كل صناعة من الصناعات يؤلفون طبقة خاصة كما هي الحال في الهند اليوم . وأن يطلب إلى الأبناء أن يتخذوا صناعات آبائهم^(٦٤) . وقد جاءتهم الحروب بآلاف من الأسرى فكانوا عوناً على إنشاء الضياع الواسعة وعلى رقي فن الهندسة . وقد أهدى رمسيس الثالث في أثناء حكمه ١٣٠٠٠ أسير إلى الهياكل^(٦٥) . وكان النظام المألوف للصناعة الأحرار أن تؤلف منهم فرق تتبع

(*) ويضيف د. دور إلى هذا قوله : « إذا اشترك صانع في الشئون العامة ضرب ضرباً موبحاً^(٦٥) » .

رئيساً منهم أو مشرفاً عليهم يؤجر على عملها جملة ويؤدى هو لأفرادها أجورهم . وفى المتحف البريطانى لوحة طباشيرية سجل فيها أحد رؤساء العمال أسماء ثلاثة وأربعين عاملاً ودون أمام أسمائهم أيام غيابهم وأسباب هذا الغياب من « مرض » أو « تضحية للإله » أو مجرد « الكسل » . وكان الإضراب كثير الحدوث ، وقد حدث مرة أن تأخر صرف الأجور للعمال زمناً طويلاً فحاصروا رئيسهم وأنذروه بقولهم له : « لقد ساقنا إلى هذا المكان الجوع والعطش ، وليست لنا ثياب ، وليس عندنا زيت ولا طعام ، فاكتب إلى سيدنا الملك فى هذا الأمر ، واكتب إلى الحاكم (حاكم المقاطعة) الذى يشرف على شئوننا حتى يعطينا ما نقتات به » (٦٧) . وتروى إحدى القصص اليونانية المتواترة خبر فتنة صماء اندلع لهبها فى مصر واستولى فيها العبيد على إحدى المديریات ، وظلت فى أيديهم زمناً طويلاً كانت نتيجة أن الزمن ، الذى يميز كل شىء ، أقر امتلاكهم إياها . لكن النفوش المصرية لا تذكر شيئاً قط عن الفتنة (٦٨) . ومن أغرب الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسى لم تعرف أو لم تسجل إلا عدداً ضئيلاً من الثورات .

وكان فن الهندسة عند المصريين أرقى من كل ما عرفه منه اليونان أو الرومان ، أو عرفته أوربا قبل الانقلاب الصناعى ؛ ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر ، وحتى فى هذا القول الأخير قد نكون مخطئين . مثال ذلك سنوسريت الثالث شاد* سوراً حول بحيرة موريس طوله سبعة وعشرون ميلاً ليجمع فيها ماء منخفض الفيوم ، وأصلح بعمله هذا ٢٥٠٠٠ فدان كانت من قبل مناقع ، فأصبحت صالحة للزراعة ، هذا إلى أنه اتخذ من هذه البحيرة خزاناً واسعاً للماء الرى (٦٩) . واحتفرت قنوات عظيمة منها ما يصل النيل بالبحر الأحمر ، واستخدمت الصناديق الغاطسة للحفر تحت الماء (٧٠) ، ونقلت المسلات التى تزن ألف طن من

(*) إذا قلنا شاد الملك فإننا نقصده بطبيعة الحال أنه قد شيد فى عهده .

أماكن قاصية . وإذا جاز لنا أن نصدق ما ينقله لنا هيرودوت ، أو نحكم على أعمال السابقين بما نشاهده من صورها في النقوش الباردة التي خلفتها الأسرة الثامنة عشرة ، قلنا إن هذه الحجارة الضخمة كان يجرها آلاف من العبيد على عروق من الخشب مطلية بالشحم ، ثم ترفع إلى أماكنها في البناء على طرق طويلة تبدأ من أماكن بعيدة (٧١) . ولقد كانت الآلات نادرة لأن الجهد العضلي كان رخيصاً ، وليس أدل على هذا الرخص من نقص بارز صور فيه ثمانمائة من المحذفين يدفعون سبعة وعشرين قارباً تجر وراءها صندلا للنقل يحمل مسلتين (٧٢) . هذا هو العصر الذهبي الذي يريد من ينادون بتحطيم الآلات أن يعودوا إليه . وكانت سفن يبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها خمسين قدماً تتمخر عباب النيل والبحر الأحمر ، ثم انتقلت آخر الأمر إلى البحر المتوسط ، أما في البر فقد كانت البضائع ينقلها الحاملون ، ثم استخدمت في نقلها الحمير ثم الخيل ، وأكبر الظن أن الهكسوس هم الذين جاءوا بالخيول إلى مصر . ولم يظهر الجسمل في مصر إلا في عهد البطالمة (٧٣) . وكان الفقراء من أهل البلاد يتنقلون مشياً على الأقدام أو يستخدمون قواربهم البسيطة ، أما الأغنياء فكانوا يركبون رجايات (*) يحملها العبيد ثم صاروا فيما بعد يركبون عربات غير أنيقة الصنع يقع ثقلها كله أمام محور العجل (٧٤) .

وكان لدى المصريين بريد منتظم ؛ فقد جاء في بردية قديمة : « أكتب إلى مع حامل الرسائل » (٧٥) . إلا أن وسائل الاتصال لم تكن مع ذلك ميسرة ، فقد كانت الطرق قليلة غير معبدة ما عدا الطريق الحربي الممتد من نهر الفرات ماراً بغزة (٧٦) . وكان التواء النيل — وهو أهم وسائل الانتقال وقتئذ — مما ضاعف البعد بين المدن المختلفة . وكانت التجارة الداخلية بدائية نسبياً ، يتم معظمها بطريق المياضنة في أسواق القرى ، ونمت التجارة الخارجية نمواً بطيئاً ،

(*) الرجاجة اليهودج الصغير . (المترجم)

وعاقبها ما كان يفرض عليها من قيود شديدة أشبه ما تكون بأحدث الحواجز الجمركية المفروضة على التجارة الخارجية في هذه الأيام . ذلك أن ممالك الشرق الأدنى كانت قوية الإيمان بمبدأ « الحماية التجارية » لأن الضرائب الجمركية كانت مورداً للخزائن الملكية . على أن مصر مع هذا قد أثرت بما كانت تستورده من المواد الغفل وتصدره من المصنوعات . وكانت أسواق مصر خاصة بالتجار السوريين والكريتيين والقبرصيين ، كما كانت السفن الفينيقية تجرى في النيل من مصبه في الشمال إلى أرصفة طيبة الكثيرة الحركة في الجنوب (٧٧) .

ولم تكن النقود قد بدأت تستعمل في البيع والشراء ، ولذلك كان كل شيء ، حتى مرتبات أكبر الموظفين ، يؤدى سلماً ، حباً أو خبزاً ، أو خميرة ، أو بيرة أو نحوها . وكانت الضرائب تجبى عيناً ، ولم تكن خزائن الملك غاصة بالنقد بل كانت مخازن تكدم فيها آلاف السلع من منتجات الحقول وبضائع الحيوانات . ولما أخذت المعادن الثمينة تتدفق على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث شرع التجار يؤدون ثمن ما يبتاعونه من البضائع حلقات أو سبائك من الذهب تقدر قيمتها بالوزن في كل عملية تجارية ، ولم تضرب نقود ذات قيمة محددة تضمناها الدولة لتسهيل هذه العمليات . على أن نظام الائتمان قد نشأ بينهم وارتقى ، وكثيراً ما كانت التحاويل والصكوك المكتوبة تحل محل المقايضة أو الدفع فوراً ، وجد الكثرة في كل مكان يعجلون الأعمال بوثائق المبادلة القانونية . وأعمال المحاسبة والأعمال المالية .

وما من أحد زار متحف اللوفر إلا شاهد تمثال الكاتب المصري الجالس مطوى الساقين ، وجسمه كله يكاد يكون عارياً ، ومن خلف أذنه قلم احتياطي غير القلم الذى يمسكه بيده ، وهويدون مايقوم به ويسجل ما يؤدى من العمل ، وما يسلم من البضائع ، وأثمانها وأكلافها ، ومكسبها وخسارتها . يحصى الماشية الذاهبة إلى المذبح . والحبوب وهى تكال للبيع ، ويكتب العقود والوصايا ، ويقدر ما يجب على سيده أن يؤديه من ضريبة الدخل . والحق أنه لا جديد تحت الشمس .

وهو رجل حريص معنى يعمله بجده فيه نشيط نشاطاً آلياً ، أوفى قسطاً من الذكاء
ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذي يمنعه أن يكون خطراً ، حياته رتيبة مملة ،
ولكنه يوأسى نفسه بكتابة المقالات عما يكتنف حياة العامل البدوي من صعاب ،



شكل (١٣) تمثال الكاتب
المحفوظ في متحف اللوفر

وما يحيط بأولئك الذين طعامهم الورق ودماءهم المداد من عزة وكرامة
لا تقلان عن عزة الأمراء وكرامتهم .

٣ - نظام الحكم

الموظفون - الشرائع - الوزير - الملك

وكان الملك وأعيان الأقاليم يستعينون بهؤلاء الكتبة للمحافظة على النظام
وسلطان القانون في الدولة . وتصور بعض الألواح القديمة الكتبة يقومون بعملية
الإحصاء ويحسبون ما دخل الخزانة من ضريبة الدخل . ويستعينون بالمقاييس
النيلية التي تسجل ارتفاع ماء النهر على معرفة ماسيكون عليه موسم الحصاد ،
فيقدرون منه إيراد الحكومة في العام المقبل ، ويخصصون لكل مصلحة من
المصالح ما سيكون لها من نصيب في هذا الإيراد ، وكان عليهم فوق ذلك أن
يشرفوا على شئون الصناعة والتجارة : ولقد أفلحوا من بداية التاريخ تقريباً في
وضع نظام اقتصادي تشرف الدولة عليه (٧٨) .

وكانت القوانين المدنية والجنائية غاية في الرقي ، كما كانت قوانين الملكية
والميراث من أيام الأسرة الخامسة قوانين مفصلة دقيقة (٧٩) . وكان الناس جميعاً
متساوين مساواة تامة أمام القانون كما هم متساوون أمامه في هذه الأيام -
أي متى كان الطرفان المتنازعان متساويين في الموارد وفي النفوذ . وأقدم وثيقة
قانونية في العالم كله عريضة دعوى محفوظة الآن في المتحف البريطاني تعرض
على المحكمة قضية من قضايا الميراث المعقدة . وكان القضاة يطلبون أن يترافع في
القضايا ، وأن يرد على حجج المترافعين ، وأن يناقش أصحابها ويحاجون ، على
ألا يكون ذلك كله خطباً تلي بل مذكرات مكتوبة تقدم للقضاة - وهونظام
لا يقل في شأنه عن نظام التقاضي المعقد في هذه الأيام . وكان الحادث في يمينه
يعاقب بالإعدام (٨٠) . وكان للمصريين محاكم منظمة مختلفة الدرجات تبدأ من

مجالس الحكم المحلية في المقاطعات وتنتهى بالمحاكم العليا في منف أو طيبة أو عين شمس^(٨١). وكانوا يلجئون إلى التعذيب في بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف بالحق^(٨٢). وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة ، وكانوا يلجئون في بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجمع أنفه أو صلم أذنه أو قطع يده أو لسانه^(٨٣) ، أو نفيه إلى أقاليم المناجم ، أو إعدامه بالسنتق أو بالخزق ، أو بقطع رأسه أو بإحراقه مصلوباً ، وكان أشد ضروب العقاب هو تحنيط المعاقب حياً ، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه أكلاً بطيئاً^(٨٤) ؛ وكان المجرمون من علية القوم يجتنبون عار الإعدام علناً بأن يُسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم كما تفعل طبقة الساموراي في اليابان^(٨٥). ولم يُعثر على شواهد يستدل منها على وجود نظام للشرطة ، وحتى الجش العامل — وقد كان على الدوام صغير الحجم لأن في عزلة مصر وموقعها بين الصحراء والبحر ما يرد عنها المغيرين — قلما كان يستخدم لحفظ النظام في داخل البلاد .

ذلك أن الحياة والملكية والاطمئنان إلى سلطان القانون والحكومة تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيبة الملك . وكانت المدارس والهيكل دعامة هذه الهيبة وليس في العالم كله أمة غير مصر — إذا استثنينا الأمة الصينية — جروئت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن في البلاد .

لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاماً وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى في التاريخ . وكان الوزير على رأس الإدارة كلها ، يشغل منصب رئيس الوزراء ، وقاضى القضاة ، ورئيس بيت المال ، وكان الملجأ الأخير للمتقاضين لا يعلو عليه في هذا إلا الملك نفسه . وترى الوزير في نقش على أحد القبور يخرج من بيته في الصباح الباكر « ليستمع إلى مظالم الفقراء ، ويصغى » كما هو وارد في النقش « إلى ما يقول الناس في مطالبهم ، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم »^(٨٦) . وقد وصلت إلى نابردية مدهشة من عهد الإمبراطورية

تحتوى كما تقول هى نفسها على صورة الخطاب الذى كان يلقيه الملك حين يعين الوزير فى منصبه (ولربما كان هذا الخطاب قطعة أدبية من وضع كاتبها نفسه) :

« اجعل عينك على مكتب الوزير ، وراقب كل ما يحدث فيه . واعلم أنه هو الدعامة التى تستند إليها جميع البلاد . . . ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرّة . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام للشخصى للأمرء والمستشارين ، وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيداً . انظر ، إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شيء ، وأن يتبع فى كل شيء العرف السائد فى بلده ، وأن (يعطى كل إنسان) حقه . . . واعلم أن المحاباة بغیضة إلى الإله . . . فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن (بيته) . انظر ، إن الأمير الذى يفعل هذا سيبقى هنا فى هذا المكان . وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل فى حكمه . ارفع القواعد المفروضة عليك » (٨٧) .

وكان الملك نفسه هو المحكمة العليا . ، يستطيع رفع كل قضية إليه فى أحوال معينة ، إذا لم يعبأ المدعى بما يتطلبه رفعها إليه من النفقات . وتمثل بعض النقوش القديمة « البيت الأعظم » الذى يجلس فيه للحكم والذى تتجمع فيه دواوين الحكومة . وقد اشتقت من اسم هذا البيت الأعظم للذى كان المصريون يطلقون عليه لفظ « پيرو » والذى ترجمه اليهود إلى فرعوه ، اشتق من اسمه هذا لقب الملك نفسه . وفى هذا البيت كان الملك يضطلع بواجبه الشاق الرتيب من الأعمال التنفيذية ، التى كانت فى بعض الأحيان لا تقل فى كثرتها وفيما تتطلبه من جهود عن أعمال شسندرا جويتا (*) أو لويس الرابع عشر أو نابليون (٨٨) . وكان الملك إذا سافر قابله أمراء الإقطاع عند حدود إقطاعاتهم ، وساورا فى ركابه ، وأولوا له

(*) رأس أسرة الموريا التى حكمت الهند والألفان بعد الإسكندر ، وسيرد تاريخه مفصلاً عند الكلام على الهند . (المترجم)

الولائم ، وقدموا له من الهدايا ما يتناسب مع ما ينظرونه منه . وقد جاء في أحد النقوش أن نبيلاً من النبلاء أهدى أمنحوتب الثانى « عربات من الفضة والذهب وتماثيل من العاج والأبنوس ، وجواهر ، وأسلحة ، وتحفاً فنية » و٦٨٠ درعاً ، و١٤٠ خنجرأ من البرنز ومزهريات كثيرة من المعادن الثمينة (٨٩) . وجازاه الملك على هذا بأن أخذ ابنه معه ليعيش فى قصره - وهذه طريقة مأكرة لاتخاذ رهينة يضمن بها ولاء هذا الشريف . وكان يتألف من أكبر رجال البلاط سنأ مجلس شيوخ يسمى سارو ، أى مجلس العظماء ، مهمته أن يكون مجلساً استشارياً للملك (٩٠) . على أن هذه الاستشارة لم تكن فى الواقع ضرورية لأن الملك ومن ورائه الكهنة كان يدعى أنه من سلالة الآلهة وأن الآلهة نفسها قد وهبته السلطة والحكمة . وكان اتصاله بالآلهة على هذا النحو مصدر نفوذه وهيبته . ومن أجل هذا كانت تخلع عليه إذا خوطب صفات من الإجلال يدهش لها الإنسان أحياناً . من ذلك ما جاء فى قصة سنوحى إذ يحبيه مواطن صالح بقوله : « أيها الملك الطويل العمر ، أرجو أن تهب الواحدة الذهبية (أى الإلهة حتمحور) الحياة لأنفك » (٩١) .

وكان يقف على خدمة الملك - كما يليق بشخص هذه عظمتة - عدد كبير من مختلف الأعوان ، منهم القواد ، وغاسلو الملابس ، وقصّارها ، وحراس خزائنها ، وغيرهم من ذوى المراتب الرفيعة « وكان عشرون من الموظفين يشتركون فى تزيينه ، منهم حلاقون لا يُسمح لهم إلا بقص شعره وحلق لحيته ، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه ، ومدرمون يقضون أظافره ويدرمونها ، ومعطرون يعطّرون جسمه ويكحلون جفون عينيه ، ويحمرّون خديّه وشفتيه بالصبغة الحمراء » (٩٢) . وجاء فى نقش على أحد القبور أن صاحب القبر كان « المشرف على صندوق دهان الشعر والوجه ، المسيطر على الدهان ، حامل خُصّى الملك ، الذى يعنى بخفّية العناية التى يرضاهها القانون » (٩٣) . وكان الانحلال والضعف عاقبة هذا التمتع المفرط ، وكان الملك يلجأ فى بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسه وإزالة ما يعتريه من ملل

وسامة بمشهد طائفة من الفتيات في قلبه الملكي وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة . وكان الترف الذي انغمس فيه أمنحوتب الثالث هو الذي مهد السبيل لثورة إخناتون .

٤ - القانون الأخوتي

مضاجعة الملك لأقاربه - الحريم - الزواج - مركز المرأة - سلطان الأم في مصر - القوانين الأخلاقية الخاصة بهلاقة الرجال والنساء

لقد كانت حكومة مصر شبيهة بحكومة نابليون حتى في مضاجعة الملك لأقاربه ، وكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته ، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته ، ليحتفظ بالدم الملكي تقياً خالصاً من الشوائب . وليس من اليسير أن نحكم هل أضعفت هذه العادة قوة نسل الملوك أو لم تضعفه ؟ لكننا لا نشك في أن مصر لم تكن تعتقد هذا بعد أن ظلت تسير عليه عدة آلاف من السنين ، وانتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب حتى لقد وجد في القرن الثاني بعد الميلاد أن ثلثي سكان أرسينوتى يسرون على هذه السُّنة^(٩٢) . وكان معنى لفظي أخ وأخت في الشعر المصري القديم كعنى حبيب وحبيبة في أيامنا هذه^(٩٣) . وكان للملك فضلاً عن أخواته عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب وبعضهن من بنات الأعيان أو ممن أهداهن إليه الأقيال الأجانب . من ذلك أن أحد أمراء بلاد « نهرينا » أهدي إلى أمنحوتب الثالث ابنته الكبرى وثلثمائة من صفوة الفتيات^(٩٤) . وقد حذا بعض النبلاء حذو الملوك في هذا الإسراف وإن لم يبلغوا فيه مبلغهم ، فقد كان عليهم أن يوقفوا في هذه الناحية بين مبادئهم الخلقية ومواردهم المالية .

أما عامة الشعب فكان شأنهم شأن ذوى الدخل المتوسط في سائر الأمم ، يقنعون بزوجة واحدة . ويلوح أن الحياة العائلية كانت منظمة ، ذات مستوى

رفع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطان الأبوين ، ولا تقل في هذا عنها في أرق الحضارات في هذه الأيام . وكان الطلاق نادراً إلا في عهد الاضمحلال . وكان في مقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعرضها بشيء إذا زنت ، أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة .

كذلك كان الأزواج يملكون قصارى جهدهم في الإخلاص لزوجاتهم - على قدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم في هذه الأمور الخفية . . ولم يكن مستوهم في هذا أقل منه في المدينيات اللاحقة ، وكان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم في هذه الأيام . وفي ذلك يقول ماكس ملر : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادي النيل » (٩٧) . فالتقوس تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس ، ويقضين ما يحتاجه من المهام في الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن ، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن . ولشد ما دهش الرحالة اليونان - وقد اعتادوا أن يضيقوا على نساءهم السليطات - من هذه الحرية ، وأخلعوا يسخرون من الأزواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم . ويقول ديودور الصقلي - ولعله يهدف بقوله هذا إلى السخرية من المصريين - إن طاعة الزوج لزوجته في وادي النيل كانت من الشروط التي تنص عليها عقود الزواج (٩٨) . وهو شرط لا ضرورة للنص عليه في أمريكا ! وكان النساء يملكن ويورثن ، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق في التاريخ ، وهي وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيدة نب - سبت بأراضيها لأبنائها (٩٩) . وقد ارتقت حثشبوت وكليوبطرة عرش مصر وحكمتا وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون .

على أننا نجد أحياناً نغمة ساخرة في الآداب المصرية . من ذلك ما كتبه رجل من رجال الأخلاق الأقدمين يحذر قراءه من أن

احذر المرأة التي تأتيك من الخارج ، والتي لا يعرفها أهل مدينتها .
فلا ترفع بصرك إليها إذا أتت ، ولا تعرفها ، فهي كالدردور في الماء
العميق ، لا تستطيع أن تسبر غورها . وإن المرأة التي غاب زوجها لتكتب
إليك في كل يوم ، وإذا لم يكن معها شاهد عليها قامت ونشرت حولك
شباكها ، وما أشنعها من جريمة إذا أصفى إليها الإنسان (١٠٠) ! .

أما النغمة المصرية الخالصة فهي التي نسمعها في نصيحة بتاح حوتب لابنه
والتي يقول فيها :

إذا كنت ناجحاً ، وأثت بيتك ، وكنت تحب زوجة قلبك ، ماملاً بظنها
واكس ظهرها . . . وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذي تكون
فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه . . . وإن عارضتها كان في ذلك
خرابك (١٠١) .

وتحذر بردية بولاق الطفل تحذيراً يشهد بالحكمة البالغة فتقول :
ينبغي لك ألا تنسى أمك . . . فقد حملتك طويلاً في حنايا صدرها وكنت
فيها حملاً ثقيلاً ؛ وبعد أن أنمت شهورك ولدتك . ثم حملتك على كتفها ثلاث
سنين طوالاً وأرضعتك ثديها في فلك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك .
ولما دخلت المدرسة وتعلمت للكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك
ومعها الخبز والجمعة جاءت بهما من البيت (١٠٢) .

ويرجح أن هذه المكانة السامية التي كانت للمرأة إنما نشأت من أن المجتمع
المصري كان أميل إلى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشيء .
وشاهد ذلك أن المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة في بينها وكفى ، بل إن الأملاك
الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث ، وفي ذلك يقول بترى : « لقد كان الزوج
حتى في العهود المتأخرة ينزل لزوجته في عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه
المستقبلية (١٠٣) » ولم يكن سبب زواج الأخ بأخته أن وجودها معه قد ملأ بحبها قلبه ،
بل كان سببه أن الرجال كانوا يرغبون أن يستمتعوا بميراث الأسرة الذي كان ينحدر

من الأم إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة^(١٠٤) . على أن سلطان المرأة قد نقص قليلا على مر الزمن ، ولعل سبب هذا النقص هو أثر التقاليد الأبوية التي أدخلها الهكسوس ، وأثر انتقال البلاد من عزلتها للزراعية ومن حال السلم إلى طور الاستعمار والحرب . وزاد نفوذ اليونان في أيام البطلمة زيادة أصبحت معها حرية الطلاق ، وهي التي كانت تطالب بها المرأة في الأزمنة السابقة ، حقاً خالصاً للزوج لا ينازعه فيه منازع . بيد أنه حتى في ذلك الوقت لم يقبل هذا التطور إلا الطبقات العليا من أهل البلاد ، أما عامة الشعب فقد ظلت مستمسكة بالتقاليد القديمة^(١٠٥) . ولعل سيطرة المرأة على شئونها الخاصة هي التي جعلت قتل الأطفال أمراً نادر الحدوث . ويرى ديودور الصقلي أن من خواص المصريين أن كل طفل يولد لهم يلقي حظه الكامل من التربية والرعاية ، ويقول إن القانون كان يقضى على الأب الذي يرتكب جريمة قتل طفله بأن يحتضن الطفل القليل ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة^(١٠٦) . وكانت الأسر كبيرة ، والأطفال تغص بهم الأكواخ والقصور على السواء ، وكان الأثرياء منهم يلقون صعباً جمّة في إحصاء نسلهم^(١٠٧)

وحتى في مسائل الخطبة كانت المرأة هي البادئة . وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ووسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل ، فهي التي تطلب تحديد مواعيد اللقاء ، وهي التي تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة ، وهي التي تعرض عليه الزواج صراحة^(١٠٨) . وقد جاء في إحدى هذه الرسائل : « أى صديق الحميم ، إني أرغب في أن أكون ، بوصفى زوجتك ، صاحبة كل أملاكك^(١٠٩) » . ومن ثم نرى أن الحياء — وهو أمر يختلف عن الوفاء — لم يكن من صفات المصريين البارزة ، فقد كانوا يتحدثون عن الشؤون الجنسية بصراحة لم نعهد لها في التقاليد الأخلاقية المتأخرة عن عهدهم . وكانوا يزينون هياكلهم بصور ونقوش قليلة البروز تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم وضوح ، وكانوا يقدمون لموتاهم من الأدب الفاحش ما يسليهم في قبورهم^(١١٠) . لقد كان

الدم الذي يجري في عروق سكان وادي النيل دماً حاراً ، ومن أجل ذلك كانت البنات يصلحن للزواج في سن العاشرة ، وكان اتصال الفتيان والفتيات قبل الزواج حراً ميسراً ، ويقال إن إحدى السراري في أيام البطالة استطاعت أن تدخر من الأموال ما بنت به هرمًا . وحتى اللواط لم يكن معدوماً في مصر (١١١) . وكانت الفتيات الراقصات الشبهات بأمثالهن في اليابان يُقبَلن في أرقى مجتمعات الرجال ليقدمن للمجتمعين ضروب التسلية والمتعة الجنسية ، وكن يرتدين ملابس شفافة أو يكتفين أحياناً بالترزين بالخلخال والأساور والأقراط (١١٢) ولدينا شواهد على الفسوق الديني في نطاق ضيق . وكان من العادات المتبعة التي ظلت باقية إلى عهد الفتح الروماني أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة في طيبة وتندز لأمون . فإذا أضحت لكبر سنّها عاجزة عن رضاء الإله - أخرجت من خدمته بمظاهر التشریف والتعظيم ، وتزوجت ولقيت الترحيب والإجلال في أرقى الأوساط (١١٣) . لقد كانت لهذه الحضارة آراؤها ونزواتها التي تختلف عن آرائنا نحن ونزواتنا .

٥ - العادات

الأخلاق الشخصية - الألعاب - المظهر الخارجي - الأصباغ
والأدهان - الملابس - الخلي

إذا شئنا أن نستعيد في تخيلتنا صورة من الأخلاق الشخصية للمصريين الأقدمين ، وجدنا أن ليس من السهل أن نفرق بين هذه الأخلاق كما نقرأ عنها في آدابهم وبين ما كان يحدث في الحياة الواقعية . فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة في كتاباتهم . من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه :

أطعم الخبز لمن لا حقل له .

واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبداً الدهر (١١٤) .

وكثيراً ما يسسدى بعض الكبار إلى أبنائهم نصائح حميدة ، ففي المتحف

البريطاني بردية تعرف باسم : « حكمة أمنحوتب » (حوالى ٩٥٠ ق م) وهى تُعَدُّ أحد الطلاب لتولى منصب عام بطائفة من النواهى لا يبعد قط أن كان لها أثر فى واضح « أمثال سليمان » أو واضعها :

لا تطمع فى ذراع من الأرض ،
ولا تعتد على حدود أرملة ، ، ،
واحرق الحقل حتى تجد حاجاتك ،
وخذ خبزك من بيدرك ،
وإن قدحاً من الحب يعطيكه الله
لخير من خمسة آلاف تناها بالعنوان ، ، ،
وإن الفقر فى يد الله
لخير من الغنى فى المخازن ؛
وإن الرغيف والقلب مبهج
لخير من الغنى مع الشقاء . . . (١١٥) .

على أن ما تحويه هذه الآداب من دلائل التقوى والصالح لم يحل دون المطامع البشرية . ولم يكن المصريون الأقدمون إلا خلقاً لهم ما لساثر الخلق من مطامع ه لقد وصف أفلاطون الأثينيين بأنهم محبون للمعرفة ، والمصريين بأنهم محبون للثروة . ولعل فى هذا الوصف كثيراً من المغالاة دفعته إليها النعرة الوطنية ، ولكننا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن المصريين هم أمريكيو العالم القديم . فهم قوم مولعون بضخامة الحجم ، يحبون المباني الفخمة الكبيرة وهم مجدون نشطون جماعون للثروة ، علميون حتى فى خرافاتهم الكثيرة عن الدار الآخرة . وهم أشد الأمم الماضية استمساكاً بالقديم ، لم تبدل حالهم رغم ما طرأ عليهم من أحداث ، وظل فنانونهم يقلدون ما جرى به العرف القديم تقليداً كأنه أمر من أوامر الدين ، إذا نظرنا إلى آثارهم بدا لنا أنهم قوم واقعيون لا يعنون بالسخافات التى لاصلة لها

بالأمور الدينية . ولا يتقدرون الحياة تقديراً أساسه العاطفة ، يقتلون وضميرهم مستريح لأنهم لم يفعلوا ما يخالف الطبيعة البشرية . ولقد كان الجندي المصرى يقطع يمين العدو المقتول أو عورته ويأق بها إلى الكاتب المختص ليسجل له عمله هذا فى صحيفة حسناته (١١٦) . وفقد الناس فى عهد الأسر المتأخرة عاداتهم وصفاتهم الحربية لطول ما أدخلوا إلى الأمن فى الداخل وإلى السلام فيما عدا الحروب البعيدة عن ديارهم ، وكانت نتيجة هذا أن فئة قليلة من جنود الرومان استطاعت أن تسيطر على مصر كلها (١١٧) .

ولم كان أكثر ما نعرفه عن المصريين مستمداً من الآثار التى كشفت مقابرهم أو النقوش التى على جدران هياكلهم ، فقد خدعتنا هذه المصادفة المحضة فبالغنا فيما كانوا يتصفون به من جد ووقار . والحق أن بعض ما خلفوه من تماثيل ونقوش ، ومن قصص هزلية عن آلهتهم (١١٨) : ليشهد بأنهم كانوا على جانب غير قليل من المرح والفكاهة ، وقد كان لهم كثير من الألعاب والمهاريات العامة والخاصة كاللداما ، والرد (١١٩) ، وكانوا يقدمون اللاعب والدمى لأطفالهم كالبلى والكرة النطاطة والخدروف ، وكانوا يعتقدون مباريات فى المصارعة والملاكمة وصراع الثيران (١٢٠) ، وكان خدمهم يمسحون لهم فى أعيادهم ونزهتهم أجسامهم بالزيوت . وكانوا يضعون على رؤوسهم أكاليل الزهر ويسقون الخمر وتقدم لهم الهدايا .

ونستطيع استناداً إلى ما لدينا من رسومهم الملونة وتماثيلهم أن نصورهم خلقاً أقوياء الأجسام ، مفتولى العضلات ، عريضى المناكب ، مستلقى الخصور ، ممتلئى الشفاه ، منبسطة الأقدام لاعتيادهم الحفاء . وهذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نخيفة القوام ، طويلة فى هيئة ، ذات وجوه بيضاء وجباه متحدرة منتظمة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نجل ، وكانت بشرتهم بيضاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصل أسبوى لا إفريقى) ، ولكنها سرعان ما تلفحها شمس مصر فتسمر (١٢١) ، وقد جرى

العرف بين الفنانين المصريين على أن يرسموا الرجال حمرًا والنساء صفراوات ؛ ولربما كان هذان اللونان مجرد طرازين من الزينة للرجال والنساء . هذا شأن الطبقات العليا ، أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل بالصورة التي نراها في تمثال شيخ البلد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، كاسى القصب ، وذلك لطول كده وطعامه غير المتزن . وكانت ملاحه خشنة ، وكان أفتس الأنف أخشمه ، ذكياً ولكنه خشن الطباع . ولربما كان الشعب وحكامه من سلالتين مختلفتين ، شأنهم في هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل أسوى وعامة الشعب من أصل إفريقي . وكان شعرهم أسود ، ألحجن في بعض الأحيان ، وكلما كان قبطاً . وكان النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه في هذه الأيام ؛ وكان الرجال يخلقون لحاهم ويخفون شواربهم ويزينون أنفسهم بشعور مستعارة فخمة . وكثيراً ما كانوا يقصون شعر رؤسهم ليسهل عليهم لبس هذه الشعور المستعارة . وحتى زوجة الملك نفسها كانت تقص شعرها كله ليسهل عليها لبس التاج والشعر الملكي المستعار (كما ترى هذا في صورة تي أم إختاتون) . وكان من المراسم التي لا يستطيع الملك الخروج عليها أن يلبس أكبر صغيرة مستعارة (١٢٢) .

وكانوا يستعينون بفنون التجميل على لإصلاح عيوب أجسامهم كل منهم حسب موارده . فكانوا يحمرون أوجهم وشفاههم ويلونون أظافرهم ، ويدهنون أعضاء أجسامهم بالزيت ، وحتى تماثيل المصريين كانت تكحل عيونها . وكان ذوو اليسار منهم يضعون في قبور موتاهم سبعة أنواع من الأدهان ونوعين من الصبغة الحمراء . وقلدو جدت بين آثارهم كميات كبيرة من أدوات الزينة ، والمرايا ، والمواسي ، وأدوات تجميع الشعر ، ودبايبسه ، والأمشاط ، وصناديق الأدهان ، والصحف والملاعق — مصنوعة من الخشب ، أو العاج ، أو المرمر ، أو البرنز ، ذات أشكال جميلة تتفق والأغراض التي تستخدم فيها . ولا تزال بعض أصباغ للعيون باقية في أنابيبها إلى يومنا هذا ، وليس الكحل الذي تستعمله النساء في هذه الأيام لتزين حواجهن ووجوههن إلا صورة أخرى من الزيت الذي كان المصريون

يستخدمونه في غابر الأيام » وقد وصلت إلينا هذه العادة عن طريق العرب ، واشتق من اسمه العربي « الكحل » لفظ « الكحول » الذي نستعمله الآن ، وكانت العطور على اختلاف أنواعها تستخدم لتعطير الجسم والثياب ، كما كانت المنازل تبخر بالبخور والمر (١٢٣) ،

وسارت ملابسهم في جميع مراحل التطور من عرى البدائيين إلى أفخم ملابس عصر الإمبراطورية ، ففي أول الأمر كان الأطفال ذكوراً وأنساً يظلون حتى الثالثة عشرة من عمرهم عراة الأجسام إلا من الأقراط والقلائد . غير أن البنات كن يظهرن شيئاً من الخفر الخليق بهن فيتمنطقن بمنطقة من الخرز في أوساطهن (١٢٤) . وكان الخدم والزراع يقتصرون على قطعة من القماش تستر عوراتهم . فلما كان عهد الدولة القديمة كان الأحرار من الرجال والنساء يسرون وأجسامهم عارية من فوق السرة ، مغطى ما تحتها إلى للركبة بإزار قصير ضيق من الكتان الأبيض (١٢٥) ، ولما كان الحياء وليد العادة لا الطبيعة فإن هذه الثياب البسيطة كانت ترضى ضمير هؤلاء القوم ، كما كان الإنجليز في العصر الفكتوري يرتضون النقبة (الجونيل) والخصار (*) أو ثياب السمرة التي يلبسها الرجال من الأمريكيين في هذه الأيام . وما أصدق القول المأثور : « ليست فضائلنا إلا معاني تخلعها الأيام على الأفعال والعادات » ، وحتى التساوسة أنفسهم في عصر الأسر المصرية الأولى كانوا يكتفون بستر عوراتهم كما تشهد ذلك في تمثال رنوفر (١٢٦) . فلما زادت الثروة كثرت الملابس ، فأضفت الدولة الوسطى إزاراً ثانياً فوق الإزار الأول وأكبر منه ، وأضافت الدولة الحديثة غطاء للصدر وذئراً للكتفين كان يلبس من حين إلى حين . وكان سائقو المركبات وسائسو الخيل يرتدون حلاً فحمة كاملة ويعبدون في الشوارع بحلهم هذه ليفسحوا الطريق لمركبات أسيادهم . ونبتت النساء المزهر الضيق في عصور الرخاء المتأخرة واستبدلن به ثوباً فضفاضاً

(*) مشد الحصر (الكورسيه) .

ينزل من الكتفين ويربط بمشبك تحت الثدي الأيمن ، وظهرت الأتواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التي لا يحصى عديدها ، وتسربت الأنماط والطرز الحديثة إلى البيوت تمسب الأفاعى لتفسد على أصحابها جنة العرى البدائية (١٢٧) .

وكان الرجال والنساء سواء في الشغف بالحلى والزينة ، فكانوا يحلون بالجواهر أعناقهم وصدورهم ، وأذرعهم ، ومعاصمهم ، وأوساغهم ، ولما عم الرخاء البلاد وزاد ثراء أهلها بما جاءها من خراج أملاكها في آسية ، ومن مكاسب تجارة بلاد البحر المتوسط ، أصبح التحلى بالجواهر مطلباً يهواه جميع المصريين ، ولم يعد ميزة للطبقات الموسرة ؛ فكان لكل كاتب وتاجر خاتمه المصنوع من الفضة أو الذهب ، ولكل رجل خاتم في إصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . وكانت هذه القلائد من أنماط لا حصر لها كما يدل على ذلك ما تراه منها اليوم في المتاحف ، فمنها ما لا يزيد طوله على بوصيتين أو ثلاث بوصات ، ومنها ما يبلغ طوله خمس أقدام ، ومنها ما هو سميك ثقيل ، ومنها ما يضارع « أجمل مخمرات مدينة البندقية خفة ولينا (١٢٨) » . وأضحت الأقرط في الأسرة الثامنة عشرة حلية لا غنى عنها . فكان لا بد لكل شخص أن تحرق أذنه لتحلى بقرط ، ولم تختص بالأقرط للنساء وللبنات ، بل كان يتحلى بها أيضاً الأولاد والرجال (١٢٩) . وكان الرجال والنساء على السواء يزينون أجسامهم بالأساور والخواتم والأنواط والقلائد من الخرز والحجارة الثمينة . وملاك القول أن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئاً عن أدهان الشعر والوجه والجواهر لوأنهن بعثن بيننا في هذه الأيام .

٦ - القراءة والكتابة والتعليم

التعليم - مدارس الحكومة - الورق والخبر - مراحل
تطور الكتابة - أشكال الكتابة المصرية

كان الكهنة يلقنون أبناء الأسر الغنية مبادئ العلوم في مدارس ملحقة بالهيكل كما هي الحال في أبرشيات طوائف الكاثوليك الرمان في هذه الأيام (١٣٠)

ويطلق أحد الكهنة - وقد كان يشغل المنصب الذى يصح أن نسميه فى هذه الأيام وزير المعارف - على نفسه اسم « رئيس الاصطبل الملكى للتعليم » (١٣١) ، وقد عثر فى خرائب إحدى المدارس التى يبدو أنها كانت جزءاً من بناء الرمسيوم على عدد كبير من المهار لا تزال دروس المعلم للقديم ظاهرة عليها . وكان عمل المدرس فى تلك الأيام هو تخريج الكتبة للقيام بأعمال الدولة ، وكان المدرسون يستحثون تلاميذهم على الإقبال على التعليم بتدبير المقالات البليغة يشرحون فيها مزاياه . من ذلك ما جاء فى إحدى البرديات : « أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك ، فلا شيء فى العالم يعدل العلم فى قيمته » . وتقول بردية أخرى : « ليس ثمة وظيفة إلا لها من يسيطر عليها . لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه » . وكتب أحد المولعين بمطالعة الكتب يقول : « إن من سوء الحظ أن يكون الإنسان جندياً ، وإن حرث الأرض لعمل ممل ، أما السعادة فلا تكون إلا فى توجيه القلب إلى الكتب فى النهار والقراءة فى الليل » (١٣٢) :

وقد وصلت إلينا كراسات من عهد الدولة الحديثة وفيها إصلاح المدرسين لأخطاء التلاميذ يزين هوامشها ، وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة حداً يجعل فيه تلميذ اليوم كثيراً من السلوى (١٣٣) . وكان الإملاء ونقل النصوص أهم طرق التعليم ، وكانت هذه الدروس تكتب على الشقف أو على رقائق من حجر الجير (١٣٤) . وكان أكثر ما يعلم هو الموضوعات التجارية ، وذلك لأن المصريين كانوا أول الأقوام النفعيين ، وأعظمهم استمسكاً بالنظرية النفعية ، وكانت الفضيلة أهم الموضوعات التى يكتب فيها المعلمون وكانت مشكلة النظام أهم المشاكل التعليمية فى تلك الأيام ، كما هى أهم مشاكله فى الوقت الحاضر . وقد جاء فى إحدى الكراسات : « لا تضع وقتك فى التمنى ، وإلا ساءت عاقبتك » : اقرأ بفمك الكتاب الذى بيدك ، وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك » . ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات . وكان

النظام صارماً يقوم على أبسط المبادئ . وقد جاءت تلك العبارة المنمقة اللفظ في إحدى المخطوطات : « إن للشباب ظهراً ، وهو يلتفت للدرس إذا ضرب . . . لأن أذن الشاب في ظهره » . وكتب تلميذه إلى مدرس سابق يقول : « لقد ضربت ظهري ، فوصل تعليمك إلى أذني » ومما يدل على أن هذا التدريب الحيواني لم يفلح على الدوام ما جاء في إحدى البرديات التي بأسف فيها مدرس لأن تلاميذه السابقين لا يحبون الكتب بقدر ما يحبون الخمر (١٣٥) .

لكن عدداً كبيراً من طلبة الهيكل تخرجوا رغم هذا على أيدي الكهنة ودخلوا المدارس العليا الملحقة بمكاتب خزانة الدولة . وفي هذه المدارس ، وهي أقدم ما عرف من المدارس التي تعلم نظم الحكم ، كان الكتبة يدرسون نظم الإدارة العامة ، حتى إذا ما أتموا دراستهم قضوا مدة التمرين عند بعض الموظفين يعلمونهم بكثرة ما يعهدون إليهم من الأعمال . ولعل هذه الطريقة في الحصول على الموظفين العموميين وتدريبهم أفضل من الطريقة التي تتبعها نحن في هذه الأيام طريقة اختيار الموظفين على أساس أقوال الناس فيهم ، واستعدادهم للطاعة والخضوع ، وما يثار حولهم من دعاوة . وعلى هذا النمط أنشأت مصر وبابل في عصر واحد تقريباً أقدم ما عرف من النظم المدرسية في التاريخ (١٣٦) ، ولم يرق نظام التعليم العام للشبان فيما بعد إلى هذا المستوى الذي بلغه في أيام المصريين الأقدمين إلا في القرن التاسع عشر .

وكان يسمح للطالب في الفرق الراقية أن يستعمل الورق - وهو من أهم السلع في التجارة المصرية ومن أعظم النعم الخالدة التي أنعم بها المصريون على العالم وكانت طريقة صنعه أن تقطع سوق نبات البردي شرائح توضع متقاطعة بعضها فوق بعض ثم تضغط ويصنع منها الورق عماد المدينة (١٣٧) ، (وأعظمها سخفاً) . وحسبنا دليلاً على حسن صنعه أن ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف عام لا يزال حتى الآن باقياً متماسكاً سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع

من الأوراق بضمها بعضها إلى بعض وإلصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التي تليها ، فتكون منها ملفات يبلغ طول الواحد منها أحياناً نحو أربعين ياردة ، وقلما كانت تزيد على هذا في الطول لأن مصر لم يكن فيها مؤرخون . ولعون بالحشو واللغو . وكانوا يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى بمزج الصنّاج والصمغ الشبّاق بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسّام (١٣٨) ؛

وبهذه الأدوات الحديثة الطراز كان المصريون يكتبون أقدم الآداب ، ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسية ، وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير (١٣٩) . ويبدو أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية - تعبر عن الشيء برسم صورة له . فكانت كلمة بيت مثلاً (وهى فى اللغة المصرية بر) يرمز لها بشكل مستطيل ذى فتحة فى أحد طولىه . ولما كانت بعض المعانى مجردة إلى حد يصعب معه تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعوض عن التصوير بوضع رموز للمعانى ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التى توحى بها لا عن الشيء المصور نفسه ، فكان مقدم الأسد يعبر عن السيادة (كما هو فى تمثال أبى الهول) ، وكان الزنبور يعبر عن الملكية ، وفرخ الضفدع عن الآلاف . ثم تطورت هذه الطريقة تطوراً جديداً فى هذا الطريق نفسه ، فأصبحت المعانى المجردة التى عجزوا فى بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صور لأشياء تشبه أسماؤها مصادفة الألفاظ التى تعبر عن هذه المعانى . من ذلك أن صورة الميزهر لم تكن تعنى الميزهر نفسه فحسب بل كان معناها أيضاً طيّب أو صالح لأن منطق اسم الميزهر فى اللغة المصرية - نيزير - شبيه بمنطق اللفظ الذى يعبر عن معنى طيب أو صالح - نُفِير - . ولشأت من ههنا الجناس اللفظى ، أى من الألفاظ المتفقة فى اللفظ ، والمختلفة المعنى - تراكيب غاية فى الغرابة . من ذلك أن فعل الكينونة كان يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ **فويرو** . وقد عجز الكاتب

المصرى فى أول الأمر عن إيجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى انتهى أخيراً إلى تقطيع الكلمة إلى ثلاثة مقاطع خو - ي - دو . ثم عبّر عن هذه المقاطع الثلاثة بصور الغربال (الذى يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ خو) وبالحصيرة (ي) وبالفم (دو) . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا إخليل العجيب من الحروف يوحى بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصرى مقاطع الكلمة ، والصورة التى ترمز لكل مقطع ، ومجموعة الصور التى ترمز لكل لفظ ، فكان الكتاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع ، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون ، فلا يكاد يوجد معنى من المعانى لا يستطيعون التعبير عنه بعلامة أو بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية إلا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعنى أولاً كلمة البيت - بر . ثم أصبحت رمزاً للصوت بر ، ثم لمذنب الحرفين أيا كانت حركاتهما وفى أية كلمة جاءت ، ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء أيا كانت حركتها وفى أية كلمة كانت . وإذا كانت الحركات لا تكتب عقب الحروف بل تهمل كلية فإن هذه الصورة أصبحت تمثل حرف الباء . وعلى هذا الفهم عينه أصبحت العلامة الدالة على اليد (وتنطق باللغة المصرية دت) تعنى د ، د ثم أصبحت هى حرف د ، وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم (ر ، ر) ثم أصبحت حرف ر ، والعلامة للدالة على الثعبان هى حرف ز ، وعلامة البجيرة (شى) هى حرف ش - الخ . وكانت نتيجة هذا التطور أن وجدت حروف هجائية عدتها أربعة وعشرون حرفاً انتقلت مع التجارة المصرية الفينيقية إلى جميع البلاد الواقعة حول البحر

المتوسط ، ثم انشرت عن طريق اليونان ورومة حتى صارت أئمن ما ورثته الحضارة من بلاد الشرق (١٤٠) . والكتابة الهيروغليفية قديمة قدم الأسر المصرية الأولى ، أما الحروف الهجائية فكان أول ظهورها في النقوش التي خلفها المصريون في مناجم سيناء ، ويرجعها بعض المؤرخين إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وبعضهم إلى عام ١٥٠٠ ق . م (١٤١) (*) .

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها لحكمة في ذلك أو لغير حكمة ، بل ظلوا إلى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الأفكار وعلى مقاطع الكلمات . ومن أجل هذا صعب على العلماء أن يقرأوا الكتابة المصرية ، ولكن من السهل علينا أن نتصور أن هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال قد سهل عملية للكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها . وإذا كانت أصوات الكلمات الإنجليزية لا تعد مرشداً أميناً لهجائها ، فإن الشاب الذي يريد أن يتعلم أساليب الهجاء الإنجليزية يجد فيها من الصعوبة ما كان يجده الكاتب المصرى في حفظ الخمسمائة رمز هيروغليفي ، ومعانيها المقطعية ، واستعمالها حروفاً هجائية . ومن أجل هذا نشأ شكل سريع سهل من أشكال الكتابة استخدم في الكتابات للعادية ، واحتفظ بالطراز الأول منها ليستخدم في « النقوش المقدسة » على الآثار . وإذا كان الكهنة وكتبة الهيكل هم أول من مسح الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد أطلق اليونان عليها اسم الكتابة الهيرواطية (المقدسة) ، ولكنها سرعان ما عم استخدامها في الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة أكثر من النمط الثانى اختصاراً

(*) يعتقد سير تشارلس مارستن معتمداً على أبحاثه الحديثة في فلسطين أن الحروف الهجائية من اختراع الساميين ، ويعزوها إلى إبراهيم الخليل نفسه (١٤١) ويذكر لهذا أسباباً وهمية إلى أبعد حدود الوهم .

وأقل منه عناية ، ولذلك سُمي بالكتابة الديموطيكية (الشعبية) . لكن المصريين كانوا يصرون على ألا ينقشوا على آثارهم إلا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة - ولعلها أجل نمط من الكتابة عرف حتى الآن :

٧ - الآداب

النصوص ودور الكتب - السندباد المصري - قصة سنوحى - الآداب الخيالية - قطعة غرامية - أشعار الحب - التاريخ - ثورة في الأدب

إن معظم ما بقى من آداب مصر القديمة مدون بالكتابة الهيروغليفية ، وهذا القدر الباقى قليل لا يغنى ، ولهذا فلننا لا نستطيع الحكم على الأدب المصرى القديم إلا من هذه البقايا القليلة ، وهو حكم أعمى للمصادفة فيه النصيب الأوفر . ولعل الزمان قد عدا على أعظم شاعر فى مصر ، ولم يبق إلا شعراء البلاط . وقد كان للمصريين دور كتب وخزنة عليها ، فقد كتب على قبر موظف كبير فى الأسرة الرابعة أنه « كاتب دار الكتب » (١٤٢) . ولنا نعرف أكانت هذه الدار البدائية مستودعاً للأدب ، أم أنها لم تكن إلا مخزنًا مترياً للسجلات والوثائق العامة . وأقدم ما بقى من الأدب المصرى القديم هو « نصوص الأهرام » وهى موضوعات دينية ورعة منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة (١٤٣) . وقد وصلت إلينا مكثبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق . م وتحوى برديات مطوية ومحفوفة فى جرار معنونة ومصفوفة على رفوف (١٤٥) . وعثر فى إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور السندباد البحرى ، أو لعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة روبنسن كروزو :

(*) ووجدت طائفة أخرى من النقوش الجنائزية من عصر متأخر عن هذا مكتوبة بالخبر على السطح الداخلى لبعض التوابيت الخشبية التى صنعت لتوضع فيها جثث بعض النبلاء وكبار الموظفين فى أيام الدولة الوسطى . وقد أطلق برستد وغيره من العلماء عليها كلها اسم « نصوص التوابيت » (١٤٤) .

وهذه القصة « قصة الملاح الذى حطمت سفينته » قطعة من ترجمة ذاتية للحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً . ويقول هذا الملاح القديم فى أحد سطورها قولاً يذكرنا بقول دانتي : « ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت به ! » . يقول هذا الملاح فى مطلع هذه القصة :

« سأقص عليك شيئاً حدث لى حين يمت شطر مناجم الملك ونزلت البحر فى سفينة طولها مائة وثمانون قدماً وعرضها ستون ، وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين ، خبرين بمعالم الأرض ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأساً . . . من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور . وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال فى البحر . . . ودفعتنا الرياح حتى كنا نظير أمامها . . . وثارت موجة علوها ثمان أذرع . . .

ثم تحطمت السفينة ، ولم ينج أحد ممن كان فيها ، وألقت بى موجة من أمواج البحر فى جزيرة ، قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردى لارقيق لى لأقلبى ؛ أنام تحت شجرة وأعانق الظلال ، ثم مددت قدى أبحت عما أستطيع أن أضعه فى فى ؛ فوجدت أشجار التين والكروم وجميع صنوف الكراث الحميل . . . وكان فيها سمك ودجاج ولم ينقصها شىء قط . . . وبعد أن صنعت لنفسى جهازاً أوقد به النار أشعلتها وقربت للآلهة قرباناً مشويماً (١٤٦) » .

وتروى قصة أخرى مغامرات سنوحى ، وهو موظف فر من مصر على أثر وفاة أمنمحيث الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد فى الشرق الأدنى ، وحظى فيها بضروب من النعيم والشرف ولكنه رغم هذا لم يطق صبراً على ما حل به من آلام الوحدة والحنين إلى وطنه . وبرح به الألم آخر الأمر حتى ترك ثروته وعاد إلى مصر وقاسى فى طريقه إليها كثيراً من الشدائد والأهوال . وقد جاء فيها :

« ألايتها الإله ، أيا كنت ، يا من قدرت على هذا الفرار ، أعدتني إلى البيت (أى الملك) . ولعلك تسمح لى أن أرى الموضع الذى يقيم فيه قلبى ،

وأى شيء أعظم من أن تدفن جثتي في الأرض التي ولدت فيها ؟ أعننى على أمرى ! وليصبنى الخير ، وليرحمنى الله ! .

ثم نراه بعدئذ وقد عاد إلى وطنه ، متعباً ، يعلوه العثير من طول السفر في الصحراء ، يخشى أن ينهره الملك لطول غيابه عن بلد يراه أهله - كما يرى للناس بلادهم صائر الأزمان - البلد المتحضر الوحيد في العالم : ولكن الملك يعرف عنه ويحسن استقباله ويحبوه بكل أنواع العطور والأدهان :

« وأقت في بيت أحد أبناء الملك ، حيث توجد أفخر ضروب الأثاث ، وكان فيه حمام . . . وزالت عن جسمي آثار السنين الطوال ؛ وقص شعري ، ومشط ، وطرح في الصحراء حمل (من الأقدار ؟) وأعطيته الملابس (القلدة) لرواد الرمال . وجيء لى بأرق الملابس الكتانية وعطر جسمي بأحسن الزيوت » (١١٧) .

أما القصص القصيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من بقايا الأدب المصري القديم . ومن هذه قصص عجيبة بديعة عن الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التي تخلب الألباب والتي لا تقل في مسبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التي يصدقها رجال الحكم في هذه الأيام . ومنها روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات ، والملوك ، والملكات ، ومن بينها أقدم مثال معروف لقصة سندرلا ، وقدمها الصغيرة الجميلة ، وحداثها الجوال ، وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك (١١٨) . وفيها قصص خرافية على لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص آدميين وشهواتهم وعواطفهم ، وتهدف في حكمة وتعقل إلى معان خلقية سامية (١١٩) ، كأنما هي منقولة عن خرافات إيزوب ولافتين .

ومن القصص المصرية التي تمزج الحوادث الطبيعية المعقولة بخوارق الطبيعة ، والتي تعد نموذجاً لغيرها من القصص المصرية ، قصة أنوبيو وبيتيو ، وهما أخوان صغير وكبير ظلل يعيشان عيشة راضية سعيدة في مزرعة لها حتى هامت زوجة

أنوبو بحب بيتيو ، فردها عن نفسه ، فانتقمت منه بأن وشت به إلى أخيه وأتهمته بأنه أراد بها سوءاً . وجاءت الآلهة والتامسيح لتعين بيتيو على أنوبو وأكن بيتيو ينفر من بنى الإنسان ويضيق بهم ذرعاً ويبتز نفسه ليهربن بذلك على براءته ، ويعتزل العالم إلى الغابات كما فعل تيمن الأثيني (*) فيما بعد . ويعلق قلبه في أعلى زهرة في شجرة لا يستطيع الوصول إليها أحد . وتشفق عليه الآلهة في وحدته فتخلق له زوجة رائعة الجمال يشغف النيل بجها لفرط جمالها ، ويختلس غديرة من شعرها . وتحمل مياه النهر هذه الغديرة فيعثر عليها الملك ، فيسكره عطرها ، ويأمر أتباعه بالبحث عن صاحبها . ويعثر هؤلاء عليها ويأتونه بها ، ويتزوجها ، وتدب في قلبه الغيرة من بيتيو فيرسل رجاله ليقطعوا الشجرة التي علق عليها بيتيو قلبه ، ويقطعها هؤلاء ولا تكاد الزهرة تلمس الأرض حتى يموت بيتيو (١٥٠) . ألا ما أقل الفرق بين أذواقنا وأذواق من سبقونا من الخلق !

وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية ، وأقدم القصائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام . وصيغتها هي أيضاً أقدم الصيغ المعروفة لنا ، وهي عبارة عن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها في المزامير (١٥١) . وفي عصر الانتقال من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى تصطبغ الآداب تدريجاً بالصبغة الدنيوية « الدنسة » . وفي قطعة من بردية قديمة لحقة خاطفة تشير إلى طائفة من الأدب الوجداني بقيت لنا لأن كاتباً من كتبة الدولة القديمة قد منعه الكسل أن يتم محوماً على هذه البردية من كتابة فبقى عليها خمسة وعشرون سطراً تستطيع قراءتها ، وتروى قصة لقاء بين راع وإحدى الإلهات . وتقول هذه القصة « إن الإلهة التقت بالراعى وهو سائر في طريقه إلى البركة ، وكانت قد خلعت ملابسها وأرخت شعرها » . ويروى الشاعر ما حدث بعدئذ رواية الحذر الحريص فيقول :

(*) انظر قصة تيمن الأثيني في ترجمتنا العربية لكتاب « قصص من شيكسبير » .

« إليك ما حدث حين نزلت إلى المستنقع . . رأيت فيه امرأة لم تكن صورتها كصورة الخلائق الفنائين . وانتصب شعري قائماً على أطرافه حين أبصرت غداثها ، وذلك لفرط جمالها وبهاثها . ولن أفعل قط ما قالت لي ، فقد تملكك الرهبة منها جسدي » (١٥٢) .

ولدينا من أغاني الحب الجميلة عدد كبير ، ولكن معظمها يتحدث عن غرام الإخوة والأخوات (*) ، ولهذا تسخر منه أذن السامع في هذه الأيام وتصطلك لسامعه . ومن هذه الأغاني مجموعة سميت « الأغاني الجميلة السارة التي غنتها أختك حبيبة قلبك ، التي تسير في الحقول » .
ولدينا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها :

إن غرام حبيبتي يقفز على شاطئ الغدير ؛
وفي الظلام تمسح رابض ؛
واكنني أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج .
ويشتد بأسى فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمي سواء ،
لأن حبها يملأ قلبي قوة .
فهى لي كتاب من الرق والتعاويد .
وإذا رأيت حبيبتي مقبلة ابتهج لمرآها قلبي
وفتحت ذراعي ومددتها لأضمها إلى صدري
وينشرح قلبي أبد الدهر . . . لأن حبيبتي قد أقبلت .

(*) يظن بعض المؤرخين أن لفظي الأخ والأخت اللذين يبردان في الأغاني الغزلية المصرية لا يقصد بهما دائماً أن الفتاة ابنة أب واحد أو أم واحدة ، بل قد يكونان لفظي إعرار يطلق على الحب أو المحبوبة . (المترجم)

فإذا ما ضمنتها كنت كمن في أرض البخور ،
وكمن يحمل العطور ،
وإذا قبلتها انفرجت شفتها
وسكرتُ من غير نحر ،
يا ليتنى كنت جاريها الزنجية التي تقف بين يديها
حتى أرى لون أعضائها كلها (١٥٣) .

وقد قسمنا نحن هذه السطور من عندنا على غير قاعدة ، وليس بوسعنا أن نستدل من الصورة الأصلية لهذه الوثيقة على أن ما عليها شعراً أو نثر . لقد كان المصريون يعرفون أن النغمة الموسيقية والعاطفة القلبية هما جوهر الشعر وقوامه ، فإذا ما وجدت النغمة والعاطفة فلن تهتم بالصورة الخارجية قط . على أن العبارات في بعض الأحيان كان لها وزن يقاس بالنبرات . وكان الشاعر في بعض الأحيان يبدأ كل جملة أو مقطوعة بنفس الكلمة التي بدأ بها غيرها من الجمل أو المقطوعات السابقة ، وكان يعتمد أحياناً إلى الجناس اللفظي فيأتي بالألفاظ المتشابهة في أصواتها ذات المعاني المختلفة أو المتناقضة ، وتدل النصوص على أن تجنيس الأحرف في أوائل الكلمات المتتالية قديم قدم الأهرام نفسها (١٥٤) . وكان حسب المصريين هذه الصيغ النسيطة ، فقد كان في مقدور شاعرهم أن يعبر بها عن كل لون من ألوان الحب العذري الذي يظن نيتشه أنه من اختراع شعراء الفروسية الغزلين في أوروبا في العصور الوسطى وتدل بردية هرسى على أن المرأة كانت تستطيع أن تعبر عن هذه العواطف كما يعبر عنها الرجل :

أنا أحتك الأولى ،
وأنت لى كالروضة
التي زرعت فيها الأزهار
والأعشاب العطرية جميعها ،

وأجريتُ فيها غديرًا
لكى تضع فيها يدك
إذا ما هبت ريح الشمال باردة .
وهى المكان الحميل الذى ننتزه فيه
حين تكون يدى فى يدك .
يفكر عقلانا ويتهيج قلبانا
لأننا نسير معاً ؛
إن سماع صوتك ليسكرنى ،
وحياتى كلها فى سماعك ،
وإن روئيتك
لأحب إلى من الطعام والشراب (١٥٥) .

وإذا نظرنا إلى هذه القطع الباقية فى مجموعها اعترتنا الدهشة من تباين موضوعاتها ، فهى تشمل رسائل رسمية ، ووثائق قانونية ، وقصصاً تاريخية ، وطلاسم سحرية ، وترنيمات مجهدة ، وكتباً دينية مليئة بعبارات التقي والورع ، وأغاني الحب والحرب ، وأفاصيص غرامية قصيرة ، ونصائح تحض على حسن الخلق ، ومقالات فلسفية ، وجملة القول أن فيها مثلاً من كل شئ عدا الملاحم والتمثيلات ، وحتى هذه يستطيع الإنسان أن يقول مع بعض التجاوز إن فيها أمثلة منها . وإن قصة النصر الذى أحرزه رمسيس الثانى بجرأته المدهشة والتى نقشت شعراً على حجارة أبواب الأقصر العظيمة هى ملحمة على الأقل فى طولها وفيما تبعته فى نفس قارئها من ملل . ويتباهى رمسيس الرابع فى نقش آخر بأنه فى بعض الألعاب قد حى أوزير من ست وأعاد الحياة إلى أوزير (١٥٦) . وليس لدينا من المعلومات ما نستطيع به أن نبسط القول فى معنى هذه الإشارة .

وكتابة التاريخ فى مصر قديمة قدم التاريخ نفسه ، بل إن ملوك عصر ما قبل

الأسر كانوا يحتفظون بسجلات تاريخية تفاخراً وإعجاباً بأنفسهم^(١٥٧) . وكان المؤرخون الرسميون يصحبون الملوك في حملاتهم ، ولكنهم لا يصرون هزائمهم ، بل يسجلون ، أو يخترعون من عندهم ، تفاصيل نصرهم ، لأن كتابة التاريخ كانت قد أصبحت حتى في ذلك العصر البعيد للزينة والتجمل . وأخذ العلماء المصريون من عام ٢٥٠٠ ق . م يكتبون قوائم بأسماء ملوكهم ، ويؤرخون السنين بحكمهم ، ويذكرون الحوادث الهامة في كل حكم وفي كل عام . فلما تولى تحتمس الثالث الملك كانت هذه الوثائق قد أصبحت تواريخ بحق ، تفيض بالعواطف الوطنية^(١٥٨) . وكان فلاسفة الدولة الوسطى يرون أن الإنسان والتاريخ نفسه قد تقدم بهما العهد وأضنتهما الشيخوخة ، وأخذوا يندبون ما انقضى من شباب جنسهم الفنى . وشكوا عالم في عهد سنوسريت الثانى أى حوالى ٢١٥٠ ق : م من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . وقال فى أسى وحسرة : « ألا ليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالاً بلغة جديدة لم ينقض عهدها ، وليس فيما تاوكتها الألسن أقوال لم تصبح تافهة مملة ، ولم يقلتها آباؤنا من قبل »^(١٥٩) .

ولقد أحنى تقدم العهد ما فى الأدب المصرى من تباين كما يخفى ما بين أفراد الشعوب غير المألوفة للإنسان من فروق . بيد أن الآداب المصرية فى خلال تطورها الطويل قد مرت بمحركات ونزعات لا تقل فى تباينها عن المحركات والنزعات التى اضطرب بها تاريخ الآداب الأوربية . وتغيرت لغة الكلام فى مصر تغيراً تدريجياً على مَر الزمان ، كما تغيرت لغة الكلام فى أوربا من بعد ، حتى أصبحت هذه اللغة فى آخر الأمر وكأنها لغة أخرى غير التى دُوِّنت بها كتب الدولة القديمة . وظل المؤلفون وقتاً ما يكتبون باللغة الأولى ، وظل العلماء يدرسونها فى المدارس والطلاب لا يجدون مندوحة من دراسة « الآداب القديمة » مستعينين بكتب النحو والمعجم وبالترجم التى « بين السطور » فى بعض الأحيان . فلما كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثار

المؤلفون المصريون على هذا الخضوع المزرى للتقاليد ، وفعلوا مثل ما فعل دانتى وتشوسر من بعد ، فأقدموا على الكتابة بلغة الشعب ، ولقد كتبت ترويسة إخناتون للشمس ، وهى الترويسة الذائعة الصيت ، باللغة الدارجة .

وكان الأدب الجديد أدباً واقعياً ، فنياً ، مبهجاً . وكان يسر منشئيه أن يسخروا من الأدب القديم ويصفوا الحياة الجديدة . ثم فعل الزمن فعله بهذه اللغة الجديدة فأصبحت هى أيضاً لغة أدبية لها أصولها وقواعدها رقيقة دقيقة ، جامدة مقيدة فى ألفاظها وتعبيراتها بما جرى عليه العرف . واختلفت مرة أخرى لغة الكتابة عن لغة الكلام وانتشر التحذلق ، حتى كانت المدارس المصرية فى عصر ملوك ساو تقضى نصف وقتها فى دراسة « الآداب القديمة » آداب عهد إخناتون وترجمتها^(١٦٠) . وحدث مثل هذا التطور فى اللغات القومية فى عهد اليونان والرومان والغرب ، ولا يزال يجرى فى مجراه فى هذه الأيام ، ذلك أن كل شىء يسير ولا يبقى جامداً لا يتغير إلا العلماء ،

٨ - العلوم

منشأ العلوم المصرية - الرياضيات - علم الفلك والتقويم - التشريح
وظائف الأعضاء - الطب والجراحة والقوانين الصحية

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، وذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتنعمون بما فى الهياكل من راحة وطمأنينة ، فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان فى عقائدهم من خرافات . وهم يقولون فى أساطيرهم إن العلوم قد اخترعها من ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى فى خلال حكمه على ظهر الأرض البالغ ثلاثة آلاف من الأعوام ، وإن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التى وضعها هذا الإله

العالم (١٦١) (*) : وليس لدينا من العلم ما نستطيع به أن نفصل القول في نظرية نشأة العلوم في مصر .

وحسبنا أن نقول إنا نجد العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر الممدون ؛ وشاهد ذلك أن تصميم الأهرام وتشييدها يتطلبان دقة في القياس لا يستطيع الوصول إليها بغير معرفة واسعة العلوم الرياضية ، وقد أدى اعتماد الحياة في مصر على ارتفاع النيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابهما حساباً دقيقاً . وكان المساحون والكتبة لا ينقطعون عن قياس الأراضي التي عا الفيضان معالم حدودها ، وما من شك في أن القياس كان منشأ فن الهندسة ، وشاهد ذلك أن اسمه الأجنبي (gsometry) مشتق من كلمتين معناهما قياس الأرض (١٦٣) . والأقدمون كلهم تقريباً يجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين (١٦٤) ، وإن كان يوسفوس يظن أن إبراهيم قد جاء بالحساب من كلدان (أى من أرض الجزيرة) إلى مصر (١٦٥) ، وليس من المستحيل أن يكون الحساب وغيره من العلوم والفنون قد جاءت إلى مصر من « أور الكلدان » أو من غيرها من مراكز آسيا الغربية .

وكانت الأرقام سمجة متعبة — فقد كان رقم ١ يمثل له بشرطة ، ورقم ٢ بشرطتين ، و٣ بثلاث شرط . . . و٩ بتسع شرط ، وتمثل العشرة بعلامة خاصة والعشرون باثنتين من هذه العلامات والثلاثون بثلاث منها . . . والتسعون بتسع والمائة بعلامة أخرى جديدة والمائتين بعلامتين والثلاثمائة بثلاث علامات . . . والتسعمائة كفتاً بكف فوق رأسه كأنه يعبر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد

(*) وهذا ما يؤكد لنا يميلكس (حوالى ٣٠٠ ب . م) أما منيدون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ ق . م فيرى أن هذا التقدير لا يصف الإله ، ويقدر هدد ما وضع تحوت من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب . وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس ترسمحستس — هرمس (عطارد) المثلث العظيمة (١٦٤) .

الكبير (١٦٦). وكاد المصريون أن يصلوا إلى الطريقة العشرية في الأعداد ؛ وإن لم يعرفوا الصفر أو يصلوا قط إلى فكرة التعبير عن جميع الأعداد بعشرة أرقام ، بل كانوا يعبرون عن رقم ٩٩٩ مثلاً بسبع وعشرين علامة (١٦٧) . وكانوا يعرفون الكسور الاعتيادية ، ولكن بسط هذه الكسور كان رقم ١ على الدوام ؛ فكانوا إذا أرادوا كتابة $\frac{2}{3}$ كتبوها $\frac{1}{3} + \frac{1}{3}$ (*) . وجدول الضرب والقسمة قديمة قديم الأهرام ، وأقدم رسالة في الرياضة عرفت في التاريخ هي بردية أحمس التي يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد ؛ ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام . وهي تحسب سعة مخزن للجلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ، ثم تنقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى (١٦٨) . ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات ، بل كانت تقيس أيضاً أحكام الاسطوانات والكرات ، وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ٣١٦ (١٦٩) . وما أعظم فخرنا إذا استطعنا في أربعة آلاف عام أن نتقدم في حساب هذه النسبة التقريبية من ٣١٦ إلى ٣١٦٤١٦ .

ولسنا نعرف شيئاً عما وصل إليه المصريون في علمي الطبيعة والكيمياء ، ولا نكاد نعرف شيئاً عما وصلوا إليه في علم الفلك . ويلوح أن راصدى النجوم في الهياكل كانوا يظنون الأرض صندوقاً مستطيلاً تقوم في أركانها الجبال لتمسك السماء (١٧٠) . ولم يسيروا بشيء إلى الخسوف والكسوف ، وكانوا في هذا العلم بوجه عام أقل رفياً من معاصريهم في أرض النهرين ، ولكنهم مع هذا كانوا يعرفون منه ما يكفي للتنبؤ باليوم الذي يرتفع فيه النيل ، وأن يتجهوا بها كلهم نحو الشرق في النقطة التي تشرق منها الشمس في صباح يوم الانقلاب الصيفي (١٧١) . ولربما كانوا

(*) لقد ظل الكتبة في التفاتيش الزراعية إلى عهد تريب يعبرون عن ال $\frac{2}{3}$ فيما يسمونه صورة الغدان بقولهم $\frac{1}{3} + \frac{1}{3}$. (المترجم)

يعرفون أكثر مما غنوا بإذاعته بين شعب كانت خدماته عظيمة القيمة لحكامه . وكان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التي لا يجوز أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس (١٧٢) . وظلوا قروناً طويلاً متتالية يتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثابتة ، وذكروا في فهارسهم نجوماً من القدر الخامس (وهي لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجوم السماء في مصائر البشر . ومن هذه الملاحظات أنشأوا التقويم الذي أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بني الإنسان .

وبدأوا تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول في كل واحد منها أربعة شهور ، أولها فصل ارتفاع النيل وفيضه وانحساره ، وثانيها فصل الزرع ، وثالثها فصل الحصاد . وكانت عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوماً لأن هذا العدد هو أقرب الأعداد السهلة إلى طول الشهر القمري الذي يبلغ تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكان لفظ الشهر في لغتهم كما هو في اللغة الإنجليزية مشتقاً من رمزهم للقمر (*) . وكانوا يضيفون بعد آخر الشهر الثاني عشر خمسة أيام حتى تتفق السنة في الحساب مع فيضان النهر ومع مواقع الشمس (١٧٤) . واختاروا لبدء السنة اليوم الذي يصل فيه النيل عادة إلى أقصى ارتفاعه والذي كانت فيه الشعري العظيمة (وكانوا يسمونها سوثيس) تشرق مع الشمس في وقت واحد . ولما كان التقويم المصري يجعل السنة ٣٦٥ يوماً بدل ٣٦٥½ ، فإن الفرق بين شروق الشعري وشروق الشمس وهو الذي كان في أول الأمر صغيراً لا يكاد يدرك قد ازداد حتى

(*) لقد كانت الساعة المائية معروفة عند المصريين من زمن بعيد ، ومن أجل هذا كانوا يعززون اختراعها إلى تحوت إلههم المتعدد الكفايات . وأقدم الساعات الموجودة لدينا يرجع عهدا إلى أيام تحتمس الثالث ، وهي الآن في متحف براين . وتتكون من قضيب من الخشب مقسم ستة أقسام تمثل ست ساعات وفوقه قطعة مستعرضة وضمت بحيث يدل ظلها الواقع على القضيب على الساعة قبل الظهر أو بعده (١٧٣) .

بلغ يوماً كاملاً في كل أربع سنين . وبذلك كان التقويم المصرى يختلف عن التقويم السماوى الحقيقى بست ساعات في كل عام . ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ ، حتى جاء فلكيو الإسكندرية اليونان فأصلحوه بأمر يوليوس قيصر (في عام ٤٦ ق . م) وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين . وهذا هو ما يسمونه التقويم اليوليسى . ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق في عهد البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٨٢) وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والتشرون من فبراير) من السنين المتممة للمئات التى لا تقبل القسمة على ٤٠٠ ، وهذا هو « التقويم الجريجورى » الذى نستخدمه اليوم . وجملة القول أن تقويمنا في جوهره من وضع الشرق الأدنى القديم (١٧٥) (*) .

(*) لما كان شروق الشمس يأتى يوماً كاملاً في كل أربع سنين عما يتطلبه التقويم المصرى ليكون الشروقان متفقين على الدوام ، فإن هذا الخطأ يبلغ ٣٦٥ يوماً في كل ١٤٦٠ عاماً . وحين نكل هذه الدورة السوثية (كما كان المصريون الاقدمون يسمونها) يعود التقويم المكسب والتقويم السماوى إلى الانفاق . وإذ كما يعرف من سنوديس المؤلف اللاتينى أن شروق الشمس (منسوباً إلى شروق الشمس) وقد اتفق في عام ١٢٩ ن . م مع بداية سنة التقويم المصرى القديم ، فإن من حقنا أن نترض أن هذا النوافق بعينه كان يحدث في كل ١٤٦٠ سنة قبل ذلك التاريخ الأخير ، أى في عام ١٣٢١ ق . م ، وفي عام ٢٧٨١ ق . م ، وفي عام ٤٢٤١ ق . م الخ . ولما كان من الواضح أن التقويم المصرى قد وضع في سنة كان فيها شروق الشمس (أى المنسوب إلى الشمس) قد وقع في أول يوم من أول شهور السنة ، فإننا نستدل من هذا على أن ذلك التقويم قد بدأ العمل به في سنة كانت فاتحة دورة سوثية . وقد ورد ذكر التقويم المصرى الأول مرة في النصوص الدينية المنقوشة في أهرام الأسرة الرابعة . ولما كان عهد تلك الأسرة يرجع بلا جدال إلى ما قبل عام ١٣٢١ ق . م ، فإن التقويم لا بد أن يكون قد وضع في عام ٢٧٨١ ق . م أو في عام ٤٢٤١ ق . م أو قبل هاتين السنتين . وكان الاعتقاد السائد أن أقدم للعالمين أى عام ٤٢٤١ ق . م هو أول ما حدد من الأهوام في تاريخ العالم ، ولكن الأستاذ شارف Scharf يعارض في هذا ، وليس بعيداً أن نضطر إلى الأخذ بالرأى الثانى وهو أن عام ٢٧٨١ أو عاماً قريباً منه هو مولد التقويم المصرى القديم . فإن صح هذا وجب أن نصحح التواريخ السالفة الذكر التى حددتها لحكم الأسرة الأولى وتشيد الأهرام العظيمة بحيث تكون أقرب إلينا بنحو ثلاثمائة عام أو أربعمائة . ولما كان هذا الموضوع لا يزال متاراً للجدل فقد اهتمدنا في هذا الكتاب على التواريخ الواردة في كتاب التاريخ القديم لمعة كبريدج (Cambridge Ancient History)

ولم يتقدم المصريون في دراسة جسد الإنسان تقدماً يستحق الذكر رغم ما أتاحه لهم فن التحنيط من فرص لهذه الدراسة . فقد كانوا يظنون أن الأوعية الدموية تحمل هواء وماء ونفايات من السوائل . وكانوا يعتقدون أن القلب والأمعاء مركز العقل . ولعلنا إذا عرفنا ما كانوا يقصدونه بهذه المصطلحات لا نجد أنهم يختلفون عنا كثيراً في معتقداتنا الأكيدة التي لا نثبت عليها إلا قليلاً . ولكنهم وصفوا بكثير من الدقة العظام الكبرى والأمعاء ، وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة في الكائنات الحية ، وأنه مركز الدورة الدموية . وقد جاء في بردية إمبرز (١٧٦) أن « أوعيته تنفرع إلى جميع أعضاء الجسد ، فسواء وضع الطبيب إصبعه على جهة الإنسان ، أو على موخر الرأس ، أو على اليدين ... أو على القدمين فإنه يلتقي بالقلب في كل مكان » . ولم يكن بين هذا وبين أقوال ليوناردو وهارفي إلا خطوة واحدة — ولكنها خطوة تطلبت ثلاثة آلاف عام .

أما أكبر مفعرة علمية للمصريين فهي علم الطب . وكان الكهنة هم البادئين به كما أن فيه من الشواهد ما يدل على أن هذه البداية قد نبتت من السحر . وشأن الطب في هذا يكاد يكون شأن كل شيء آخر في حياة مصر الثقافية . وكانت القوائم أكثر شيوعاً بين الناس من حبوب الدواء لعلاج الأمراض أو للوقاية منها . وكان المرض في اعتقادهم هو تقمص الشياطين الجسد ، وعلاجه هو تلاوة العزائم ، فقد كان الزكام مثلاً يعالج بمثل هذه العبارات السحرية : « اخرج أيها البرد يا ابن البرد ، يا من تهشم العظم ، وتناف الجعجمة ، وتمرض مخارج الرأس السبعة . اخرج على الأرض . دفر . دفر . دفر ! » (١٧٧) — وأكبر الظن أن هذا علاج لا يقل في مفعوله عن أى علاج نعرفه اليوم لهذا المرض القديم .

ثم نرتفع في مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والإخصائيين الذين ساروا في صناعة الطب على قانون أخلاقي ظل يتوارث جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى القسم الذائع الصيت قسم أبقراط (١٧٨) . وكان

من المصريين إخصائيون في التوليد وفي أمراض النساء ، ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة ، ومنهم أطباء العيون . وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحداً منهم إلى بلاد الفرس (١٧٩) . أولئك هم الإخصائيون ، أما غير الإخصائين منهم فقد ترك لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس ؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضروا أدهان الوجه ، وصبغات الشعر ، وتجميل الجلد ، وأعضاء الجسم ومبيدات البراغيث (١٨٠) .

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث في الشئون الطبية . وأعظمها قيمة بردية إادون اسمث ، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها ؛ وهى ملف طوله خمس عشرة قدماً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق . م تقريباً وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيراً . وحتى لو ضربنا صفحاً عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البرية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة في التاريخ . وهى تصف ثمانى وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف عن كسر في الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكى . وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً في نظام منطقي ذى عناوين مرتبة من تشخيص ابتدأى مؤقت ، وفحص ، وببحث في الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة ، وتشخيص العلة ، والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها ، ثم تعليقات على المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها . ويشير المؤلف في وضوح لا نجد له مثيلاً قبل القرن الثامن عشر الميلادى إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ . وتلك أول مرة يظهر فيها هذا اللفظ في عالم الطب (١٨١) .

وكان المصريون يستمتعون بطائفة كبيرة من الأمراض المتنوعة، وإن كانوا قد قضى عليهم أن يموتوا بها . من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية . وتحدثنا بردياتهم وأجسامهم المخططة عن تدرن النخاع الشوكى وتصلب الشرايين ، والحصوات الصفراوية ، والجدرى وشلل الأطفال ، وفقر الدم ، والتهاب المفاصل ، والصرع

والنقرس ، والتهاب التواء الخلمي ، والتهاب الزائدة الدودية ، وبعض الأمراض العجيبة . كالاتهاب الفقري الأشوه ، وما يعترى نمو كراديس العظام الطويلة من نقص . وليست لدينا دلائل تثبت إصابتهم بالزهرى أو السرطان ، ولكن تقيح اللثة وتسوس الأسنان وهما اللذان لا أثر لهما في أقدم الجثث المحنطة القديمة يظهران بكثرة في الجثث المحنطة الباقية من اليهود المتأخرة ؛ وذلك دليل على تقدم الحضارة في هذه العهود . وكان ضمور عظم الإصبع الصغير من أصابع القدم وانعدامها — وهى حالة كثيراً ما يعزى سببها إلى الأحذية الحديثة — من الحالات المنتشرة في مصر القديمة ، حيث كان الأهلون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم يسرون كلهم تقريباً حفاة (١٨٢) .

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من القرا باذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها . ففي بردية إمبرز ثبت بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدوية المعروفة ، من عضمة الأفعى إلى حمى النفاس ، وتصنف بردية كاهون (ويرجع عهدا إلى حوالى عام ١٨٥٠ ق : م) أقواع اللبوس ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل (١٨٢) . وقد عثر في قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوى على مزهريات ، وملاعق ، وعقاقير جافة ، وجذور . وكانت الوصفات الطبية تتذبذب بين الطب والسحر . وكان مفعول الخليط في رأيهم يتناسب مع اشتزاز النفس منه . ومما تصفه تذاكر الأطباء دم العظاية (السحلية) وأذن الخنزير وأسنانه ، واللحم والدهن النتن ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلّى في الزيت ، ولبن النفساء ، وماء المرأة الطاهرة وبراز الرجال والحميمير والكلاب والآساد والقطط والقمل — كل هذه واردة في تذاكر الأطباء ، وكان الصلح يعالج بتدليك الرأس بدهن الحيوان . وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان ، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان ، ومن الرومان إلينا . ولا نزال إلى اليوم نتجوع في ثقة واطمئنان كثيراً من الأدوية التى خلطها

وجهازها لنا المصريون على شاطئ النيل في أقدم الأزمان (١٨٣) .

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة (*) ، وبمختار الذكور (١٨٥) (**) وبتعويد الناس أن يكثرُوا من استخدام الحقن الشرجية . ويقول ديودور الصقلي في هذا المعنى :

وهم يتقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام المليّنات وبالصوم وبالمقيّثات ، كل يوم في بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة في البعض الآخر ، وذلك لأنهم يقولون إن الجزء الأكبر مما يدخل في الجسم من طعام يزيد على حاجته ، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد (+)

ويعتقد بلني أن المصريين قد تعلموا عادة استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف « بأبي منجل » ، وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل في دبره واستخدامه كالحقن (١٨٨) . ويروى هيرودوت أن المصريين كانوا « يظهرون أجسامهم مرة في كل شهر ثلاثة أيام متوالية ، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيّثات والحقن الشرجية ، لأنهم يظنون أن جميع ما يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يأكلون من الطعام ، وهذا المؤرخ — وهو أول مؤرخ للحضارة — يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين أصبح شعوب العالم أجساماً (١٨٩) :

(*) وقد كشفت أعمال الحفر عن طريقة كانت نتج لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنايب من النحاس .

(**) وفي أقدم التّجوير شواهد دالة على هذه العادة

(+) إن المثل الحديث الذي يقول إننا نعيش على ربع ما نأكل وإن الأطباء يعيشون على الثلاثة الأرباع الباقية لمن أقدم الأمثال .

٩ - الفن

المهارة - النحت في الدولة القديمة والدولة الوسطى والإمبراطورية وفي عهد الملوك السائرين
- النقوش القليلة البروز - التصوير - الفنون الصغرى - الموسيقى - الفنون

كان الفن أعظم عناصر هذه الحضارة ؛ فنحن نجد في هذه البلاد ، وفي عهد يكاد يكون عهد بداية الحضارات ، فناً قوياً ناضجاً أرقى من فن أية دولة حديثة ، ولا يضارعه إلا فن اليونان . لقد كان ما امتازت به مصر في أول عهودها من عزلة وسليم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغامم الظلم والحرب في عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثاني ، مما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكافية لتشييد المباني الضخمة ، وتحت التماثيل المتينة ، والبراعة في عدة فنون أخرى صغيرة ، كادت تبلغ حد الكمال في هذا العهد السحيق . وإن المرء ليقف حائراً مشدوهاً لا يكاد يصدق ما وضعه الباحثون من نظريات لتطور الرق البشري إلى منتجاب الفن المصرى القديم .

وكانت العمارة(*) أفخم الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما تجمع فيها من روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة . وقد بدأ هذا الفن بداية متواضعة بتزيين المقابر ونقش الوجهة الخارجية لحدران المنازل . وكانت كثرة المساكن تبنى من الطين تتخللها في بعض الأحيان أعمال بسيطة من الخشب (كالنوافذ الشبكية اليابانية أو الأبواب الجميلة الحفر) ، والسقف المقامة على جذوع النخل السهلة العلاج . وكان يحيط بالدار عادة سور يضم فناء ، تصعد منه درج إلى سطح البيت ، ومنه ينزل السكان إلى الحجرات . وكان للموسرين من الأهليين حدائق خاصة يعنون بتنسيقها ؛ وكان في الحواضر حدائق عامة للفقراء ، ولا يكاد يخلو بيت من أزهار

(*) اقرأ في القسمين الأول والثالث من الجزء الأول من هذا الفصل وصف العمارة في أيام الدولة القديمة .

الزينة ، وكانت جدران المنزل تزيّن من الداخل بحُصر ملوّنة ، وتفرش أرضه بالطنافس ، إذا كان ربّ الدار ذا سعة . وكان السكّان يفضلون الجلوس على هذه الطنافس عن الجلوس على الكراسي . وكان المصريون في عهد الدولة القديمة يتناولون الطعام وهم جالسون مرتبّعون وأمامهم موائد لا يزيد ارتفاعها على ست بوصات كما يفعل اليابانيون في هذه الأيام ، وكانوا يأكلون بأيديهم على طريقة شيكسبير ، فلما كان عهد الإمبراطورية وقلّ ثمن العبيد أصبح أفراد الطبقات العليا يجلسون على كراسي عالية ذات وسائل ، ويقدم لهم خدمهم أصناف الطعام صنفاً بعد صنف (١٩٠) .

وكانت أحجار البناء أغلى من أن تستخدم في تشييد المنازل ، ولهذا كانت من مواد الترف الخاصة بالكهنة والملوك . وحتى النبلاء أنفسهم - وهم الطائفة الكثيرة الطموح - آثروا المعابد بأكبر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء ، ومن هذا فإن القصور التي كانت تطل على النيل والتي لم يكند يخلو ميل من واحد منها في عهد أمنحوتب الثالث قد تهدمت كلها وعفت آثارها ، على حين أن أضرحة الآلهة ومقابر الموتى قد بقيت إلى أيامنا هذه . ولما جاءت الأسرة الثانية عشرة لم يَسُدّ الهرم الطراز المحبب لمدافن الأموات ، ولهذا اختار ختوم حوتب (حوالي ١١٨٠ ق . م) لمدفنه عند بنى حسن شكلاً أهدأ من أشكال الهرم وهو قبر ذو عمد في أحضان الجبل ؛ وما كادت هذه الفكرة تثبت وتستقر حتى اتخذت آلاف الأشكال المختلفة بين التلال الممتدة على جانب النيل الغربى . وهكذا خرجت من رمال مصر ما بين عهد الأهرام والعهد الذى شيّد فيه هيكل حتحور عند دنكرة - أى في خلال ثلاثة آلاف عام أو نحوها - ضروب من العماير المختلفة لم تفقها قط عماير أية حضارة من الحضارات الأخرى .

ففي الكرنك والأقصر أيكة من الأعمدة أقامها تحتمس الأول والثالث ، وأمنحوتب الثالث ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى وغيرهم من الملوك ما بين

الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثانية والعشرين ، وفي مدينة حبو (حوالى ١٣٠٠ ق . م) صرح متسع الأرجاء ، وإن كان لا يضارع الصروح السالفة الذكر في فخامتها ، قامت عليه فيما بعد قرية عربية وظلت جاثمة على صدره عدة قرون : وفي أبيدوس (العرابة) شُيِّد هيكَل سبى الأول الذى لم يبق منه إلا خرائب ضخمة قائمة كثيفة ، وفي إلفنتين معبد صغير هو معبد ختوم (حوالى ١٤٠٠ ق . م) « اليونانى فى دقة بنائه ورشاقته » (١٩١) ؛ وفي الدير البحرى وهو الأعمدة الذى شادته الملكة حتشبسوت ، وبالقرب منه الرمسوم وهى أيكَة أخرى من العمد والتماثيل الضخام شادها المهندسون والعبيد الذين صخرهم رمسيس الثانى ، وفي جزيرة فيلة هيكل لإنزيس الجميل (حوالى ٢٤٠ ق . م) المهجور الموحش فى هذه الأيام لأن خزان أسوان قد عمر قواعد عمده التى بلغت فى عمارتها حد الكمال — وهذه البقايا القليلة المتفرقة إن هى إلا نماذج من الآثار القديمة التى لا تزال تجمل وادى النيل وتنطق خرابها نفسها بما كان عليه الشعب الذى شادها من قوة وبسالة . ولعل فى هذه الصروح إفراطاً فى الأعمدة وتقاربها بعضها من بعض لانتفاء حر الشمس اللافح ، ولعل فيها بعداً عن التناسب هو من خصائص الشرق الأقصى ، وافتقاراً إلى الوحدة ، وهياماً همجياً بالضخامة كهيام أهل هذه الأيام . فإن كان ذلك كذلك فإن فيها أيضاً عظمة وسمواً وجلالاً وقوة ؛ فيها الأقواس والعقود (١٩٢) وهى إن قلت فما ذلك إلا لقلّة الحاجة إليها ، ولكنها من حيث المبادئ التى شيدت عليها تسير فى طريق الانتقال إلى المبادئ التى شيدت عليها العمد والأقواس فى بلاد اليونان والرومان وفى أوروبا الحديثة ؛ وفيها نقوش للزينة لا يفوقها غيرها من النقوش فى تاريخ العالم كله (١٩٣) ؛ وفيها عمد على صورة أعواد البردى والأزورد (اللوطس) ، وعمد من الطراز الدورى (*) (الأول (١٩٤) وعمد فى صورة نساء (١٩٥) ، وتيجان للعمد منها ما هو فى صورة تحبور

(*) نسبة إلى الفن الدورى اليونانى الذى يمتاز ببساطته وصلابته . (المترجم)

(٩ - قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)

ومنها ما هو على صورة النخيل ، وفيها قصور ذات نوافذ قرب السقوف ؛ وفيها عتبات فخمة تمتاز بالقوة والثبات اللذين هما روح الجاذبية القوية في فن العمارة .
لعمري إن المصريين لهم أعظم البنائين في التاريخ كله بلا جدال .

ومن الناس من يضيف إلى هذا أنهم أيضاً أعظم المثاليين ، فلقد أنشأوا في بداية تاريخهم تمثال أبي الهول . ذلك التمثال الذي يرمز إلى الصفات الأبدية التي اتصف بها أحد الفراعنة الأقوياء ، ولعل هذا الفرعون هو خفرع . والتمثال لا يتم عن القوة فحسب ، بل يفصح كذلك عن الصفات الخلقية . ولقد حطمت طليقة من مدافع المليك أنف التمثال وحلقت لحيته ، ولكن ملامحه القوية الضخمة تعبر أحسن تعبير وأقواه عما اتصف به ذلك الملك من قوة ومهابة وهدوء ونفوج ، وكلها صفات يجب ألا تفارق الملوك . ولقد علت هذه الملامح الساكنة ابتسامة خفيفة لم تفارقها منذ خمسة آلاف من السنين ، كأنما للفنان المجهول الذي صاغه أو الملك المجهول الذي يرمز التمثال له ، كان يفهم كل ما يريد الخلق أن يفهموه عن الخلق . والحق أنه هو « مونا ليزا » من الصخر الأصم .

وما من شيء في تاريخ النحت أجمل من تمثال خفرع المصنوع من حجر الديوريت والذي يقوم في متحف القاهرة . لقد كان هذا التمثال قديماً في أيام بركستليز ، قدم بركستليز نفسه بالنسبة إلينا . ومع هذا فقد اجتاز حقبة من الزمان طولها خمسون قرناً ، ثم وصل إلينا ولم تكدر تؤثر فيه عواذي الدهر ونوائبه . لقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة وأشدها استعصاء على الإنسان ، ولكنه ينقل إلينا أكمل ما يكون النقل قوة الملك (أو الفنان) البدنية ، وسلطانه وعناده وصلابة رأيه وبسالته وذكاءه . ويجلس بالقرب منه تمثال عابس متجههم لملك أقدم من صاحب التمثال الأول عهداً هو تمثال الملك زوسر المصنوع من حجر الجير . ومن بعده يكشف لك الدليل بعود الثقب عن شفافية تمثال رائع من المرمر هو تمثال منقورع .

وبضارع تمثالاً لشيخ البلد والكاتب تماثيل الملوك من ناحية الإبداع



شكل (١٤) تمثال « شيخ البلد » من الخشب
في متحف القاهرة

والإتقان الفني الذى ليس بعده إتقان : ولقد وصل إلينا تمثال الكاتب فى عادة أشكال ، وكلها من عهود لا نعلمها علم اليقين ، ولكن أشهرها كلها تمثال الكاتب المتربع المحفوظ فى متحف الاوفر(*) . وليس تمثال شيخ البلد لشيخ بحق ولكنه تمثالٌ مشرفٌ على الفعلة بيده عصا السلطة ، يخطو إلى الأمام كأنه يلاحظ عماله أو يصدر إليهم أوامره ويبدو أن اسمه هو كعبيرو ولكن العمال المصريين الذين أخرجوه من قبره فى سقارة قد أدعشهم ما رأوه من تشابه بينه وبين شيخ البلد الذى يسكنونه ، فأوحت إليهم فكاهتهم بهذا القلب الذى اشتهر به والذى لا يزال إلى اليوم ملازماً له . وهذا التمثال مصنوع من الخشب المعرض للبلل ولكن الزمان لم يقو على تشويه جسمه الملىء ، أو مساقبة الغليظتين ، ويتم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك فى جميع الحضارات من سعة فى الرزق وقلة فى الكدح ، وينطق وجهه المستدير بقناعة الرجل الذى يعرف مكانته ويفخر بها . ويشعرنا رأسه الأضلع وثوبه المتهدل على واقعية الفن الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ من القدم درجة أجازت له أن يثور على التقاليد التى جعلت من الفن القديم مثلاً أعلى يحتذى ، ولكن فيه أيضاً بساطة جميلة وإنسانية كاملة عبر عنها المثال بلا حقد ولا مرارة ، وغبر عنها فى يسر ورشاقة ، تتناز بهما اليد الواثقة الصنّاع . وفى ذلك يقول مسبيرو « لو أن معرضاً أنشئ لروائع الفن فى العالم كله لاخترت هذا التمثال رمزا لعظمة الفن المصرى (١٩٦) — أو هل أصدق من هذا أن تختص بهذا الشرف تمثال خفرع ؟

هذه هى الروائع الفنية من تماثيل الدولة القديمة . ولكن هناك آيات فنية أخرى كثيرة أقل منها روعة ، منها تمثالاً روع حوئب وزوجته الجالسان ، ومنها التمثال القوى للكاهن رنوفر ، ومنها تمثالاً الملك فيويس وولده المصبويان . من

(*) انظر وصفه السابق فى ص ٧٩ وتزين المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف الدولة فى برلين تماثيل أخرى للكاتب .

النحاس ، ومنها رأس باشق من الذهب ، ومنها الصورتان الهزليتان لعاصر
الخمر وللقزم كنمحتوب ، وكلها إلا واحداً منها في المتحف المصري
بالقاهرة ، وكلها - بلا استثناء - صور ناطقة بأخلاق أصحابها . ولسنا ننكر
أن القطع المبكرة منها خشنة غير مصقولة الصنع ، وأن التماثيل قد صنعت
وأحسامها وعيونها متجهة إلى الأمام ، على حين أن الأيدي والأقدام قد
رسمت من أحد الجانبين ، وذلك جريباً وراء عرف غريب متبع في جميع
ضروب الفن المصري(*) ، وأن الجسم لم يلق من الفنان عناية كبيرة ، وأنه
مثل في معظم الأحيان في صورة راسخة مقننة لا تتفق مع الواقع - فكانت
أجسام تماثيل النساء كلها تصوّرنّ فتيات في شرح الشباب وتماثيل الملوك
تظهرهم كلهم أقوياء ، وأن للفردية وإن كانت قد بلغت في فهم درجة
عالية قد احتفظ بها عادة في الرؤوس دون الأجسام . ولكن مهما يكن من
الجمود والتماثل اللذين لحقا فنون النحت والتصوير والنقش البارز ، وما فرضه
عليها الكهنة من قيود العرف ، ومن سلطان لهم شديد ، بالرغم من هذا كله
فإن هذا النقص قد عوضه عمق في التفكير ، وقوة ودقة في التنفيذ ، وما تمتاز
به الصناعة من طابع خاص واتجاه وصقل ، والحق أن فن النحت لم يكن في
بلد من البلاد أكثر حيوية مما كان في مصر . إن تماثيل الشيخ ليخرج على كل
سلطان ، وإن المرأة التي تطحن الحَبّ لتقبل عليه بكل ما في نفسها من
أحاسيس وما في جسمها من عضلات ، وإن الكاتبة ليهمّ بالكتابة ، وإن
آلاف الدمي الصغيرة التي وضعت في المقابر لتقوم بالواجبات الضرورية
للموتى قد صيغت كلها بحيث يبدو عليها من مظاهر النشاط والجد ما نكاد
معه أن نعتقد - كما كان يعتقد المصريون الأتقياء - أن الموتى لا يمكن أن
يشقوا ما دام هؤلاء الخدم من حولهم .

(*) هناك تماثيل كثيرة تشد عن هذه القاعدة العامة منها تماثيل شيخ البلد والكاتب ،
وما من شك في أن هذا العرف لم يكن ناشئاً عن عجز أو جهل بأصول الفن .

ولم تصل منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى إلى ما كانت عليه في عهدها إلا بعد أن مضت عليها قرون كثيرة . وإذ كان معظم التماثيل إنما صنع للهياكل أو المقابر فقد كان الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التي يلتزمها الفنان . ومن هذه السبيل تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة .



شكل (١٦) رأس ملك لعله سنوسريت الثالث في المتحف الفن بـنيويورك



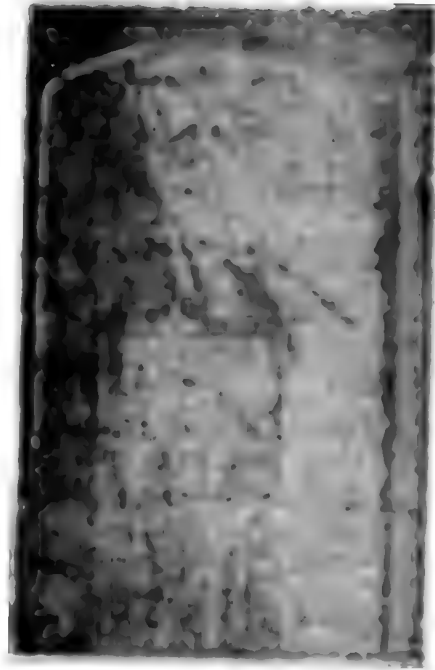
شكل (١٥) رأس من حجر الجرسان وجد في مصنع المائل تحتص في تل المهارنة وهو الآن في متحف الدولة ببرلين

فجسم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً في تدهوره . فلما أن تولى الحكم ملوك الأسرة الثانية عشرة الأقوياء عادت الروح الدنيوية غير الدينية إلى الظهور وأثبتت وجودها ، واستعاد الفن شيئاً من قوته القديمة ، وفاق الفنانون ما كان عليه أسلافهم الأولون من براعة . ويوحى رأس أمنمحات الثالث المنحوت من حجر الديوريت (١٩٧) ببعث جديد للفن وبعث للأخلاق . ذلك أن الناظر إلى هذا الرأس يستشف منه صلاية هذا المليك القدير ، ويدرك أن الذي نحته فنان قدير أيضاً . وثمة تماثيل ضخمة لسنوسريت الثالث يزينه رأس ووجه لا تقل الفكرة التي أوحى به ، ولا القدرة التي أخرجته ، عما أوحى به وأخرجته ،

آية صورة أخرى في تاريخ فن النحت كله ، وإن الجذع الباقى من تمثال سنوسريب الأول في متحف القاهرة ليضارع جذع تمثال هرقول في متحف اللوفر . وتكثر تماثيل الحيوانات في كل عصر من عصور التاريخ المصرى ، وهى كلها تفيض بالحياة ، فهنا نخذ فأراً يعض بندقة ، وهناك زى قرداً يضرب على وتر ويكشف عن كل ما لديه من مهارة في هذا الضرب ، أو قنفذاً ليس في أشواكه كلها شوكة غير منتفشة . ثم جاء ملوك الهكسوس وانعدم الفن المصرى إلا قليلاً مدى ثلاثة قرون .



شكل (١٨) رأس تحتمس الثالث
في متحف القاهرة



شكل (١٧) الصقر الملكى والأفعى
نقش في حجر الجير من الأسرة الأولى
في متحف اللوفر

ويعد الفن بعداً ثانياً على ضفاف النيل في حكم ختشبوت وحتمس

وأمنحوتب ومن تسمى باسميهما من الملوك . ذلك أن الثروة أخذت تتدفق على مصر من سوريا ، وتحول مجراها إلى الهياكل وقصور الملوك ، وتقطرت منها لتغذى الفنون عن اختلاف أنواعها ، وقامت تماثيل تحتمس الثالث ورمسيس الثاني تناطح السماء ، وغصت أركان الهياكل كلها بمختلف التماثيل ، وكثرت روائع الفن كثرة لم يسبق لها مثيل على أيدي هذا الشعب الذي تماكنته نشوة بعثها فيه ما بلغه في زعمه من سيادة على العالم بأسره . وإن التمثال النصفي لتلك الملكة العظيمة المنحوت من الحجر الأصيل والمحفوظ في المتحف الفني بنيويورك ، وتمثال تحتمس الثالث المصنوع من البازلت والمحفوظ في متحف القاهرة ، وتماثيل أبي الهول المصنوعة في عهد أمنحوتب الثالث والمحفوظة في المتحف البريطاني ، وتمثال إخناتون الخالس المصنوع من حجر الجير والمحفوظ في متحف اللوفر ، وتمثال رمسيس الثاني المنحوت من الحجر الأصيل والمحفوظ في تورين ، وتمثال هذا الملك نفسه الجاثم وهو يقدم القرбан للآلهة جثوماً لا يكاد يصدق الإنسان أنه يفعله ، والذي مثل الجثوم أكمل تمثيل (١٩٩) ، والبقرة المفكرة في الدير البحري التي يرى مسبيرو أنها تضارع أروع آيات الفن اليوناني والروماني الماثلة لها « (٢٠٠) وأسدي أمنحوتب الثالث اللذين قال عنهما رسكن إنهما أحسن ما خلفه القدماء على بكرة أبيهم من تماثيل لسحيوانات (٢٠١) ، والتماثيل الضخمة التي صنعها في الصخر عند أبي سمبل مثالو رمسيس الثاني ، والآثار العجيبة الرائعة التي وجدت في خرائب منحت الفنان تحتمس في تل العمارنة — والتي تشتمل نموذجاً من الجبس لرأس إخناتون ينطق بما كان هذا العهد المليء بالمآسى من نزعة شعرية وتصوفية — والتمثال النصفي الجميل المصنوع من حجر الجير لنفرتيتي زوجة الملك إخناتون ، ورأس هذه الملكة الجميلة المصنوع من حجر الخراسان وهو أجمل من التمثال النصفي السالف الذكر (٢٠٢) ، هذه الأمثلة المنتشرة في بلاد العالم تصور للقارئ صورة من أعمال النحت الكثيرة الرائعة التي يفيض بها عصر

الإمبراطورية . ولم تفقد الفكاهة منزلتها بين هذه الزواجع الفنية العظيمة ،
فالمثالون المصريون يلهون بالتمثيل الهزلية المضحكة للإنسان والحيوان ،
وحتى تماثيل الملوك في عصر إخناتون محطم الأصنام قد جعلها الفنان المصري
تبتسم وتلعب (*) .



شكل (١٩) رمسيس الثاني يقرب قربانا
صورة تمثال في متحف القاهرة

على أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن نهدت بعد عهد رمسيس الثاني
وظل الفن المصري من بعده قروناً كثيرة يفتح بتكرار الأعمال والأشكال
القديمة . وحاول الفن أن ينهض من كبوته في عهد ملوك سائرين ، وأن يعود إلى
ما كان ينزع إليه كبار الفنانين في عهد الدولة القديمة من إخلاص وبساطة في
التصوير . وقد عالج المثالون في عهد هذه الدولة أقدس الحجارة كأحجار البازلت
والسربنتين (الحية) والبريشيا والديوريت — ونحتوا منها تماثيل واقعية خفية
نذكر منها تمثال منتيوميحيث (٢٠٣) ورأساً أصلع من البازلت الأخضر لا يعرف
صاحبه يطل الآن على جدران متحف الدولة في برلين . ومما صنعوه من البرنز
صورة جميلة للسيدة تكوسشت (٢٠٤) ، وقد أولعوا أيضاً بتصوير ملامح الناس
والحيوان وحركاتهم على حقيقتها ، فنحتوا تماثيل مضحكة لحيوانات غريبة ،

(*) وإن المرء ليذكر هذه المناسبة ما قاله سياسي مصري بعد زيارته معارض أوروبا
« لقد انتهتم بلادى » .

ولعبيد وآلهة ، وصنعوا من البرنز رأسى قطة وعنزة هما الآن من منهوبات
برلين (٢٠٥) . ثم انقض الفرس بعدئذ على البلاد انقضاض الذئاب الكاسرة على
الحملان الوديعه المسالمة ، ففتحوا مصر وخربوا الهياكل وكتبوا روح البلاد
وقضوا على فنونها .



شكل (٢١) تمثال منثيوميجيت الجالس
في متحف الدولة ببرلين



شكل (٢٠) تمثال من البرنز
لندوسشت في متحف أثينة

والعمارة والنحت(*) أهم الفنون المصرية ، ولكننا إذا أدخلنا الوفرة في حسابنا كان علينا أن نضيف إليهما النقوش البارزة . فليس من شعوب العالم شعب جد في حفر تاريخه وأساطيره كما جد في ذلك قدماء المصريين . ولأننا ليدھشنا لأول وهلة ما بين القصص المنقوشة على الحجارة الكريمة من تشابه ممل ، كما يدھشنا ازدحامها وكثرتها ، وما فيها من انعدام التماثل وعدم مراعاة قواعد المنظور ، أو المحاولات غير الموفقة التي بذلوها لمراعاتها بتمثيل الأشياء البعيدة في المنظر فوق القرية ؛ ونحن ندھش حين نرى طول قامة الملك وقصر قامة أعدائه . هذا في النقش والتصوير ، وفي النحت يصعب علينا أن نألف رؤية عيون وصدور مرسومة كأنما ننظر إليها من الأمام على حين أن الأنوف والدقون والأقدام مرسومة كأنما ننظر إليها من أحد الجانبين - ولكننا في مقابل هذا يترؤنا جمال الباشق والأفعى المنقوشين على قبر الملك ونيفيس(٢٠٦) ، ونقوش الملك زوسر الجيرية على هرم سقارة المدرج ، ونقوش الأمير هزيريه الخشبية التي استخرجت من قبره في هذا الموضع نفسه(٢٠٧) . وصورة اللوبي الجريح المحفورة على قبر من قبور الأسرة الخامسة في أي صير(٢٠٨) . وهي دراسة دقيقة لعضلات الجسم المتوترة من شدة الألم . ولا يسعنا أخيراً إلا أن نتأمل في أناة وهدوء النقوش الطويلة التي تقص علينا كيف اجتاحت تحتمس الثالث ورمسيس الثاني في حروبهما كل ما اعترض سبيلهما ، وندرك روعة النقوش التي حفرت لسبب الأول في العرابة وفي الكرنك ، ونتبين ما بلغته من كمال ، ونتبع بعظيم الشوق والذلة النقوش المحفورة على جدران معبد الملكة حتشپسوت في الدير البحري ، والتي يقص علينا ناقشوها قصة البعثة التي أرسلتها هذه الملكة إلى أرض بنت المجهولة (ولعلها بلاد السومال) . وفي هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى

(*) سنقصر كلمة النحت في هذا الكتاب على النحت المدور كالتماثيل ، أما ما كان محفوراً على شيء آخر صوراً كان أو كتابة فنسلك عليه اسم النقوش - البارزة أو القليلة البروز .



شكل (٢٢) عائشة فضيلة الرئيس الثاني مع تمثيل الملكة نفر نرع
بالبحر الطيحي في مسجد أبي سفيان

الخطوب مجاذيفها المصفوفة ، وتمخر المياه المملوءة بحيوان الأخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها من دواب البحر ، ونرى الأسطول يصل إلى شواطئ بنت ويرحب به شعب البلاد ومليكها ، وهم ذاهلون ولكنهم مفتنون . ونرى الملاحين يأتون إلى السفن بآلاف من ضروب المأكولات الشهية ، ونقرأ فكاهة العامل البنتى فى قوله : « إياك أن تزل قدمك أيها الواقف هنا ، كن على حذر ! » ثم نصحب السفائن الموقرة بأحمالها وهى عائدة نحو الشال مملوءة (كما يقول النقش) بعجائب أرض بنت ، من ذهب ، وأخشاب مختلفة الأنواع ، وأدهان للعيون ، وقردة ، وكلاب ، وجلود غمورة . . . مما لم يعد به أحد الملك من الملوك منذ بداية العالم . وتخرق السفن القناة العظيمة بين البحر الأحمر والنيل ، ونرى البعثة ترسو سفنها فى أحواض طيبة ، وتفرغ ما فيها من بضائع مختلفة عند قدمى الملكة . ثم نبصر آخر الأمر ، كأننا قد مضى على وصولها بعض الوقت ، كل هذه السلع



شكل (٢٣) الرافضة

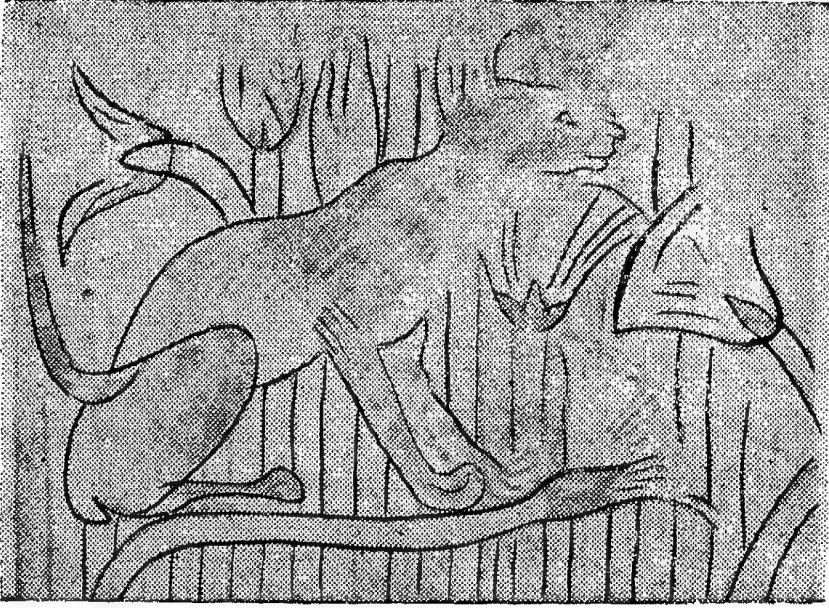
صورة فى متحف تورين بإيطاليا

المستوردة تزين مصر . ففي كل ناحية حلّى من ذهب وأبنوس وصناديق عطور وأدهان وأسنان فيلة وجلود حيوان ؛ والأشجار التي جىء بها من بنت وكأنها قد أينعت في أرض مصر كما كانت في بلادها الأصلية حتى كانت النيران تنفياً ظلال أغصانها . إن هذا النقش بلا ريب لمن أعظم النقوش في تاريخ الفن (٢٠٩) (*) .

والنقش البارز هو همزة الوصل بين النحت والرسم بالألوان . على أن الرسم الملون لم يرق في مصر إلى منزلة الفن المستقل إلا في عهد البطالمة وبنائير بلاد اليونان ، أما فيما عدا ذلك العهد فقد كان فناً ثانوياً تابعاً لفنون العمارة والنحت والنقش — وكان عمل الرسام هو ملء الخطوط الخارجية التي حفرتها صُدد غيره من الفنانين ؛ ولكنه كان رغم منزلته الثانوية واسع الانتشار يراه الإنسان أينما حل ، فقد كانت معظم التماثيل تدهن ، والسطوح كلها تلون . وإذا كان هذا للفن سريع التأثير بالزمن ينقصه ثبات في النحت والبناء ، فلما لا نكاد نجد الآن من الرسوم الملونة التي أخرجها رجال الدولة القديمة إلا صورة رائعة لست إوزات أخرجت من قبر في ميدوم (٢١٠) ، ولكننا يحق لنا أن نستنتج من هذه الصبورة وحدها أن هذا الفن أيضاً قد بلغ في عصر الأسر الأولى مبلغاً يدينه من الكمال . فإذا انتقلنا إلى عهد الدولة الوسطى وجدنا رسوماً بالألوان المائية (**) في قبوري آمينى وخنوخوتب ببني حسن ، وهي تزين القبرين زينة جميلة تبعث في الناظر إليها السرور والبهجة ، كما أن صورة « الأطباء والزراع » (٢١١) وصورة « اللقطة ترقب فريستها » (٢١٢) لتعدان من أروع الأمثلة لهذا الفن . وقد تنبه الفنان في هاتين الصورتين أيضاً إلى العنصر الرئيسي في التصوير ، وهو أن يجعل من

(*) ونرى نموذجاً منقولاً عن هذا النقش في الحجرة المصرية الثانية عشرة من حجرات متحف الفنون بمدينة نيويورك .

(**) وكانت الألوان التي ترمم بها هذه الصور تخلط بصفار البيض والغراء المخفف وبياض البيض .



شكل (٢٤) قطرة ترقب فريستها
صورة ملونة على جدار قبر حنموتب في بني حسن

رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش ، فلما كان عصر الإمبراطورية غصت القبور بالرسوم الملونة ، وكان الفنان المصرى قد توصل إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حلقة في استخدامها ، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة المنتعشة في الحقول المشمسة على جدران المنازل والهيكل والقصور والمقابر وعلى سقوفها كلها ، فصور عليها طيوراً تطير في الهواء ، وسماكاً يسبح في الماء ، وحيواناً يعيش في الآجام ، وصورها كلها في بيئاتها التي تعيش فيها . ونقش الأرض لتبدو كأنها برك شفافة ، وحاول أن يجعل السقف تضارع في بهائها . ورونها كواكب السماء ، وأحاط هذه الصور كلها بأشكال هندسية وأخرى مركبة من أوراق الشجر تتفاوت من أبسط الرسوم الهادئة إلى أعقدها وأكثرها فتنة (٢١٣) . « فضورة الفتاة الراقصة » (٢١٤) وفيها أكبر قسط من قوة

الابتداع وروح الفن ، و « صيد الطيور في قارب » (٢١٥) ، والصورة المرسومة بالمغرة والتي تمثل الفتاة الجميلة الهيفاء العارية بين الموسيقيين في قبر نحت ببطية (٢١٦) ؛ كل هذه نماذج متفرقة من سكان القبور المصوريين ، ونلاحظ في هذه الرسوم كما لاحظنا في النقوش البارزة أن الخطوط جميلة ، ولكن التركيب ضعيف ، وأن المشتركين في عمل واحد يمثلون متفرقين (٢١٧) واحداً بعد واحد وهم الذين يجب أن يمثلوا مختلطين . ونرى الرسام هنا يفضل أن يضع أجزاء الصورة بعضها على بعض بدل أن يراعى في وضعها قواعد المنظور ، على أن الجحود الناشئ عن المحافظة على القواعد الشكلية وعلى التقاليد في فن النحت المصرى كان هو السائد في ذلك الوقت ، ولذلك لا يكشف لنا هذا الفن عن الفكاهة الهائجة على البهجة ، أو عن الواقعية ، وهما الصفتان اللتان يمتاز بهما فن النحت فيما بعد ذلك العصر ، ولكن الصور كلها تسرى فيها مع ذلك جدة في التفكير ، ويسر في رسم الخطوط وفي التنفيذ ، وإخلاص لحياة الكائنات الحية وحركاتها ، وغزارة في اللون والزينة تبعث في النفوس البهجة ، وتجعل الصور متعة للعين والروح . وملاك القول أن فن الرسم المصرى — رغم ما فيه من عيوب — لم يسبقه فن مثله في أية حضارة شرقية إلا في عصر الأسر الوسطى في بلاد الصين ،

أما الفنون الصغرى فكانت أعظم الفنون في مصر: ذلك أن الخدق والجلد اللذين شيذا الكرنك والأهرام ، واللذين ملأ الهياكل بتماثيل الحجارة ، فدانصرفاً أيضاً إلى تحميل المنازل من داخلها ، وتزيين الأجسام ، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها . فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذى يزين الجدران ، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة في نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل ، وانتقلت الرسوم التى ابتدعوها منهم إلى سوريا ولا تزال منتشرة فيها إلى هذه الأيام . ولقد كشفت مخلفات توت عنخ آمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين من ترف عجيب ، وعما بلغت كل قطعة وكل جزء من قطعه من صقل بديع ، سواء في ذلك

كراسيه المكسوة بالفضة والذهب البراقين ، والسرر ذات الرسوم الفخمة
والصناعة الدقيقة ، وصناديق الجواهر وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش ،



شكل (٢٥) كرسى توت عنخ أمون
في متحف القاهرة

(١٠ - قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)

والمزهريات التي لا تضارعها إلا مزهريات الصين . وكانت موائدهم تحمل
آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرنز وكتوساً من البللور ، وجفاناً براقه
من حجر الديوريت صقلت ورقت حتى كاد الضوء ينفذ من خلال جدرانها
الحجرية . وإن ما اشتملت عليه مخلقات توت عنخ آمون من آنية المرمر ،
وما عثر عليه المنقبون في خرائب بيت أمنحوتب الثالث في طيبة من أقداح
على هيئة الإزورد (اللوطس) ومن طاسات الشراب ، ليدل على ما بلغته
صناعة الخزف من مستوى رفيع . وآخر ما نذكره من هذا جواهر الدولة
الوسطى والدولة الحديثة ، وقد كان لهُذين العهدين من الحلل الثمينة الكثيرة
ما لا يكاد يفوقه شيء في جمال الشكل ودقة الصنع . وتشمل المجاميع الباقية
من تلك الأيام قلائد ، وتيجاناً ، وخواتم ، وأساور ، ومرايا ، وحليات
للصدر ، وسلاسل ، ورصائع ، صيغت من الذهب والفضة والعقيق والفلسبار
واللازورد والجحشت ، وكل ما نعرفه من الحجارة الكريمة . وكان سراة
المصريين كسراة اليابانيين يسرهم جمال ما يحيط بهم من التحف الصغيرة ،
فكان كل مربع صغير من العاج في علب حلبيهم ينقش ويزين بأجمل زينة
وأدقها . لقد كانوا يلبسون أبسط الملابس ، ولكنهم كانوا ينعمون بأحسن
عيشة ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم اليومى يمتعون أنفسهم بنغمات الموسيقى
الهادئة الشجية على العود(*) والقيثارة والصلاصل والناى . وكان للهياكل
والقصود فرق من العازفين والمغنين ، وكان من موظفى قصر الملك « مشرف
على الغناء » يقوم بتنظيم العازفين والموسيقيين الذين يسلون الملك . وليس لدينا
ما يدل على وجود علامات موسيقية في مصر ، ولكن هذا قد يكون مجرد
نقص فيما كشف من آثار المصريين . وكان استنفرو نفر ، وريمرى بتاح
نابغى الغناء في أيامهما ، ولنا نستمتع من خلال القرون الطويلة بصوتهم

(*) وكان العود يصنع من جذد قليل من الأوتار تمتد على لوحة ضيقة رنانة . أما الصلاصل فكانت طائفة من الأقراص الصغيرة تهتز على أسلاك .

وهما يناديان بأنهما كانا « يحييان كل رغبة من رغبات الملك
بغنائهما الشجي » (٢١٨)



شكل (٢٦) رأس نفرتيتي
في متحف الدولة ببرلين

ومن الأمور الشاذة غير المألوفة أن يبقى اسما هذين الفنانين ، وذلك لأن الفنانين الذين خلدوا بجهودهم ذكريات الأمراء والقساوسة والملوك أو ملاحظهم لم يكن لديهم من الوسائل ما ينقلون به ذكرهم إلى من يجيء بعدهم ، وإن كنا نسمع بإمخوتب مهندس عهد زوسر ، وهو رجل يكاد أن يكون اسمه أسطورة من الأساطير القديمة ، ونسمع عن إنيني الذى أعد رسوم المباني العظيمة أمثال معبد الدير البحرى لتحتمس الأول ، وعن بومير ، وجوسنب ، وستموت الذين شادوا المباني العظيمة للملكة حتشبسوت(*) ، وعن الفنان تحتمس الذى كشف فى بقايا مرسمه كثير من روائع الفن ، وعن بك المثال الفخور الذى يقول لنا إنه لولاه لعفى على اسم إخناتون الزمان (٢٢١) . وكان لأمنخوتب الثالث مهندس معمارى يسمى أيضاً أمنخوتب بن حابو ، وكان الملك يضع تحت تصرف هذا المهندس الموهوب ثروة يخططها الخصر ، وذاع اسم هذا الفنان الشهير حتى عبدته مصر فيما بعد واتخذته إلها من آلهتها . لكن الفنانين على الرغم من هذا كانوا يعملون وهم فقراء مغمورون . ولم تكن لهم عند القساوسة والكبراء الذين يستخدمونهم مكانة أسمى من مكانة الصانع أو أرباب الحرف العاديين .

ولقد تعاون الدين المصرى مع الثروة المصرية على الإيحاء بالفن وإيمائه ، وتعاون مع غنى مصر وضياع إمبراطوريتها على إيمائه . لقد كان الدين يقدم للفنانين الخوافز والأفكار ، ويوحى إليهم بروائع فنهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والتقيود ما شده إلى الكنيسة بأقوى الروابط . فلما أن مات بين الفنانين الدين الخالص ، ماتت بموته الفنون التى كانت تعيش على هذا الدين . تلك هى المأساة التى لا تكاد تنجو من شرها أية مدنية — وهى أن روحها فى عقيدتها ، وأن هذه الروح قلما تبقى بعد فناء فلسفتها .

(*) لقد كان ستموت يلقى من ملوكه من ضروب التعظيم ما أنطقه بقوله : « لقد كنت أعظم العظماء فى العالم كله » . وكانت هذه عقيدة شائعة ولكنها لم تكن دائماً ينطق بها .

١٠ - الفلسفة

« تعاليم بتاح حوتب » - « تحذيرات إيبور » -
« محاورات كاره المجتمع » - أسفار الحكمة المصرية

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدأوا قصتهم باليونان ، وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، إن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا . ولعلنا كلنا مخطئون في ظننا ، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التي خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية . ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم (٢٢٢) . وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية « تعاليم بتاح حوتب » ، وتاريخه يرجع فيما يبدو لنا إلى عام ٢٨٠٠ ق م ، أى إلى ما قبل كنفوشوش وسقراط وبوذا بألفى عام وثلاثمائة (٢٢٣) . وكان بتاح حوتب هذا حاكماً على منف وكبير وزراء الملك في أيام الأسرة الخامسة . فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتاباً يحتوى على الحكمة الخالدة : ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء . ويقول الوزير في كتابه :

« أى مولاي الأمير ، إن الحياة تقترب من آخرها ، ولقد حل بي الضعف وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية ، والمسن يلاقى البؤس في كل يوم من أيامه . فعيناه صغيرتان ، وأذناه لا تستمعان ، ونشاطه يقل ، وقلبه لا يعرف الراحة . . . فمر خادمتك إذ أن يخلع سلطانى الواسع على ولدى ، واسمح لى أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون لى رجال الأيام الغابرة ، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة فى يوم من الأيام . أتوسل إليك أن تسمح بأن يفعل هذا » .

ويفضل جلالة الملك فيأذن له ولكنه مع ذلك ينصحه بأن « يتحدث دون

أن يبعث الملل » فى نفس سامعيه ، وهى نصيحة ليست إلى الآن عديمة النفع للفلاسفة . فلما أذن له أخذ بتاح حوتب ينصح ولده بقوله :

« لا تره بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ، لأن الحديث لا حد له ، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال فى حذق صناعته ؛ والكلام الجميل أندر من الزمرد الذى تعثر عليه بين الحصا . . . فعش إذن فى بيت اللطف يقبل عليك الناس طائعين ويتقدموا لك الهدايا . . . واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك . . . ولا تتخط الحق ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب الناس له ، لأن ذلك بغىض إلى النفس . . .

« وإذا أردت أن تكون حكيماً ، فليولد لك ولد لتسر بذلك الإله . . . فإذا سار فى سبيله مقتدياً بك ، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه ، فقدم له كل الخير . . . أما إذا كان عديم المبالاة ، وخالف قواعد السلوك الطوبى ، وكان عنيفاً ؛ وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول ، فاضربه ، حتى يكون حديثه صالحاً . . . وفضيلة الابن من أثنى الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شئ لا ينسى قط . . .

« وحيماً ذهبت فاحذر الانصال بالنساء . . . وإذا شئت أن تكون حكيماً فكون بيتك وأحب زوجك التى بين ذراعيك . . . واعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام . وفكر فى أنك قد يعارضك خبير ممن يتحدثون فى المجلس ، ولذلك كان من السخف أن تتكلم فى كل نوع من أنواع العمل . . . « وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع . . . واحذر أن تقاطع الناس ، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة ، أبعد ذلك عنك ، وسيطر على نفسك »

ويتم بتاح حوتب نصائحه بهذه العبارة المليئة بالفخر والإعجاب :

« لن يحجى من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظن الألفاظ المبنونة هنا ، ولكنها ستتخذ نماذج وستحدث عنها الأمراء أحسن الحديث : . . . إن كلماتي ستعلم الرجل كيف يتحدث ، . . . أجل إنه سيصبح إنساناً حاذقاً في الطاعة بارعاً في الحديث ، وسيصبيه الحظ الحسن ؛ . . . وسيكون ظريفاً إلى آخر أيام حياته ، وسيكون راضياً على الدوام » (٢٢٤) .

ولكن هذه النعمة السارة المستبشرة لا تدوم في التفكير المصرى ، بل تسرع إليها الشيخوخة فتداهمها وتحيلها إلى نكد وكآبة . ويأتى حكيم آخر هو إيبور فيندب ما فى البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتشف أخريات أيام الدولة القديمة ، ويتحدث عن المتشككين الذين « يقربون القرايين إذا عرفوا مكان الإله » ويعلق على ازدياد حوادث الانتحار ويقول كما قال شوبنهور من بعده : « ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون فى الأرض حمل ولا ولادة ، ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع » - ووضح من هذه الأقوال أن إيبور كان قد شاخ ومل الحياة ، وهو يحلم فى آخر أيامه بملك - فيلسوف ينجى الناس من القوضى والظلم :

« يُبَرَّدْ لَهِيب (الحريق الاجتماعى ؟) ويقال إنه راعى الناس جميعاً قلبه خال من الشر ، فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه فى جمعها ، لأن قلوبها محمومة . ألا ليتته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول ! إذن لقضى على الشر ، ولقد فزاعه لمقاومته ، ولسحق يدرته وما يخرج منها . . . أين هو اليوم ؟ هل هو نائم بالصدفة ؟ أنظروا إن قوته لا ترى (٢٢٥) » .

هذه هى أصوات الأنبياء فى العهد القديم ، وقد سبغت سطورها صياغة الأمثال والحكم ككتابات أنبياء اليهود ؛ ويقول برستد وقوله الحق « إن هذه التحذيرات هى أقدم ما ظهر فى العالم من المثل العليا الاجتماعية التى يطلق عليها

عند العبرانيين اسم المسيحية (٢٢٦) (*). وثمة ملف من أيام الدولة الوسطى يندد بما في ذلك العهد من فساد بعبارات يكاد الإنسان يسمعها في كل جيل :

لمن أتحدث اليوم ؟

الإخوة أشرار

وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب .

إن أتحدث اليوم ؟

القلوب قلوب لصوص

وكل رجل يغتصب ما عند جاره .

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الرجل اللطيف يهلك

والصفيق الوجه يسير في كل مكان

لمن أتحدث اليوم ؟

إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه .

فإنه يتدفق كل الناس إلى الضحك ، وإن كان لئمه خبيثاً . : :

ثم ينطلق هذا الشاعر المصري الشبيه بالشاعر سونبرن الإنجليزي في مدح الموت فيقول :

الموت أمانى اليوم

كشفاء الرجل المريض ،

كالخروج إلى حديقة بعد المرض .

* * *

الموت أمانى اليوم

كشذا المر ،

(*) العفيدة القائلة بأن رسولا سيرسل إلى الأرض ليطهرها مما فيها من فساد وظلم . (المترجم)

أو كابلخوس تحت الشراع في يوم عاصف ،

الموت أمامي اليوم

كراثة أزهار الإزورد

كابلخوس على شواطئ السكر .

الموت أمامي اليوم

كتدفق السيل الجارف ،

كرجوع الرجل من سفينة حربية إلى بيته ، ، ،

الموت أمامي اليوم

كاشتياق الرجل إلى رؤية موطنه

بعد أن قضى السنين في الأسر (٢٢٧) .

وأشد من هذا كتابة قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة في متحف ليدن

يرجع تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق م ، وهي تضرب على النغمة المألوفة نغمة

تمتع بيومك :

لقد سمعت ألفاظ أعوتب وهارديف

وهي ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها .

انظر إلى مكانيهما

إن جذرائهما قد جردت

ومواضعهما قد اندثرت ،

كأن لم تغن بالأمس ،

* * *

إن أحداً لا يأتي من هناك

ليحدثنا عما حل بهما ، ، ،

حتى يرضى قلوبنا ،

إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذى ذهب إليه
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
ما دمت حياً ترزق .

وضع المرء على رأسك ،
واليس على جسمك نسج التيل اللطيف ،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة . الحقبة

* * *

وزد فى مباهجتك أكثر من ذى قبل ،
ولا تترك قلبك يدبيل ،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك ،
وهي أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت ،
حتى يأتيك يوم النحيب .
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم ،
وحين لا يصغى من فى القبور إلى حزنهم ،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر ، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .
أجل ، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك (٢٢٨)

ولعل هذا التشاؤم وذاك التشكك كانا نتيجة لتحطيم روح أمة أخضعها
الغزاة المكسوس وأذلوها ، وشأنهما فى مصر كشأن الرواقية والأبيقورية عند

اليونان المهزومين المستعبدين(*) وهذه الكتابات تمثل فيما تمثل إحدى الفترات التي يغلب فيها التفكير زمنياً ما على العقيدة ، والتي لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون ولماذا يعيشون ، وهي فترات تتوسط عندنا اليوم عهدين تسود كليهما مبادئ خلقية غير التي تسود العهد الآخر . وتلك الفترات الوسطى لا تدوم ، لأن الأمل سرعان ما يتغلب على التفكير ، فتتحط القوة المفكرة إلى مكانها الوضع المألوف ، ويرتفع منار الدين فيوحى إلى الناس بذلك الباعث الخيالي الذي لا غنى لهم عنه في حياتهم وأعمالهم . وليس لنا أن نظن أن هذه القصائد تعبر عن آراء طائفة كثيرة من المصريين ، بل ينبغي أن نعتقد أنه كان من وراء الأقلية الصغيرة النشيطة الحية التي كانت تفكر في مسائل الموت والحياة بعبارات دنيوية طبيعية ، نقول إنه كان من وراء هذه الأقلية ملايين من السذج ، رجالا كانوا أو نساء ، ظلوا أوفياء مخلصين لأجلهم لا يشكون قط في أن الحق سوف يسود ، وأن ما يقاسونه على ظهر الأرض من آلام وأحزان سوف يعرضون عنه بسخاء يوم يستقرون في دار النعيم والسلام .

١١ - المربع

آلهة السماء - آلهة الشمس - آلهة الزرع - الآلهة الحيوانية - آلهة الملاقات الجنسية - الآلهة البشرية - أوزير - إيزيس وحورس - الآلهة الصغرى - الكهنة - عقيدة الخلود - « كتاب الموتى » - « الاعترافات السلبية » - السحر - الفساد .

لقد كان الدين في مصر من فوق كل شيء ومن أسفل منه . فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحلها وفي كل شكل من أشكاله . من الطواطم إلى علم اللاهوت . ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن ، وفي كل شيء عدا الأخلاق . وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو أيضاً غزير موفور .

(*) ويقول أبوور إن الحرب الأهلية لا تأق بإيراد (٢٢٩) .

ولسنا نجد في بلد من البلاد - إذا استثنينا بلاد الرومان والهند - ما نجده من الآلهة الكثيرة في مصر ، وليس في وسعنا أن ندرس المصري - بل ليس في وسعنا أن ندرس الإنسان على الإطلاق - إلا إذا درسنا آلهته .

يقول المصري إن بداية الخلق هي السماء ؛ وقد ظلت هي والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه . ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة ، في اعتقاده ، مجرد أجرام ، بل كانت هي الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات - لم تكن متفقة على الدوام - توجه حركاتها المختلفة المعقدة (٢٣٦) ، وكانت السماء قبة تقف في فضاءها الواسع بقرة عظيمة هي الإلهة حتحور ، والأرض من تحت أقدامها ، وبطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، وكانت للمصريين عقيدة أخرى (لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم إلى إقليم) تقول إن السماء هي الإله سيبو النائم في لطف على الأرض ، وهي الإلهة نويت ، ومن تزاح الوبين المهولين ولدت كل الأشياء (٢٣٧) . ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة ، من ذلك أن ساحو وسيديت (أى كوكبى الجبار والشعرى) كانا إلهين مهولين ، وأن ساحو كان يأكل الآلهة ثلاث مرات في اليوم بانتظام . وكان يحدث في بعض الأحيان أن إلهاً من هذه الآلهة المهولة يأكل القمر ، ولكن ذلك لن يدوم إلا قليلاً ، لأن دعاء الناس وغضب الآلهة الأخرى لا يلبثان أن يضطراً الخنزير النهم إلى أن يتقايأه مرة أخرى (٢٣٨) . وعلى هذا النحو كان عامة المصريون يفسرون خسوف القمر .

وكان القمر إلهاً ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة في مصر ، ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت أعظم الآلهة . وكانت تعبد في بعض الأحيان على أنها الإله الأعلى رع أوري الأب اللامع الذى لقح الأم الأرض بأشعة الحرارة والضاء النافذة . وكانت تصور أحياناً على أنها عجل مقدس يولد مرة في فجر كل يوم ، ويمخر عباب السماء في قارب سماوى ثم ينحدر إلى الغرب في كل مساء كما

ينحدر الشيخ المسن مترنحاً إلى قبره ؛ أو أن الشمس كانت هي الإله حورس مصوراً في صورة باشق رشيق يطير في عظمة وجلال في السماوات يوماً بعد يوم كأنه يشرف من عليائه على مملكته . ولقد أصبح فيما بعد رمزاً متواتراً من الرموز الدينية والملكية . وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام ، ولما أشرق أول مرة ورأى الأرض صحراء جرداء غمرها بأشعته فبعث فيها النشاط فخرجت من عبونه كل الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان - مختلطة بعضها ببعض . ولما كان أول من خلق من الرجال والنساء أبناء رع الأدين فقد كانوا مكملين سعداء . ولكن أبناءهم انحدروا شيئاً فشيئاً إلى طريق الضلال ، فحسروا ما كانوا عليه من سعادة وكمال . وغضب رع من أجل ذلك على خلقه ، فأهلك عدداً كبيراً من الجنس البشرى . على أن العلماء المصريين كانوا يشكون في هذه العقائد الشعبية ويؤكدون (كما كان يؤكد بعض العلماء السومريين) أن الخلائق الأولين كانوا كالبهايم لا يستطيعون النطق بألفاظ مفهومة ، ولا يعرفون شيئاً من فنون الحياة (٢٢٢) . وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت في جملتها أساطير دالة على الذكاء تعبر في تقوى وصلاح عن اعتراف الإنسان بفضل الأرض والشمس .

وكانت هذه الروح الدينية غزيرة خصبة بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة . فكانت بعض النباتات مقدسة لديهم ، فالنخلة التي تظلل الناس في قلب الصحراء ، وعين الماء التي تسقيهم في الواحة ، والغيزة التي يلتقون عندها ويستريحون ، والحميزة التي ترعرع ترعرعاً عجباً في الرمال ، كانت هذه عندهم ، لأسباب قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها عليهم ، أشياء مقدسة . ولقد ظل المصري الساذج إلى آخر أيام حضارته يقرب إليها قرابين الخبز والعنب والتين (٢٢٣) . ولم يكن هذا كل شيء بل إن الخضر الوضيعة قد وجدت لها من يعبدها ، حتى لقد أخذ تين Taine يلهو بالتدليل على أن البصل

الذى أغضب بوسويه Bossuet وأحفظه كان من المعبودات على ضفاف النيل (٢٣٤) .

وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذبوعاً بين المصريين من آلهة النبات ، وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت بها هياكلها كأنها معرض حيوانات صاخبة . وعبد المصريون في هذه المقاطعة أو تلك وفي هذا الوقت أو ذاك العجل والتساح والصقر والبقرة والإوزة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة والخطاف وابن آوى والأفعى ؛ وتركوا بعض هذه الدواب تجوس خلال الهياكل ولها من الحرية ما للبقرة المقدسة في الهند حتى هذه الأيام (٢٣٥) . ولما تحولت الآلهة إلى آدميين ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها ، فكان أمون يمثل بإوزة أو بكبش ، ورع يرمز له بصرصور أو عجل ، وأوزير بعجل أو كبش ، وسبك بتمساح ، وحورس بصقر أو بازى ، وحتحور ببقرة ، وتحت إله الحكمة برباب (٢٣٦) . وكانت النساء يقدمن أحياناً لهذه الآلهة ليكن زوجات هن ، وكان العجل — وهو الذى يتقمصه أوزير — صاحب هذا الشرف العظيم بنوع خاص ، ويقول أفلاطرخس إن أجمل النساء فى منديس كنَّ يقدرن لمضاجعة التيس المقدس (٢٣٧) . وقد بقيت هذه الشعائر الدينية من بداية الأمر إلى نهايته عنصراً أساسياً قوياً فى الديانة المصرية . أما الآلهة من بنى الإنسان فقد جاءت إلى مصر فى وقت متأخر كثيراً ، ولعلها جاءت هدايا من غرب آسية (٢٣٨) .

وكان المصريون يقدسون المعز والعجل تقديساً خاصاً ويعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة . ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير بل كانا تجسيدا له (٢٣٩) . وكثيراً ما كان أوزير يرسم وأعضاؤه التناسلية كبيرة بارزة دلالة على قوته العظمى ، وكان المصريون فى اللواكب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة ، أو أخرى ذات ثلاثة قضبان . وكان النساء فى بعض المناسبات يحملان مثل هذه الصور الذكرية ويحركنها تحريكاً آلياً بالخيط (٢٤٠) . والعبادة الجنسية لا تظهر فقط فى الرسوم الكثيرة التى نراها فى نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة ، بل إنا فضلاً عن هذا

نراها كثيراً في الرموز المصرية على هيئة صليب ذى مقبض كان يتخذ رمزاً للاتصال الجنسي والحياة القوية (٢٤١) ٥

ثم صار الآلهة في آخر الأمر بشراً - أو بعبارة أصبح أصبح البشر آلهة . ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالاً متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا في صور عظيمة باسلة ، ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم ؛ يجوعون ويأكلون ، ويظمأون ويشربون ، ويحبون ويتزوجون ، ويكرهون ويقتلون ، ويشيخون ويموتون (٢٤٢) ، شأنهم في هذا شأن آلهة اليونان سواء بسواء . من ذلك أن أوزير إله النيل المبارك كان يحتفل بموته ولقبه في كل عام ، وكان يرمز بموته وبعثه لانخفاض النيل وارتفاعه ، ولعلهما كانا يرمزان أيضاً لموات الأرض وحياتها وكان في مقدور كل مصري في عهد الأسرة المتأخرة أن يقص كيف غضب سيت (أوسيت) إله الجفاف الخبيث الذي أبيس الزرع بأنفاسه المحرقة ، كيف غضب هذا الإله الخبيث من أوزير (النيل) لأنه يزيد (بفيضه) من خصب الأرض ؛ فقتله وحكم بجفافه الجبار في مملكة أوزير . (ويقصدون بهذا أن النهر لم يرتفع ماؤه في سنة من السنين) ، وظل الأمر كذلك حتى قام حورس الباسل ابن إيزيس فغلب سيت ونفاه من الأرض . وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما في حب إيزيس من حرارة ، وحكم مصر حكماً صالحاً ، وحرم أكل لحم الآدميين ونشر لواء الحضارة ، ثم صعد إلى السماء ليحكم فيها ويكون إلهاً (٢٤٣) . وكانت هذه أسطورة ذات معنى عميق ، ذلك بأن التاريخ - كدين الشرق - ثنائي ، فهو سجل للنزاع بين الخلق والدمار ، وبين الخصب والجفاف ، وبين الشباب المتجدد والفناء ، بين الخير والشر ، بين الحياة والموت ،

ومن أعمق الأساطير أيضاً أسطورة إيزيس الأم العظمى . ولم تكن إيزيس أنجت أوزير وزوجته الوفية فحسب ، بل كانت من بعض الوجوه أجل منه قدراً ، لأنها قهرت الموت بالحلب شأنها في ذلك شأن النساء بوجه عام . كذلك

لم يكن فضلها مقصوراً على أرض النهر السوداء التي أخصبها مس أوزير (النيل) فأغنت مصر كلها بإنتاجها - لم يكن فضلها مقصوراً على هذه الأرض ، بل كان لها فضل أعظم من هذا وأنفع ، لقد كانت رمز القوة الخالقة الخفية التي أوجدت الأرض وكل ما عليها من الكائنات الحية ، وأوجدت ذلك الحنو الأموى الذى يحيط بالحياة الجديدة حتى يتم نموها مهما كلفها من جهد وعناء ، وكانت ترمز فى مصر - كما ترمز كالى ، وإستير ، وسبيل فى آسية ، وكما ترالز ديمتر فى بلاد اليونان ، وسيريز فى رومة - كما ترمز هذه كلها إلى ما للعنصر النسوى من أسبقية وأفضلية واستقلال فى الخلق ، وفى الميراث ، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة فى حرث الأرض ، ذلك أن إيزيس (كما تقول الأسطورة) هى التى عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً برياً فى أرض مصر ، وكشفت عنهما لأوزير (٢٤٤) ، وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصبروا لها صبراً من الجواهر لأنها فى اعتقادهم أم الإله . وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبحون بحمدها فى العشى والإبكار ، وكانت صورة قديسة لها تماثيلها وهى ترضع فى ربية طفلها الذى حملت فيه بمعجزة من المعجزات توضع فى معبد ابنها المقدس حورس (إله الشمس) فى منتصف فصل الشتاء من كل عام ، أى فى الوقت الذى يتفق ومولد الشمس السنوى فى أواخر شهر ديسمبر . ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر فى الطموس المسيحية وفى الدين المسيحى ، حتى أن المسيحيين الأولين كانوا أحياناً يصلون أمام تماثيل إيزيس الذى يصورها وهى ترضع طفلها حورس ، وكانوا يرون فيها صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة أسطورة المرأة (أى العنصر النسوى) الخالقة لكل شئ والى تصبح آخر الأمر أم الإله (٢٤٥) .

وكانت هذه الآلهة - رع (أوأمون كما كان يسميه أهل الجنوب) وأوزير ، وإيزيس وحورس - أعظم أرباب مصر . ولما تقادم العهد امتزج رع

وأمون وإله آخر هو فتاح فأصبحت ثلاث صبور أو مظاهر لإله واحد أعلى يجمعها هي الثلاثا (٢٤٦) . وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة منها أنوبيس بن آوى ، وشو ، وتفنوت ، ونفثيس ، وكث ، وبت ، . . . ولكننا لا نريد أن نجعل من هذه الصحف متحفاً للآلهة الأموات . إن الملك نفسه كان إلهاً في مصر وكان على الدوام ابن أمون - رع لا يحكم مصر بحقه الإلهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهي ، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطناً له إلى حين .

وكان يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة ، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهة القوى السحرية للتاج (٢٤٧) ، وكان الملك هو الرئيس الدينى الأعلى يرأس المراكب والحفلات العظيمة التى تمجد أعياد الآلهة . وبفضل هذه الدعاوى ، دعاوى قدسية المولد وقدسية السلطان ، استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة .

ومن أجل هذا كان الكهنة في مصر دعامة العرش كما كانوا هم الشرطة السرية القوامه على النظام الاجتماعى . وتطلب هذا الدين الكثير التعقيد أن تقوم عليه طبقة بارعة فى فنون السحر والطقوس الدينية لا يمكن الاستغناء عن قدرتها وبراعتها فى الوصول إلى الآلهة . وكان منصب الكاهن ينتقل فى الواقع إن لم يكن بحكم القانون ، من الأب إلى الابن ، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن ، بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسى ، أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها . وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشراهم من القرابين التى تقدم للآلهة ، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيرادات طيوان الهياكل ، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية . ولذا كانوا معفين من الضرائب التى تجبى من سائر الناس ومن السخرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم

من المكائنة والسلطان ما منحسدهم عليه سائر الطبقات . والحق أنهم كانوا جديرين بقسط وافر من السلطان لأنهم هم الذين جمعوا علوم مصر واحتفظوا بها ، وهم الذين علموا الشعب وفرضوا على أنفسهم نظاماً دقيقاً قوامه القوة والغبرة . وقد وصفهم هيرودوت وصفاً يكاد يشعرنا بأنه كان يهابهم ويرهبهم قال :

« وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ، ولا يتحللون قط من المراسم الآتية ، . . . يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على الدوام . . . ويختنون حرصاً منهم على النظافة لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال ، ويخلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة في كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجرد القمل أو غيره من الأقدار مكاناً في أجسامهم . . . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل (٢٤٨) . »

وكان أهم ما يميز هذا الدين توكيده فكرة الخلود . فالمصريون يعتقدون أنه إذا أمكن أن يحيا أوزير النيل ، ويحيا النبات كله ، بعد موتهما ، فإن في مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته ، وكان بقاء أجسام الموتي سليمة بصورة تسترعى النظر في أرض مصر الخافتة مما ساعد على تثبيت هذه العقيدة التي ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين ، والتي انتقلت منهم إلى الدين المسيحي (٢٤٩) . لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة - الكا - كما تسكنه أيضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذي يرفرف بين الأشجار . وهذه الثلاثة مجتمعة - الجسم والقرينة والروح - تبقى بعد ظاهرة الموت ، وكان في استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليماً من البلى ، ولكنهم إذا جاءوا إلى أوزير مبرئين من جميع الذنوب سمح لهم أن يعيشوا مخلدين في « حفل الفيضان السعيد » أى في الحقائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام . وفي وسع الإنسان

أن يحكم على ما كان عليه من يعللون أنفسهم بهذه الآمال من فقر ونكد .
إلا أن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام صاحب
المعبر الذى كان للمصريين كما كان شارون ، ولم يكن هذا الشيخ الطاعن
فى السن يقبل فى قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا فى حياتهم ذنباً ما ،
وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب فى كفة ميزان
تقابلة فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله . والذين
لا ينجحون فى هذا الاختبار فى النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر فى
قبورهم يحوعون ويظمئون ، ويطعمون من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون
منها أبداً ليروا الشمس .

وكان الكهنة يقولون إن نعمة طرقة ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات ، وكانوا
على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم . ومن هذه الطرق
أن يهب القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، ويمكن يستطيع الاستعانة
بهم من الخدم . ومن تلك الطرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التى تحبها الآلهة :
من أسماك ، ونسور ، وأفاعي ، وبما هو خير من هذه كلها وهو الجعران -
والجعران ضرب من الخنافس كانت فى رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتوالد
كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح . فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب
الطقوس الصحيحة أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر . وكان خيراً
من هذه وتلك أن يشتري كتاب الموتى (*) ، وهو قراطيس ملفوفة أودع فيها

(*) ذلك اسم حديث أطلقه ليسيوس على نحو أنى ملف من ورق البردى وجدت فى عند
قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيفاً لإرشاد الموتى . واسمها المصرى هو :
الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها .
ويستقصد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله الحكمة . وقد جاء فى الفصل
الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه فى عين شمس وأنه كان « بخط الإله
نفسه » (٢٥٠) ولقد عثر هورش على ما يشبه هذا الكتاب بين اليهود (انظر الفصل الخامس من
الباب الثانى عشر من هذا الكتاب) .

الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويد من شأنها أن تهدئ من غضب
أوزير ، بل أن تخدعه . فإذا ما وصلت روح الميت إلى أوزير بعد أن يتجاوز
العدد الكبير من الصعاب والأخطار ، مخاطبت القاضي الأكبر بما يشبه
هذه الأقوال :

أيا من يعجل سير جناح الزمان ،
يا من يسكن في كل خفايا الحياة ،
يا من يحصى كل كلمة أنطق بها -
انظر إنك تستحي مني ، وأنا ولدك ؛
وقلبك مغمم بالحزن والخلجل ،
لأنني ارتكبت في العالم من الذنوب ما يفعم القلب حزناً ،
وقد تهاديت في شروعي واعتدائي .
ألا فسامني ، ألا فسامني ،
وحطم الحواجز القائمة بينك وبينني !
ومُرِّباًني تحي كل ذنوبي وتسقط
منسية عن يمينك وشمالك !
أجاء امح كل شروعي
وامح العار الذي يملأ قلبي
حتى تكون أنت وأنا من هذه اللحظة في سلام (٢٥١) .

ومن الطرق الأخرى أن تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة
« اعتراف إسلي » . وهذا الاعتراف من أقدم وأنبل ما عبر به الإنسان عن
مبادئه الأخلاقية :

« سلام عليك ، أيها الإله الأعظم ، ربّ الصدق والعدالة ! لقد وقفت
أمامك ، يا رب ، وحيي لي كي أشاهد ما لديك من جمال . . . أهل إليك

الصدق . . . إني لم أظلم الناس . . . لم أظلم الفقراء . . . لم أفرض على رجل
حراً عملاً أكثر مما فرضه هو على نفسه . . . لم أهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه
الآلهة . . . ولم أكن سبياً في أن يسيء السيد معاملة عبده ، ولم أمت إنساناً
من الجوع ، ولم أهلك أحداً ولم أقتل إنساناً . . . ولم أخن أحداً . . . ولم أنقص
شيئاً من مؤونة الهيكل ، ولم أتلّف خبز الآلهة . . . ولم أرتكب عملاً شهوانياً
داخل أسوار المعبد المقدسة . . . ولم أكفر بالآلهة . . . ولم أغش في الميزان . . .
ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع . . . ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة . . .
أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر (٢٥٢) .

على أن الدين المصري لم يكن فيه ما يقوله عن الأخلاق إلا الشيء القليل ،
فذلك أن الكهنة قد صرفوا كل همهم إلى بيع الرقي ، ونمغمة العزائم ، وأداء
المراسم والطقوس السحرية ، فلم يجدوا متسعاً من الوقت لتعليم الناس المبادئ
الخلقية . بل إن كتاب قصة الموتى نفسه ليعلّم المؤمنين أن الرقي التي باركها الكهنة
تغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب في طريقها إلى دار
السلام ، وأهم ما يؤكد هذا الكتاب هو تلاوة الأدعية لا الحياة الطيبة الصالحة
وقد جاء في أحد هذه الملفات : « إذا ما عرف الميت هذا خرج في النهار » أي
حي الحياة الخالدة . ووضعت صيغ التائب والرقي وبيعت لتخلص الناس من كثير
من الذنوب ؛ وتضمن للشيطان نفسية دخول الجنة . وكان من واجب المصري
التقّي أن يتلو في كل خطوة من خطواته صيغاً عجيبة يتقّي بها الشر ويستنزل بها
الخير . استمع مثلاً إلى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد « الشياطين » عن طفلها :
« اخرج يا من تأتي في الظلام ، وتدخل خلصة . . . هل أتيت لتقبل هذا

الطفل ؟ لن أسمع لك بتقبيله . . . هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمع لك بأخذه مني
لقد حصنته منك بعشب - إفيت الذي يؤمك ، وبالبصل الذي يؤذك ،
وبالشهد الذي هو حلوى المذاق للأحياء ومر في فم الأموات ، وبالأجزاء الخبيثة
من سمك الإبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر (٢٥٣) .

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضاً . وأدب مصر القديم نفسه يفيض بذكر السحرة - السحرة الذين يحفون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أماكنها ، أو يحيون الموتى (٢٥٤) . وكان للملك سحرة يعينونه ويرشونهم ، وكان الاعتماد السائد أن له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء في النهر (٢٥٥) . وكانت الحياة مملوءة بالطلاسم والعزائم ، والرجم بالغيب ، وكان لا جد لكل باب من إله يخيف الأرواح الخبيثة ، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشر ، وكانوا يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن الأطفال الذين يولدون في اليوم الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وأن الذين يولدون في اليوم العشرين من شهر شرياح سيفقدون أبصارهم في مستقبل أيامهم (٢٥٦) . ويقول هيرودوت إن كل يوم وكل شهر مخصص لإله من الآلهة ، وإن المصريين كانوا يعينون ما سوف يقع لكل شخص منهم في حياته حسب اليوم الذي ولد فيه ، فيعرفون كيف يموت ، وماذا سيكون في مستقبل أيامه (٢٥٧) . ونسى الناس على مر الزمن ما بين الدين والأخلاق من صلات فلم تكن الحياة الصالحة هي السبيل إلى السعادة الأبدية ، بل كانت السبيل إليها هي السحر والطقوس وإكرام الكهنة . ولما القاري ما يقوله في هذا عالم كبير من علماء الآثار المصرية :

« ومن ثم تضاعفت الأخطار التي تكتنف الدار الآخرة ، وكان في وسع الكاهن أن يمد الموتى في كل موقف من المواقف الخطرة برقية قوية تنقذه منه لا محالة . وكان لديهم ، فضلاً عن الرقى الكثيرة التي يستطيع بها الموتى أن يصلوا إلى الدار الآخرة ، رقى أخرى تمنع الميت أن يفقد فيه رأسه أو قلبه ، ورقى غيرها يستطيع بها أن يذكر اسمه ، وأن يتنفس ، ويأكل ويشرب ويتنقأ أكل فضلاته ، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يستحيل لباً ، ومنها ما يحيل الظلام نوراً ، ومنها ما يرد عنه الأفاعى وغيرها من الهولاء المعادية ، وما إلى ذلك . . . »

وهكذا فوجدنا بانقطاع أسباب التدرج في نمو المبادئ الأخلاقية التي نستطيع
تبينها في الشرق القديم أو على الأقل بوقف هذا النمو إلى حين ويرجع هذا
إلى الأساليب البغيضة التي بلّغت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل
الحرص على الكسب من أهون سهيل. (٢٥٨)

تلك كانت حال الدين في مصر حين ارتقى العرش إخناتون الشاعر
المارق وأجج نار الثورة الدينية التي قضت على الإمبراطورية المصرية ،

الفصل الرابع

الملك المارق

أخلاق إخناتون - الدين الجديد - ترويسة الشمس - التوحيد -
المقيدة الجديدة - الفن الجديد - الارتكاس - نفرتيتي
تفكك الإمبراطورية - موت إخناتون

في عام ١٣٨٠ ق . م مات أمنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر ، بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى ، وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم إخناتون . ولدنا تمثال نصفى لهذا الملك واضح المعارف ، عثر عليه فى تل العمارنة ، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى أبعد حد لا يكاد يصدق العقل ، ذا وجه نسائى فى رقته ، شاعرى أحاسيسه . وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين ، وجمجمة طويلة شواء ، وجسم نحيل ضعيف ، وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن يجعل منه ملكاً .

رلم يكده يتولى الملك حتى ثار على دين أمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته . فقد كان فى الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يتخذن سرارى لأمون فى الظاهر ، وليسستمع بهن الكهنة فى الحقيقة (٢٥٨) .

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة ، فلم يرضه هذا العهر المقدس ، وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قرباناً لأمون كريهة تنته فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى ، واستخذامهم نبوءات أمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولتنشر الفساد السياسى (٢٥٩) ، مما تعافه نفسه ، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة ، وقال فى هذا : « إن أقوال الكهنة لأشد إثمًا من

كل ما سمعت بحق السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد إنجماً مما سمعه الملك أمنحوتب الثالث (٢٦٠) ، وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور إليه دين شعبه ، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التى كانت تملأ الهياكل ، وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة . ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء ، فلم يقبل تراضياً ولم يقنع بأنصاف الحلول ، وأعلن فى شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو - أتون .

ورأى إخناتون - كما رأى أكبر فى الهند من بعده بثلاثين قرناً - أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة .

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام ، أو ابتدعها من عنده ، وهل كان أتون مجرد صورة أخرى لأدنيس . وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً ، فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على أمون اسم إخناتون ومعناه « أتون راض » ، واستعان ببعض الترانيم القديمة ، وبعض قصائد فى التوحيد - نشرت فى أيام سلفه(*) - فألف أغاني حماسية فى مدح أتون ، أحسنها وأطولها جميعاً القصيدة الآتية . وهى أجمل ما بقى لدينا من الأدب المصرى القديم :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !

أى أتون الحى ، مبدأ الحياة ،

فلإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى

ملأت الأرض كلها بجلالك .

(*) فى أيام أمنحوتب الثالث نقش المهندس سوق وحوور نشيدا توحيديا للشمس على لوحة محفوظة الآن فى المتحف البريطانى (٣٦١) . وقد كانت العادة المتبعة فى مصر من زمن طويل أن يخاطب إله الشمس أمون - رع باسم أعظم الآلهة (٣٦٢) ، ولكنه لم يكن فى اعتقادهم إلا إله مصر وحدها .

إنك جميل ، عظيم براق ، عال فوق كل الرؤوس ،
أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت ،
إنك أنت ربي ، وأنت تسوقها كلها أسيرة ؛
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك .
ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض ،
ومهما علوت ، فإن أثر قدميك هي النهار ،
وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي
نخيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس في حجر آتهم ،
وعصبت رؤوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسرق كل متاعهم ،
الذي تحت رؤوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا ،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغث الأفاعي كلها . . .
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذي صنعها يستريح في أفق سمائه .
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق ،
حين تغيب يا أتون بالنهار
تدفع أمامك الظلام
وإذا ما أرسلت أشعتك

أضجت الأرضان في أحياء يومية ، ،
واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم .
فلذا غسلوا أجسامهم ، لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم بمجدون طلوعك ،
وأدخلوا في جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،
واستراحت الأنعام كلها في مراعيها .
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرت الطيور في مناقعها ،
ولجنتها مرفوعة تسبح بحمدك .
ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها .
وطلو كل ذى جناحين ،
كلها تحيا إذا ما أشرقت عليها ،
وأقلعت السفات صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت ،
إن السمك في النهر ليقفز أمامك ،
وإن أشعتك لفي وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق الخرومة في المرأة ،
ويا صانع النطفة في الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه ،
ويا من يهديه فلا يبكي ،
يا من يغذيه وهو في الرحم ،
يا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل من يصنعه

وحين يخرج من الجسم . . . في يوم مولده
تفتح أنت فاه لينطق ،
وتحمده بحاجاته .

والفرخ حين يزقزق في البيضة
تمبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فإذا ما وصلت به
إلى النقطة التي عندها تُكسر البيضة .
خرج من البيضة ،
ليغرد بكل ما فيه من قوة
ويمشى على قدميه
ساعة يخرج منها .
ألا ما أكثر أعمالك
الخافية علينا !

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه .
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيداً :

إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشى على قدمين
وكل ما هو في العلا
ويطير بجناحيه ،

والبلاد الأبنية من سوريا إلى كوش
وأرض مصر ؛

إنك تضع كل إنسان في موضعه

وتمددهم بحاجاتهم ٥٥٥
أنت موجد النيل في العلم السفلى ،
وأنت تأتي به كما تحب
لتحفظ حياة الناس ...
ألا ما أعظم تدبيرك
يا رب الأبدية !
ن في السماء نيلاً للغرباء
ولما يمشى على قدميه من أنعام كل البلاد ٥
إن أشعته تغذي كل الحقائق ،
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
أنت الذي تنميتها ،
أنت موجد الفصول
لكي تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتي إليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكي تتذوقاك .
وأنشأت السماء البعيدة ، وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت ،
أنت وحدك تسطع في صورة أنون الخي .
تطاع ، وتسطع ، وتبتعد ، وتعود ٥
إنك تصنع آلاف الأشكال
منك أنت وحدك ؛
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ؛
من برق كبرى وأنهار ٥

كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك أنت أثون النهار فوق الأرض . . .

* * *

إنك في قلبي
وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون .
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوتك ،
إن العالم في يديك
بالصورة التي خلقته عليها ،
فلذا أشرقت دبت فيه الحياة
وإذا غربت مات ؛
لأنك أنت نفسك طول الحياة
والناس يستملكون الحياة منك ،
ما هامت عيونهم تتطلع إلى سناك
حتى تغيب .
فتقف كل الأعمال
حين تتوارى في المغرب . . .

* * *

أنت أوجدت العالم ؛
وأقت كل ما فيه لابنك . . .
إخناتون ، ذى العمر المديد ؛
ولزوجه الملكية الكبرى محبوبته ،

سيدة القطرين

نفر — تفرو — أتون ، نفر تيتي ،
الباقية المزدهرة أبد الآبدين (٢٦٣) ٧

وليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى بحسب ، بل هي فوق ذلك أول شرح بليغ لفقيدة التوحيد ، فقد قبلت قبل أن يحىء إشعيا بسبعائة عام (*) كاملة . ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر المتوسط تحت حكم مصر في عهد تحتمس الثالث ، كما يتول برستد (٢٦٥) . ويرى إخناتون أن إلهه رب الأنم كلها ، بل إنه في مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التي يوليها الإله عنايته . ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل ! ثم انظر إلى ما في القصيدة من مذهب حيوى : إن أتون لا يوجد في الوقائع والانتصارات الحربية ، بل يوجد في الأزهار والأشجار وفي جميع صور الحياة والنماء ، وأتون هو الفرحة التي تجعل الخراف الصغرى « ترقص فوق أرجلها » والطير « ترفرف في مناقعها » .

وليس الإله إنساناً في صورة البشر دون غيرها من الصور ، بل إن هذا الإله الحق هو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وليس ما في الكرة المشرقة والآفة من مجد ملتهب إلا رمزاً للقدرة الغائبة . على أن هذه الشمس نفسها تصبح في نظر إخناتون « رب الحب » لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة ، وهي فوق ذلك الموضع الحنون التي « تخلق في المرأة الطفل — الرجل » والتي « تملأ قطري مصر بالحَب » . وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب ؛ ولم يكن كيهوه ، رب الجيوش ، بل كان رب الرحمة والسلام (٢٦٦) .

(*) ما بين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائة من تشبهه يغفل عنه الناس لا يتحرك مجالا للشك فيما كان لمصر من أثر في الشاعر العبراني (٢٦٤) .

ومن مآسى التاريخ أن إخناتون ، بعد أن حقق حلمه العظيم خلم الوحدةانية العامة التى سميت بالبشرية إلى الدرجات العلى ، لم يترك ما فى دينه الجديده من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل ، بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع . لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق ، فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم أتون ، وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة أمون من مئآت الآثار ، وحرم كل دين غير دينه ، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة . وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة ، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى أخناتون « مدينة أفق أتون » .

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن أخرجت منها دور الحكومة — وخسرت رواتب الموظفين ، وأضحت أخناتون حاضرة غنية أقيمت فيها المباني الجديدة — ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة والتقاليد . ولقد دشف سيرو ولیم فلنترز بترى فى تل العمارنة — وهى قرية حديثة أنشئت فى موقع أخناتون القديمة — طواراً جميلاً تزينه صور الطيور ، والسمك وغيرهما من الحيوانات ، رسمت كلها أدق رسم راجله (٢٦٧) . ولم يفرض إخناتون على الفن قيوداً بل كان ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صوراً لأنون ، لأن الإله الحق فى اعتقاده لا صورة له ، وما أسمى هذه من عقيدة (٢٦٨) . ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً ، عدا شيئاً واحداً آخر ، وهو أنه غلب إلى فنانيه : بك ، وأوتا ، ونتموز ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها ، وأن يغفلوا العرف الذى جرى عليه الكهنة . وصدع هؤلاء بأمره ، وصوروه هو نفسه فى صورة شاب دى وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل ، ورأس مستطيل مسرف فى الطول ، واسترشدوا فى تصويرهم بعقيدته الحيوية فى إلهه ، فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ، ودقة لا تسمو عليها دقة

فى أى مكان أو زمان (٢٦٦) . وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار
لأن الفن فى جميع العصور يحس بالآلام المسغبة والقناتم

ولو أن إخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريد من خروج
على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم ، إلى وحدانية
فطرية تخضع الخيال للعقل ، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم فى زمن
قصير ، وإذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله
على مراحل تدريجية . ولكنه كان شاعراً لا فيلسوفاً ، فاستمسك بالحقيقة
المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه ،

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من ثرائها
فأغضبها عليه ، وحرّم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على
الناس . ولما أن محال لفظ آمون من اسم أبيه خيل إلى الناس أن هذا
العمل زيغ وضلال ، إذ لم يكن شئ أعز عليهم من تعظيم الموتى من
أسلافهم . وما من شك فى أن إخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم
وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى . وقام الكهنة من وراء
الستار يأتُمرون ويتأهبون ، وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون
آلهتهم القديمة المتعددة . وزاد الطين بلة أن ماث الحرف التى لم تكن
لها حياة إلا على حساب الهياكل أخذت ترجى السر غضباً على الملاك
الزنديقى ، بل إن وزراءه وقواده بن جدران قصوره كانوا يحقدون عليه
ويتمنون موته . ألم يكن هو الرجل الذى ترك الدولة تنهار وتنقطع أوصالها
بين يديه ؟ .

وكان الشاعر الفقى فى هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان . وكانت
له سبع بنات ، ولكنه لم يكن له ولد ذكر . ومع أن القانون كان يحى له أن

يطلب له وارثاً ذكراً من زوجة ثانية ، فإنه لم يقدم على هذا الحل ، وآثر أن يظل وفياً لنفرتيتي . ولقد وصلت إلينا تحفة صغيرة من عهده تظهره محتضن الملكة ؛ كما أجاز لمصوريه أن يرسموه في عربة يسير بها في الشوارع يلهو ويضطرب مع زوجته وبناته . وكانت الملكة تجلس إلى جانبه في الاحتفالات وتمسك بيده . كما كانت بناته يلعبن إلى جانب عرشه . وكان يصف زوجته بأنها « سيدة سعادته » ويقول « إن الملك يبتهج قلبه حين يسمع صحتها » ؛ وكان في قسمه يقسم بهذه الصيغة : « بقدر ما تسعد وقلبي الملكة أطفالها (٢٧٠) » . لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والاساطان في تاريخ مصر .

وجاءت الرسائل المروعة من الشام(*) تنقص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة ، فقد غزا الحيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر في الشرق الأدنى . وأخذ الحكام المعيشون من قبيل مصر يلحون في طلب النجدة العاجلة . وتردد إخناتون في الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر ؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهاكوا في ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعادتها . ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولي صالح ، خلعت حكامها المصريين ، وامتنعت في غير جليلة عن أداء شيء من الخراج ، وأصبحت حرة مستقلة في جميع شؤونها . ولم يمض من الزمن إلا أقصره حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة ، وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة . وسرعان ما أفقرت الخزائنة المصرية التي ظلت قرناً كاملاً تعتمد أكثر ما تعتمد على ما يأتيها من

(*) في عام ١٨٩٣ حذر سير فلندرز بترى في ثل العارضة على أكثر من ثلثة وخسين لوحة هي رسائل مكتوبة بالخط المساري معظمها طلبات ملحة للنجدة موجهة إلى إخناتون من بلاد الشرق .

الجزية الخارجية ، ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد ، ووقف العمل في مناجم الذهب ، وسمت الفوضى جميع فروع الإدارة الداخلية . وألغى إخناتون نفسه معلماً فقيراً لا صديق له ولا معين في عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له . واندلع لهيب الثورة في جميع الولايات التي كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية في وجهه تناوئه وتترقب سقوطه .

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفي في عام ١٣٦٢ ق . م محطماً القلب بعد أن أدرك عجزه من أن يكون مملوكاً ، وأيقن أن شعبه غير جدير به .

الفصل الخامس

اضمحلال مصر وسقوطها

توت عنخ أمون - جهود رمسيس الثانى - ثروة الكهنة -
فقر الشعب - فتح مصر - خلاصة في فعل مصر على الحضارة

وبعد عامين من وفاته جلس على العرش توت عنخ أمون زوج ابنته وحبيب الكهنة . وما لبث أن بدل اسمه توت عنخ أتون الذى سماه به حموه . وأعاد عاصمة الملك إلى طيبة ، وتصالح مع السلطات الكهنوتية ، وأعلن إلى الشعب المبتهج عودته إلى عبادة الآلهة القديمة . وأزيلت من جميع الآثار القديمة كلتا أتون وإخناتون ، وحرّم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق . وكان الناس إذا تحدّثوا عنه سمّوه « المجرم الأكبر » . ونقشت على الآثار الأسماء التى محاه إخناتون ، وأعيدت أيام الأعياد التى ألغاه ، وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل .

وفى هذا حكم توت عنخ أمون حكماً لا ميزة له ولا فضل ، وله لا ما كشف في قبره من كنوز لا عهد للناس بها من قبل لما سمع العالم به . وجاء من بعده قائد باسل يدعى حارمحب سير جيوشه على طول الشاطئ وأعاد إلى مصر أملاكها الخارجية وسلمها الداخلية . وجنى سبى الأول بحكمته ثمار عودة النظام والثروة ، وشيد بهو الأعمدة فى الكرنك (٢٧٢) . وشرع فى نحت هيكل عظيم فى صخور أبى سنبل ، وخلد عظيمته فى الأعقاب بالنقوش الفخمة ، وكان له الحظ الأكبر فى أن رقد آلاف السنين فى قبر من أحسن قبور مصر زخرفاً وتنميقاً .

ثم ارتقى العرش رمسيس الثانى صاحب الشخصية الروائية العجيبة وآخر العظام . وقلما عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً ، فقد كان وسياً

شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه إحساسه في شبابه بهذه المحاسن ، ولم تكن جهوده الموفقة في الحرب ليضارعها غير مغامراته في الحب . وبعد أن نحى رمسيس عن العرش أنجأ له ذا مطالب جاءت في غير وقتها المناسب ، سبر حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب ، ويملاً به خزانة مصر ، واستخدم ما جاء به هذه الحملة من أموال لإخضاع الولايات الآسيوية التي خرجت على مصر . وقضى ثلاث سنين في إخضاع فلسطين ثم واصل زحفه والتي عند قادش (١٢٨٨ ق م) بجيش عظيم جمعه الأحلاف الآسيويون . وبدل بشجاعته وبراعة قيادته ، هزيمة عمدة به بصراً مؤزراً . وربما كان من نتائج هذه الحملات أن جيء إلى مصر بعدد كبير من اليهود عبيداً أو مهاجرين ، يعتقد بعضهم أن رمسيس الثاني هو بعينه فرعون موسى الذي ورد ذكره في سفر الخروج (١٢٣) . وأمر أن تغلد انتصاراته بغير قليل من المبالغة والتعجب على خمسين جداراً أو نحوها ، وكلف أحد الشعراء بأن يشيد بذكره في ملحنة شعرية ، وكافاً نفسه على أعماله بوضع مئات من الزوجات ، وخلف بعد وفاته مائة وخمسين ابناً ليبرهن على رجولته بعدد هؤلاء الأبناء وبنسبة الذكور منهم إلى الإناث . وتزوج عدداً من بناته حتى يكون لمن أيضاً أبناء عظامه . وكان أبنائه ومن تناسل منهم من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة في مصر بقيت على هذه الحال أربعة قرون ، وظل حكام مصر يختارون من هذه الطبقة أكثر من مائة عام .

والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موفقاً . ولقد أسرف في البناء إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقي من العائد المصرية يعزى إلى أيام حكمه . وأتم بناء البهو الرئيسي في الكرنك ، وأضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر ، وشاد ضريحه الكبير المعروف بالمرسبوم في غرب النهر ، وأتم الهيكل العظيم المنقور في الجبل عند أبي سنبل ، ونثر تماثيل له ضخمة في طول البلاد وعرضها . وراجت التجارة في عهده عن طريق

برزخ السويس والبحر المتوسط ، واحتفر ترعة أخرى توصل النيل بالبحر الأحمر ، ولكن الرمال السافية طمرتها بعد وفاته بزمان قليل . وأسلم رمسيس الروح في عام ١٢٢٥ ق . م وهو في التسعين من عمره ، بعد عهد يعد من أشهر العهود في التاريخ .

ولم يكن في البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته لإسالة الكهنة . ثم قام النزاع في مصر ، كما قام في غيرها من البلاد خلال جميع العهود ، بين الدولة والدين . فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد المفتوحة تتدفق في أثناء حكمه وحكم خلفائه الذين تولوا الملك بعده مباشرة في خزائن الهياكل والكهنة . وبلغت هذه الثروة غايتها في عهد رمسيس الثالث . فكان للمعابد من العبيد ١٠٧٠٠٠ وهم جزء من ثلاثين جزءاً من سكان مصر . وكان لها من أرض مصر ٧٥٠٠٠٠ فدان أى سبع أرض مصر الصالحة للزراعة ، وكانت تمتلك ٥٠٠٠٠٠ رأس من الماشية ، وتستحوذ على إيراد ١٦٩ مدينة من مدن مصر والشام . وكانت هذه الثروة الضخمة كلها معفاة من الضرائب (٢٧٤) . وأغلق رمسيس الثالث الكريم ، وإن شئت فقل الوهاب ، من الهدايا على كهنة آمون ما لم يسبق له في كثرته مثيل . وكان من هذه الهدايا ٣٢٠٠٠ كيلو جرام من الذهب ، ومليون كيلو جرام من الفضة (٢٧٥) . وكان يهبهم كل سنة ١٨٥٠٠٠ كيس من الحبوب . ولما حان الوقت لأداء أجور العمال الذين تستخدمهم الدولة في مرافقها وجد الخزائنة مقفلة (٢٧٦) . وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكى يتغم الآلهة .

وكان شأن هذه السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة عاجلاً كان ذلك أو أجلاً . فلما أن جلس على العرش آخر الملوك الذين تسموا باسم رمسيس اغتصب الملك الكاهن الأكبر للإله آمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان الأعلى . وأمسّت الإمبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة ازدهر فيها البناء

والخريف ، واطمحل فيها كل ما عدا هذين من مقومات الحياة القومية .
ووضعت الرق لتصبغ كل قرار يصدره الكهنة بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتنص
الآلهة كل ما في مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها في الوقت الذي كان
فيه الغزاة الأجانب يعدّون العدة للانتقاض على كل هذه الثروة المتجمعة .

وثار نفع الفتنة في جميع أطراف البلاد . وكان من أهم موارد مصر موقعها
المهام على الطريق الرئيسي لتجارة البحر المتوسط ، كانت معادنها وثروتها
قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا في الغرب وعلى بلاد فينيقية وسوريا
وفلسطين في الشمال والشرق . لكن أمماً جديدة في بلاد آشور وبابل وفارس
كانت آتية وتمرد وتشتد ويقوى سلطانها في الطرف الآخر من طرفي هذا
الطريق التجاري ، وكانت تدعم قوتها بالختراعات والمغامرات وتجروء على
منافسة المصريين الأتقياء الراضين عن أنفسهم في ميادين التجارة والصناعة .
وكان الفينيقيون وقتئذ يتمون صنع السفائن ذات الثلاثة الصيغوف من
المخاضيف لكي يصلوا بها إلى ما يبعون من كمال ، وأخذوا بفضل هذه السفائن
يتزعون من مصر السيطرة على البحر شيئاً فشيئاً . وكان الأوروبيون والآشوريون
قد استولوا على كريت وجزائر بحر إيجه (حوالى ١٤٠٠ ق . م) وكانوا
ينشئون لهم إمبراطورية تجارية . وأخذت التجارة يقل سيرها شيئاً فشيئاً في
قوافل بطيئة في طرق الشرق الأدنى الجبلية والصحراوية المعرضة لهجمات
الاصوص ، وبدأت تنقل بوسيلة أقل من هذه كلفة على ظهر سفن تتحرك
البحر الأسود وبحر إيجه إلى طروادة وكريت وبلاد اليونان ، وأجبراً إلى
قرطاجنة وإيطاليا وأسبانيا . وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطئ البحر المتوسط
الشمالية وازدهرت ، أما الأمم المقيمة على شواطئها الجنوبية فضعفت
واضمحلت . وفقدت مصر تجارتها وذهبها وسلطانها وفنونها ، ثم فقدت آخر
الأمم كبرياءها نفسها ، وزخفت على أرضها الأمم المنافسة لها واحدة بعد
واحدة وعدت عليها واجتاحت أرضها وخربتها .

فانقض عليها اللوبيون من الغرب في عام ٩٤٥ ق . م وعاثوا فيها فساداً
يخربون ويدمرون ، وفي عام ٧٢٢ ق . م غزاها الأحباش من الجنوب وثأروا
لعبوديتهم القديمة ؛ وفي عام ٦٧٤ اجتاحتها الآشوريون من الشمال وأخضعوا
لسلطانهم مصر التي كان يستبد بها الكهنة ، وألزموها بأداء الجزية لهم
واستطاع أبسماتيك أمير شاو أن يرد الغزاة وقتاً ما ويضم أجزاء مصر كلها
تحت زعامته . وحدثت في أثناء حكمه وحكم خلفائه نهضة في الفن ، وشرع
مهندسو مصر ومثالوها وشعراؤها يجمعون ما كان لمدارسهم من تقاليد في
الفن والذوق ، ويعلمونها ليلقوها فيما بعد تحت أقدام اليونان . لكن القرس
بقيادة قبيز عبروا برزخ السويس في عام ٥٢٥ ق . وقضوا مرة أخرى
على استقلال مصر ، وفي عام ٣٣٢ ق . م اجتاحتها الإسكندر من آسية
وأخضعها لحكم مقدنية(*) . وأقبل قيصر في عام ٤٨ ق م ليستولى على
الإسكندرية عاصمة مصر الجديدة ، وليستولد كليوباترة ابناً ووارثاً كانا
بأملان أملان لم يتحقق أن يتوجاه ملكاً تخضع لسلطانة أكبر الإمبراطوريات
القديمة . وفي عام ٣٠ ق . م أمست ولاية تابعة لرومة واختفت من
التاريخ القديم .

ونهبست البلاد مرة أخرى نهضة قصيرة الأجل حين عمر القديسون
الصحراء وجرميرل هيباشيا لتلقى حتفها في الشوارع (٤١٥ ب . م) ، وحين
فتحها المسلمون (حوالي ٦٥٠ ب . م) وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس
وملاؤها بالقلاع والقباب الزاهية الألوان . ولكن هذه الثقافة وتلك كانتا في
واقع الأمر ثقافتين أجنبيتين غير مصريتين ولم تلبثا أن زالتا .

• • • • •

(*) وتاريخ الحضارة المصرية القديمة في عهد البطالمة والقيصرية من الموضوعات التي
سترد في مجلد تال .

واليوم يوجد مكان يسمى مصر ، ولكن المصريين ليسوا سادته (*) ؛ فلقد حطمتهم الفتوح من زمن بعيد ، واندجوا عن طريق اللغة والزواج في الفايكين العرب ، وأضحت مذهبهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز ، وأقدام السياح المتعبين ، الذين يأتون من أقاصى الأرض ليروا أهرامها فلا يجدوها إلا أكواماً من الحجارة . ولربما رجعت إلى مصر عظمتها إذا ما أثرت آسية مرة أخرى فأصبحت مصر مركز التجارة العالمية ومستودعها ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيكون وهو واثق مما يتنبأ به ، وكل ما نعلمه علم اليقين أن آثار مصر القديمة قد خرجت وتهدمت ؛ فالسائح أينما سار يجد خربات ضخمة ، وآثاراً وقبوراً تذكره بجهود عظيمة جبارة ، ومن حوفاً قفر ودمار ، ونضوب للدم القديم . ويحبط هذا كله رمال سافية لا تنفك الرياح الحارة تحملها من كل جانب ، كأنها قد اعتزمت أن تغطي بها آخر الأمر كل شيء (**) .

لكن هذه الرمال لم تخرب من مصر القديمة إلا الجسد ، أما روحها فلا تزال باقية فيها ورثه الجنس البشرى من علم ومن ذكريات مجيدة . وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية ، وأنها في أغلب الظن هى التى اخترعت الزجاج ، ونسيج

(*) كتب هذا قبل الثورة المباركة بنحو ثلاثين عاماً وقد أصبح المصريون بفضل هذه الثورة وتأييدهم لها سادة في بلادهم .

(**) آثرنا أن ننقل هذا الجزء كما كتبه المؤلف حرصاً منا على الأمانة في النقل وإن كنا لا نوافقه على الكثير منه ، ورغبة في أن يعرف المصريون كل ما يقال عنهم حقاً كان ذلك أو باطلاً . وقل أن يوجد في بلاد العالم شعب إلا وقد امتزج دمه بدم غيره من الشعوب . فسلمو مصر وأقباطها وإن اختلفوا في الدين يؤلفون معاً أمة متجانسة ذات عادات وتقاليد وأمان واحد . ومن الخطأ أن يقال إن مذهبهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز . إنها تضم أبناء مصر من مسلمين وأقباط ، أما الإنجليز فإن الذى تعرفه عنهم أنهم احتلوا البلاد سبعين عاماً ولكنهم ظلوا فيها قوماً أجانب غرباء عن أهلها حتى أخرجتهم من أرضها . وما هى ذى مصر قد عاد حكمها إلى أيدي أبنائها وأخذت تدير بخطى جبارة لاستعادة مجدها . (المترجم)

الكتان ، وأنها هى التى أحسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن ، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد ، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائى والثانوى ، بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفنى لإعداد الموظفين ورجال الإدارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ، والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير القومى ، والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالإقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد فى الدين ، وأول من كتب فى الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ، وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (فيما نعرف) أحد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم . وهذا الفضل كله لم يذهب هباءً حتى فى الوقت الذى كان خير ما فيه مطموراً تحت رمال الصحراء أو ملقى على الأرض بفعل الاضطرابات الأرضية(*) ، فقد انتقلت الحضارة المصرية على أيدي النينقيين والسوريين واليهود وأهل كريت واليونان والرومان ، حتى أصبحت من التراث الثقافى للجنس البشرى . وإن ما قامت به مصر من الأعمال فى فجر التاريخ لا تزال آثاره أو ذكرياته مخلدة عند كل أمة وفى كل جيل ، « ولعل مصر » كما يقول فور « بفضل تماسكها ووحدتها ، وتنوع منتجاتها الفنية تنوعاً أساسه دقة التنسيق والتنظيم ، وبفضل ما بذلت من جهود جبارة دامت أطول العهود ، لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا(٢٧٧) » . وأن من الخير لنا أن نعمل نحن لكى نبلغ ما بلغت .

(*) لقد دمر طيبة عن آخرها زلزال حدث فى عام ٢٧ ب . م .

الباب التاسع

بابل

الفصل الأول

من حوراني إلى نبوخذ نصر

فضل بابل على المدينة الحديثة - أرض ما بين النهرين -
حوراني - عاصمة مكه - سيطرة الكاشيين - رسائل
قل الهارثة - فتح الآشوريين لبابل - نبوخذ نصر -
بابل في أيام مجدها

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فتية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء مزعزة الأركان بتغيير موطنها وديمها ، ولقد انتقلت الحضارة من أور إلى بابل ويهوذا ، ومن بابل إلى نينوى ، ومن هذه كلها إلى پرسبوليس وسارديس وميلتس ومن هذه الثلاثة الأخيرة ومصر وكريت ، إلى بلاد اليونان ورومة .

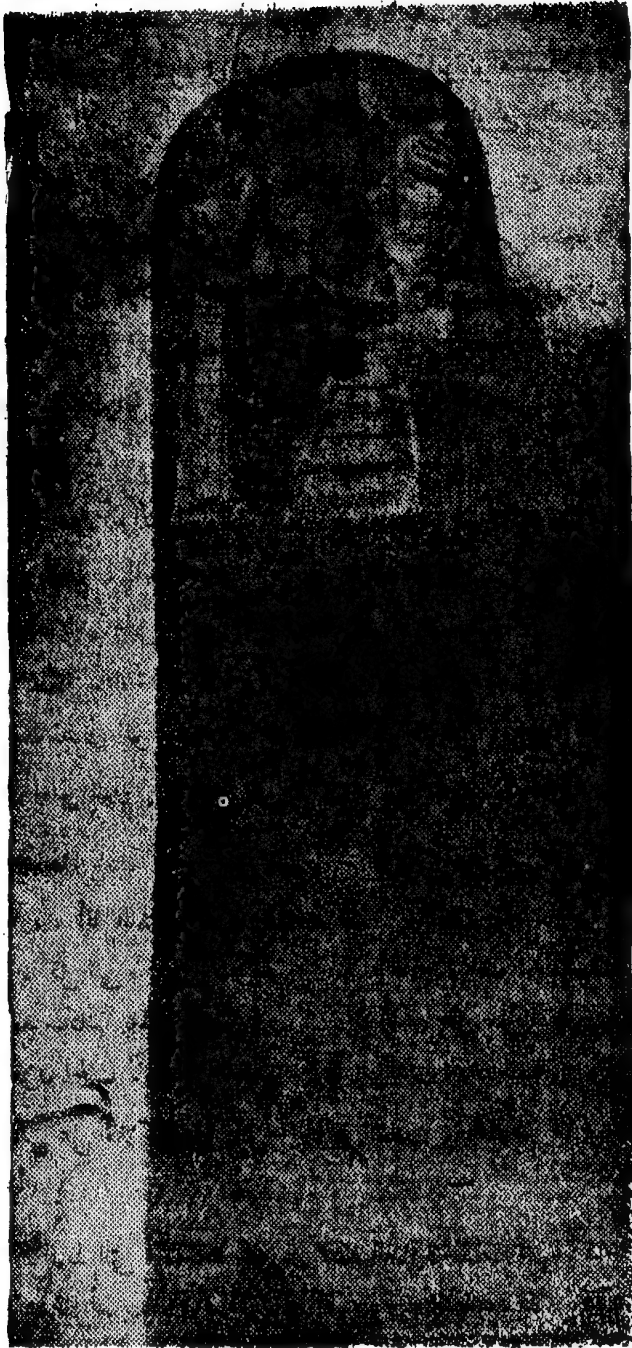
وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة ، وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم . ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي

أيقظوا بها روح أوربا من سباتها في العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان أروبا سومر وأكد وغدبا حدائق بابل المعلقة .

والحق أنهما إلى حد ما ليسا هما النهرين القديمين ، وذلك لأن النهرين القديمين قد اختطأ لهما من زمن بعيد مجريين جديدين^(٢) ، « وقطعا بمناجلهما اللبض شطآنًا أخرى » . وكان نهرا دجلة والفرات كما كان نهر النيل في مصر طريقاً تجارياً عظيماً يمتد آلاف الأميال ، وكانا في مجريهما الأدنين يفيضان كما يفيض نهر النيل في فصل الربيع ويساعدان الزراع على إخصاب الأرض ، ذلك أن المطر لا يسقط في بلاد بابل إلا في أشهر الشتاء ، أما فيما بين مايو ونوفمبر فإنه لا يسقط أبداً ، ولولا فيضان النهرين لكانت أرضهما جرداء كما كان الجزء الشمالى من أرض الجزيرة في الأيام القديمة وكما هو في هذه الأيام . ولكن بلاد بابل قد أضحت بفضل ماء النهرين الغزير ، وكد الأهليين أجيالا طوالا ، جنة الساميين وحديقة بلاد آسية القديمة وحربها^(*) .

وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين . فقد نشأ الجنس البابلي من تزواج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدى ، فقد انتهت الحروب التى شبت بينهما بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . وتطل علينا من بداية هذا التاريخ شخصية قوية هى شخصية حمورابى (٢١٢٣ - ٢٠٨١ ق . م) الفاتح المشرع الذى دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع في ضوءها أن نتخيله شاباً يفيض حماساً وبقرية ، عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظافر الفتن ويقطع أوصال

(*) مما جاء في سفر التكوين أن للفرات واحد من أربعة أنهار تجري في الجنة (تكوين : ١٤٢) .



شکل (۲۷) الإله شمس ينزل بالقوا. ابن عل - جود. ای

الأعداء ، ويسير في شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر في حياته واقعة ؛ وحده الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادى الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخي العظيم .

وقد كشف قانون حمورابي في أنقاض مدينة السوس في عام ١٩٠٢ . ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلاً على أسطوانة من حجر الديوريت نقلت من بابل إلى عيلام (حوالى عام ١١٠٠ ق . م) فيما نقل من مغامم الحرب (*) ، وقيل عن هذه الشرائع إنها منزلة من السماء . فترى الملك على أحد أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من شمس إله الشمس نفسه . وتتمول مقدمة القوانين :

ولما أن عهد أنو الأعلى ملك الأنوناكى وبيل رب السماء والأرض الذى يقرر مصير العالم ، لما أن عهداً حكم بنى الإنسان كلهم إلى مردوك ؛ . . . ولما أن نطقاً باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أبحاء العالم ، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر قواعد ثابتة ثابتات السماء والأرض — في ذلك الوقت نادانى أنو وبيل ، أناحمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكى أنشر العدالة في العالم ، وأقضى على الأشرار والآثمين ؛ وأمنع الأثوماء أن يظلموا الضعفاء . . . وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق . أناحمورابي ، أنا الذى أختاره بل حاكماً ، والذى جاء بالخير والوفرة ، والذى أتم كل شيء لنهورودريلو ، . . . والذى وهب الحياة لمدينة أرك ؛ والذى أمد سكانها بالماء الكثير ، . . . والذى جعل مدينة بارسيا ؛ . . . والذى خزن الحب لأوراش العظيم ؛ . . . والذى أعان شعبه في وقت المحنة ؛ وأمن الناس على أملاكهم في بابل ؛ حاكم الشعب ، الخادم الذى تسر أعماله أنونيت (١) .

إن الألفاظ التى أكدناها نحن في هذه العبارة لذات نغمة حديثة ؛ وإن المرء ليتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقي « مستبد » عاش في عام ٢١٠٠

(*) وهى الآن في متحف الاوفر .

ق . م ، أو أن يتوهم أن القوانين التي تمهد لها استمدت أصولها من قوانين سومرية ماضى عليها الآن ستة آلاف عام . وهذا الأصل القديم مضافاً إلى الظروف التي كانت تسود بابل وقتئذ هو الذي جعل قانون حمورابي شريعة مركبة غير متجانسة . فهي تفتتح بتمجيد الآلهة ، ولكنها لا تحفل بها بعدئذ في ذلك التشريع الدستوري البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية . وهي تمزج أرق القوانين وأعظمها استنارة بأقصى العقوبات وأشدّها وحشية ، وتضع قانون النفس بالنفس والتحكيم الإلهي(*) إلى جانب الإجراءات القضائية المحكمة والعمل الحصيف على الحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم . على أن هذه القوانين البالغة عدتها ٢٨٥ قانوناً ، والتي رتب ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمى الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأُملاك المنقولة ، وبالأُملاك العقارية ، وبالتجارة ، والصناعة ، وبالأُسرة ، وبالأضرار الجسمية ، وبالعَمَل ؛ نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقيّاً وأكثر تمدّناً من شريعة آشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة « لا تقل رقيّاً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة(٥) » ؛ وقلّ أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته .

« إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة . . أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد . . . وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة . . فليأت أى إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذي على أثرى ، وليلق

(*) قانون النفس بالنفس معروف ، وقد ورد مفصلاً في التوراة ، وأشارت إليه الآية القرآنية الكريمة : « وكذبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس الخ » أما التحكيم الإلهي فقد كان من المبادئ الشائعة عند بعض الأمم وهو لإثبات الجريمة على المتهم أو نفيها عنه بإلقائه في الماء أو في النار لينجس منهما إن كان بريئاً فإن لم ينجس فهو مذنب . (المترجم)

باله إلى كالماتى الخطيرة ! ولعل أترى هذا يكون هادياً له فى قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه (فينادى) : « حقاً أن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه ... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة (*) » . . .

ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل يرعى ألفاظ اللعانة التى نقشتها على أترى (٨) ! .

ولم يكن هذا التشريع الجامع لإعمالاً واحداً من أعمال حمورابى الكثيرة . ولقد أمر بحفر قناة كبيرة بن كش والخليج الفارسى أروت مساحات واسعة من الأراضى ، ووقت المدن الجنوبية ما كان ينتابها بسبب فيضانات نهر دجلة المخربة . ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخر يفخر فيه بأنه أجرى فى البلاد الماء (تلك المادة القيمة التى لا نقدرها اليوم) التى كانت فى الأيام الماضية إحدى مواد الترف) ، ونشر الأمن والحكم الصالح بين كثير من القبائل . وإنا نستمتع من ثانياً هذا النقش ومن بين عبارات الفخر (وهو خلة شريفة من خلال الشرقيين) صوت الحاكم الماهر والسياسى القدير .

« لما وهب لى أنو ونليل (إلها أرك ونبور) بلاد سومر وأكد لأحكامها ، ووضعنا فى يلى هذا الصولجان ، حفرت قناة حمورابى — نخوش — نيشى (حمورابى المفيض — على — الشعب) التى تحمل الماء الغزير لأرض سومر وأكد . وحولت شاطئها الممتدين على كلا الجانبين إلى أراضى زراعية ؛ وجمعت أكداً من الحب ، وسيرت الماء الذى لا ينضب إلى الأراضين . . . وجمعت الأهلىن المشتتين ، وهيات لهم المرعى والماء ، وأمددتهم بالمراعى الوفيرة وأسكنتهم مساكن آمنة (٩) .

(*) يبدو أن « شرائع موسى » تستمد من هذه الشرائع أو تستمد هذه وتلك من مصدر مشترك . وترجع عادة بضم العقد القانونى بخاتم دسمى إلى زمن حمورابى (١٠) .

وبلغ من حذق حورابى أن خلج على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصيغتها الدنيوية غير الدينية من ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمدوك وزوجته (إلهى البلد القوميين) فى مدينة بابل هيكلًا ضخماً وغزناً واسعاً ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة ، وكانت هاتان الهديتان وأمثالها فى واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أبرع استثمار ، جنى منه ربحاً وفيراً هو الطاعة الممزجة بالرهبة التى يقدمها إليه الشعب ، واستخدم ما حصل عليه من الضرائب فى تدعيم سلطان القانون والنظام ، واستخدم ما تبقى بعد ذلك فى تجميل عاصمة ملكه ، فأنشئت القصور والهياكل فى جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التى لا يقل بحارتها عن تسعين رجلاً تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحى بابل قبل ميلاد المسيح بألفى عام من أغنى البلاد التى شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه (٥) .

وكان البابليون ساميين فى مظهرهم سود الشعر سمر البشرة ، رجالهم ملتحمون ، ويضعون على رؤوسهم أحياناً شعراً مستعاراً ، وكانوا يرتجلاً ونساء على السواء يطيلون شعورهن ونسبهم ، وحتى الرجال كانوا أحياناً يزسلون شعرهم فى صفائر تنوس على أكتافهم ، وكثيراً ما كان رجالهم ونسائهم يتعطرون ، وكان لباس الجنسين المألوف مثيراً من نسيج الكتان الأبيض يغطى الجسم حتى القدمين ، ويترك إحدى كتفى المرأة عارية ، ويزيد عليه الرجال دثاراً وعباءة . ولما زادت ثروة السكان تلوذوا بحب الألوان ،

(٥) « لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأباسية الحضارة فى عصر حورابى بل فيما قبله إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسية إلى وقتنا هذا » . عن كتاب كرستفر دوسن « بحوث فى الدين والحضارة » *Enquiries into Religion and Culture* المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ من ١٠٧ . ولعل من الصواب أن نستثنى من هذا التعميم مصر خشيار شائ (اكزيركس) الأول فى فارس ، ومنع هوانج فى الصين ، وأكبر فى الهند .

فصبغوا أثوابهم باللون الأزرق فوق الأحمر . أو بالأحمر فوق الأزرق ، في صورة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقاط . ولم يكونوا كاسومرين حفاة الأقدام بل اتخلوا لهم أخفافاً ذات أشكال جسنة ، وكان الذكور في عصر حورابى يتمتعون ، وكان النساء يتزين بالقلائد والأساور والتماثيل ، ويحلبن شعرهن المصفف بعقود من الخرز . وكان الرجال يمسكون في أيديهم عصياً ذوات رعوس منحوتة منقوشة ، ويحملون في مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التي كانوا يصنعون بها رسائلهم ووثائقهم ؛ وكان كهنتهم يلبسون فوق رعوسهم قلانس طويلة مخروطية الشكل ليخفوا بها صفتهم الآدمية (١٠) .

وزادت الثروة فانتجت في بابل ما تنتجه في سائر بلاد العالم . ذلك أن من السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدنية هو نفسه ينذر بانحلالها وسقوطها ، فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول ؛ وهو يرفق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء (١١) . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هي قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم . فلم يمض على موت حورابى إلا ثمان سنين حتى اجتاحت رجالها دولته ، وعاثوا في أرضها فساداً يسلبون وينهبون ، ثم ارتلوا عنها ، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة ؛ واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين حاكمين ، وهذه هي الطريقة التي تنشأ بها عادة طبقة السراة في البلاد . ولم يكن هؤلاء الفاتحون من نسل الساميين ، ولعلهم كانوا من نسل جماعة المهاجرين الأوربيين جاءوا إلى موطنهم الأول في العصر الحجري الحديث . ولم تكن غلبتهم على أهل بابل الساميين إلا حركة أخرى من حركات الهجوم والارتداد التي طالما حدثت في غربي آسية . وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عدة قرون

(*) وازن بين هذا وبين ما جاء في مقدمة ابن خلدون في هذا المعنى . (المترجم)

مسرّحاً للاضطراب العنصرى والفوضى السياسية اللذين وقفا في سبيل كل تقدم في العلوم والفنون (١١). ولدينا صورة واضحة من هذا الاضطراب الخائى في رسائل تل العمارنة التى يستغث فيها أقيال بابل وسوريا بمصر التى كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها لتعينهم على الثوار والغزاة . وفيها أيضاً يتجادلون في قيمة ما يتبادلونه من الهدايا مع أمنحوتب الثالث الذى يرفع عليهم ، ومع إخناتون الذى أهملهم وانهمك في غير شئون الحكم (*) .

وأخرج الكاشيون من أرض بابل بعد أن حكموها ما يقرب من ستة قرون اضطربت فيها أحوال البلاد ، وتمزقت كما اضطربت أحوال مصر وتمزقت في عهد الهكسوس . ودام الاضطراب بعد خروجهم أربعائة عام أخرى حكم بابل في أثنائها حكام خاملون ليس في أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر (**). ودام عهدهم حتى قامت دولة آشور في الشمال فبسطت سيادتها على بابل وأخضعتها للملك نينوى ، ولما ثارت بابل على هذا الحكم دمرها سحرىب تدمير لم يكذب منها على شيء ، ولكن عسر هدون ، المستبد للرحيم أعاد إليها رخاها وثقافتها ، ولما قامت دولة الميديين (+) وضعف الآشوريون استعان نبوولصر بالدولة الناشئة على تحرير

(*) رسائل تل العمارنة رسائل مللة في صيغتها ملئت كلها ملفاً ودعانا ، وجدلا ، وتوسلا وشكاية . استمع مثلاً إلى ما كتبه بربرياش الثانى ملك كريدناش (في الجزيرة) إلى أمنحوتب الثالث في موضوع تبادل بعض الهدايا الملكية التى غن فيها بربرياش فيما يظهر من اليوم الذى توطلدت فيه أواصر الصداقة بين أمى وأبيك ، تبادل الاثنان الهدايا القيمة ، ولم يأت أحدهما حل الآخر أحسن ما يرغب فيه . أما الآن فإن أسمى (أمنحوتب) قد أعادى (فقط) منحين من الذهب . إن عليك أن ترسل لى من الذهب بقدر ما أرسله أبوك ، فإن كان لابد أن يقل عنه ، فليكن نصف ما كان يرسله . لم ترسل لى إلا منحين من الذهب ؟ (١٢) (المنح قدر من المذهب) .

(**) مردك - شيبك - زيرى ، تنورا - تدين - سام ، أنليل - تدين - أيل ، مردك - شيبك زرمات ، الخ ، وما من شك في أن أسمائنا إللكاملة إذا وصلت كما وصلت هذه الأسماء تبدو مثلها متناثرة النغات في أذننا .

(+) تكتب أحياناً الميديين وهكذا وردت في التوراة . (المتوجم)

بابل من حكم الآشوريين ، وأقام فيها أسرة حاكمة مستقلة . ولما مات خلفه في حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر الثانى الذى يسميه كتاب دانيال (١٣) بالرجل الوغد حقداً عليه وانتقاماً منه . وفى وسع المرء أن يستشف من خطبة نبوخذ نصر الافتتاحية لمردك كبير آلهة بابل مراعى الملك الشرقى وأخلاقه :

« إني أحب طلعتك السامية كما أحب حياتى الثمينة ! إني لم أختبر لنفسى بيتاً فى المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل . . . ليت البيت الذى شدته يدوم إلى الأبد أيها الإله الرحيم . ولعلى أشيع بهائه وجلاله ، وأبلغ فيه الشيخوخة ، ويكثر ولدى ، وتأتى إلى فى الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بنى الإنسان أجمعين » (١٤) .

وعاش هذا الملك حتى كاد يبلغ السن التى يطمع فيها ، وكان أقوى ملوك الشرق الأدنى فى زمانه وأعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين من ملوك بابل كلهم لا تستثنى منهم إلا محرابى نفسه ، هذا مع أنه كان أمياً ، ومع أن عقله لم يكن يخلو من خبال . ولما تأمرت مصر مع آشور لكى تخضع الثانية بابل إلى حكمهما مرة أخرى ، التقى نبوخذ نصر بالجيوش المصرية عند قرقيش (على نهر الفرات الأعلى) وكاد يبيدها عن آخرها . وسرعان ما وقعت فلسطين وسوريا فى قبضته ، وسيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التى كانت تعبر غربى آسية من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط .

وأنفق نبوخذ نصر ما كان يفرضه على هذه التجارة من مكوس وما كان يجبيه من خراج البلاد الخاضعة لحكمه ؛ وما كان يدخل خزائنه من الضرائب المفروضة على شعبه — أنفق هذا كله فى تجميل عاصمته وفى تخفيف نهم الكهنة : « أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها ؟ » (١٥) وقاوم ما كان عساه أن تنزع إليه نفسه من أن يكون فاتحاً عظيماً فحسب . نعم إنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليلقى على رعاياه درساً فى فضائل الطاعة والخضوع ، ولكنه كان يصرف جل وقته فى

قصة ملكه حتى جعل بابل عاصمة الشرق الأدنى كله بلا منازع ، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أبهة وفخامة^(١٦) . وكان نبوبولصر قد وضع الخطط لإعادة بناء المدينة ، فلما جاء نبوخذ نصر صرف سنى حكمه الطويل التى بلغت ثلاثاً وأربعين فى إتمام ما شرع فيه سلفه . وقد وصف هيرودوت بابل ، وكان قد زارها بعد قرن ونصف من ذلك الوقت ، بأنها « مقامة فى سهل فسيح يخطط بها سور طوله ستة وخمسون ميلاً^(١٧) ويبلغ عرضه حداً تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياذ أن تجرى فى أعلاه ، ويضم مساحة تقرب من مائتى ميل مربع^(*) (١٨X) . وكان يجرى فى وسط المدينة نهر الفرات يحف بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع ، ويصل شطريها جسر جميل^(**) (١٩X) . وكانت المباني الكبيرة كلها تقريباً من الآجر ، وذلك لندرة الحجر فى أرض الجزيرة ، ولكن هذا الآجر كان يغطى فى كثير من الأحيان بالقرميد المنقوش البراق ذى اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزيجين بصور الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة ، ولا تزال تلك الصور حتى هذه الأيام من أحسن ما أخرجته الصناعة من نوعها . وكل آجرة من الآجر الذى استخرج من موقع بابل القديم تحمل هذا النقش الذى يتباهى به الملك الفخور : « أنا نبوخذ نصر ملك بابل »^(٢١) .

وكان أول ما يشاهده القادم إلى المدينة — صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات ، جذرانه من القرميد المنقوش البراق ، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً ، فوقه ضريح يحتوى على مائدة كبيرة من الذهب المصمت

(*) وأكبر الظن أن هذه المساحة لم تكن تشمل مباني بابل نفسها فحسب ، بل كانت تشمل أيضاً فى داخل هذا السور مساحة أخرى خلفها من الأراضي الزراعية يراد بها أن تمد العاصمة الكثيرة السكان بما يلزمها من الزاد فى أهام الحصار .

(**) وإذا كان لنا أن نصدق ما قاله ديودور الصقل فإن نفقا عرضه خمس عشر قدماً وارتفاعه اثنتا عشرة كان يمتد بين الشاطئين^(٢٠) .

وعلى سرير مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء في انتظار مشيئة الله (٢٢) هـ
وأكبر الظن أن هذا الصرح الشامخ الذي كان أعلى من أهرام مصر ، وأعلى
من جميع مباني العالم في كل العصور إلا أحدثها عهداً ، هو « برج بابل » الذي
خود ذكره في القصص العبري ، والذي أراد به أهل الأرض ممن لا يعرفون
سبوه أن يظهرُوا به كبرياءهم ، فبابل رب الحيوش ألسنتهم (*) . وكان في
أسفل الصرح هيكل عظيم لمردك رب بابل وحاميا . ومن أسفل هذا المعبد
تمتد المدينة نفسها من حوله يتفرقها عدد قليل من الطرق الواسعة النيرة ،
وكثير من القنوات والشوارع الضيقة الملتوية التي كانت بلا ريب تعج بالأسواق
والحركة التجارية وبالفادين والرائحين . وكان يمتد بين الهياكل القائمة في
المدينة طريق واسع مرصوف بالآجر المغطى بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر
البحر ، ومجمعات من الحجارة الحمراء تستطيع الآلهة أن تسير فيه دون أن
تتلوث أقدامها . وكان على جانبي هذا الطريق الواسع جدران من القرميد
الملون تبرز منهما تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية تزجر
تُرهب الكفرة فلا يقتربون من هذا المطريق . وكان في أحد طرفيه مدخل
قصر هو باب إستير ، ذو فتحتين من القرميد الزاهي المتألق ، تزينه نقوش
تمثل أزهاراً وحيوانات جميلة الشكل زاهية اللون ، ينحلي إلى الناظر أنها تسرى
فيها الحياة (**).

وكان على بعد ستائة ياردة من برج بابل وإلى شماله ربوة تسمى القصر ،
شاد عليها نبوخذ نصر أروع بيت من بيوته . ويقوم في وسط هذا البناء مسكنه
الرئيسي ذو الجدران الجميلة المشيدة من الآجر الأصفر ، والأرض المقروشة
بالحسان الأبيض والمبرقش ، تزين سطوحها نقوش بارزة واضحة زرقاء

(*) ليس لفظ بابل مشتقاً من الببلية أو الاضطراب كما تقول بعض الأساطير بل منناه
كما في « هابلون » باب الإله (٢٣) .

(**) في متحف الفن الإسلامي في برلين نموذج لباب إستير بحجمه الطبيعي .

اللون ، مصقولة برّاقة ، ونحرس مدخله آساد ضخمة من حجر البازلت ، وكان بالقرب من هذه الرهوة حدائق بابل المعلقة الذائعة الصيت التي كان يعدّها اليونان لإحدى عجائب العالم السبع ، مقامة على أساطين مستديرة متتالية كل طبقة منها فوق طبقة ، وكان سبب إنشائها أن نبوخذ نصر تزوج بابنة سياخار (سيكسارس) ملك الميديين ، ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة وثرها ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ودفعت الشهامة والمروءة نبوخذ نصر فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة ، وغطى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الحصبب يبلغ سمكها بجملة أقدام ، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة ولا تسمح بتغذيتها . وكانت المياه ترح من نهر الفرات إلى أعلى طبقة في الحديقة بآلات مائية مخبأة في الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق (٢٤) ، وفوق هذا السطح الأعلى الذي يرتفع عن الأرض خمساً وسبعين قدماً كان نساء القصر يمشين غير محجبات آمناً من أعين السوق ، تحيط بهن النباتات الغريبة والأزهار العطرة ، ومن تحتهن في السهول وفي الشوارع كان السوق من رجال ونساء يحرقون وينسجون ويبنون ، ويحملون الأثقال ، ويلدون أبناء وبنات يخلفونهم في عملهم بعد موتهم .

الفصل الثاني

الكادحون

المصيد - الحرث - الطعام - الصناعة - النقل -
أخطار التجارة - المرابون - الرقيق

كان بعض أجزاء البلاد لا يزال على حاله البرية الموحشة الخطرة ، فكالت الأفامى تهيم فى العشب الكثيف ، وكان ملوك بابل وأشور يلهون بصيد الأساد تجول فى الغابات والى تقف هادئة للمصورين ، ولكنها تفر إذا اقترب منها الصائدون : حقاً أن المدنية ليست إلا فترة عارضة موقوتة تتخلل وحشية الغابات .

وكانت أكثر الأراضى الزراعية يفلحها المستأجرون أو الرقيق وأقلها يحرقها ملاكها الفلاحون (٢٥) . وكانت كلها فى العهود الأولى تفتتها معازق من الحجر كما كان يفعل المزارعون فى العصر الحجري الحديث . وأقدم صورة لدينا تمثل المحراث فى بابل هى الصورة المنقوشة على خاتم يرجع عهده إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق م ؛ ولعل هذه الآلة الكريمة النافعة كان وراءها فى ذلك الوقت تاريخ طويل فى أرض النهرين ، ومع هذا فلإنها كانت من طراز حديث إلى حد ما ، فقد كانت تجرها الثيران كما كان يفعل آباؤنا ، ولكنها كانت كمحراث السومريين ذات أنبوبة متصلة بها يخرج منها الحب إلى الأرض كمحارث أبنائنا (٢٦) . ولم يكن أهل بابل يتركون الماء يفيض على الأرض كما كان يتركه أهل مصر ، بل كانت كل مزرعة تحميها من الفيضان جسور من التراب لا يزال باقياً إلى اليوم . وكان الماء الزائد على حاجة الأرض ينصرف إلى شبكة من المصارف أو يخزن فى خزانات لها فتحات يخرج منها إلى الحقول وقت الحاجة أو يرفع فوق الحواجز بشواذيف . وقد امتاز حكم نبوخذ نصر بمحفرة عدد كبير من

قنوات الري وبتخزين الزائد من الماء في خزان كبير يبلغ محيطه مائة وأربعين ميلاً ، تخرج منه قنوات تروى مساحات واسعة من الأرض (٢٧) . ولا تزال بقايا هذه القنوات في أرض الجزيرة إلى اليوم . وكأنما أرادت الأقدار أن تربط الأحياء والأموات برباط آخر ، فأبقت إلى الآن على الشادوف البدائي في وادي نهرى الفرات والثوار (٢٨) .

وكانت الأرض التي تروى على هذا النحو تفتت أنواعاً مختلفة من الحبوب والبقول ، كما كانت بها بساتين واسعة تنتج الفاكهة والنقل ، ولكن أكثر ما كانت تنتجه البلح . وكان البابليون يستثمرون ما أنعمت عليهم به الطبيعة من شمس ساطعة وأرض خصبة في صنع الخبز وجمع العسل وعمل الكعك وغيره من أطيب الطعام . وكانوا يصنعون من مزيج العسل والدقيق كثيراً من أشهى الأطعمة : وكانوا يلقحون النخل بحمل الطلع من ذكورها إلى إناثها (٢٩) . وانتقل الكرم والزيتون من أرض الجزيرة إلى بلاد اليونان والرومان ، ثم انتقل منهما إلى غربى أوروبا . أما الخوخ فقد انتقل إلى أوروبا من بلاد الفرس القريبة من أرض الجزيرة ، وجاء لوكلس بشجر الكرز من شواطئ البحر الأسود إلى رومة ، وأصبح اللبن ، وهو الذى كان نادراً في بلاد الشرق ، من الأطعمة الرئيسية في بلاد الشرق الأدنى . وكان اللحم قليلاً غالياً الثمن ، ولكن السمك كان يصاد من المجارى المائية العظيمة ، ويصل إلى بطون أفقر الطبقات . فإذا أقبل المساء وخشى الفلاح أن يقلق باله التفكير في الحياة والموت ، عمد إلى تهدئة هذه الأفكار بالنبيذ المعصور من البلح أو بالجة المتخذة من الحب .

وكان غير الفلاحين من الأهلىن يحفرون الأرض ، ويعثرون فيها على الزيت ، ويستخرجون من باطنها النحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب . ويصف لنا استرابون كيف كان ما يسميه « النفط والأسفلت السائل » يستخرج من

أرض الجزيرة كما يستخرج منها اليوم ، ويقولون إن الإسكندر حين سمع بأن السائل العجيب ماء يحترق أراد أن يتثبت من هذا القول الذي لم يكذب به صدقه ، فطلى به جسد غلام وأوقد فيه النار بمشعل (٢٠) . وفي مستهل الألف السنة الأولى قبل ميلاد المسيح بدأ الأهليون يصنعون الآلات من البرنز ثم من الحديد ، وكانت لا تزال تصنع من الحجر في أيام حمورابي ، كما بدأت أيضاً صناعة صهر المعادن وسبكها . وكانوا ينسجون القطن والصوف ، وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أتمن السلع التي تصديرها بابل إلى خارج بلادها ، والتي وصفها كتاب اليونان والرومان أحسن وصف وأثنوا عليها أبجل الثناء (٢١) ، كذلك نجد نول النسيج وعجلة الفخرا في أقدم عهود التاريخ البابلي ، ويكاد النول والعجلة أن يكونا الآتين الوحيديين عند البابليين . وكانت مبانيم تقام من الطين المخلوط بالقش أو من اللبنة التي كانت توضع بعضها فوق بعض وهي طرية زطبة وتترك حتى تجف وتباسك بفعل الشمس . ولما رأى القوم أن اللبنة إذا جففت في النار كانت أصلب وأبقى على الزمن منها إذا جففت في الشمس عمدوا إلى حرقها في قماش ، ومن ثم انتشرت صناعة الآجر بفضل هذا التطور الطبيعي انتشاراً سريعاً . وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة ، وكثر المهرة من الصناع ، وتألفت منهم من عهد حمورابي نقابات كانت تسمى (القبائل) يشترك فيها الصبيان والمعلمون (٢٢) .

وكانت تستخدم في النقل عربات تجرى على عجل بجرها الحمير (٢٣) ، وأول ما ذكر الحصان في السجلات البابلية كان في عام ٢١٠٠ ق . م ، وورد ذكره باسم « الحمار القادم من الشرق » ، ويظهر أنه جاء من هضاب آسية الوسطى وأنه غزا بابل مع الكاشيين ، كما وصل إلى مصر مع المكسوس (٢٤) . ولما استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال والحمل انتشرت التجارة وامتدت من داخل البلاد إلى خارجها ، وأثرت بفضلها بابل وأصبحت مركز تجارة الشرق الأدنى ، وكان انتشارها سبباً في ارتباط أمم البحر المتوسط القديمة ارتباطاً

سجنت من ورائه الخيز والشر على السواء . وسهل نبوخذ نصر التجارة بإصلاح الطرق الرئيسية ، وقال فى هذا يُذكر المورخين بأعماله :

لقد جعلت من الممرات الوعرة غير المطروقة طرقاً ممهدة صالحة (٢٥) ، وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوانيها غلات نصف العالم المعروف ، فكانت تأتىها من الهند مارة بكابول وهيرات وإكبتانا ، ومن مصر مارة ببلوزيم وفلسطين ، ومن آسية الصغرى عن طريق صور وصيدا وسارديس إلى قرقيش ، ثم تنحدر جنوباً مع نهر الفرات . وكان لهذه التجارة كلها أثر كبير فى عظمة مدينة بابل ، فأضحت فى أيام نبوخذ نصر سوقاً عظيمة تعج بالبضائع والتجار ، فخرج منها الأثرياء ينشدون الراحة فى مساكن أقاموها فى الضواحي . وجدير بالقارى أن يلاحظ تلك النعمة الحديثة المكتوبة بها الرسالة التى بعث بها أحد سكان الضواحي إلى قورش ملك الفرس (حوالى عام ٥٣٩ ق . م) : « لقد بدت لى ضيعتنا أجمل ضياع العالم ، ذلك أنها كانت قريبة من بابل قريباً يمكننا من أن نستمع بمزايا المدن العظمى ، وكان فى وسعنا مع هذا أن نعود إلى بيتنا وننجم بما فيها من تراحم وقلق (٢٦) » .

ولم تفلح الحكومة فى إقامة نظام اقتصادى فى أرض الجزيرة كالذى أقامه للفراعنة فى مصر . فقد كانت التجارة تصادف كثيراً من الأخطار وفرض عليها شتى الإتاوات . ولم يكن التجار يعرفون أى الأمرين يخشونه أشد من الآخر — يخشون اللصوص الذين قد يهاجمونهم فى طريقهم . أم يخشون المدن والإقطاعيات التى تفرض عليهم الإتاوات نظير السماح لهم باستخدام طرقها . وكان آمن لهم أن يسيروا كلما استطاعوا فى الطريق القومى العام ، طريق نهر الفرات نفسه ، وقد جعله نبوخذ نصر صالحاً للملاحة من مصبه فى الخليج الفارسى إلى ثيساكس (٢٧) وفتحت حروبه فى بلاد العرب وغلبته على صوب بحار الهند والبحر المتوسط إلى التجارة البابلية ، ولكن التجار البابليين لم ينهزوا هذه الفرص السائحة

لارتياح هذه البحار لإارتياحاً جزئياً ، لأن التاجر كانت تكتنفه الأخطار في كل ساعة من ساعات النهار والليل أينما سار : في البحار الواسعة وفي ممرات الجبال وفيافي الصحراء ، نعم إن السفائن كانت كبيرة تغالب الأهواج ، ولكن الحواجز والصخور كانت كثيرة في البحار ، ولم يكن فن الملاحة قد أصبح بعد علماً ذا قواعد وأصول ؛ هذا إلى أن لصوص البحار ، وسكان الشواطئ الطامعين قد يغيرون على السفن في أية ساعة ، وينهبون المتاجر ويأسرون بحارتها أو يقتلونهم^(٢٨) وكان التجار يستعاضون عن هذه الخسائر بأن يقصروا أمانتهم على ما تفرضه عليهم الضرورات في كل حالة من الحالات .

لكن هذه الصعاب التجارية قد يسرها بعض التيسير ما كان في البلاد من نظام مالي راق محكم . نعم إن البابايين لم يسكوا النقود ، ولكنهم حتى قبل أيام حوراني كانوا يستخدمون في المقايضة — فضلاً عن الشعير والقمح — سبائك الذهب والفضة وسيلة للتبادل ومعياراً لتقدير قيم الأشياء ، ولم تكن السبائك المعدنية مختومة أو مطبوعة بل كانت توزن في كل مرة ، وكانت أصغر وحدة في العملة هي الشاغل وهو نصف أوقية من الفضة نراوح قيمته بين ريالين ونصف وخمسة ريالات من نقود هذه الأيام . وكانت ستون شاغلاً تكون ميناً وستون ميناً تكون ناليتاً وقيمته من ٥٠٠ ر. إلى ٢٠٠ ر. ريال^(٣٨) . وكانت القروض تتخذ صورة بضائع أو عملة ، وكانت فوائدها عالية تحددها الحكومة بعشرين في المائة سنوياً إذا كانت أنقود ؛ وبثلاثة وثلاثين في المائة إن كانت بضاعة . على أن التجار كانوا يتجاوزون هذين السعرين الرسميين ، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الموكلين بتنفيذ القانون^(٣٩) . ولم يكن في البلاد مصارف مالية ،

(*) كما كان يحدث في هذه البلاد من عهد غير بعيد ، فقد كان المرابطون يقرضون الفلاحين بفوائد تبلغ أحياناً ٢٥٪ في ثلاثة شهور وكانوا يحتالون على القانون بإضافة الفائدة إلى رأس المال ويدعون أن يجموعهما قرص حسن بلا فائدة ! (المترجم)

ولكن بعض الأسر القوية كانت تقوم طيلة أجيال متعددة بعملية إقراض النقود ، كما كانت تتجر العقارات وتمول المشروعات الصناعية^(٤٠) . وكان في وسع من لهم أموال مودعة بين هؤلاء أن يؤدوا التزاماتهم بتحويل مائة مكتوبة^(٤١) . وكان الكهنة أيضاً يقرضون ، وأخص ما كانوا يقرضون له من الأغراض هو الزرع والحصاد ، كانت الشرائع في بعض الأحيان تنصر المدين على الدائن : من ذلك أنه إذا رهن فلاح مزرعته ، ولم يمن من كدحه محصولا بسبب العواصف أو الشرق أو غيرها من « أفعال الله » ، فإنه لا يؤدي فوق فوائد عن دينه في السنة التي يعجز فيها المحصول^(٤٢) . ولكن القانون كان في معظم الأحيان يعرض على حماية الملك وتجنيب صاحبه الخسائر ، وكان من المبادئ التي تقوم عليها الشرائع البابلية أن ليس من حق إنسان أن يقرض مالا إلا إذا رغب في أن يكون مسئولاً مسئولية كاملة عن رده إلى صاحبه ، ومن أجل هذا كان في وسع الدائن أن يقبض على عبد المدين أو ابنه يتخلده رهينة للدائن الذي لم يؤده ، على ألا يبي في حوزته أكثر من ثلاث سنين . وكان الربا هو الكارثة التي رزئت بها بلاد بابل والمشرق الذي أدته تجارتها ، كما تؤديه الآن تجارتنا نحن ، نظير ما كان يبعثه نظام الائتمان الواسع من نشاط تجارى عظيم^(٤٣) .

لقد كانت حضارة البابليين حضارة تجارية في جوهرها ، وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذو صبغة تجارية — تتصل بالبيع ، والقروض ، والعقود ، والمشاركة ، والسمسرة ، والتبادل ، والوصايا والاتفاقات والسفاح ، وما إليها . ونجد في هذه الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم ، وبما كان يسرى في نفوسهم من روح مادية استطاعت كما استطاعت في حضارات أخرى غير حضارتهم أن توفق بين التقوى والشره . فنحن نرى في آدابهم دلائل كثيرة على الحياة النشيطة الراضية المرضية . ولكننا نجد أيضاً في كل ناحية من نواحيها ما يذكرنا بما كان يسرى في الثقافات جميعها من استرقاق . وأكثر ما تلد

لنا قراءته من عقود البيع التي وصلت إلينا من عهد نبوخذ نصر ، العقود المتصلة بالعبيد^(٤٤) ، وكان مصدر هؤلاء العبيد أسرى الحروب ، والغارات التي يشنها البدو الرحّل على الولايات الأجنبية ، ونشاط العبيد أنفسهم في التنازل ، وكان ثمن الأرقاء يختلف من عشرين ريالاً إلى خمسة وستين للمرأة ، ومن خمسين ريالاً إلى مائة ريال للرجل^(٤٥) . وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الأعمال العضلية في المدن ، وتدخل في هذه الأعمال الخدمات الشخصية ، وكانت الجوارى ملكاً خالصاً لمن يبتاعهن ، وكان ينتظر منهن أن يمهّد له فراشه ويهيئن له طعامه ، وكان المعروف أنه سيستولدهنّ عدداً كبيراً من الأبناء ، فإذا رأت بعضهن أنهن يعاملن هذه المعاملة شعرن بمحض الإهمال والإهانة^(٤٦) . وكان العبيد وكل ما ملكت يده ملكاً لسيده : من حقه أن يبيعه أو يرهنه وفاء لدين ، ومن حقه أن يقتله إذا ظن أن موته أعود عليه بالفائدة من حياته . وإذا أبق العبد فإن القانون لا يبيع لأحد أن يحمله ، وكانت تقدّر جائزة لمن يقبض عليه . وكان من حق الدولة أن تجنده كما تجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الأعمال العامة كشق الطرق . وحفر القنوات . لكنه كان له على سيده أن يؤدي عنه أجر الطبيب ، وأن يقدم له كفايته من الطعام إذا مرض أو تعطل عن العمل أو بلغ من الشيخوخة . وكان من حقه أن يتزوج بجمرة ، فإذا رزق منها أبناء كانوا أحراراً ، فإذا مات من هذا شأنه كان نصف أملاكه من حق أسرته وكان سيده أحياناً يكل إليه عملاً من الأعمال التجارية ، وكان من حقه في هذه الحال أن يحتفظ ببعض أرباح العمل وأن يبتاع بها حريته ، وكان سيده يعتقد أحياناً إذا أدى له خدمة ممتازة ، أو خدمه زمناً طويلاً بأمانة وإخلاص . ولكن هذا النوع الأخير من الحرية لم ينله إلا القليلون من العبيد . أما كثرتهم فكانوا يقنعون من حياتهم بكثرة الأبناء ، صاروا أكثر عدداً من الأحرار . فكانت طبقة الأرقاء الكبيرة تتحرك كأنها نهر تحت جيتاش يجرى تحت قواعد الدولة البابلية .

الفصل الثالث

القانون

قانون حمورابي - سلطة الملك - تحكيم الآلهة - القصاص - أنواع العقاب -
قوانين الأجور والأثمان - رد البضائع المروقة عن طريق الدولة

وطبيعى أن مجتمعاً كهذا لا تدور بخلافه فكرة الديمقراطية ؛ ذلك أن نزعتة الاقتصادية تتطلب أن تكون له حكومة ملكية مطلقة تسندها الثروة التجارية أو الامتيازات الإقطاعية ، ويحميها توزيع حكيم للعنف القانوني . وكان كبار الملاك ، ومن حل محلهم بالتدريج من التجار الأثرياء ، هم الذين أعانوا الدولة على الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى ، كما كانوا هم الوساطة بين الشعب ومليكه . وكان الملك يورث عرشه لمن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم ، ومن ثم كان كل واحد من هؤلاء الأبناء يعدّ نفسه ولياً للعهد ويجمع حوله عصابة تناصر ، وكثيراً ما كان يشن الحرب على إخوته إذا لم تحقق آماله^(١٧) . وكان يدير دولاب الحكومة فى نطاق هذه القواعد التعسفية عدد من كبار الموظفين الإداريين فى العاصمة وفى الأقاليم ، يعيّنهم الملك . وكان إلى جانبهم جمعيات إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام ، ويقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها . وقد استطاع هؤلاء أن يحتفظوا للولايات بقسط موفور من الحكم المحلى حتى فى أيام سيطرة الآشوريين^(١٨) .

وكان كل موظف إدارى ، كما كان الملك نفسه فى معظم الأحوال ، يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذى تحدد وضعه وصيغته فى عهد حمورابى ، ويسترشد به . وقد ظل هذا القانون العظيم محفوظاً بجوهره خمسة عشر قرناً كاملاً رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغير ، ورغم ما أدخل

عليه من تفاصيل ؟ وكان تطوره يهدف إلى استبدال العقوبات/الدينية بما كان فيه من عقوبات دينية ، كما يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدنية . مثال ذلك أن محاكمة المتهمين كانت في الأيام الأولى توكل إلى الآلهة ، فإذا اتهم رجل بممارسة السحر ، أو اتهمت امرأة بالزنى ، طلب إليهما أن يقفزا على نهر الفرات ، وكانت الآلهة على اللوام في جانب أقدر المتهمين على السباحة ، فإذا نجحت المرأة من الغرق كانت نجاتها برهاناً على براءتها ، وإذا غرق « الساحر » آلت أملاكه إلى من اتهمه ، أما إذا نجا من الغرق فإنه يستولى على أملاك متهمه^(٤٩) . وكان القضاة الأولون من الكهنة ، وظلت الهياكل^(٥٠) مقر معظم المحاكم إلى آخر تاريخ البابليين ، لكن محاكم غير دينية لا تسأل عن أحكامها إلا أمام الحكومة أخذت من أيام حمورابي نفسه تحل محل المراكز القضائية التي كان يرأسها الكهنة .

وقام العقاب في أول الأمر على مبدأ قانون القصاص « النفس بالنفس والعين بالعين » . فإذا كسر إنسان لرجل شريف سناً ، أو فحاً له عيناً ، أو هشم له طرفاً من أطرافه ، حل به نفس الأذى الذي سببه لغيره^(٥١) . وإذا انهار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه ، وإذا تسبب عن سقوطه موت ابن الشاري حكم بالموت على ابن البائع أو الباني ، وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت لم يحكم بالموت على الضارب بل حكم به على ابنته^(٥٢) . ثم استبدل بهذه العقوبات النوعية شيئاً فشيئاً غرامات مالية ، وبدأ ذلك بأن أجاز أداء فدية مالية بدل العقوبة البدنية^(٥٣) . ثم أصبحت الفدية بعدئذ العقوبة الوحيدة التي يجيزها القانون ، فكان جزاء فقء عين السوق ستين شاقلاً من الفضة ، فإذا فقئت عين عبد كان جزاء فقئها ثلاثين^(٥٤) . ذلك أن العقوبة لم تكن باختلاف خطورة الجريمة وحسب ، بل كانت تختلف أيضاً باختلاف مركز الجاني والجنى عليه . فإذا ارتكب أحد المراهقة جريمة كان عقابه أشد من عقاب السوق إذا ارتكب الجريمة نفسها ، أما الجريمة التي ترتكب ضد أحد الأشراف فقد كانت غالية

الخن . وإذا ضرب أحد السوقة آخر من طبقته غرم عشرة شواقل أو ما يقرب من خمسين ربالا ، فإذا ما ضرب شخصاً ذا لقب أو ذا مال غرم سبعة أضعاف هذا المبلغ (٥٥) . وإلى هذه العقوبات الرادعة كانت هناك عقوبات همجية هي بتر الأعضاء أو الإعدام . فإذا ضرب رجل أباه جوزى بقطع يده (٥٦) . وإذا تسبب طبيب أثناء جراحة في موت مريض أو في فقد عين من عينيه قطعت أصابع الطبيب (٥٧) . وإذا استبدلت قابلة طفلاً بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها (٥٨) . وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالموت ، منها هتك العرض ، وخطف الأطفال ، وقطع الطرق ، والسطو ، والنسق بالأهل ، وتسبب المرأة في قتل زوجها لتزوج بغيره ، ودخول كاهنة خمار أو فتحها لإياها ، وإيواء عبد آبق ، والجن في ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة ، وإهمال الزوجة شئون بيتها أو سوء تدبيرها (٥٩) ، وغش التعمور (٦٠) . بهذه الوسائل التي دامت آلاف السنين استقرت التقاليد والعادات التي أدت إلى حفظ النظام وضبط النفس . والتي أوضحت فيما بعد عن غير قصد جزءاً من الأسس التي قامت عليها الحضارة .

وكانت الدولة تحدد أثمان السلع والأجور والأتعاب داخل نطاق بعض الحدود . فأجر الجراح مثلاً كان يقرره القانون وحدد قانون بحورابي أجور البنائين ، وضاربي الطوب ، والخياطين ، والبنائين بالحجارة ، والنجارين ، والبحارة ، والرعاة ، والفعلة (٦١) . وخص قانون الوراثة أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، فجعلهم ورثته الطبيعيين الأقربين ، فإذا مات رجل عن زوجته كان لها الحق في مهرها وفي هدية عرسها ، وظلت زينة البيت ما دامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً في الابن الأكبر بل كان الأبناء كلهم سواسية في الميراث ، ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتقسمت ، فامتنع بذلك تركزها في أيدي قلائل (٦٢) . وكان القانون يعيد الملكية الفردية للعقار والمنقولات أمراً مسلماً به لا جدال فيه .

ولم نجد في الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين في بابل إلا إذا اعتبرنا من المحامين القسيسين الذين كانوا يعملون وثقين للعقود ، والكتبة الذين كانوا يكتبون كل ما يطلب إليهم كتابته من الوصية إلى الأرجوزة نظير أجر يتقاضونه ، وكان المدعى يرفع في قضيته بنفسه دون أن يستعين بترف الاصطلاحات القانونية . ولم يكن أناس يشجعون على التقاضي ، فقد كانت أول مادة في القانون تنص في بساطة تكاد تكون غير « قانونية ! » . على أنه ، إذا اتهم رجل آخر بجريمة (يعاقب عليها بالإعدام) ثم عجز عن إثباتها يحكم على المدعى نفسه بالإعدام » (٦٣) ، وثمة شواهد دالة على وجود الرشوة وإفساد الشهود (٦٤) ، وكانت في مدينة بابل محكمة استئناف يحكم فيها « قضاة الملك » ، وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه . وليس في شرائع بابل ما يفيد وجود حق للفرد قبيل الدولة ، بل كان الفضل في النص على هذا الحق فضل الأوربيين . غير أنه إذا لم يوفر القانون للأهلين الحماية السياسية فلا أقل من أنه قد وفر لهم في المواد ٢٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ الحماية الاقتصادية : « إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه ، حكم على ذلك الرجل بالإعدام » . فإذا لم يقبض عليه كان على المسروق منه أن يلقى ، في مواجهة الإله ، ببيان مفصل عن خسائره ، وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه أن يعوضاه عن كل ما فقده . فإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم مينا (٣٠٠ ريال) إلى ورثة القتيل ، فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ معها على أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع حقاً عما كانت عليه أيام حمورابي ، أو أن كل الذي حدث لها أن تعقدت وتضخمت ؟

الفصل الرابع

آلهة بابل

الدين والدولة - واجبات الكهنة وسلطانهم - الآلهة الصغار - مردك - إشتار - القصص البابلية عن خلق العالم والطفوان - حب إشتار وتموز - نزول إشتار إلى الجحيم - موت تموز وبعثه - الطقوس الدينية والصلوات - تسايح التوبة - الخطيئة - السحر - الخرافات

لم تكن سلطة الملك يقيدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها أيضاً الكهنة . ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية إلا وكيلاً للإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل إما مباشرة أو بشئ الأساليب والحيث . ولم يكن الملك يُعَدُّ ملكاً بحق في أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، و « أخذ بيد بل » ، واخترق شوارع المدينة في موكب مهيب ممسكاً بصورة مردك . وكان الملك في هذه الاحتفالات يلبس زي الكاهن ، وكان هذا رمزاً إلى اتحاد الدين والدولة . ولعله كان أيضاً يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتية . وكانت تحيط بعرشه جميع مظاهر خوارق الطبيعة ، ومن شأن هذه كلها أن تجعل الخروج عليه كفراً ليس كمثل كفر ، لا يجزى من يجروء عليه بضياح رقبته فحسب ، بل يجزى أيضاً بخسران روحه وحقه . حمورابي العظيم نفسه تلقى قوانينه من الإله . ولقد ظلت بلاد بابل في واقع الأمر دولة دينية « خاضعة لأمر الكهنة » على الدوام (٦٥) من أيام الباتسين ، أو القساوسة - الملوك السومريين إلى يوم تنويج نبوخذ نصر .

وزادت ثروة الهياكل جيلاً بعد جيل كلما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة . وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة ، فشادوا لهم الهياكل . وأمدوها بالآثاث والطعام والعبيد : ووقفوا عليها .

مساحات واسعة من الأرض ، وحصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه إليها في كل عام . فإذا غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنا قدمت الهدايا العظيمة للآلهة . وكان يفرض على بعض الأراضى أن تؤدى للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزلت الهياكل ملكيتها ، واقتلعت هذه الملكية للكهنة أنفسهم في أغلب الأحوال ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم الدنيوية القدر الذى يظنون أنه يتفق ومصلحتهم الخاصة ، وبذلك تكدر في خزائن الهياكل الذهب ، والفضة ، والنحاس ، واللازورد ، والجواهر والأخشاب النفيسة .

ولما لم يكن في مقدور الكهنة أن يستعملوا هذه الثروة كلها أو يستنفذوها فقد حولوها إلى رأس مال منتج أو مستثمر ، وأصبحوا بذلك أعظم القوامين على الشؤون الزراعية والصناعية والمالية في الأمة بأسرها . ولم يكونوا يملكون مساحات واسعة من الأرض فحسب ، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيماً من العبيد ، ويسيطرون على مئات من العمال ، ويجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال ، أو يسجرونهم لخدمة الهياكل بالعمل في حرف لا حصر لها ، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمور (٦٦) . كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها ، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ، ويسهمون بقسط موفور في تجارة البلاد . وقد عرف عنهم أنهم من أحكم الأهلين في استثمار الأموال ، ولهذا عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم المدخرة لوثوقهم من أنهم سيحصلون منها على أرباح مضمونة وإن لم تكن موفورة . وكانوا يقرضون المال بشروط أرحم من الشروط التى يقرضه بها غيرهم من الأفراد ، وكانوا في بعض الأحيان يقرضون المرضى والفقراء بغير فائدة ، لا يطلبون إلا رؤوس أموالهم حين يبسم مردك للمقترض من جديد (٦٧) . وكانوا

إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال الغامضة ، فكانوا يعملون في توثيق العقود ، ويشهدون عليها ، ويوقعونها بأسمائهم ، ويكتبون الوصايا ، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات ويفصلون فيها ، ويحفظون السجلات الرسمية ، ويسجلون الأعمال التجارية .

وكان الملك أحياناً يصادر بعض أموال الهياكل إذا واجه أزمة تتطلب المال الكثير . ولكن هذا كان عملاً نادراً شديداً الخطورة ، لأن الكهنة كانوا يصبون أشد اللعنات على كل من يمس "أقل شيء" من الأملاك الدينية بغير إذن منهم . هذا إلى أن نفوذهم لدى الأهليين كان أعظم من نفوذ الملك نفسه ، وكان في وسعهم في بعض الأحيان أن يخلعوه عن عرشه إذا أجمعوا أمرهم وسخروا ذكاءهم وقواهم لهذه الغاية . يضاف إلى هذا أنهم يمتازون بالدوام والخلود ، ذلك أن الملك يموت أما الإله فخلد ، ومن أجل هذا كان مجمع الكهنة الآمن من تقلبات الانتخاب ، وأخطار المرض ، والاعتقال والحرب ، هيئة دائمة في مقلورها أن تضع الخطط الطويلة الأجل ، وهي ميزة لا تزال تتمتع بها الهيئات الدينية الكبرى إلى هذا اليوم . كل هذه ظروف جعلت للكهنة سلطاناً فوق كل سلطان . وكان الأقدار قد شاءت أن تقوم بابل على جهود التجار ، وأن يستمتع بجزائرها الكهنة .

تري ما هي تلك الآلهة التي كانت الشرطة الخفية للدولة البابلية ؟ لقد كانت هذه الآلهة كثيرة العدد ، لأن الأهليين كان لهم في خلقها خيال واسع لا ينضب معينه ، ولم يكن ثمة حد للخدمات التي يمكن أن تؤديها لهم آلهتهم . وقد أحصى عدد الآلهة لإحصاء رسمياً في القرن التاسع قبل الميلاد فكانوا حوالي ٦٥٠٠ (٦٨) . ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها ، وكان يحدث في بابل ودينها ما يحدث عندنا اليوم وفي ديننا نحن ، فقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدتها وتخلص لها ، وإن كانت تخضع رسمياً

للإله الأعظم : فقد أقيمت في لارسا الهياكل الكثيرة لشمس ، ولإشتار في أروك ، ولتنار في أور - ذلك أن الآلهة السومرية لم ينقض عهدها بانقضاء عهد دولة السومريين . ولم يكن الآلهة بمنأى عن الأهلين ، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل ، يأكلون الطعام بشهية قوية ، ويزورون للصالحات من النساء في أثناء الليل فيستولدنهن أطفالاً لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم (٦٩)

وأقدم الآلهة كلهم آلهة السماء وما فيها : أنو السماء الثابتة ، وشمس للشمس ، وتنار القمر ، وبل أو بعل الأرض التي يعود كل البابليين إلى صدرها بعد مماتهم (٧٠) . وكان لكل أسرة آلهتها المنزلية تقام إليها الصلاة ، وتصب إليها الخمر في كل صباح ومساء ؛ وكان لكل فرد رب يحميه (أو ممتلك يخرسه كما نقول نحن بلغة هذه الأيام) ، يرد عنه الأذى والشروع ، وكان جن الخصب يحومون فوق الحقول ليباركوها . ولعل اليهود قد صاغوا ملائكتهم من هذا الحشد العظيم من الأرواح .

ولسنا نجد لدى البابليين شواهد على التوحيد كالتى ظهرت في عهد إخناتون وعهد إشعيا الثاني ، على أن قوتين من القوى قد قربتهما من هذا التوحيد ، أولاهما اتساع رقعة دولتهم عقب الحروب ، وهذا الاتساع أخضع آلهتهم المحلية لسلطان إله واحد ، والقوة الثانية أن كثيراً من المدن كانت تخضع على إلهها الخاص المحب لها السلطان الأعلى والقدرة على كل شيء . من ذلك قول نبو مثلاً : « آمن بنبو ، ولا تؤامن بغيره من الآلهة (٧١) » . ولا يختلف هذا القول كثيراً عن الوصية الأولى من وصايا اليهود . وقل عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى . وعلى هذا النحو أصبح مردك إله بابل - وكان في بادئ الأمر من آلهة الشمس - كبير الآلهة البابلية (٧٢) ، ومن ثم لقب بل - مردك أي مردك الأول ، وإليه وإلى إشتار كان البابليون يوجهون أحر صلواتهم وأبلغ دعواتهم .

وليست أهمية إشتار (وهي إشتارثي عند اليونان وعشتورت عند اليهود) لدينا مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين ، وعلى أنها النموذج الذي صاغ اليونان على مثاله لإلهتهم أفرديتي والرومان فينوس ، بل إنها تهمنا فوق ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية ، فقد كانت هي دمر وأفرديتي معاً - أى أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب فحسب ، بل كانت فوق هذا الإلهة الرحيمة التي تعطف على الأمومة الولود ، والموجية الخفية بخصب الأرض ، والعنصر الخلاق في كل مكان ، ويستحيل علينا ، إذا نظرنا إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظور هذه الأيام ، أن نجد بينها كثيراً من التناسق ، فقد كانت مثلاً إلهة الحرب والحب ، وإلهة العاهرات والأمهات ، وكانت تسمى نفسها « المحظية الرحيمة » (٧٣) . وكانت تصور أحياناً في صورة امرأة عارية تقدم تديها للرضاع (٧٤) ، ومع أن عبادها كثيراً ما يخاطبونها بقولهم « العذراء » و « العذراء المقدسة » و « الأم العذراء » ، فإن كل ما تعنيه هذه الأقوال أن حبها كان مبرراً من دنس الزواج . وقد رفض جلجيميش أن يتزوج بها حين عرضت عليه الزواج ، وحجته في ذلك أنها لا يوثق بها ، لم تحب في يوم من الأيام أسداً وأغوته ، ثم قتلته (٧٥) ؟

وجلى أننا يجب أن نتغاضى عن قانوننا الأخلاقي إذا شئنا أن نفهم مقام هذه الإلهة على حقيقته . فليتأمل القارئ تلك الحماسة القوية التي يرفع بها البابليون إلى مقامها العظيم تسابيح الحمد التي لا يكاد يفوقها في روعتها إلا تلك التسابيح التي كان الأتقياء من المسيحيين يرفعونها فيما مضى لمريم أم المسيح :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا إشتار ،
يا ملكة المدائن كلها ، ويا هادية كل الرجال ،

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة سن العظيم (إله القمر) . . .

ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين .

أنت تحكمين وحكمك عدل :

وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .

وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .

أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ، وأين البقعة التى لا تعرف

فيها أوامرك ؟

إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة

إنك تنظرين إلى المظلومين ، وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين

إلى متى يا ملكة السماء والأرض ، إلى متى ؟

بئى متى يا راعية الرجال الشاجبي الوجوه تتمهلين ؟

إلى متى ، أيتها الملكة التى لا تكل قدمها ، والتى تسرع ركبها ؟

إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية ؟

يا عظيمة ، يا من تهالك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة

الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك ؟

يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجل سنالك !

يا نور السماء للبراق ، يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى

يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم

يا إلهة الرجال ، ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول ،

حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ،

ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك

إلى متى ، أيتها السيدة ، ينتصر على عدوى ؟

فرى ، فتى أمرت ارتد الإله الغضوب

إن إشتار عظيمة ! إشتار ملكة ! سيدتى ، جليلة القدر ، سيدتى ملكة ،

لأبنتى ، ابنة سين القوية . ليس لها مثل (٣٦) .

واتخذ البابليون هذه الآلهة شخصيات نسجوا حولها أساطيرهم التي وصل إلينا معظمها عن طريق اليهود ، وأضحت جزءاً من قصصنا الديني . وأون ما نذكره من قصصهم قصة الخلق . فقد كان في أول الأمر عماء « ففي الوقت الذي لم يكن فيه شيء عال يسمى السماء ، ولم يكن شيء وطىء يسمى الأرض ، جاء أبو المحيط ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، وتيامات الغماء ، التي ولدتها كلها ، وغلطا ماءهما معاً » ، وبدت الأشياء تنمو على مهل وتتخذ لها أشكالاً ، ولكن تيامات الإلهة المهولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها - العماء - صاحبة المقام الأعلى . وأعقبت هذا ثورة عنيفة اضطرب منها كل نظام : ثم جاء إله آخر وهو مردك وقتل تيامات بدواتها هي ، وذلك بأن دفع في فخها ريحاً عاصفة حين فتحت لتبتلعها . ثم طعنها برمح في بطنها الذي انتفخ بما دخله من الريح ، فانفجرت إلهة العماء . وتقول القصة بعدئذ إن مردك « عاد إليه هذوؤه » فقسم تيامات الميتة قسمين مستطيلين ، كما يقسم الإنسان السمكة ليجففها ، « ورفع أحد النصفين إلى أعلى فكان هو السماء ، وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض » (٧٧) . هذا كل ما وصل إلى علمنا حتى الآن عن قصة الخلق عند البابليين . ولعل الشاعر القديم أراد أن يوحى إلينا بهذه القصة أننا لا نعرف عن بداية الخلق إلا أن النظام قد استبدل بالفوضى والعماء ، لأن هذا في آخر الأمر هو جوهر الفن والحضارة . على أننا يجب ألا يغرب عن بالنا أن هزيمة العماء ليست إلا أسطورة من الأساطير (*) .

ولما أنفتق مردك السماء والأرض ووضعهما في مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ويصنع الناس لخدمة الآلهة . وتختلف القصص البابلية في وصف الطريقة

(*) وكتبت قصة الخلق البابلية على سبعة ألواح (كل يوم من أيام الخلق على لوح) وقد وجدت في خرائب مكتبة آشور بانيبال في قوينجك (نينوى) في عام ١٨٥٤ . وهذه الألواح نسخة من قصة المنحدرة إلى بابل وأشور من بلاد سومر (٧٨) .

والمؤلف يريد بقوله : « إن استبدال العماء بالفوضى أسطورة » أن الفوضى لا تزال تضرب أطنابها في الأرض وأنها لا تكاد تزول منها حتى تعود إليها . (المترجم)

الدقيقة التي تم بها صنع الإنسان ، ولكنها تتفق كلها بوجه عام في القول بأن الإله صنع الإنسان من قطعة من الطين ، وهي لا تصفه بأنه كان يعيش في يادئ الأمر في جنة بل تقول إنه كان يعيش عيشة حيوانية في جهل وبساطة حتى جاءه وحش مهول يدعى أونس نصفه سمكة ونصفه فيلسوف ، وعلمه الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ؛ ولما علمه إياها نزل إلى البحر وكتب كتاباً في تاريخ الحضارة^(٧٩) . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت على الناس الذين خلقتهم ، فأرسلت عليهم طوفاناً عارماً تهللكهم وتمحو به سيئ أعمالهم وأشفق إلى إله الحكمة على البشر واعتزم أن ينجي منهم على الأقل رجلاً واحداً شمس — نيشتين وزوجته . « وظل الطوفان مهتاجاً ، وغص البحر بالخلق كأنهم سرء السمك » . ثم بكت الآلهة على حين غفلة وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء تدبيرها وتساءلت « عمن سيقرب لها القربان المعتاد ؟ » ، ولكن شمس — نيشتين كان قد بنى فلكا ونجا من الطوفان وحط على جبل نزير ، وأرسل يمامة تستطلع ؛ ثم قرر أن يقرب القربان للآلهة ، وقبلت الآلهة قربانه وهي مندهشة شاكرة . « وشمّت الآلهة الرائحة ، شمّت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب فوق القربان »^(٨٠) .

وأجل من هذه الذكرى الغامضة ، ذكرى الطوفان المخرب ، أسطورة إشتار وتموز . وكان تموز حسب نص القصة السومري أنخا أصغر لإشتار ، أما في النص البابلي فهو أحياناً حبيبها وأحياناً ابنها . ويلوح أن كلا النصين قد سرى إلى أسطورة فينوس (الزهرة) وأدنيس ، وأسطورة ديمتر وپرستون ، وإلى عشرات العشرات من القصص الأخرى التي تتحدث عن الموت والبعث . وتموز هذا ، ابن الإله العظيم إلى ، راع يرعى غنمه تحت إريد الشجرة العظيمة (التي تغطي الأرض كلها بظلالها) ، وبينما هو يرعاها إذ شغقت بحبه إشتار ، وهي دوماً ظمأى إلى الحب ، واختارته زوجاً لها في شبابها . ولكن خنزيراً برياً يطعن تموز طعنة

قائلة فيهموى كما يهوى جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض واسمه أراو
عند البابلين ، وكانت تحكمه إرشكجال أخت إشتار التى كانت تغار منها
وتحسدها ، وتحزن إشتار ويبرح بها الحزن ، فتعزم النزول إلى أراو لتعيد
الحياة إلى تموز ، وذلك بأن تغسل جروحه فى مياه لإحدى العيون الشافية .
وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم فى جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها
بالدخول . وتقص الألواح قصتها فى صوة واضحة قوية :

فلما سمعت إرشكجال هذا

كانت كمن يقطع الطرفاء (ارتجفت ؟)

وكما يقطع الإنسان قصبه (اضطربت ؟)

« أى شىء حرك قلبها ، أى شىء (خفقت له) كبدها ؟

يا من هناك ، (هل) هذه (هل) هذه (تريد أن تقيم) معى ؟

وأن تتخذ من الطين طعاماً ، وأن تشرب (التراب) خمراً ؛

لأننى أبكى الرجال الذين فارقوا أزواجهم ،

وأبكى النساء اللاتي انتزعن من أحضان أزواجهن ،

والصغار الذين (احتضروا قبل الأوان) ،

أذهب أيها الخازن ، وافتح لها الباب ،

وعاملها بمقتضى القرار القديم . »

وهذا القرار القديم يقضى بألا يدخل أراو إلا العراة . وعلى هذا فإن
الخازن يخلع عن إشتار ثوباً من ثيابها أو حلية من حليها عند كل باب يتحتم
عليها أن تجتازة : فيخلع عنها أولاً تاجها ، ثم قرطها ، ثم عقدتها ، ثم خلية
صدرها ، ثم منطقتها ذات الجواهر الكثيرة ، ثم الزركشة البراقة التى فى
يديها وقدميها ، ثم يخلع عنها آخر الأمر منطقة حقوبها ، وتمانع إشتار فى
رقة ثم تخضع :

فلما نزلت إشتار إلى الأرض التى لا يعود منها من يدخلها

أبصرتها إرشكجال وأغضبها مجيؤها ۞
وألقت إشتار بنفسها عليها من غير تفكير ،
وفتحت إرشكجال فاهها وتحدثت
إلى نمتاز رسولها ، ، ،

« اذهب ، يا نمتاز ، (واسجنها ؟) في قصرى ،
وسلط عليها ستين مرضاً ،
مرض العيون على عينيها ،
ومرض الجنب على جنبيها ،
ومرض الأقدام على قدميها ،
ومرض القلوب على قلبها ،
ومرض الرأس على رأسها
على جميع جسدها .

وبينما كانت إشتار حييسة في الجحيم بما أرسلته عليها أختها ، شعرت
الأرض بأنها فقدت ما كان يوحى به إليها وجودها على ظهرها ، ففسيت
جميع الفنون وطرائق الحب ، فلم يعد الثبت يلحق الثبت ، وذبلت الخضر ،
ولم تشعر الحيوانات بحرارة ، وامتنع الرجال عن الحنين :

ولما نزلت السيدة إشتار إلى الأرض التى لا يعود منها من يدخلها
لم يعمل الثور البقرة ، ولم يقرب الحمار الأتان
والفتاة في الطريق لم يقترب منها رجل ؛
ونام الرجل في حجرته
ونامت الفتاة وحدها ۞

وأخذ السكان يتناقصون ، وارتفعت الآلهة حين رأت نقص ما ترسله
إليها الأرض من القرابين ، واستولى عليها الذعر فأمرت إرشكجال أن تطاق

سراح إشتار ، ونصدع إرشكجال بأمر الآلهة ، ولكن إشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ معها تموز . وتجاب إلى طلبها ، وتجتاح وهي ظافرة الأبواب السبعة ، وتتسلم منطقة حقوبها ثم الزركشة البراقة التي كانت على يديها وقدميها ، ثم منطقتها ، ثم حلى صدرها ، وعقدتها ، وقرطها ، وتاجها . فلما ظهرت على الأرض نما النبات وأينع من جديد ، وامتلاأت الأرض طعاماً ، وكاد كل حيوان يعمل الإكثار من نسله (٨١) ، وعاد الحب - وهو أقوى من الموت - إلى مكانه الحق سيد الآلهة والآناسى . تلك قصة كل ما يراه فيها عالم اليوم أنها قصة رائعة خليقة بالإعجاب ، ترمز في صورة جميلة ممتعة إلى موات التربة وعودتها إلى الحياة في كل عام ، وإلى ما للحب من قدرة دونها كل قدرة ، وصفها لكريتنس في شعره القوي حين تحدث عن الزهرة (فينوس) . أما البابليون فكانت لهم تاريخاً مقدساً يؤمنون به أقوى إيمان ، ويحتفلون بذكرى وقائعه في يوم يحزنون فيه وينتجون ويديكون تموز الميت ، يتلوه يوم يتهجون فيه ويمرحون وهو يوم بعثه (٨٢) .

بيد أن عقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبهج له نفس البابلي . ذلك أن دينه كان ديناً أرضياً عملياً ، فإذا صلى لم يكن يطلب في صلاته ثواباً في الجنة بل كان يطلب متسعاً في الأرض (٨٣) ، ولم يكن يثق بآلهته بعد أن يوارى في قبره . نعم إن نصاً من نصوصهم يصف مردك بأنه « الذي يحيى الموتى » (٨٤) ، وأن قصة الطوفان تقول إن من نجوا منه قد عاشوا أبداً الدهر . ولكن فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت في جملتها شبيهة بفكرة اليونان ، فكرة أموات - فيهم قديسون وأنذا ، وفيهم عباقر وبلهاء ، يذهبون كلهم إلى مكان مظلم في جوف الأرض ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم . وكانت هناك جنة ولكنها اختصت بالآلهة ، أما أروال التي يهبط إليها جميع الناس فكانت داراً للعقاب في معظم الأحوال ، ولم تكن قط دار نعيم ، تفيد فيها أيدي الموتى وأرجلهم أبداً الدهر ، وترتجف فيها أجسامهم من البرد ،

يجوعون فيها ويظلمون إلا إذا وضع أبناؤهم لم الطعام في قبورهم في أوقات معينة^(٨٥) ، ومن كان منهم كثير الذنوب على ظهر الأرض لقي فيها أشد العذاب ؛ فسلط عليه الجحلام يأكل جسمه أو غيره من الأمراض التي أعدها له ترجال وآلات سيد أوالو وسيدتها ليتطهرها من ذنوبه .

وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن في قباب ، ومنها ما كان يحرق وهو قليل ، ثم تحفظ بقاياها في قوارير^(٨٦) ، ولم تكن الجثث تمحط ، ولكن نادبين محترفين كانوا يغسلون الجثة ، ويلبسونها ثياباً حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم في أصابعها ، ويضعون معها بديلاً من الملابس الداخلية التي تلبسها . وإذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والأمشاط ، وأقلام الأدهان ، وكحل للعينين ، وذلك لكي تحتفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها في الدار الآخرة^(٨٧) . وكانوا يعتقدون أن الميت إذا لم يدفن على خير وجه عذب الأحياء ، وإذا لم يدفن قط حامت روحه حول البالوعات والميازيب تطلب فيها الطعام ، وقد تصيب مدينة برمتها بالأوبئة الفتاكة^(٨٨) . هذا كله خايط من الأفكار ليست كلها منطقية . مما سكة تماسك الهندسة الإقليدية ، ولكن فيها ما يكفي لحفز الباطلي الساذج على أن يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب .

وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرائين ، وذلك لأن ما يتبقى منهما لا يتلف حتماً إذا لم يطعمه الآلهة . وكثيراً ما كان الضأن يضحي به على المذابح البابلية ، ولقد وصلت إلينا رقبة بابلية هي سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين : « الكبش فداء الإنسان ، الكبش الذي يفتدى به حياته »^(٨٩) ؛ وكان تقرب القربان من الطقوس المعقدة التي تتطلب خدمات كاهن خبير بشؤونها . وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال ، فإذا أقدم على هذا العمل شخص هاو غير إخصائي فيه ، ثم حاد قيد شعرة عن المراسم المقررة ، فقد يكون معنى هذا أن تأكل الآلهة

الطعام ولا تصنعى للدعاء . وكان الدين عند البابليين يُعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة . فإذا شاء الإنسان أن يودى ما يجب عليه نحو الآلهة كان عليه أن يقرب القربان الثلاثى للهيكل ، ويتناول الصلوات والأدعية المناسبة (٩٠) . أما فيما عدا هذا فقد كان فى وسعه أن يفقأ عين عدوه المهزوم ويقطع أيدي الأسرى وأرجلهم ، ويشوى ما بقى من أجسامهم وهم أحياء (٩١) ، دون أن يودى بذلك آلهة السماء :

وكان أهم ما يجب أن يعمل البابلى التقي المستمسك بدينه أن يشترك فى المواكب الطويلة المهيبة كالمواكب التى كان الكهنة ينقلون فيها صورة مردك من هيكل إلى هيكل ، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة ، أو أن يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع ، وأن يطل الأَصنام بالزيت العطرة (*) ، ويحرق البخور بين يديها ، ويلبسها أحسن الثياب وأغلاها . أو يزينها بالجوهر ، وأن يقدم عرض ابنه العذراء فى احتفال إشتار العظيم ، وأن يقدم الطعام والشراب للآلهة ، وأن يكون كريماً مضيافاً للكهنة (٩٢)

أو لعلنا نظلمه كما سيطلمنا المستقبل بلا رب حين يحكم علينا بالقليل الذى سوف تبقى المصادفات المحضة من آثارنا . ، وتنجيه من عبث الزمان . استمع مثلاً إلى ما يقوله نبؤخذ نصر الفخوز مخاطباً مردك فى تذلل وخضوع :

إذا لم تكن أنت ياربى فماذا يكون

للملك الذى تحبه وتنادى باسمه ؟

وستبارك لقبه حسب مشيئتك ،

وتهديه صراطاً مستقيماً .

أنا الأمير الطائع لك ،

باق كما صنعتنى يدك .

(*) ومن أجل هذا كان تموز يسمى بالمعطر (٩٣) .

إلك أنت خالقى ،
وأنت الذى حَكَمْتَنى فى جيوش العباد .
وبمقتضى رحمتك ، يا مولائى . . .
بدّل قوتك الرهيبة حباً ورحمة ،
وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك
وهبنى ما ترى فيه الخير لى (٩٤) .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم التى تفيض
بالتذلل الحار الذى يحاول السامى أن يسيطر به على كبريائه ويخفّيه عن الأنظار .
وأكثر هذه الترانيم فى صورة « أناشيد توبة » وهى تهيننا لتلك المشاعر العاطفية
والصور الرائعة التى نراها فى « مزامير » داود . ومن يدرى لعل هذه كانت
مثالا احتذته تلك المزامير المتعددة النغمات ،

أنا خادمك أضرع إليك وقلبي مفعم بالحسرات ،
إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب ،
إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل . . .
فانظر لى بعطف حق وتقبل دعائى

ثم يقول بعد ذلك وكأنه لا يعرف أذكر ذلك الإله أم أنثى :

متى يا إلهى ،

متى يا إلهتى ، يتجه وجهك لى ؟

متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟

متى يا إلهتى : يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟

لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ؛

ومن مَن الأحياء كلهم يعرف شيئاً ؟

لنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً ،
أى إلهى لا تنبد خادملك ،
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده !
والذنب الذى أذنبت بدله رحمة !
والظلم الذى ارتكبته ، مر الريح أن تحمله !
واخضع عن ذنوبى الكثيرة كما يخضع المرء الثياب !
أى إلهى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ، فاصفح عن ذنوبى !
أى إلهتى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ، فاصفحى عن ذنوبى !
اصفحى عن ذنوبى ترى ذليلاً أمامك
لعل قلبك يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ،
لعله يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ، والأب الذى
أنجب (٩٥) !

وهذه الأناشيد والمزامير كان ينشدها الكهنة تارة ، والمصلون تارة ،
وتارة ينشدها هؤلاء وأولئك معاً وهم يتهايلون ذات الشمال وذات اليمين ،
ولعل أغرب ما فى هذه الترانيم والأناشيد أنها - ككل آداب بابل الدينية -
كتبت باللغة السومرية القديمة ، وكان شأن هذه اللغة فى الديانتين البابلية
والأشورية كشأن اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية لا تفترق عنها فى
شئ . وكما أن التريمة الكاثوليكية قد تحتوى بين سطورها اللاتينية ترجمتها
بإحدى اللغات الحديثة ، فكذلك نجد لبعض الترانيم التى وصلت إلينا من
أرض الجزيرة ترجمة لها باللغة البابلية أو الأشورية بين سطور اللغة السومرية
الأصلية « الفصحى » ، على النحو الذى نشاهده فى كتب بعض تلاميذ
المدارس فى هذه الأيام . وكما إن صيغة الترانيم وطقوسها التى مهدت
لمزامير اليهود وطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم
اليهودية والمسيحية الأولى ، وترانيم المتطهرة المحدثين ، تلك الترانيم المتشائمة
التي يسرى فيها شعور بالذنب والخطيئة . ذلك أن الشعور بالذنب ، وإن لم

يكن له شأن كبير في حياة البابليين ، تفيض به ترانيمهم ، وتسرى فيها كلها نعمة لا تزال باقية في الطقوس السامية وما اشتق منها من ترانيم غير الساميين . وإلى القارئ مثلاً من هذه الترانيم : « رب إن ذنوبي عظيمة ، وأفعالي السيئة كثيرة ! . . . إلى أرزخ تحت أثقال العذاب ، ولم يعد في وسعي أن أرفع رأسي ، إلى أتوجه إلى إلهي الرحيم إناديه ، وأنا أتوجه وأتألم ! . . . رب لا ترد عنك خادمك ! » (٩٦) .

وكانت فكرة الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه التصرفات تصدر عن إخلاص حق شديد . ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة معنوية من حالات النفس ؛ بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم في مقدوره أن يهلكه . وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذي أقبل عليه من طوائف القوى السحرية التي كان الشرق القديم يعيش فيها ويخوض هبائها . وكان البابليون يعتقدون أن هذه الشياطين المعادية للناس تترصده في كل مكان . فقد كانت تعيش في شقوق صخرية وتنسل إلى البيوت من خلال أبوابها ، أو من فتحات مزاحها أو أوقابها ، وتنقض على فريستها في صورة مرض أو جنة إذا ما ارتكب خطيئة أبعدت عنه إلى حين حماية الآلهة الخيرين . وكان للمردة ، والأقزام ، والمقعدين ، والنساء بنوع خاص ، كان لهم كلهم في بعض الأحيان القدرة على إدخال الشياطين في أجسام من لا يحبون ذلك بنظرة من « عين حاسدة » . وكان من المستطاع اتقاء شر هؤلاء الشياطين إلى حد ما باستعمال التأميم والطلاسم وما إليها من الرقى والأحاجي وكانت صورة الآلهة إذا حملها الشخص معه تكفي في الغالب لإخافة الشيطان وإبعاده . وكان من أقوى التأميم أثراً قلاده من حجارة صغيرة تسلك في خيط أو سلك وتعلق في العنق ؛ على أن يراعى في الحجارة أن تكون من النوع الذي تربط الأقوال المأثورة بينه وبين الحظ الحسن ، وفي الخيط أن يكون أسود أو أبيض أو أحمر حسب الغرض الذي يريده منه صاحبه . وكان

من أشد الخيوط أثراً الخيط الذى يغزل من عنزة لم يفرجها تيس^(٩٧) ، وكان من الحكمة أن يستعان فضلاً عن هذه الوسائل بالرقى الحارة والطقوس السحرية لإخراج الشيطان من الجسم ، كرشه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة كدجلة والفرات . وكان من المستطاع عمل صورة للشيطان ووضعها فى قارب ، وللقاؤها فى الماء بعد أن تتلى عابها صيغة خاصة وإذا أمكن صنع القرب بحيث ينكفى كان ذلك أفضل . وكان من المستطاع إقناع الشيطان بالرقية الصحيحة بترك ضحيته البشرية وتقمض جسم حيوان - كجسم طير أو خنزير أو حمل ، والأخير أكثرها شيوعاً^(٩٨) :

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة آشور بانيبال هى الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب . ومن الألواح التى وجدت كتب فى التنجيم ، ومنها ما هو قوائم فى الفأل السماوى منه والأرضى ، وإلى جانبها إرشادات شديدة تهدى إلى طريقة قراءتها ؛ ومنها بحوث فى تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعداً عن المعقول عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث . ومنها إرشادات فى التنبؤ بالغيب يبحث أحشاء الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها إذا أسقطت فى إبريق ماء^(٩٩) . وكان من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين ملاحظة كبِد الحيوان ، وقد أخذ ذلك عنهم من جاء بعدهم من الأمم القديمة ؛ ذلك أن الاعتقاد السائد عند هذه الأمم هو أن الكبِد مركز العقل فى الحيوان والإنسان على السواء ؛ ولم يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك فى واقعة ، ولم يكن بابلى يجرؤ على البت فى أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير ، إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ليقرأ له طالعه بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر ،

وليس فى الحضارات كلها حضارة أغنى فى الخرافات من الحضارة البابلية ، فكل حالة من الحالات وفاة كانت أو مولداً ، كان لها عند الشعب :

شرح وتأويل ، وكثيراً ما كان لها تفسير رسمي وديني يصاغ في عبارات
سحرية أو خارجة على السنن الطبيعية . وكان في كل حركة من حركات
النهرين ، وكل منظر من مناظر النجوم ، وكل حلم ، وكل عمل غير مألوف
يأتيه إنسان أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل البابلي الخبير العارف
ببواطن الأمور . فصهير الملك يمكن التنبؤ به بملاحظة حركات كلب (١٠٠) ،
كما نتنبأ نحن بطول الشتاء بالتجسس على المرموط (*) وقد تبدو خرافات
البابليين سخيفة في نظرنا ، لأنها تختلف في ظاهرها عن خرافاتنا نحن ،
والحق أنه لا تكاد توجد سخافة في الماضي إلا وهي منتشرة في مكان ما في
الوقت الحاضر . وما من شك في أن تحت كل حضارة بحراً من السحر
والتخريف والشعوذة ، ولعل هذه كلها ستظل باقية بعد أن يزول من العالم
فجاج عقولنا وتفكيرنا ،

(*) المرموط حيوان من ذوات الأربع في جرم الأرنب تقريباً ويشبه في هيئته إلا أن
ذنبه أقصر من ذنب الأرنب . (المترجم)

الفصل الخامس

أخلاق البابليين

انفصال الدين عن الأخلاق - النهر المقدس - الحب الحر -
الزواج - الزنى - الطلاق - مركز المرأة - انحلال الأخلاق

لعل هذا الدين رغم ما فيه من عيوب ، قد رقق من طباع البابلي العادى وجعله إنساناً مؤدباً سلس القياد إلى حد ما ، وإلا فكيف تفسر لإكرام الملوك للكهنة ؟ . ولكن يلوح أنه لم يكن له في تاريخ البلاد المتأخر أثر ما في الطبقات العليا من الشعب ، وذلك لأن « بابل العاهر » كما كان يراها ويصفها أعداؤها غير العدول كانت « مباءة للظلم » ، ومثلاً سيئاً في الانحلال والترف للعالم القديم بأجمعه . وحتى الإسكندر نفسه وهو الذى لم يكن يتورع عن الشراب حتى الموت قد هاله ما رأى من أخلاق البابليين (١٠١) .

وأهم ما يلفت نظر المراقب الأجنبى في حياة البابليين تلك العادة التى تعرفها من وصف لها في إحدى صفحات هيرودوت الدائعة الصبيت : « ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها ، وأن تضاجع رجلاً غريباً . ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكن يأتين الناشئ من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين في عربات مقفلة ويجلسن في الهيكل ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم . أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن في هيكل الزهرة وعلى رؤوسهن تيجان من الجبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتي لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة في كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون . فإذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود إلى منزلها حتى يلقى أحد الغرباء قطعة من الفضة

في حجرها ويضاحعها في خارج المعبد . وعلى من يلقي القطعة الفضية أن يقول : أضرع إلى الإلهة ميلتا أن ترهاك ؛ ذلك بأن الآشوريين يطلقون على الزهرة اسم ميلتا(*) ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فإن المرأة لا يجوز لها أن ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة . وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها إليها ، وليس من حقها أن ترفضه أبداً كان . فإذا ما ضاحعته وتحللت مما عليها من واجب للإلهة ، عادت إلى منزلها . ومهما بذلت لها من المال بعدئذ لم يكن في وسعك أن تنالها . ومن كانت من النساء ذات جمال وتناسب في الأعضاء ، لا تلبث أن تعود إلى دارها ، أما المشوهات فيبين في الهيكل زمناً طويلاً ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين أو أربعاً(١٠٢) ،

ترى ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ فهل كانت بقية من بقايا الشيوعية الجنسية ، أي رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الأولى » للمجتمع الممثل في المواطن العارض غير المعروف(١٠٣) ؟ أو هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التي تحرّمها الشرائع(١٠٤) ؟ أو هل كانت استعداداً ضمئياً للزوج شبيهاً بالسنة التي لا يزال يسير عليها بعض القبائل في أستراليا إلى هذه الأيام(١٠٥) ؟ أو أنها لم تكن أكثر من قربان يقرب للآلهة — فتقدم لها باكورة الفاكهة(١٠٦) ؟ من يدرى ؟

ولم تكن هذه النساء عاهرات بطبيعة الحال . لكن عاهرات من أصناف مختلفة كن يسكن في أرباض الهيكل ويمارسن خرفتهن فيها ، ومنهن من كن يجمعن من عملهن الأموال الطائلة ، وكانت عاهرات الهياكل كثيرات في غربي آسية . تجدهن عند بني إسرائيل(١٠٧) ، وفي فريجيا ، وفيثيقية ، وسوريا

(*) لقد كان اليونان يطلقون اسم الآشوريين على البابليين على السواء . وكانت « ميلتا » صورة أخرى من صور إشتار .

وغيرها من الأقطار . وكانت البنات في ليديا وقبرص يحصلن على بائنة زواجهن بهذه الطريقة نفسها^(١٠٨) ، وظلت « الدعارة المقدسة » عادة متبعة في بلاد بابل حتى ألغاهها قنسطنطين (حوالي عام ٣٢٥ ق . م)^(١٠٩) . وكان جانبها عهر مدني منتشر في حانات الشراب التي يديرها النساء^(١١٠) :

وكان يسمح للبابليين في العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يُضمر على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالاً غير مرخص به « بزيجات تجريبية » . تنهى متى شاء أحد الطرفين أن ينهيا ، ولكن المرأة في هذه الحالات كان من واجها أن تلبس زيتونة — من حجر أو طين محروق — دلالة على أنها محظية^(١١١) . وتدل بعض الألواح على أن البابليين كانوا ينشئون القصائد الغزلية ويغنون الأغاني الغرامية ، ولكن هذه القصائد والأغاني لم يبق منها إلا سطر هنا وسطر هناك ، كانت تستهل به القصيدة أو الأغنية كقولهم : « إن حبيبي من نور » أو « إن قاي ملء بالمرح والغناء »^(١١٢) ولدينا خطاب يرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق . م ، وتشبه نغمته نغمة رسائل نابليون الأولى إلى جوزفين^(٥) : « إلى بيبي . . . لعل شمس ومردك يهيا لك بحبة أبدية . . . لقد أرسلت (أستفسر) عن صحتك ، فخبريني كيف حالك ، لقد وصلت إلى بابل ، ولكني لا أراك ، إن في أشد الحزن »^(١١٣)

وكان الآباء هم الذين يهيئون الزواج الشرعي لأبنائهم ، وكان الطرفان يقرانه يتبادل الهدايا ، ولعل هذه العادة كانت أثراً من نظام قديم هو نظام الزواج بالبيع والشراء . فكان الخطيب يتقدم إلى والد العروس بهدية قيمة ، ولكن الوالد كان ينتظر منه أن يهب ابنته بأعظم قلداً من الهدية^(١١٤) ، حتى لقد كان يصعب على المرء أن يقول أيهما المشتري المرأة أم الرجل ؟ على أن بغض

(٥) انظر ترجمة بعض هذه الرسائل (وخاصة الرسالة رقم ٢) في الجزء الثاني من وأشهر الرسائل العالمية « المترجم » .

الزيجات كانت بيعاً صريحاً ، من ذلك أن شمشريز حصل على عشرة شواقل (٥ ريالاً) ثمناً لابنته (١١٥) ، وإذا جاز لنا أن نصدق أبا التاريخ « فإن من كانت لهم بنات في سن الزواج يأتون بهن مرة في كل عام إلى مكان يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال ، ثم يصفهن دلال عام ويبيعهن جميعاً واحدة في إثر وعلى ادى أولاً احدة ، فيه أجملهن ، وبعد أن يقبض فيها ثمناً عالياً ينادى على من تليها في الجمال . ولكنه لم يكن يبيعهن إلا بشرط أن يتزوجن المشترون ... وهذه العادة المستحبة لم يعد لها الآن بقاء » (١١٦) .

ويلوح أن الزواج في بابل ، رغم هذه الأساليب الغريبة لم يكن يقل إخلاصاً واقتصاراً على واحدة عنه في العالم المسيحي في هذه الأيام . وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الاستمسك بالوفاء الزوجي بعده ، وكان القانون ينص على إغراق الزوج الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته فأثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذي لا يكاد يستر شيئاً من جسمها (١١٧) . وقد بز حورابى قيصر من هذه الناحية فقال في إحدى مواد قانونه : « إذا أشار الناس بإصبعهم إلى زوجة رجل لعلاقتها برجل غيره ، ولم تضبط وهى تضاجعه ، وجب أن تلقى بنفسها في النهر حفظاً لشرف زوجها » (١١٨) . ولعل الذى كان يهدف إليه القانون بهذه العقوبة هو منع أحاديث الإفك ، وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، ولا يتطلب منه هذا أكثر من رد بائنتها إليها وقوله لها : لست زوجتى » ، أما إذا قالت هى له : « لست زوجى » ، فقد وجب قتلها غرقاً (١١٩) . وكان عقم الزوجة ، وزناها ، وعدم اتفاقها مع زوجها ، وسوء تدبيرها منزلها ، كانت هذه في حكم القانون مما يجيز طلاقها (١٢٠) . وفي ذلك يقول القانون : « إذا لم تكن سيدة حريصة على أداء واجبها ، بل كانت حواراة غير مستقرة في منزلها ، مهتمة لشئون بيتها ، مستخفة بأطفالها ، وجب أن تلقى في الماء » (١٢١) ، وفي مقابل هذه

القسوة غير المعقولة المنصوص عليها في القانون ، كان للمرأة من الوجهة العملية أن تفارق زوجها ، وإن لم يكن من حقها أن تطلقه ، إذا أثبتت قسوته عليها مع إخلاصها له ؛ وكان في وسعها في هذه الحال وأمثالها أن تعود إلى أهلها وأن تأخذ معها بائنتها وماعسى أن تكون قد حصلت عليه لنفسها بعدئذ من المتاع (١٢٢) ، (ولم تستمتع نساء إنجلترا نفسها بهذه الحقوق إلا في أواخر القرن التاسع عشر) . وإذا غاب الزوج عن زوجته في عمل أو حرب زمناً ما ، ولم يترك لها ما تعيش منه ، كان لها أن تعيش مع رجل آخر ، دون أن يحول ذلك من الوجهة القانونية بينها وبين انضمامها مرة أخرى إلى زوجها بعد عودته من غيبته (١٢٣) .

وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن مركز المرأة في بابل كان أقل منه في مصر وفي رومة ، ولكنه مع ذلك لم يكن أقل من مركزها عند اليونان الأقدمين أو عند الأوروبيين في العصور الوسطى . وكان لا بد لها لكي تؤدي أعمالها الكثيرة — من ولادة الأبناء وتربيتهم ، ونقل الماء من النهر أو الآبار العامة ، وطحن الحبوب ، والطهو ، وغزل الخيوط ونسجها ، وتنظيف دارها — كان لا بد لها لكي تؤدي هذه الأعمال أن تكون حرة في غدوها ورواحها بين الناس لا تكاد تفترق من هذه الناحية عن الرجل في شيء (١٢٤) . وكان من حقها أن تمتلك الثروة وتستمتع بدخلها ، وتتصرف فيها بالبيع والشراء ، وأن ترث وتورث (١٢٥) . ومن النساء من كانت لهن حوانيت ، يتجرن فيها ، بل إن منهن من كنّ كاتبات ، وفي هذا دليل على أن البنات كن يتعلمن كالصبيان (١٢٦) ، غير أن التقاليد السامية التي تمنح أكبر ذكور الأسرة سلطة لا تكاد تقف عند حد كانت تحول دون ما عساه أن يكون باقياً في أرض الجزيرة من أزمنة ما قبل التاريخ من نزعة لتغليب سلطان الأم . وكان من العادات المتبعة عند الطبقات العليا عادة — ولعالمها هي التي أدت إلى تحجب النساء عند المسلمين والهنود — أن يكون للنساء جناح خاص أو أجنحة خاصة في المنزل ؛ وكنّ إذا

خارجين صحبين رقباء من الحصيان والخدم (١٣٧) ، أما الطبقات السفلى فلم تكن نساؤها أكثر من آلات لصنع الأطفال ، وإذا لم تكن هن بائنات كانت مكانهن لا تكاد تفرق عن مهالة الإماء (١٣٨) . وتشير عبادة إشتار إلى أن المرأة والأمومة كان لهما قنسط من التبجيل في بلاد بابل ، كما تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتئذ ، ولكننا إذا أخذنا بقول هيرودوت إن البابليين إذا حوصروا « كانوا يخنقون زوجاتهم لكيلا يستهلكن ما عندهم من الطعام » (١٣٩) ، لا نرى أن البابليين كانت لديهم كثير من صفات الشهامة والفروسية التي كانت لدى الأوربيين في تلك العصور .

لذلك ترانا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم لم يصلوا إلى درجة كبيرة في الحضارة . والحق أننا لا نجد عندهم ما تشهد به آداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم . ولما أن وصلت هذه الرقة إلى البابليين وصلت إليهم تحت ستار الانحلال الخنث : فكان للشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ، ويحمرون خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور ، والأقراط ، والقلائد . ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضاً من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط ، وأضحى نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ، أصبحن لا يرين في هذا شيئاً أكثر من مجاملة عادية (١٤٠) . وإذا جاز لنا أن نصدق هيرودوت فإن « كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر ، عرض بناته للدعارة طلباً للمال » (١٤١) . وكتب كونتس كورتيس عام ١٨٤٢ ب . م يقول : « ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدينة . فلسنا نجد في أى مكان آخر ما نجده فيها من تخلف . كل شيء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية » (١٤٢) . لقد فسدت الأخلاق وانحلت حين أثرت المياكل ، وانهك أهل بابل في ملذاتهم فرفضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيين والآشوريين والفرس واليونان .

الفصل السادس

الكتاب والأدب

الكتابة المساهرة - حل رموزها - اللغة - الأدب - ملحمة جلجيش

ترى هل خلّدت هذه الحياة ، حياة الشهوات والتقوى والتجارة ، في الأدب أو الفن تخليداً رائعاً نبيلاً ؟ لعل هذا قد كان ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على مدنية من شذرات متفرقة من حطام بابل قذف بها بحر الزمان . إن هذه الشذرات تتصل معظمها بشئون الصلاة والسحر والتجارة ، وليس ما خلفته من تراث أدبي بالشئ الكثير إذا قيس إلى ما تركته مصر وفلسطين ، وكانت في هذه القلة شبيهة بأشور وفارس . ولسنا ندرى أكان هذا من أثر الظروف والمصادفات أم كان من أثر فقرها الثقافي . أما فضلها على العالم ففي ميدان التجارة وفي القانون .

لكن الكتابة رغم هذا لم يكونوا يقلون في مدينة بابل التي كان يسكنها خليط من جميع الأجناس عنهم في منف أو طيبة . ذلك أن فن الكتابة كان لا يزال في بداية عهده فنّاً ينال به من يجيده مركزاً عظيماً في المجتمع ، فقد كان الطريق الموصل إلى المناصب الحكومية والكهنوتية ، ولم يكن صاحبه يغفل قط عن الإشادة بفضله فيما يرويه من أعماله ، وكان من عادة الكتاب أن ينقش ما يفيد هذا على خاتمه الأسطواني (١٣٣) كما كان العلماء والمتعلمون في العالم المسيحي من وقت قريب يذكرون مؤهلاتهم العلمية على بطاقاتهم . وكان البابليون يكتبون بالخط المسهاري على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمشور الثلاثي أو الإسفين . فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو حرقوه ، فكان بذلك مخطوطاً غريباً رطوبيل البقاء . وإذا كان المکتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم ، ووضعت في مظروف

من الطين ، وبصمت بخاتم مرسلها الأسطوانى . وكانت الألواح الطينية المحفوظة فى جرار مصنفة وموتبة على وهران تملأ عدداً كبيراً من المكتبات فى هياكل الدولة البابلية وقصورها ، ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من أعظمها وهى مكتبة بورتيا قد نسخت وحفظت فى مكتبة آشور بانيبال . وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠.٠٠٠ لوح أهم معتبر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فطلقوا مئات السنين عاجزين عن يخل رموزها ، وكان نجاحهم فى حلها آخر الأمر عملاً من أجل الأعمال فى تاريخ العلم . وتفصيل ذلك أن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية فى جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمى فى تلك المدينة عام ١٨٠٢ أنه ظل عدة سنين يواصل البحث فى بعض مخطوطات مسالوية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة ، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرف على ثمانية من الإثنين والأربعين حرفاً المستعملة فى هذه النقوش ، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها . وبقيت الحال كذلك ، أو ما يقرب من ذلك ، حتى عام ١٨٣٥ حين استطاع هنرى رولنسن أحد موظفى السلك السياسى البريطانيين فى إيران ، على غير علم منه بما توصل إليه جروتفند ، أن يقرأ ثلاثة أسماء هى هستيس ، ودارا ، وحشيارشاهى (اكزركس) فى نقش مكتوب بالخط الفارسى القديم وهو خط مسمارى مشتق من الكتابة البابلية ، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها فى آخر الأمر . لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هى البابلية نفسها ، وقد بقى على رولنسن أن يعثر على حجر رشيد بابلى كما عثر شمشليون على حجر رشيد مصر ، أى على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه فى مكان يعلمو على سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون فى جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والآشورية ، والبابلية . وظل

رولنسن يوماً بعد يوم يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لأشد الأخطار ،
وكثيراً ما كان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة ،
حتى لقد كان أحياناً يطبع النقش كله على عجيبة لبنة . وبعد جهد وامع انتهى
عشرة سنة كاملة من حجب في ترجمة النصين البابلي والآشورى (١٨٤٧) ،
وأرادت الجمعية الآسيوية الملكية أن تثبت بما وصل إليه رولنسن وغيره
من العلماء في هذه الوثيقة وفي غيرها من الوثائق فأرسلت إلى أربعة من
علماء الآثار الآشورية أربع صور من وثيقة مسارية لم تكن قد نشرت
وقتشد ، وطلبت إلى كل منهم على انفراد أن يترجمها مستقلاً عن الثلاثة
الآخرين دون أن يتصل بهم أو يرسلهم . فلما جاءت الردود وجدت
كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً . وبفضل هذا الكشف
العلمي المنقطع النظير اتسعت دائرة للبحوث التاريخية بما دخل فيها من
علم بهذه الحضارة (١٤٣) الجديدة .

واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكد ،
وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت
عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى
استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد
في النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم
اللغة السومرية « الفصحى » والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل
هذا نرى نحو ربيع الألواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية ببنوى
معاجم في اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتباً في نحوها وصرفها ،
وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل في القدم
هو عهد سرجون ملك أكد . ألا ما أقدم عهد الدراسات العلمية ! والعلامات
في اللغة البابلية كالعلامات في اللغة السومرية لا تدل على حروف وإنما تدل
على مقاطع . ذاك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفاً هجائية مستقلة بل ظلوا

طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلثمائة علامة من العلامات؛ وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر في مدارس الهياكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشباب ما هو خليق بالدرس والمعرفة . وقد كشفت بعض أعمال الخفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حكم أخلاقية تحت على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو أثنى عام ، كأن كارثة مفاجئة نكاد نحن أن نحمد الله على وقوعها دهمت التلاميذ ، فقطعت عليهم دروسهم ، وحفظت لنا ألواحهم ، ومصائب قوم عند قوم فوائد (١٣٥) .

وكان البابليون ، كالفينيقيين ، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية ، ولذلك لم يضيعوا كثيراً من طينهم في كتابة الأدب . ونجد في ألواحهم قصصاً منظومة على لسان الحيوان - وهي نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية - كما نجد فيها ترانيم دقيقة الوزن ، مقسمة إلى سطور وإلى مقطوعات مفصول بعضها عن بعض (١٣٦) ، لكننا لا نجد من الشعر غير الدينى الذى يصف شئون الناس العادية إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، ونرى في المرامم الدينية ما يبشر بنشأة المسرحيات ، وإن لم تصل إلى مسرحيات بالفعل ، ونجد عندهم قناطر مقنطرة من كتب التاريخ . ذلك أنه المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تى الملوك وفتوحهم ، وما يصيب كل هيكل من الهياكل من عواذى الدهر ، وما يقع فى كل مدينة من أحداث هامة ويقص علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين وأنهمهم ذكراً ، فى اطمئنان العالم الواقى من علمه ، تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان فى عهده الأول . ويقول إن الله قد اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولى حكمها ، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام . كما يقدر فى دقة ، جديرة فى حذائها بالثناء . وباعتدال ليس فيه ما فى تقدير غيره من إسراف ، الزمن الذى مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان

الأعظم مسمّاة وواحد وتسعين ألفاً ومائتين من السنين (١٧٣) .

ومن أروع الآثار الأدبية التي خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحاً
محطماً وجدت في مكتبة آشوربانيبال ، وهي الآن في المتحف البريطاني . وقد
كتبت على هذه الألواح **ملحمة جلجاميش** الذائعة الصيت ، وتتألف من طائفة
من القصص غير الوثيقة الاتصال ضمت بعضها إلى بعض في عهود مختلفة
يرجع بعضها إلى أيام السومريين أي إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . ومن
هذه القصص النص البابلي لقصة الطوفان . وكان جلجاميش بطل القصة السالفة
الذكر حاكماً أسطوريا لأروك وأورك وهو من نسل شمش - نيشين الذي
نجا من الطوفان ولم يمّ قط . ويدخل جلجاميش في القصة في صورة مركبة
من صورتي أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ، ضخّم الجسم ، مفتول
العضلات ، جرىء مقدام ، جميل يفتن الناس بجماله .

ثلثاه إله ،

وثلثه آدمي ،

لا يماثله أحد في صورة جسمه . . . ،

يرى جميع الأشياء ، ولو كانت في أطراف العالم ،

كابد كل شيء ، وعرف كل شيء ،

واطلع على جميع الأسرار ،

واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء ،

ورأى ما كان خافياً ،

وكشف الغطاء عما كان مغطى ،

وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان ،

وسار في طريق بعيد طويل ،

كابد فيه المشاق والآلام ،

ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من الأعمال (١٢٨) .

وبشكوه الآباء إلى إشتار قائلين إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا في « بناء الأسوار بالنهار وبالليل » ؛ ويقول الأزواج إنه « لا يترك زوجة لزوجها ، ولا عذراء واحدة لأُمها » ، وتذهب إشتار إلى أورو وعزابة جلجميش ترجوها أن تخلق ابناً آخر مساوياً لجلجميش وقادراً على أن يشغله في نزاع بينهما ، حتى يستريح بال الأزواج في أروك ويأمنوا شره . وتعجن أورو قطعة من الطين ، وتبصق عليها ، وتصور منها إنحدر ، وهو رجل له بأس الخنزير ، ولبدة الأسد ، وسرعة الطير . ولا يعبأ إنجيدوه هذا ، صحة الآدميين ، بل يعتزهم ويعيش مع الحيوانات ، « يرعى الأعشاب مع النطباء ، ويلعب مع مخلوقات البحار ، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول » . ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز عن اقتناصه ، فيذهب للصياد إلى جلجميش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع إنجيدوه في شرك حبها . فيقول له جلجميش : « اذهب أيها الصياد ، وخذ لك كاهنة ، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقي فلتكشف عن جمالها ، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش » .

وينطلق الصياد والكاهنة ريلتقيان بلجميدو

« ها هوذا ، أيتها المرأة !

فحلى أزرارك ،

أسفري عن مفاتنك ،

حتى ينال كفايته منك !

لا نحجمي ، وأجيبه إلى ما يشتهي !

فإذا رآك فسوف يقترب منك .

وافتحى ثوبك ، حتى يرقد عليك !

وأثري شهوته ، كما تفعل النساء ،

ولاذن فسيصبح غريباً عن وحوشه البرية ،
• هي التي درجت معه فوق السهوب ،
وسيلتصق صدره بصدرك .
وحلت الكاهنة أزرارها
وكشفت عن مفاتيها ،
حتى ينال كفايته منها ،
ولم تحجم ، وأخذت شهوته ،
وفتحت ثوبها لكى يرقد عليها •
وأثارت نشوته كما تفعل النساء ،
والتصق صدره بصدرها •
فنسى لإنجيدو أين ولد (١٣٩) :

ويبقى لإنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يحب فيها السعادة عباً ،
حتى إذا مل هذه اللذة استيقظ فرأى أصدقاءه من الحيوانات قد فارقت
فيغشى عليه من شدة الحزن ، فتزجره الكاهنة بقولها : « أنت يا من بلغت
عظمة الآلهة ، كيف يطيب لك العيش بين وحوش الحقول ؟ تعال آخذك
إلى أروك حيث يعيش جلجميش الذى لا يدانيه أحد فى جبروته » .
ووقع لإنجيدو فى شرك الكاهنة التى خدعته بثنائها عليه ، فسار وراءها إلى
أروك وهو يقول : « أربنى المكان الذى فيه جلجميش ، أقاتله وأظهر له
قوتي » ، فتسر بذلك الآلهة والأزواج ، ولكن جلجميش ينتصر عليه بقوته
أول الأمر ثم يعطفه وشفقته عليه بعدئذ ، ويصبح الاثنان صديقين وفيين ،
ويسيران جنباً إلى جنب يحميان أروك من عيلام ، ويعودان ظافرين بعد
أن يقوموا بأجل الأعمال . « وخلع جلجميش عدته الحربية ، ولبس ثيابه
البیض ، وزين نفسه بالشارة الملكية ولبس التاج » . وسرعان ما تقع إشتار
الشرهة فى حبه وترنو إليه بعينها الكبيرتين ، وتقول :

« تعالى يا جلعميش ، وكئن لى زوجاً ! وقدم لى حبك هديه ، ستكون أنت زوجى ، وأكون زوجتك ، وسأضعك فى عربة من اللازورد والذهب ، لها دواليب ذهبية مطعمة بالعقيق ، وستجرها لك أساد عظيمة ، وستدخل بيتنا ومن حولك البخور المنطلق من خشب السدر . . . وستحتضن قدميك كل الأراضى المجاورة للبحر وسيخر الملوك كلهم سجداً لك ويأتون بشمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها لك عن يد » .

ويرفض جلعميش طلبها ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ومنهم تموز ، وباشق ، وحصان ، وبستانى ، وأسد ، ويناديها قائلاً : « إنك تحبيننى الآن ، ولكنك ستضربيننى بعد كما ضربت هؤلاء جميعاً » . وتطلب إشتار وهى غضبى إلى أنو الإله الأعظم أن يخلق ريماً مفترساً يقتل جلعميش . ويرفض أنو طلبها ويزجرها بقوله : « ألا تستطيعين السكوت وقد أذكرك جلعميش بغدرك وفصائحك ؟ » وتنذره بأنها سوف تعطل كل ما فى الكون من غرائز الحب والشموة ، حتى يهلك كل شىء حى . ويخضع أنو لإرادتها ، ويخلق الريم المفترس ، ولكن جلعميش يتغلب على هذا الوحش بمعونة إنجيدو ، وتصب إشتار على البطل لعنتها فيأتى لإنجيدو بأحد أطراف الريم فى وجهها . ويتنجع لذلك جلعميش ويتبه عجباً ، ولكن إشتار تصرعه وهو فى عنوان مجده ، وذلك بأن تصيب لإنجيدو بداء عضال .

ويحزن جلعميش ويبكى صديقه الذى كان أحب إليه من النساء ، ويفكر فى أسرار الموت ، وهل ثمة وسيلة للفرار من هذا المصير المحتوم « إن رجلاً واحداً قد نجا منه وهو شمش - نيشتم فهو لذن يعرف سر الخلود . ويقرر جلعميش أن يذهب للبحث عن شمش - نيشتم ، ولو اضطره هذا البحث إلى الطواف فى العالم كله . ويختار الطريق الموصل إليه جبلاً يحرسه ماردان جباران يلمس رأساهما قبة السماء ويصل ثدياهما إلى الجحيم . ولكنهما بأذنان له بالمرور ، ويسير اثنى

عشر ميلا في نفق مظلم ، يخرج بعده إلى شاطئ بحر عظيم ، ويرى من وراء مائه عرش سبيتو العذراء إلهة البحار . وينادىها أن تعينه على عبور الماء ويقول : « إذا لم أفلح في هذا ، فسألقى بنفسى على الأرض وأقضى نحبي » . وتشفق عليه سبيتو وتسمح له أن يجتاز البحر في أربعين يوماً كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التي يسكن فيها شمس - نيشتم المخلد أبدي الدهر . ويتوسل إليه جلعميش أن يفضى إليه بسر الخلود ويرد عليه شمس - نيشتم بأن يقص عليه قصة الطوفان ، وكيف دمت الآلهة على ما سبته في سورة جنونها من دمار ، وكيف أبقت عليه هو وزوجه فخلدتها لأنهما أنجيا النوع الإنساني من الفناء . ويقدم إلى جلعميش نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها ، ويبدأ جلعميش رحلته الطويلة إلى بلده مغتبطاً سعيداً ولكنه يقف في طريقه ليستحم ، وبينما هو يفعل هذه إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبتة(*) .

ويصل جلعميش إلى أروك يائساً حزيناً ، ويطوف بالهياكل ميكلًا بعد هيكلي يصلي ويدعو الآلهة أن ترد الحياة إلى إنجيدو ولولم تغفل حياته إلا ريثماً يكلمه كلمة واحدة . ويظهر إنجيدو ويسأله جلعميش عن حال الموتى ، فيرد عليه إنجيدو بقوله : « لا أستطيع أن أجيبك لأنى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ، ولغشى عليك » . ولكن جلعميش رمز الفلسفة ، وهى تلك البلاهة الجريئة ، يصر على طلب الحقيقة ويقول : « سيقضى على الرعب ، وسيغشى على » ، ولكن خبرنى عنه ، ويصف له إنجيدو أهوال الجحيم ، وبهذه النعمة الحزينة تختتم الملحمة الناقصة (١٠٤) .

(*) كان كثيرون من القدماء يسمون الأفعى ويتخذونها رمزاً للخلود ، وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبدل جلدها .

الفصل السابع

الفنانون

الفنون الصغرى - الموسيقى - العمود - النحت - النقش القليل البروز - العمارة

تكاد تكون قصة جلعيميش المثل الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به على أدب البابليين . أول الفنون الصغرى فإن ما أبقت عليه المصادفات من آثارها يدل أنهم أوتوا قسطاً موفوراً من الإحساس بالجمال ، وإن لم يؤثروا روح الإبداع العميقة ، وعلى أن هذا الإحساس لم يقض عليه كله انهماكهم فى الأعمال التجارية ، وفى الملاذ الجسمية ، وفى تقواهم التى أرادوا أن يعوضوا بها هذه الناحية من حياتهم . وإن قطع القرميد التى طلبت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ، وأدوات البرنز الدقيقة الصنع ، والحديد ، والفضة ، والذهب ، والتطريز الجميل ، والسجاجيد الوثيرة ، والثياب ذات الصبغات الجميلة ، والأقشة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسى (١٤١) ، إن هذه المخلفات كلها لتخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشياً من الجمال والرونق وإن لم تخلع عليها كثيراً من القيمة أو الجلال . والحلى التى عثر عليها كثيرة ، ولكنها تنقصها الدقة الفنية التى نشاهدها فى حلى المصريين القدمين ، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل ، ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب (١٤٢) . وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة - ناي ، وقانون ، وقيثار ، ومزامير القرب ، وطبول وقرون ، ومزامير من الغاب ، وأبواق ، وصنوج ودفوف . وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين فى المياكل والقصور وفى حفلات الأثرياء (١٤٣) .

شكل (٢٨) « آبد بابل » نقش ملون في متحف برلين



وكان التصوير بالألوان من الفنون الثانوية عند البابليين ، يستخدمونه في تزيين الجدران والتماثيل ، ولم يحاولوا قط أن يجعلوا منه فناً مستقلاً بذاته (١٤٤) .
ولسنا نجد في خرائب البابليين تلك النقوش الملونة التي تزدان بها قبور المصريين ، أو تلك المظلمات التي تجمل قصور كريت ، كذلك لم يرق فن النحت عند البابليين ، ويلوح أن هذا الفن قد جهد وقضى عليه قبل أن يكتمل نموه ما ورثه بابل من القواعد التي جرى بها العرف عند السومريين ، وأرغمها الكهنة على اتباعها والجرى على سننها : فكل الوجوه المرسومة وجه واحد ، ولكن الملوك أجسام ممثلة بقوة العضلات ، والأسرى كلهم كأن تماثيلهم صبت في قالب واحد ، ولم يبق من تماثيل البابليين إلا القليل ، ولم يكن ثمة ما يوجب هذه القلة . والنقوش القليلة اليروز أحسن حالا من التماثيل ولكنها هي الأخرى فجأة خشنة يتحكم فيها العرف والتقاليد ، وثمة فارق كبير بينها وبين نقوش المصريين القوية التي حفرها من قبلهم بألف عام . ولا تصل هذه النقوش إلى غايتها إلا حين تمثل الحيوانات وهي هادئة ساكنة مهيبة في أرياضها الطبيعية ، أو مهتاجة أثارها قسوة الإنسان (١٤٥) .

وليس في وسعنا الآن أن نحكم حكماً عادلاً على فن العمارة البابلي لأننا لا نكاد نجد شيئاً من مخلفات هذا الفن يرتفع فوق الرمال أكثر من بضع أقدام ، وليس بين آثارهم صور لعمايرهم منحوتة أو مرسومة ، يستدل منها بوضوح على أشكال القصور والهياكل وهندسة بنائها . وكانت البيوت تبنى من الطين ، أو من الآجر إن كانت للأغنياء منهم ، وقلما كانت لها نوافذ ، ولم تكن أبوابها تفتح على الشوارع الضيقة بل كانت تفتح على فناء داخلي مظلل من الشمس . وتصف الأخجار المتواترة بيوت الطبقات الراقية بأنها مكونة من ثلاث طبقات أو أربع (١٤٦) . أما الهياكل فكانت تقوم على قواعد في مستوى سقف البيوت التي كانت تلك الهياكل تسيطر على حياة أهلها . وكان الهيكل في الغالب بناء ضخماً من القرميد مشيداً كاليوت حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية .

ويقوم إلى جوار المعبد في أغلب الحالات برج عال يسمى بلغتهم زجورات (ومعناه « مكان عال ») يتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض ، وتتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها . وكانت تستخدم إما في الأغراض الدينية - فقد كانت مزاراً عالياً للإله صاحب الهيكل ، - وإما في أغراض فلكية بأن تكون مرصداً يرقب منه الكهنة الكواكب التي تكشف عن كل شيء في حياة الناس .

وكان الزاجورات العظيم الذي في برسبا يسمى « مراحل الأفلاك السبعة » ، وكانت كل طبقة من طبقاته مخصصة لكوكب من الكواكب السبعة المعروفة عند البابليين ، وملونة بلون يرمز إلى هذا الكوكب . فكانت الطبقة السفلى سوداء اللون كلون زحل ، والتي تليها بيضاء كلون الزهرة ، والتي فوقها أرجوانية للمشتري ، والرابعة زرقاء لعطارد ، والخامسة قرمزية للمريخ ، والسادسة فضية للقمر ، والسابعة ذهبية للشمس . وكانت هذه الأفلاك والكواكب تشير إلى أيام الأسبوع السبعة مبتدئة من أعلاها (١٤٧) .

ولم يكن في هذه المباني - على قدر ما نستطيع أن نقين من منظرها - شيء كثير عن الذوق الفني ، فقد كانت كلها كتلا ضخمة من خطوط مستقيمة لا تتناول إلى شيء أكثر من مجد الضخامة ، وقد نجد في بقاع متفرقة بين الخرائب القديمة عقوداً وأقواساً ، وهي أشكال أخذت عن سومر ، واستخدمت في غير عناية ومن غير علم بمصيرها . وكان ما في المباني من زينات في داخلها وخارجها يكاد يقتصر على طلاء بعض أوجه الآجر ، بعد صقلها ، بالألوان الصفراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والحمراء ، وإقامة صور من القرميد للحيوان والنبات في مواضع قليلة من الجدران . وهذا « التزيين » ، الذي لم يكن يقصد به تجميل البناء فحسب بل كان يقصده أيضاً وقاية المباني من الشمس والمطر ، قديم يرجع على الأقل إلى عهد نارام - سين وقد ظل شائعاً في أرض النهرين إلى أيام

الفتح الإسلامي . ولهذا السبب أصبحت صناعة الخزف أخص فنون الشرق الأدنى القديم ، وإن لم تنتج من الأواني الخزفية ما هو جدير بالذكر . لكن فن العمارة البابلي ظل على الرغم من هذا العون فناً ثقيلاً خالياً من الجمال والأناقة ، قضت عليه المواد التي استخدمت فيه ألا يرقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى . وما أسرع ما كانت الهياكل تقوم من الطين الذي حوَّله العمال المسخرون إلى لبنات وملاط ، ولم تكن ثمة حاجة إلى قرون طوال كي تمتلئ بها البلاد كما احتاجت المباني الكبيرة الباقية في مصر وفي أوروبا العصور الوسطى ، ولكنها تهدمت بنفس السرعة التي شيدت بها أو بما يقرب منها ، ولم يمض عليها إلا خمسون عاماً حتى عادت كما بدأت تراباً (١٤٨) . وكان رخص اللبن والآجر في حد ذاته سبباً في فساد الهندسة البابلية . لقد كان يسهل أن تقام من هذه المواد المباني الضخمة ، أما الجمال فكان من الصعب أن يُنال باستخدامها . ذلك أن الآجر لا يعين على السمو والجلال ، والسمو والجلال هما روح العمارة .

الفصل الثامن

علوم البابليين

الرياضة - الفلك - التقويم - الجغرافية - الطب

كان البابليون تجاراً ، ومن أجل هذا كان نجاحهم في العلم أيسر من نجاحهم في الفن . لقد أوجدت التجارة علوم الرياضة ، وتعاونت مع الدين على إيجاد الفلك . وكانت الأعمال المتعددة التي يقوم بها كهنة أرض الجزيرة ، من قضاء بين الناس ، وهيمنة على المصالح الحكومية ، وزراعة وصناعة ، وعرافة وخبرة بالنظر في النجوم وفي أحشاء الحيوانات - كانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الكهنة حافزاً لهم على أن يضعوا ، على غير علم منهم أسس العلوم التي كانت في أيدي اليونان الملحدون سبباً في إنزال الدين من مركز الزعامة والسيطرة على العالم :

وكانت علوم البابليين الرياضية تستند إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وتقسيم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينياً للعد والحساب بالسنين ، وهو النظام الذي نشأت منه فيما بعد النظم الاثنا عشرية ، التي تعدت بالاثني عشرات . وكانوا لا يستخدمون في العد إلا ثلاثة أرقام - منها علامة للواحد تتكرر حتي تكون تسع علامات مماثلة الرقم ٩ ، وعلامة ثانية للرقم ١٠ تتكرر حتي تصل إلى ٥٠ ، وعلامة للرقم ١٠٠ ، وكان مما سهل لهم عملية العد والحساب أن وضعوا جداول لا تقتصر على ضرب الأعداد الصحيحة وقسمتها . بل تشمل أيضاً أنصاف الأعداد الرئيسية وأثلثها ومربعاتها ومكعباتها . وتقدم علم الهندسة حتى كان في وسعهم أن يقدروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة . وكانوا يقدرون النسبة التقريبية (النسبة بين محيط الدائرة وقطرها) بثلاثة وهو عدد تقريبي لا يليق بأمة من الفلكيين .

وكان الفلك هو العلم الذى امتاز به البابليون ، وهو الذى اشتهروا به فى العالم القديم كله ، وهذا أيضاً كان السحر منشأ العلم فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التى تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعبيهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين وكان كل كوكب من الكواكب لها تهمه شئون الناس ولا غنى عنه فى تدبيرها . فكان المشتري مردك ، وعطارد نابو ، والمريخ نرجال ، والشمس شمش والقمر سن ، وزحل نيب ، والزهرة إشتار . وكانت كل حركة من حركات كل نجم أو كوكب تدل على أن حادثاً وقع على الأرض أو تنبأ بوقوعه . فإذا كان القمر منخفضاً مثلاً ، كان معنى ذلك أن أمة بعيدة ستخضع للملك ، وإذا كان هلالاً كان معناه أن الملك سيظفر بأعدائه . وأضحى الجهود التى تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين ، واستطاع بها الكهنة الخبيريون بالتنجيم أن يجنوا أطيب الثمرات من الملوك والشعب على السواء . وكان من هؤلاء الكهنة من هو مخلص لعلمه موثمن به ، ينقب بغيرة وحاسة فى المجلدات التى تبحث فى التنجيم ، والتى وضعت ، حسب رواياتهم المأثورة ، فى عهد سرجون ملك أكد . وكانوا يشكون من الدجالين الذين يسرون بين الناس يقرءون لهم طالعهم أو يتنبئون بما سيكون عليه الجوبعد عام شأن تقاويمان فى هذه الأيام ، كل هذا نظير أجور يتقاضونها وهم لم يدرسوا من التنجيم شيئاً (١٤٩) .

ونشأ علم الفلك نشأة بطيئة من هذه الأرصاد ومن خرائط النجوم التى كانت تهدف إلى التنجيم والتنبؤ بالغيب ، وقد استطاعوا منذ عام ٢٠٠٠ ق . م أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع عد نجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل (٥٠) . فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام ، ثم واصلوه من جديد فى عهد نبوخذ نصر ، فصوّر العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا

الخسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً (١٥١) (*) ، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وساروا على النهج الذي سبقهم إليه السومريون فقسموا دائرة فلك البروج (أى مسار الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية (١٥٢) . وكانوا يقدرّون الزمن بالساعة المائية والمزولة ، وأكبر الظن أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب بل أنهم اخترعهما اختراعاً (١٥٣) .

وقسموا السنة إلى اثني عشر شهراً قرياً ، منها ستة في كل منها ثلاثون يوماً والستة الأخرى في كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ إلا ٣٥٤ يوماً فإنهم كانوا يضيفون في بعض السنين شهراً آخر لكي يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويمياً أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعدئذ أن أوجه القمر أقوى أثراً من رغبات الناس ، وبقي التقسيم الأول كما كان . ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التي تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر (**) إلى شروقه التالي (١٥٤) ، وقسموا هذه المدة إلى اثنتي عشرة ساعة ، في كل ساعة منها ثلاثون دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحى إلينا اسمها . ولإذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه ساعاتنا

(*) كان البابليون يهرفون بين الكوكب والجم « الثابت » برصد حركات الكوكب و « تجواله » . ويهرف علم الفلك الحديث الكوكب بأنه جرم سماوي يور بانتظام حول الشمس . (**) هكذا في الأصل ولعل المؤلف يريد من شروق الشمس إلى شروقه ، وذلك لأن شروق القمر يتأخر في كل ليلة عن سابقتها بنحو ٥٢ دقيقة ويجعل طول الساعة مختلفاً في كل ليلة عنه في الأخرى . (المترجم)

إلى اثنتى عشرة ساعة (لإلى أربع وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة ،
والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لاشك فيها باقية من أيامهم
إلى عهدنا الحاضر(*) ، وإن كان لا يخطر لنا على بال .

وكان اعتماد العلوم البابلية على الدين وارتباطها به أقوى أرأى فى ركود
الطب منه فى ركود الفلك . على أن أساليب الكهنة الخفية لم تحل دون تقدم
العلوم بقدر ما حال دونه تخريف الشعب . ذلك أن علاج المرضى قد خرج
إلى حد ما عن اختصاص الكهنة وسيطرتهم من أيام حورابى ، ونشأت مهنة
منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون ، فكان المريض الذى
يستدعى طبيباً لزيارته يعرف مقدماً كم من المال يجب عليه أن يؤديه نظير
هذا العلاج لو ذاك ونظير هذه الجراحة أو تلك ، وإذا كان هذا المريض
من الطبقات الفقيرة نقص الأجر لكى يتناسب مع فقره (١٥٧) . وإذا أخطأ
الطبيب أو أساء العمل كان عليه أن يؤدى للمريض تعويضاً . بل لقد بلغ
الأمر فى بعض الحالات التى يكون فيها الخطأ شديداً أن تقطع أصابع الطبيب
كما سبق القول ، حتى لا يمارس صناعته عقب هذا الخطأ مباشرة (١٥٨)

ولكن هذا العلم الذى تحرر من سلطان الدين تحرراً يكاد يكون تاماً كان عاجزاً
بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام ، وعلى العلاج
بالأساليب السحرية . ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب

(*) وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض . وأقدم ما نعرف من الخرائط
هى التى خطط فيها الكهنة طرقات إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها (١٥٥) . ولقد عثر المنقبون
فى خرائب جاسور (التى تبعد عن بابل مائتى ميل شمالها) على لوح من الطين يرجع تاريخه
إلى عام ١٦٠٠ ق . م ويحتوى ، فى مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة ، على خريطة لمقاطعة
شط - أزلا ، وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار
بخطوط متوازية . وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، وبين فى هامتها اتجاه الشمال
والجنوب (١٥٦) .

من الأطباء ، وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقاً للعلاج أبعد ما تكون عن العقل . فكان منشأ المرض في رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات ، فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ، فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان استخدامها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم . وكان أكثر الأدوية شيوعاً عقاراً مكوناً من خليط من العناصر التي تعافها النفس اختيرت لهذا السبب عن قصد ، ولعلمهم كانوا يفترضون أن معدة المريض أقوى من معدة الشيطان الذي يتقمصه . وكانت العناصر المألوفة لديهم هي اللحم النيئ ، ولحم الثعابين ، ونشارة الخشب المزوجة بالنبيذ والزيت ، أو الطعام الفاسد ، ومسحوق العظام ، أو الشحم والأقذار ، ممزوجة ببول الحيوان أو الإنسان أو برازه (١٥٩) . وفي بعض الحالات كان يستبدل بهذا العلاج بالأقذار لبن وعسل وزيد وأعشاب عطرة يحاولون بها استرضاء الشيطان . فإذا لم يفلح مع المريض كل علاج ، مُحمّل في بعض الحالات إلى السوق لكي يتمكن جيرانه من أن يشبعوا رغبتهم القديمة فيصفوا له العلاج الفعال الذي لا يخطئ (١٦١) .

على أن من واجبنا أن نقول إن الثمانمائة لوح التي بقيت لدينا لتحدثنا عن طب البابليين لا تحتوى على كل ما كان لديهم منه ، ولعلنا نظلمهم إذا حكمنا عليهم بما نجده فيها وحدها . ذلك أن استعادة الكل الضائع من جزء صغير عثر عليه منه من أشد الناس خطورة في التاريخ ، وليست كتابة التاريخ إلا إعادة الكل من جزئه . وليس بعيداً ألا يكون العلاج بالسحر إلا استخداماً لقوة الإيحاء استخداماً ينطوى على كثير من الدقة ، ولعل هذه المركبات الكريهة كان يقصد

بها أن تكون مقيثات . ولعل البابليين حين يقولون إن المرض ينشأ من غزو الشياطين جسم المريض عقاباً له على ما يرتكبه من الذنوب ، لا يقصدون بقولهم هذا شيئاً أبعد من المعقول من قولنا نحن إن المرض ينشأ من غزو البكتريا لجسم المريض بسبب إهماله الإجماعي أو عدم نظافته أو نهمه . وقصارى القول أن من واجبتنا ألا نكون واثقين كل الثقة من جهل أسلافنا .

الفصل التاسع

الفلاسفة

الدين والفلسفة - أيوب البابليين - كميلث البابليين - رجل يقاوم الكهنة

إن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية ، يقوم الدين إلى جانب مهلهما (كما يقول المثل القديم) ، وتصحبها الفلسفة إلى قبرها . ففي بداية الثقافات كلها ترى عقيدة دينية قوية تخفى عن أعين القوم كنه الأشياء وترقى من طبائعهم ، وتبث في قلوبهم من الشجاعة ما يستطيعون به أن يتحملوا الآلام ويقاسوا الصعاب وهم صابرون ، تقف الآلهة إلى جانبهم في كل خطوة يخطونها ، ولا تتركهم يهلكون إلا حين يهلكون ، وحتى في هذه الحال يحملهم إيمانهم القوى على الاعتقاد بأن خطاياهم هي التي أغضبت الآلهة فانتقموا منهم . ذلك أن ما يصيب الناس من شر لا يفقدهم إيمانهم ، بل يقويه في قلوبهم ، فإذا جاء النصر ، وإذا نسوا الحرب لطول ما ألفوه من الأمن والسلام ، ازدادت ثروتهم ، واستبدلت الطبقات المسيطرة بحياة الجسم حياة الخواص والعقل ، وحلت اللذة والراحة محل الكدح والمتاعب ، وأضعف العلم الدين بينما يضعف التفكير والدعة ما في الناس من رجولة وصبر على المكاره . وأخيراً يبدأ الناس يرتابون في آلهتهم ، ويندبون مأساة المعرفة ، ويلجأون إلى كل لذة عاجلة زائلة يعتصمون بها من سوء مصيرهم . فهم في البداية كأخييل وفي النهاية كأبيقور ؛ وبعد داود يأتي أيوب ، وبعد أيوب يأتي سفر الجامعة .

ولاذكنا لا نستدل على تفكير البابليين إلا من أيام ملوكهم المتأخرين ، فإن من الطبيعي أن نجد هذا التفكير تسرى فيه حكمة الكلالاة الصادرة من أفواه الفلاسفة المتعبين الذين يستمتعون بالملاذ كما يستمتع بها الإنجليز . فترى على أحد

الألواح مثلاً بلطاً — أرتوا يشكو من أنه ألزم أوامر الآلهة أشد مما ألزمها جميع الناس ؛ ولكنه مع هذا أصابته طائفة من البلايا ، فقد أبويه ، وخسر ماله ، وحتى القليل الذى بقى له منه سرق فى الطريق . ويجيبه أصدقاؤه — كما يجيب أيوب أصدقاؤه — بأن ما حل به من البلاء ليس لإعقاباً له على خطايا خافية عنه — وربما كان جزاء له على صلفه العاتى المنبعث من طول ههذه بالرخاء ، وهو أشد ما يثير غضب الآلهة وحسدها ؛ ويؤكدون له أن الشر ليس إلا خيراً مقنعاً ، وأنه جزء من السنن الإلهية ينظر إليه المرء نظرة جد ضيقة بعقله الضعيف ، وهو غافل عن هذه السنن فى مجموعها ، وأنه إذا ما استمسك بإيمانه وشجاعته فإنه سيجزى فى آخر الأمر خير الجزاء ؛ وسينال ما هو خير من هذا وهو أن أعداءه سيلقون عقابهم ؛ وينادى بلطاً — أرتوا الآلهة يطلب إليها العون — ثم تحتّم القطعة الباقية من اللوح ختاماً مفاجئاً (١٦٢) .

وتعرض قصيدة أخرى وجدت ضمن بقايا مجموعة الآداب البابلية التى خلفها آشور بانيبال هذه المشكلة بعينها عرضاً أدق حين يتحدث تانى — أتول — أنليل ، وهو كما يلوح أحد حكام نينور ، عن نفسه فيقول فى وصف ما لاقاه من الصعاب (*) :

(طمس على مقلتي كأنما أغلقهما) بقفل ؛

(روفر أذنى) كأذنى الشخص الأصم .

وكننت ملكاً فصرت عبداً .

وأساء رفاة (ى) معاملتى كأن بى جنة .

ابعث لى العون ونجنى من الوهدة التى احتفرت (لى)

بالنهار حمرات عميقة ، وبالليل بكاء ؛

وطول الشهر — صراخ ؛ وطول العام — شقاء . .

(*) الألفاظ الموضومة بين قوسين ألفاظ ظلية .

ثم يواصل قوله فيخبرنا كيف كان طول حياته إنساناً تقياً ، وكيف كان آخر شخص في العالم يصبح أن يكون مصيره هذا المصير القاسي :

كأنى لم أخصص للإله نصيبه على الدوام ؛

ولم أبتل إلى الآلهة وقت الطعام ،

ولم أعنُ بوجهي وآتي بخراجي ؛

وكأنى لإنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه .

لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله ؛

وعودت شعبي أن يُعظم اسم الإلهة . . .

وكنت أظن أن هذه الأشياء مما يسرّ أى إله .

ولما أصابه المرض على الرغم من كل هذا التقي الشكلي ، أخذ يفكر

استحالة الوقوف على تدبير الآلهة وفي تقلبات شئون البشر .

من ذا الذى يدرك إرادة آلهة السماء !

إن تصارييف الإله كلها غموض — فمن ذا الذى يدركها ؟ . . .

إن من كان بالأمس حياً أصبح اليوم ميتاً ،

وما هى إلا لحظة حتى تتسممه الغيوم ، ويتحطم قلبه فجأة ،

فهو يغنى ويلعب لحظة ؛

وما هى إلا طرفة عين حتى يندب حظه كالمحزون . . .

لقد لفتنى الهم كأنه شبكة ،

تتطلع عيناى ولكنهما لا تبصران . . . ،

وأذنأى مفعوتحتان ولكنهما لا تسمعان . . . ؛

وقد سقط الدنس على عورتى ،

وهاجم الغدد التى فى أحشائى . . .

وأظلم من الموت جسمى كله . . .

يطاردنى المطارد طوال النهار ؛
ولا يترك لى بالليل لحظة أتتنفس فيها . .
لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى موثقة ،
وأقضى الليل بين أقدارى كما يقضيه الثور ؛
وأختلط ببرازى كما يختلط الضأن ؛
ثم يعود فيجهر بإيمانه كما فعل أيوب فيقول :
ولكنى أرى اليوم الذى تجف فيه دموعى ،
اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية ،
ويومئذ تكون الآلهة رحيمة بي (١٦٣) .

ثم تنقلب الأحوال كلها سعادة وهناءة ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ،
ويشفى تآبى من جميع أمراضه ؛ وتهب عاصفة هوجاء فتطرد شياطين المرض
كلها من جسمه . ويسبح بحمد مردك ، ويقرب له القرابين النفسية ،
ويهب بالناس جميعاً ألا يقنطوا من رحمة الآلهة (*) .

وليس بين هذا وبين ما ورد فى سفر أيوب إلا خطوة واحدة ، كذلك
نرى فى الآداب البابلية أمثلة سابقة لا يمكن الخطأ فيها مما ورد فى سفر الجامعة
من الكتاب المقدس . من ذلك ما ورد فى ملحمة جلجميش من نصيح الإلهة
سبيتو لهذا البطل بأن يكف عن شوقه إلى الحياة بعد الموت ، وأن يأكل
ويشرب ، ويستمتع على ظهر الأرض :

أى جلجميش . لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟
إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبداً .

إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدّرت الموت على بنى الإنسان ؛

(*) وأكبر الظن أن هذه الأقوال ، التى نجد سوابق مثلها فى الأدب السومرى ، كان
لها أثر فى واضع سفر أيوب (١٦٤) .

واحتفظت بالحياة في أيديها .
أى جلعميش ، املأ بطنك ؛
وكن مرحاً بالنهار وبالليل ؛
بالنهار وبالليل كن مبتهجاً راضياً !
وطهر ثيابك .

واغسل رأسك ؛ اغتسل بالماء !
وألق بالك إلى الصغير الذى بمسك ييدك ،
واستمع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك (١٦٥) (*) .

ونستمع فى لوحة أخرى إلى نغمة أشد من هذه حزناً نختم بالكفر
والتجديف . ذلك أن جبارو وهو عند البابليين كالفقيادس عند اليونان ،
يسأل إنساناً يكبره أسئلة ملوها الشك فيقول :

أيها العاقل الحكيم ، يا صاحب الذكاء ، تأوه من صميم قلبك !
إن قلب الإله بعيد بعد أطباق السماوات الداخلية ،
والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها .

ويجيبه الشيخ متشائماً تشاؤم عاموس وإشعيا :
استمع ، يا صديقى ، وافهم أفكارى .
إن الناس يمجدون عمل الرجل العظيم الذى يبرع فى القتل ،
ويحقرون الرجل الفقير الذى لم يرتكب ذنباً .

(*) وازن بين هذه الأقوال وبين ما ورد فى الآيات السابعة والثامنة والتاسعة من الإصحاح
التاسع من سفر الجامعة : ٧ - اذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب طيب ، لأن الله
منذ زمان قد رضى عملك . ٨ - لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن .
٩ - التذميش مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطك التى أعطاك إياها تحت الشمس ،
كل أيام باطك لأن ذلك نصيبك فى الحياة وفى ثوبك الذى تنعمه تحت الشمس .

ويبررون أعمال الرجل الآثم الذى يقتترف أشنع الأخطاء
ويردون الرجل العادل الذى يسعى لما يريد لله هـ
وهم يسلطون القوى ليغتال طعام الضعيف ؛
ويقوون القوى ،

ويهلكون الرجل الضعيف ، ويطرده الرجل الغنى .
وينصح جبارومع هذا أن يفعل ما تريده الآلهة . ولكن جبارو يقطع
صلاته بها وبالكهنة الذين ينصرون على الدوام أكبر الناس ثواء .
لأنهم لم ينقطعوا عن عرض الأكاذيب والأضاليل
يقولون باللفظ الشريف ما كان فى صالح الرجل الغنى .
هل نقصت ثروته ؟ لأنهم يبادرون إلى معونته .
وهم يسيئون معاملة الضعيف كأنه لص ،
وهم يهلكونه فى خلجة عين ، ويطفئونه كما يطفئون اللهب (١٩٦) .

وليس لنا مع ذلك أن نبالغ فى شأن ما نجده عند البابايين من مزاج
سوداوى ، وما من شك فى أن الناس كانوا يصغون فى رضى ومحبة إلى
ما يقوله كهانهم ، ويزدهون فى الهياكل يطلبون رضا الآلهة ، لكن الذى
يدهشنا بحق هو طول إيمانهم بدينهم الذى لا يعرض عليهم إلا القليل من
أسباب المواساة والسلوى ؛ وهل ثمة شئ من هذين فى قول الكهنة أن
لا شئ يمكن أن يعرف إلا بالوحى الإلهى ؛ وإن هذا الوحى لا يصل إلى
الناس إلا عن طريقهم هم ؟ ويحدثنا الفصل الأخير من هذا الوحى عن
هبوط الروح الميته صالحة كانت أو طالحة إلى أروال أى الجحيم لتبثى فيها
أبد الدهر فى ظلام وعذاب مقيم . فلا عجب والحالة هذه إذا انصرف
البابليون للقصف والمرح فى الوقت الذى جُن فيه نبوخذ نصر بعد أن ملك
كل شئ ولم يدرك أى شئ ، وأمسى يرهب كل شئ .

الفصل العاشر

قبرية(*)

تحدثنا الروايات المتواترة كما يحدثنا سفر دانيال - الذى لم تؤيده أية وثيقة معروفة - أن نبوخذ نصر بعد أن حكم زمناً طويلاً ، حالقه فيه النصر والرخاء على الدوام ، وبعد أن جعل مدينته بما شقه فيها من الطرق وما شاده من القصور ، وبعد أن بنى للآلهة أربعة وخمسين هيكلًا ، بعد أن فعل هذا كله انتابته نوبة غريبة من الجنون ، فظن نفسه حيواناً ومشى على أربع ، واقتات بالكلأ (١٦٧) . ويختفى اسمه أربع سنين كاملة من التاريخ ومن سجلات بابل الحكومية (١٦٨) . ثم يعود فيظهر لحظة قصيرة ثم ينتقل إلى الدار الآخرة في عام ٥٦٢ ق . م

ولا تكاد تمضى على وفاته ثلاثون عاماً حتى تتصدع إمبراطوريته وتتمزق شراً ممزق . وحكم بعده نابونيدس وجلس على العرش سبعة عشر عاماً أثر فيها أعمال الحفر على مهام الحكم ، وصرف وقته وجهده في التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى (١٦٩) . فاضطربت أحوال الجيش ، وانهمك رجال الأعمال في شئون المال العليا الدولية ، ففسدوا جهم لبلادهم ، وغفل الناس عن فنون الحرب لاشتغالهم بشئون التجارة وانغماسهم في الملذات .

واغتصب الكهنة سلطان الملوك شيئاً فشيئاً ، وملأوا خزائنهم بالأموال التى أغرت الدول الأجنبية بغزو البلاد وفتحها . ولما أن هف قورش وجيوش الفرس النظامية المدربة على أبواب بابل رضيت الطائفة المعادية للكهنة من البابليين أن تفتح له هذه الأبواب ، ورضيت بسيطرته المستنيرة (١٧٠) .

وحكم الفرس بابل قرنين من الزمان كانت في خلالها شطراً من أعظم
إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، ثم أقبل الإسكندر بجبروته
وافتح المدينة دون أن يجد منها أية مقاومة ، وظل يشرب الخمر في قصر
نبوخذ نصر حتى مات (١٧١) .

ولم تفد البشرية من الحضارة البابلية ما أفادته من حضارة المصريين ،
ولم يكن فيها من التنوع والعمق ما في حضارة الهند ، كما لم يكن فيها من
الدقة والنضوج ما في حضارة الصين . على أن بابل هي التي أنشأت ذاك
القصص الساحر الجميل الذي أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً
لا يتجزأ من قصص أوروبا الديني . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان
الجوالون إلى دويلات مدنها بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك ،
والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة . ومن
دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومة ومنها إلى الأوروبيين
والأمريكيين ، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ،
والموازين ، والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست
هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل لأنها في بعض الأحيان لا تعدو أن
تكون بديلاً لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية (١٧٢) . وبينما استمد
فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت ، فإن العمارة البابلية
هي التي أوحى عن طريق الزجورات بقباب المساجد الإسلامية ، وبالمنارات
والأبراج في العصر الوسيط ، وبطراز المباني المرتدة في أمريكا في هذه
الأيام . وأضحت قوانين حمورابي تراثاً للمجتمعات القديمة كلها
لا يقل في شأنه عما ورثه العالم من رومة من نظام الحكم وأساليبه . ولقد
انتقلت حضارة أرض النهرين من مهبها وأضحت عنصراً من التراث
الثقافي للجنس البشري بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية الخطيرة .
فقد فتحت آشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ،

ونشرته في جميع أنحاء إمبراطوريتها الواسعة ؛ وتلا ذلك أسر اليهود الطويل
وما كان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم ، وأعقب هذا وذاك
الفتحان الفارسي واليوناني اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين
بابل والمدن الناشئة في أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحالم يشهد العالم
من قبل له نظيراً في كماله وحرسته .

إن شيئاً ما لا يضيع من العالم آخر الأمر ، بل إن كل حادثة تترك فيه
أثرها خالداً إلى أبد الدهر ، خيراً كان ذلك الأثر أو شراً .

الباب العاشر

أشور

الفصل الأول

أخبارها

بداية تاريخها - مدنها - أصل سكانها - الفاخون - سنحريب

وعسر هدون - « سرداهاوس »

في أثناء الأحداث التاريخية السالفة الذكر ظهرت حضارة جديدة إلى شمال بابل وعلى بعد ثلثمائة ميل منها . واضطر أهل البلاد التي نشأت فيها هذه الحضارة أن يحيا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التي كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات . وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التي كانت مهدم الأول في عيلام وسومر وأكد وبابل ، وتغلّبوا على فينيقية ومصر ، وظلوا مائتي عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى . وكان موقف سومر من بابل ، وموقف بابل من آشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من رمة ه فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة ، وتعهدها الثانية وأتمتها حتى بلغت ذروتها ، وورثتها الثالثة ، وأضافت إليها من عندها ، وحمتها ، وأسلمتها وهي تختصر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها . ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر في وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المخلود . وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة في البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام

أن تقضى على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده ، ولا تعترف قط بهزيمتها ، بل تظل قروناً طويلاً صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويه مياه نهر دجلة وروافده ، وهى آشور وعملها الآن قلعة شرغات ، وأربلا وهى لأربل الحالية ، والكلخ وهى الآن نمرود ، ونيوى وهى قوبر نجك ، على الضفة المقابلة لمدينة موصل مدينة الزيت . وقد عثر المنقبون فى أطلال آشور على شظايا من السيج — الحجر الزجاجى الأسود — وعلى سكاكين وقطع من الفخار الأسود عليها رسوم هندسية توحى بأنها من أصل أسيوى^(١) ، وكل هذه من مخلفات عصر ما قبل التاريخ . وكشفت بعثة أثرية حديثة فى تبي جورا ، بالقرب من موقع نيوى عن بلدة يترد كاشفوها الفخورون تاريخها إلى عام ٣٧٠٠ ق م ، رغم ما فيها من هياكل وقبور كثيرة ، وأختام اسطوانية مثقنة النقش ، وأمشاط ونحلى ، ورغم ما عثروا عليه فيها من نرد هو أقدم نرد عُرف فى التاريخ^(٢) . وتلك مسألة جديدة بتفكير المصلحين فى هذه الأيام . وخلع الإله آشور اسمه على مدينة من مدنها (ثم على القطر كله آخر الأمر) ؛ وفى هذه المدينة كان يسكن أقدم ملوك هذه الأمة ، وظلوا يقيمون بها حتى اضطروا بسبب تعرضها لحر الصحراء اللافتح ولهجمات جيرانهم البابليين إلى إنشاء عاصمة ثانية لهم فى مكان أقل من العاصمة الأولى حرارة ؛ وكانت هذه العاصمة الثانية هى نيوى ، واسمها هى أيضاً مأخوذ من اسم إله من آلهتهم هو الإله نينا إشتار الآشوريين . وكان ثلثمائة ألف من الأهلين يسكنون فى نيوى أيام مجدها فى عهد آشور بانيبال كما كان ملوكها — ملوك الأرض عادة — يتلقون الجزية من جميع بلاد الشرق القريبة .

وكان الأهلون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب

(ولعلمهم من الحثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميتاني) ، ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس (٣) ، وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق في شيء عن لغة أرض بابل وفنونها . بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم المخبث الذي انحدر إليه البابليون (٤) ؛ ولذلك ظلوا طوال عهدهم شعباً محارباً مفتول العضلات ، ثابت الجنان ، غزير الشعر ، كث اللحية ، معتدل القامة ، يبدو رجاله في آثارهم عابسين ، ثقيلي الظل ، يطئون بأقدامهم الضمخة عالم البحر المتوسط الشرقي . وتاريخهم هو تاريخ الملوك والرقائق ، والحروب والفتوح ، والانتصارات اللعوية والهزائم المفاجئة . واغتنم ملوكهم - الكهنة الأوائل - وكانوا أقبالا خاضعين لأهل الجنوب - سيطرة الكاشيين على بابل فاستقلوا عنها ، ولم يمض إلا القليل حتى ازدان أحدهم باللقب الذي ظل ملوك آشور يتباهون به طوال عهدهم وهو « الملك صاحب الحكم الشامل » . ويبرز أمامنا من بين هؤلاء الأقبال الخامل للذكر أفراد تهدينا أعمالهم إلى معرفة السبيل التي سلكتها بلادهم في نمائها وتطورها (٥) .

فبينما كانت بلاد بابل تتخبط في ظلمات حكم الكاشيين ضم سلما نصر الأول دويلات المدن الشمالية تحت حكمه ، واتخذ الكلخ عاصمة له . على أن أول الأسماء العظيمة في تاريخ آشور هو اسم تغلث فلاصر الأول . كان هذا الملك صياداً ماهراً ، وإذا كان من الحكمة أن نصدق أقوال الملوك فإنه قد قتل وهوراجل مائة وعشرين أسداً ، وقتل وهو في عربته ثمانمائة (٥) ، وجاء في نقش خطه كاتب أكثر ملكية من الملك نفسه - أنه كان يصيد الأهم والحيوانات على

(*) وقد وجدت من عهد قريب في حرائب مكتبة سرجون الثاني لوحة تحتوي ثبثا متصلا لا ثغرة فيه بأسماء الملوك الآشوريين من الأسرة الثالثة والعشرين إلى آشور نيرادي (٧٥٣ - ٧٤٦ ق . م (٤)) .

السواء . « وسرت في بأسى الشديد على شعب قومه ، وفتحت مدائنهم ، وسقت منها الغنائم ، واستوليت على ما لاحصر له من بضائعهم وأملاكهم ، وحرقت مدنهم بالنار ، ودمرتها وخربتها . . . وخرج أهل أدنش من جبالهم واحتضنوا قدتى ، وفرضت عليهم الجزية^(٦) » . وقد ساق هذا الملك جيوشه في كل اتجاه ، فأخضع الحثيين والأزمن وأربعين أمة غيرهما ، واستولى على بابل ، وأرهب مصر فأرسلات له الهدايا وهى قلقة ورجلة ، (وكان منها تمساح لأنه كثيراً وخفف من غضبه) . وبنى من الحراج الذى دخل خزائنه هياكل للآلهة الآشوريين والآهاتهم ، ولم تسأله هذه الآلهة عن مصدر هذه الثروة كلها كأنما كان همها كله أن تكون لها هياكل تقرب فيها القرابين . ثم خرجت بابل عليه ، وهزمت جيوشه ، ونهبت هياكله ، وعادت إلى بابل تحمل معها آلهته أسرى . ومات تغلت فلاصر خزيًا ونحماً^(٧) .

وكان حكمه رمزاً للتاريخ الآشورى كله وصورة مصغرة منه : حرب وجزية فرضهما على جيران آشور ثم فُرُضا على آشور نفسها . واستولى آشور ناصر بال على اثنتى عشرة دولة صغيرة ، وعاد من حروبه بمغانم كثيرة ، وسمل بيده عيون خمسين من الأسرى ، واستمتع بنسائه ، ومات ميتة شريفة^(٨) . ومد سلماً نصر الثالث هذه الفتوح حتى دمشق ، وحارب عدة وقائع تكبد فيها خسائر فادحة ، وقتل في واقعة واحدة ستة عشر ألفاً من السوريين ، وشيد الهياكل ، وفرض الجزية على المغلوبين . ثم ثار عليه ابنه ثورة عنيفة وخلعه^(٩) . وحكمت سمورامات أم الملك ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخى الراهن لأسطورة سميراميس اليونانية ، التى تجعل منها نصف إلهة ونصف ملكة ، وقائدة بأسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة مخنكة مدبرة . وتلك الأسطورة هى كل ما نعرفه عن هذه الملكة . وقد وصفها ديودور الصقلى وصفاً مفصلاً بديعاً^(١٠) . وجيش تغلت فلاصر الثالث جيوشاً جديدة ، واستعاد أرمينية ، واجتاح سوريا

وبابل ، وأخضع لحكمه دمشق والسامرة ، وبابل . ومد ملك أشور من جبال القفقاس إلى مصر . ولما مل الحرب وجه همه إلى شئون الحكم ، فأثبت أنه إدارى عظيم ، وشاد كثيراً من الهياكل والقصور ، وساس إمبراطوريته الراسية سياسة قوية حازمة ، وأسلم روحه وهو في فراشه . وجلس على العرش سرجون الثانى ، وهو ضابط من ضباط الجيش ، على أثر انقلاب سياسى نابليونى ، وقاد جيوشه بنفسه ، وكان فى كل واقعة يتخذ لنفسه أشد المواقف خطورة (١١) ، وهزم عيلام ومصر ، واسترد بابل . وخضع له اليهود والفلسطينيون بل واليونان سكان قبرص ، وحكم دولته حكماً صالحاً ، وناصر الفنون والآداب ، والصناعة والتجارة ، ومات فى واقعة نال فيها النصر على أعدائه ، ورد فيها عن أشور غارات الجحافل الكمرية المتوحشة التى كانت تهددها بالغزو .

وقضى ابنه سنحريب على الفتن التى ثار عجاجها فى الولايات المجاورة للخليج الفارسى ، وهاجم أورشليم ومصر دون أن يلتقى نجاحاً (*) ، ونهب تسعا وثمانين مدينة ، وثمانمائة وعشرين قرية ، وغنم سبعة آلاف ومائتى جواد ، وأحد عشر ألف حمار وثمانين ألف ثور ، وثمانمائة ألف رأس من الغنم ، ومائتين وثمانية آلاف من الأسرى (١٢) وهى أرقام لم يستخف بها الكاتب الرسمى الذى كتب سيرته ثم غضب على بابل لنزعتها إلى الحرية فحاصرها ، واستولى عليها ، وأشعل فيها النار فدمرتها تدميراً ، ولم يكذب بقى على أحد من أهلها رجلاً كان أو امرأة ، صغيراً كان أو كبيراً ، بل قتلهم عن آخرهم تقريباً ، حتى سدت جثثهم مسالك المدينة ، ونهبت المعابد حتى لم يبق فيها شاقول واحد ، وحطمت آلهة بابل صاحبة السلطان الأعظم القديم ، وسيقت أسيرة ذليلة إلى نينوى . وأصبح مردك الإله الأكبر

(*) ونمزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول الفطنة قرضت كائنات الجيوش الآشورية المسكرة أمام بلوزيوم ؛ وأوتار قسيهم ؛ وأربطة دروعهم ، فاستطاع المصريون بذلك أن يهزموا الآشوريين فى اليوم الثانى دون عناء كبير (١٣) .

خادماً ذليلاً للرب آشور . ولم ير من بقي حياً من البابليين أنهم كانوا مبالغين في تقدير قوة مردك وعظمته ؛ بل قالوا لأنفسهم ما قاله الأسرى اليهود بعد مائة عام من ذلك الوقت ، قالوا إن إلههم قد شاء له تواضعه أن ينهزم ليعاقب بذلك شعبه . واستخدم سنحريب غنائم نصره وما انتهبه من البلاد المفتوحة في إعادة بناء نينوى ، وحول مجرى النهرين لحايتها من الاعتداء ، وبذل في إصلاح الأرض البور من القوة والنشاط ما تبذله الدول التي تشكو عدم وجود فائض لديها من غلاتها الزراعية ، ثم قتله أبنائه وهو يتلو الصلوات (١٤) .

وقام ابن له من غير القتلة وهو عسر هدن وانتزع العرش من إخوته السفاحين ، وغزا مصر ليعاقبها على ما قدمته من المعونة للشوار السوريين ، وضمها إلى أملاكه ، وأدهش غربى آسية بسيره المظفر من منف إلى نينوى ومن خلفه ما لا يحصى من المغام ، وجعل آشور سيدة بلاد الشرق الأدنى بأجمعها ، وأفاء عليها من الرخاء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، واسترضى البابليين بإطلاق آلهتهم الأسيرة وتكريمها وإعادة بناء عاصمتهم المخرّبة ، كما استرضى عيلام بتقديم الطعام إلى أهلها الجياع . وكان ما قدمه من الإغاثة على هذا النحو عملاً لا يكاد يوجد له مثل في التاريخ القديم كله . ومات عسر هدن وهو سائر إلى مصر ليخمد فيها ثورة بعد أن حكم لمبراطوريته حكماً لم تر له في تاريخها شبه الممجي مثيلاً في عدله ورحمته .

وجئ خليفة آشور بانيبال (وهو الذى يسميه اليونان سردنا بالوس) ثمرة هذه الأعمال ، فوصلت آشور في خلال حكمه الطويل إلى ذروة مجدها وثروتها . ولكن بلاده بعد وفاته فقدت هذا العز ، فوهنت قوتها وفسدت أمورها لطول عهدها بالحروب المنقطعة التي خاضت عمارها أربعين عاماً ، وأدركها الفناء ، ولما يمض على موت آشور بانيبال عشر سنين . وقد احتفظ لنا أحد الكتاب بسجل سنوى لأعماله (١٥) ، وهو سجل ممل ينتقل فيه من حرب إلى حرب ، ومن حصار إلى حصار ، ثم إلى مدن جائعة وأسرى تسليخ جلودهم وهم أحياء . وينطق هذا الكتاب نفسه

أشور بانيبال فيحدثنا عما خبره من بلاد عيلام ويقول : « لقد خربت من بلاد عيلام ما طوله مسير شهر وخمسة وعشرين يوماً . ونشرت هناك الملح والحسلك (لأجذب الأرض) وسقت من المغنم إلى آشور أبناء الملوك ، وأنحوات الملوك ، وأعضاء الأسرة المالكة في عيلام صغيرهم وكبيرهم ، كما ستمت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام ، والأشراف والصناع ، وجميع أهلها الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً ، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأن وماشية تفوق في كثيرها أسراب الجراد ، ونقلت إلى آشور تراب السوس ، ومدكتو ، وهلتاش وغيرها من مدائنهم . وأخضعت في مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها ، وأخذت في حقولها صوت الآدميين ، ووقع أقدام الضأن والماشية ، وصراخ الفرح المنبعث من الأهليين . وتركت هذه الحقول مرتعاً للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها (١٦) . »

وجيء برأس ملك عيلام القتييل إلى آشور بانيبال وهو في وليمة مع زوجته في حديقة القصر ، فأمر بأن يرفع الرأس على عمود بين الضيوف ، وظل المرح يجرى في مجراه ، وعلّق الرأس فيما بعد على باب نينوى ، وظل معلقاً عليه حتى تعفّن وتفتّت . أما دنائو القائد العيلامي فقد سلخ جلده حياً ، ثم ذبح كما يذبح الحمل ، وضرب عنق أخيه ، وقطع جسمه إرباً ، ووزع هدايا على أهل البلاد تذكراً لهذا النصر المجيد (١٧) .

ولم يخطر قط ببال آشور بانيبال أنه ورجاله وحوش كاسرة أو أشد قسوة من الوحوش ، بل كانت جرائم القتييل والتعذيب هذه في نظرهم عمليات جراحية لا بد منها لمنع الثورات وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة المنتشرة من حدود الحبشة إلى أرمينية ، ومن سوريا إلى ميديا ، والتي أخضعها أسلافه لحكم آشور . لقد كانت هذه الوحشية في رأيه واجباً يفرضه عليه حرصه على أن يبقى التراث سليماً . وكان يتباهى بما وطده في ربوع إمبراطوريته من أمن

وسلام ، وبما ساد مدنها من نظام . والحق أن هذا التباهى لم يكن على غير أساس . على أن هذا الملك لم يكن مجرد ملك فاتح أسكره سفك الدماء ، وشاهد ذلك ما شاهده من المباني وما بذله في تشجيع الفنون والآداب . فقد بعث الملك إلى جميع أنحاء دولته يدعو المثاليين والمهندسين ليضعوا له رسوم المياكل والقصور ويزينوها كما فعل بعض الحكام الرومان بعد أن استولت رومة على بلاد اليونان . وأمر عدداً كبيراً من الكتبة أن يجمعوا وينسخوا كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب ، ووضع ما نسخوه وما جمعهوه كله في مكتبته العظيمة في نينوى ، وهناك وجدها علماء هذه الأيام سليمة أو تكاد بعد أن مرت عليها خمسة وعشرون قرناً من الزمان .

وكان مثل فردرك الأكبر يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بانتصاراته في الحرب والصيد (١٨) . ويصفه ديودور الصقلي بأنه طاغية فاسق خشن (١٩) ، ولكننا لا نجد في جميع الوثائق التي وصلت إلينا على كثرتها ما يؤيد هذا القول . وكان آشور بانيبال إذا فرغ من تأليف ألواحه الأدبية خرج إلى الصيد في اطمئنان الملوك وثقتهم بأنفسهم وليس معه من السلاح إلا سكين وحربة ، فقابل الآساد وجهاً لوجه . وإذا جاز لنا أن نصدق ما كتبه عنه معاصروه فإنه لم يكن يتردد قط في أن يتولى قيادة الهجوم عليها بنفسه ، وكثيراً ما سدد الضربة القاضية بيده (٢٠) . فلا عجب والحالة هذه إذا افتنن به الشاعر بيرن Byron ونسج حول اسمه مسرحية نصفها أسطوري والنصف تاريخي ، صور فيها ما بلغت أشور في أيامه من الثروة والمجد ، وما دامها بعدئذ من خراب شامل ، وما حل بملكها من قنوط .

الفصل الثاني

الحكومة الآشورية

اللزعة الاستعمارية - الحروب الآشورية - الآلهة المحننة - القانون

لذة الانتقام والتعليب - الإدارة - عنف ملوك الشرق

إذا جاز لنا أن نأخذ بالمبدأ الاستعماري القائل إن سيادة حكم القانون ، ونشر الأمن ، والتجارة ، والسلم في العالم تبرر إخضاع كثير من الدول طوعاً أو كرهاً لسلطان حكومة واحدة ، إذا جاز لنا أن نأخذ بهذا المبدأ كان علينا أن نقر لأشور بذلك الفضل الكبير ، وهو أنها أقامت في غربي آسية حكماً كفلاً لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد . ذلك أن حكومة آشور بانيبال التي كانت تضم تحت جناحيها بلاد آشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وسومر ، وعيلام ، ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام لإدارة شهاده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد ؛ ولم يدان آشور بانيبال فيه لإحوراني أو تحتشمس الثالث ، ولم يضمارعه قبل عهد الإسكندر إلا الفرس وحدهم . وكانت هذه الإمبراطورية تستمتع بقسط من الحرية ، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتي المحلي ، كما احتفظت كل أمة فيها بدينها ، وقوانينها وحاكمها ، ما دامت لا تتوانى عن أداء الجزية المفروضة عليها (٢١) .

ومن شأن هذا النظام المفكك أن يؤدي كل تراخ في سلطته المركزية إلى الثورات الشعبية أو في القليل إلى بعض التراخي في أداء الجزية ، وكان لا بد والحالة هذه من إعادة فتح البلاد المرة بعد المرة . وأراد تغلث فلاصر أن يتحاشى خطر

هذه الثورات المتكررة فوضع تلك السياسة التي تمتاز بها آشور على غيرها من الأمم وهي نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى بعيدة ، يمتزجون فيها بسكانها الأصليين امتزاجاً قد يفقدهم وحدتهم وكيانهم ، ويقلل القرص السانحة لهم للعصيان . على أن هذه الخطة لم تمنع اندلاع لهيب الثورات ، فاضطرت آشور بسببها إلى أن تكون مستعدة على الدوام لامتناع الحسام .

من أجل هذا كان الجيش أقوى دعامة للدولة وأهم مقوماتها ، وكانت آشور تعترف اعترافاً صريحاً بأن الحكم هو تأميم القوة ، ولذلك فلأن ما لها من فضل على قضية التقدم إنما كان في فن الحرب . فهي التي نظمت فرق المذكبات ، والفرسان ، والمشاة ، والمهندسين الذين يقوّضون الأبنية ، وقد وضع الآشوريون لهذه الفرق نظاماً يسهل معه تحريكها وتوجيهها من ناحية إلى أخرى في ميدان القتال . وكانت لهم آلات للحصار لا تقل في قوتها عما كان منها عند الرومان ، وكانوا يجيدون فهم الفنون الحربية الخاصة بتعبئة الجنود وحركاتهم (٣٣) . وكانت القاعدة الأساسية التي تقوم عليها حركاتهم العسكرية هي السرعة التي تمكنهم من مهاجمة كل قسم من أقسام الجيوش المعادية على انفراد - ألا ما أقدم هذا السر الذي أفاد منه نابليون أعظم الفائدة ! وتقدمت صناعة الحديد عندهم إلى حد أمكنهم أن يلبسوا الجنود حُللاً خديدية ساذجة كحلل فرسان العصور الوسطى . وحتى الرماة وحمل الرماح كانوا يلبسون على رؤوسهم خرداً من النحاس أو الحديد ، وأرماطاً محشوة حول الحقوين ، ومجنات ضخمة ونطاقات من الجلد المغطى بأسنماط معدنية . وكانت أسلحتهم السهام والرمح ، والسيوف القصار ، والصواعج ، والمراوات المنتفخة الرؤوس ، والمقاذيف والبلط الحربية . وكان أكابر القوم يحاربون في عربات في طليعة الجيش ، يقودهم في العادة ملكهم بنفسه وهو راكب في عربة ملكية ، ولم يكن القواد قد تعلموا أن يموتوا في قراشهم (٣٤) .

(٣٤) انظر قوله العرب في هذا المعنى : وما مات مناسيد في قراشه . . . (التر ٢)

وأدخل أشور بانيبال نظام استخدام الفرسان لمعاونة المركبات ، وكانت هذه البلدة ذات أثر حاسم في كثير من الوقائع (٢٣) . وكانت ألهم أدوات الحصار هي الكباش المسلحة بمقدماتها بالحديد . وكانت أحياناً تعلق بالحبال في محلول ، وتطوح إلى الهواء لتزيد بذلك قوتها ، وأحياناً أخرى كانت تجرى على عجلات . أما المحاصرون فكانوا يحاربون من وراء الأسوار بالقذائف والمشاعل ، والغاز الملقب ، والسلاسل التي يراد بها عرقلة الكباش ، وأوعية من غازات نثنة تذهب بعقول الأعداء (٢٤) — وما أشبه اليوم مرة أخرى بالبارحة . وكانت العادة المألوفة أن تدمر المدينة المغلوبة وتُحرق عن آخرها ؛ وكان المنتصرون يبالغون في محو معالمها بتقطيع أشجارها (٢٥) . وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم . وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة في الشرق الأدنى وهي اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم عن آخرهم . وكان الجنود يكافأون على كل رأس مقطوع يحملونه من ميدان القتال ، ولهذا كانت تعقب المعركة في أغلب الأحيان مجزرة تقطع فيها رعوس الأعداء (٢٦) . وكثيراً ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم بعد الواقعة حتى لا يستهلكون الكثير من الطعام ، وحتى لا يكونوا خطراً على موثخرة الجيش أو مصدر متاعب له . وكانت طريقة التخلص منهم أن يزكعوا متجهين بظهورهم إلى من أسروهم ، ثم يضرب الآسرون رعوسهم بالهراوات ، أو يقطعونها بسيوفهم القصيرة . وكان الكتبة يقفون إلى جانبهم ليحصوا عدد من بأسرهم كل جندي ويقتلهم ، ويقسمون النية بينهم بنسبة قتلاهم ؛ وكان الملك إذا سمح له وقته يرأس هذه المجزرة . أما الأشراف المغلوبون فكانوا يلقون شيئاً من المعاملة الخاصة ، فكانت تصلم آذانهم ، وتجدع أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو يقذف بهم إلى الأرض من أبراج عالية ، أو تقطع رعوسهم ورعوس أبناءهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو يشوى أجسامهم فوق نار هادئة . ويلوح أن القوم لم يكونوا يشعرون بشيء من وخز

الضمير وعلم يسرفون في إتلاف الحياة البشرية بهذه الطرق الجهنمية ، ذلك أن نسبة المواليد العالية تعوض عنهم هذا التقتيل ، أو أن هذه الوسيلة تقلل من تراحم الأهليين على مورد العيش إلى أن يتناسلوا ويتكاثروا (٢٧) . ولعل ما أشيع من حسن معاملة الإسكندر وقبصر للأسرى ورحمتها بهم كانا من أسباب قضاها على روح أعدائهما المعنوية وسرعة استيلائهما على بلاد البحر المتوسط .

وكانت القوة الثانية التي يعتمد عليها الملك هي قوة الدين ، ولكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأعلى الأثمان . فقد كان إجماع القوم منعقداً على أن رأس الدولة من الوجهة الرسمية هو الإله آشور . وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين قرارات تملها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزائنه ، وكل الحروب تشن لتأتي له (أو لإله غيره أحياناً) بالمغانم والمجد . وكان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله ، وكان في العادة هو الإله شمش (الشمس) مجسماً . وقد أخذ الآشوريون دينهم عن سومر وبابل كما أخذوا عنهما علومهما وفنونهما ، وكانت هذه كلها تكيّف أحياناً كما يتفق مع مطالب الدولة العسكرية .

وأظهر ما كان هذا التكييف في القانون ، فقد يمتاز بالقسوة العسكرية ، وكانت العقوبات تتراوح بين العرض على الجماهير ، والأشغال الشاقة ، والجلد بالسياط من عشرين إلى مائة جلدة ، وجدع الأنف وصلم الأذنين ، والإخضاء ، وقطع اللسان ، وسمل العينين ، والخزق ، وقطع الرأس (٢٨) . وتصف قوانين سرجون الثاني بعض المتع الأخرى كشرب السم ، وحرق ابن المذنب أو ابنته حينئذ على مذبح الإله (٢٩) . ولكننا لا نجد شواهد على أن هذه القوانين كانت نافذة في الألف السنة الأولى قبل مولد المسيح . وكان الزنى ، وهتك العرض ، وبعض أنواع من السرقة تعد من الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام (٣٠) . وكانوا يلجأون أحياناً إلى طريقة تحكيم الآلهة ، فكان المتهم يلقي في النهر وهو مقيد القدمين في بعض الأحيان ، ويترك الحكم عليه لمشية الماء . وكانت القوانين

الأشورية في العادة أبعد عن الطابع الدنيوى ، وأكثر بدائية من قوانين
حمورابى البابلية التى كانت على ما يبدو لنا أقدم منها عهداً* .

وكانت الحكومة المحلية في بداية الأمر يقوم بها أمراء الإقطاع ، ثم آلت
على توالى الزمن إلى ولاية الأقاليم ومديريها المعيّنين من قبل الملك . وأخذ
الفُرس عن الآشوريين هذا الضرب من الحكم الإمبراطورى ومنهم انتقل إلى
رومة . وكان يعهد إلى الولاة جمع الضرائب وتنظيم العمال المسخرين في الأعمال
العامة ، كأعمال الري ، التى لم يكن في الإمكان تركها للجهود الفردية ؛ وأهم
ما كان يطلب إليهم هو تجنيد العساكر ، وقيادتهم في الحروب الملكية . وكان
للكملك جواسيس (أورجال قلم المخابرات بلغة هذه الأيام) يراقبون هؤلاء
الولاة وأعوانهم وينقلون إلى الملك أخبار الرعيّة .

وكانت الحكومة الآشورية بتفضيها أداة حرب قبل كل
شئ . ذلك أن الحرب كثيراً ما كانت أنفع لها من السلم ، فقد كانت
تثبت النظام ، وتقوى روح الوطنية ، وتزيد سلطان الملوك . وتأتى بالغانم
الكثيرة لتغنى بها العاصمة ، والعيبد لخدمتها . ومن ثم كان تاريخ
الآشوريين يدور معظمه حول مدن تنهب ، وقرى وحقول تحرق . ولما أن
قع آشور بانيبال ثورة أخيه شمش — شم — أوكين واستولى على بابل بعد
حصار طويل مرير :

« كان للمدينة منظر رهيب تنقزز منه نفوس الآشوريين أنفسهم ... فقد
كان معظم من قصت عليهم الأوبئة والقحط ملقين في الطرقات أو في الميادين
العامة ، فريسة للكلاب والخنازير . وحاول من كانت لهم بقية من القوة من
الأهلين أو الجنود أن يفرّوا إلى الريف ، ولم يبق في المدينة إلا من كان ضعيفاً
لا يستطيع أن يجر قدميه إلى أبعد من أسوارها . وطارد آشور بانيبال هؤلاء

(*) وأقدم القوانين الآشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين
مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح وجدت في خرائب آشور ، ويرجع عهدا إلى حوالي عام
١٣٠٠ ق . م (٣١) .

المشردين ، ولما أن قبض عليهم كلهم تقريباً ، صب عليهم جام غضبه ونقمته ، فأمر بأن تقتلع السنة الجنود ، وأن يضربوا بعد ذلك بالهراوات حتى يموتوا . أما الأهالي فقد أمر بذبحهم أمام العجول المجنحة العظيمة ، التي شهدت منذ خمسين عاماً مجزرة أخرى شبيهة بهذه المجزرة في عهد جده سنحريب . وظلت جيف هؤلاء الضحايا في العراء زمناً طويلاً تفترسها الوحوش القفرة والطيور^(٣٢) .

لقد كان هذا الإسراف في العنف من أكبر أسباب ضعف الممالك الشرقية . ذلك أن الثورات المتكررة لم تكن مقصورة على أهل الولايات ، بل إن قصور الملوك وأسرهم كثيراً ما كانت تهب لتقلب بالعنف ذلك النظام الذي قام على العنف ، والذي يستند إلى العنف ، وكثيراً ما كان تقع الفتنة يثور بين المطالبين بالعرش في أواخر أيام كل ملك ، أو حين وفاته ، فكان الملك المعمر يرى المؤامرات تحاك من حوله ، وكثيراً ما كان يُستعجل موته بقتله . وكانت أمم الشرق الأدنى تؤثر الثورات العنيفة على الانتخابات الفاسدة الزائفة ، وكانت الوسيلة التي يتبعونها لسحب نقتهم من حاكمهم هي القضاء على حياته . وما من شك في أن بعض حروب الآشوريين كانت أمراً محتوماً لا مفر منه . فقد كان البرابرة يحيطون بتخوم البلاد كلها ، فإذا ما جلس على العرش ملك ضعيف انقض السكوبيون والكمريون أو غيرهم من الهمج على المدن الآشورية الغنية يقتلون وينهبون . ولعلنا نبالغ في كثرة الحروب والثورات العنيفة التي تأججت نيرانها في هذه الدول الشرقية ، لأن من نقشوا الآثار من الأقدمين ، ومن أروخوا تلك الحوادث من الكتاب المحدثين ، قد عنوا بالتسجيل المسرحي للوقائع الحربية ، وغفلوا عن انتصارات السلم . إن المؤرخين طالما تميزوا إلى سفك الدماء ، ذلك بأنهم قد وجدوه ، أو ظنوا أن قراءهم سيجدونه ، أكثر لذة لهم من أعمال العقل الهادئة . ونحن نظن أن الحروب في هذه الأيام أقل عدداً منها في الأيام الحالية لأننا نحس بفترات السلم الصافية المتألقة ، على حين أن التاريخ لا يُحس ، كما يبدو لنا ، إلا بأزمات الحرب المهيمة .

الفصل الثالث

الحياة في آشور

الصناعة والحجارة - الزواج والآداب العامة - الدين والعلم -
الكهانة ودور الكتب - المثل الأهل للرجل الكامل عند الآشوريين

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الآشوريين تختلف كثيراً عنها عند البابليين ؛ وذلك لأن هؤلاء وأولئك لم يكونوا في كثير من الأحوال إلا أبناء الشمال وأبناء الجنوب من حضارة واحدة . وأهم ما كان بين البلدين من فروق أن المملكة الجنوبية كانت أكثر اشتغالا بالتجارة على حين أن الشمالية أكثر اشتغالا بالزراعة ، فكان أثرياء البابليين تجاراً في الغالب ، أما أثرياء الآشوريين فكانوا عادة من كبار الملاك ، يشرفون بأنفسهم على ضياعهم الواسعة ، ويزدرون أزدراء الرومان من بعدهم أولئك الذين كانوا يكسبون المال بشراء البضائع رخيصة وبيعها غالية (٣٣) . بيد أن النهرين أنفسهم ما كانوا يفيضان على أرض المملكتين ويغذيانهما ، ونظام الجسور والقنوات بعينه كان يسيطر فيهما على ما زاد من مياه النهرين ، والشواذيف ذاتها كانت ترفع المياه من المجارى المنخفضة لتروى الحقول التي تزرع نفس القمح والشعير والذرة الرفيعة والسقم (٣٤) . وكانت الصناعات التي تعتمد عليها حياة أهل المدن واحدة ، وكان للمملكتين نظام واحد للموازين والمكاييل والمقاييس تتبادل بمقتضاها البضائع . وامتلأت نينوى وبغداد من الحواضر بالحرف والصناعات بفضل ما جلبه لها ملوكها من ثراء عظيم ، وإن كان موقع هذه المدن

(*) ومن بفلات الآشورية غير ما ذكرنا هنا الزيتون ، والعنب ، والثوم ، والبصل ، والخس ، والجرجير ، والبنجر ، والفلفل ، والخيار ، والبرسيم الحجازي ، والبرقوق . وقبلما كان غير المؤسرين يأكلون اللحم (٣٤) ، فقد كانت هذه الأمة الحربية أمة نباتية بوجه عام ، إذا استثنينا من ذلك لحم السمك .

في الطرف الشمالي من الإقليم قد حال بينها وبين أن تكون مراكز تجارية
كبيرة . وكانت المعادن تستخرج من أرض البلاد أو تستورد بكثرة من خارجها



شكل (٢٩) مذخور سنحريب - في متحف بغداد

وفي عام ٧٠٠ ق. م أو حواليه أصبح الحديد بدل البرنز المعدن الأساسي في الصناعة والتسليح^(٣٥) ، وكانت المعادن تصهر ، والزجاج يصنع ، والمنسوجات تصنع^(٣٦) . والحزف يطل ، وكانت البيوت في نينوى مجهز وتوث كما كانت تجهز في أوروبا قبل الانقلاب الصناعي^(٣٧) . وأنشئ في عهد سنحريب مجرى مائى فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا ؛ وقد كشفت منذ عهد قريب مائة قدم من هذا المجرى^(٣٨) فكانت أقدم مجرى مائى فوق قناطر-عرف في التاريخ . وكانت مصارف الأفراد الخاصة تمول بعض التجارة والصناعة وتتقاضى فوائد على قروضها تبلغ ٢٥٪ . وكانوا يتعاملون بالرصاص والنحاس والذهب والفضة ؛ وحوالى عام ٧٠٠ ق. م . سلك سنحريب قطعاً من الفضة قيمة الواحدة منها نصف شاقل- وهذه القطع من أقدم ما عرف من المسكوكات الرسمية^(٣٩) .

وكان الأهليون مقسمين إلى خمس طبقات : الأعيان ، ورجال الصناعة المنتظمون في نقابات ، والطبقة الثالثة تشمل أرباب المهن والحرف والعمال غير الفهرة وهم الأحرار من صناعات المدن وزراعة الريف ؛ وتشمل الرابعة الأقنان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، كما كان أمثالهم مرتبطين بها في أوروبا في العصور الوسطى ، وتضم الخامسة الأرقاء أسرى الحروب أو سجناء الديون ، وكان هؤلاء يلزمون بالإعلان عن مركزهم الاجتماعى بخرق آذانهم وحلق رؤوسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بالأعمال الوضيعة في كل مكان . ونرى في نقش من عهد سنحريب حراساً بأيديهم سياط يشرفون على هؤلاء الأرقاء المنتظمين - صفيين طويلين متوازيين يحرون قطعة ثقيلة من تمثال على نقالات من الخشب^(٤٠) .

(٣٥) ويحتوى لوح من عهد سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق. م) على أقدم إشارة للقطن ، فقد ورد فيه : « الشجرة التى تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشمر »^(٣٥) ، وأكبر الظن أنهم نقلوها من الهند .

(٣٦) كشفت هذا المجرى البعثة العراقية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة تشكاحو .

وكانت أشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنه من الشرائع شأنها في هذا شأن جميع الدول العسكرية ، فكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وكانت المرأة التي تجهض نفسها ، وحتى المرأة التي تموت وهي تحاول إجهاض نفسها ، تخزق بعد موتها^(٣٩) . وكانت منزلة النساء في أشور أقل منها في بابل ، وإن كان منهن من بلغت منزلة سامية بالزواج والدسائس . وكانت تفرض عليهن عقوبات صارمة إذا ضربن أزواجهن ، ولم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن إلى الطريق العام بغير الحجاب ، وكان يطلب إليهن أن يكن جدد أمينات على أعراضهن — وإن كان يسمح لأزواجهن بأن يتخذوا لهن ما يشاءون من السراى^(٤٠) . وكان البغاء يُعد في عرفهم أمراً لا بد منه وتنظمه القوانين^(٤١) . وكان للملك عدد من النساء يعشن معيشة العزلة ويقضين أوقاتهن في الرقص والغناء والنزاع والتطريز والتأمر^(٤٢) . وإذا قُتِلَ الذى يُزنى بامرأته الزانى وهو متلبس بجريمته عُد ذلك من حقه ، وقد بقيت هذه العادة بعد أن زالت كثير من الشرائع التي كانت تبيحها . أما فيما عدا هذا فقد كانت قوانين الزواج في أشور مثلها في بابل خلاً أمراً واحداً وهو أن الزواج كان في كثير من الأحيان شراء بسيطاً ، وأن الزوجة كثيراً ما كانت تعيش في منزل أبيها ويزورها من حين إلى حين^(٤٣) .

ونشهد في كثير من نواحي الحياة الآشورية صرامة أبوية نراها طبيعية في شعب يعيش في فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشملها هذا اللفظ من معان . وكما أن الرومان كانوا يتخذون آلاف الأسرى بعد انتصارهم في الحروب عبيداً لهم يقضون في الرق كل حياتهم ، ويرساون آلافاً آخرين إلى الحلبة الكبرى لتهمشهم السباع الجياع ، كذلك يبدو أن الآشوريين كانوا يجدون متعة — أو تدريياً ضرورياً لأبنائهم — في تعذيب الأسرى ، وسمل عيون الأبناء أمام آبائهم ، وسلخ جلود الناس أحياء ، وشى أجسامهم في الأفران ، وربطهم

بالسلاسل فى الأقفال ليستمتع العامة برويتهم ، ثم لإرسال من يبقى منهم حيا إلى نطع الجلال^(٤٣) . وفى هذا يحدثنا آشور بانينبال بقوله : « لقد سلخت جلود كل من خرج على من الرعماء ، وغطيت بجلودهم العمود ، ومهوت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم خزقا ، وصفقت بعضهم حول العمود على الخوازيق . . . أما الرعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم^(٤٤) » .

ويفخر آشور بانينبال بأنه « حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ، ولم يبق على واحد منهم حيا ليتخذة رهينة^(٤٥) » . ويقول نقش آخر من نقوشه « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق آشور واثتمروا بالبشر على . . . فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قلدتهم قرابين جنازية ، وأطعمت بأشلائهم المقطعة الكلاب والخنازير والذئاب . . . وهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام^(٤٦) » ، وأمر ملك آخر من ملوكهم الصُّنَّاع أن ينقشوا على الآجر هذه العبارات التى يرى أن من حقه على الحلف أن يعجبوا بها : « إن عجلاقى الحرية تهلك الإنسان والحيوان . . . إن الآتار التى أشييدها قد أقيمت من الجثث الآدمية التى قطعت منها الرؤوس والأطراف ، ولقد قطعت أيدى كل من أسرتهم أحياء^(٤٧) » . وتصور النقوش التى كشفت فى نينوى الرجال يُخزقون أو يسلخون أو تُقطع ألسنتهم ؛ ويصور نقش منها ملكاً من الملوك يفتأ أعين الأسرى برمح ، ورؤوسهم مثبتة فى أماكنها بجبل يخرق شفاههم^(٤٨) . ولا يستعنا ونحن نقرأ هذه الصحف إلا أن نحمد الله على مركزنا المتواضع .

ويبدو أن الدِّين لم يكن له أثر قط فى تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية . ذلك أن الدِّين لم يكن له من السلطان على الحكومة بقدر ما كان له فى بابل ، وأنه كان يكتيف نفسه حسب حاجات الملوك وأذواقهم . وكان آشور لإلههم القوى من آلهة الشمس ، ذا روح حربية ، لا يشفق على أعدائه . وكان عبياده يعتقلون

أنه يفتبط بروية الأسرى يقتلون أمام مزاره^(٤٩) . وكان العمل الجوهرى الذى تؤمديه الديانة الآشورية هو تدويب مواطن المستقبل على الطاعة التى تتطلبها منه وطنيته ، وأن تعلمه مداينة الآلهة لكسب ودهم ورضاهم بضروب السحر والقرابين . ومن أجل هذا كان كل ما وصل إلينا من النصوص الدينية الآشورية لا يخرج عن الرقى والقال والطيرة . ولدينا من هذين كشوف طويلة حددت فيها لكل حادثة نتائجها المحتملة ، ووصفت فيها الوسائل التى يجب اتباعها لتجنب هذه النتائج^(٥٠) . وكانوا يصيرون العالم على أنه ملء بالشياطين التى يجب انتقاء شرها بالتأتم المعلقة فى الرقاب ، أو الرقى الطويلة التى تحب تلاوتها بدقة وعناية .

وذلك جو لا يزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الآشورى هو الطب البابلي لم يزدوا عليه شيئاً ، ولم يكن علم الفلك الآشورى إلا التنجيم البابلي ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم هو التنبؤ بالغيب^(٥١) . ولسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ولم نعر على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الآشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلمهم وضعوها ليستعينوا بها فى صناعة الطب ، وبذلك قدّموا بعض العون لعلم النباتات ؛ ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوى على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعى من اليونان . وأخذت اللغة الإنجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية فى الغالب ، الألفاظ الإنجليزية الآتية :

hangar, gypsum, camel, plinth, rose, ammonia, jasper, cane, cherry, Laudanum, maphtha, scsane, hyssop and myrrh (٥٢) (٥٣)

ومن واجبنا أن نقر للألواح التى تسجل أعمال الملوك الآشوريين بذلك الفضل

(*) ويقابلها فى العربية الحظيرة ، والجبس ، والجمل ، وسفل الحائط (البلات) ، والورد ، والنشادر ، واليشب ، والقصب ، والكرز ، وصيغة الأنثيون (الودنوم) والنقط ، والسسم والجسب (الغمام) ، والمر .

العظيم وهى أنها أقدم ما بقى لدينا من الكتب فى علم التاريخ ، رغم ما تنصف به من الملل والسامة ، وما تسجله من الأعمال الوحشية الدموية . وكانت هذه الألواح فى السنين الأولى مجرد أخبار تروى ، كل ما تحتويه سجلات لانتصار الملوك ، لاتعترف لهم بأية هزيمة . ثم أصبحت فيما بعد وصفاً أدبياً منمقاً لما وقع من الأحداث الهامة فى كل واحد منهم . وأهم ما يخلد ذكر آشور فى تاريخ الحضارة هو مكتباتها ، فقد كانت مكتبة آشور بانيبال تحتوى ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفه ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها ربعة يسهل الاستدلال بها عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التى كانت من شارات الملك الخاصة : « فليحل غضب آشور وبابيت . . . على كل من يتقل هذا اللوح من مكانه . . . ويمحو اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض » (٥٣) . وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبدن تاريخها ، تكشف أعمال الحفر عنها فى كل يوم . وقد أعلن آشور بانيبال أنه أنشأ مكتبته ليمنع الآداب البابلية أن يجرّ عليها عليها النسيان ذيله .

ولكن الألواح التى يصح أن تسمى الآن أدباً لاتتجاوز عدداً قليلاً منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاء يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وتوائم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة (٥٤) . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيهما آشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزرى به فى أعين مواطنيه ، والغريب أنه يكرر فيهما الاعتراف ويصرّ عليه لمصراراً :

« أنا ، آشور بانيبال ، فهمت حكمة نابو (٥٥) ووصات إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح . وعرفت كيف أضرب بالقوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها . . وحباني مردك ، حكيم الآلهة ، بالعالم والفهم هدية منه . . . ووهب لى

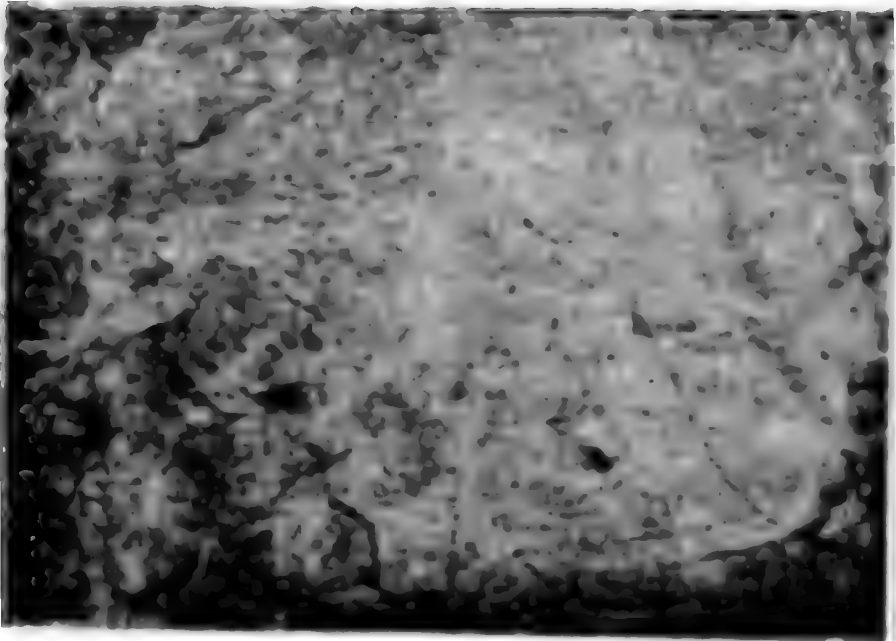
إنورت وشرجال الرجولة والقوة ، والبأس الذى لا نظير له وعرفت صنعة
أذايا الحكيم ، وما فى فن الكتابة كله من أسرار خفية ؛ وقرأت فى بناء
الأرض والسموات وتدبرته ؛ وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر
والنذر ؛ وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت عمليات الضرب
والقسمة المعقدة ، التى لا تتضح لأوّل وهلة . وكان من أسباب سرورى أن
أكرر الكتابات الجميّة الغامضة المدوّنة باللغة السومرية ، والكتابات الأكديّة
التي تصعب قراءتها . . . وامتطيت الأمان ؛ ركبها بحكمة حتى لا تجمح ،
وشددت القوس ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب
المرتجفة كأنها رماح قصيرة . . . وأمسكت بالأعنة كسائق المركبات . . .
ووجهت ناصبى دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التى
يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت
فى الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت فى طرائق
الملكيّة » (٥٥) .

الفصل الرابع

الفن الآشورى

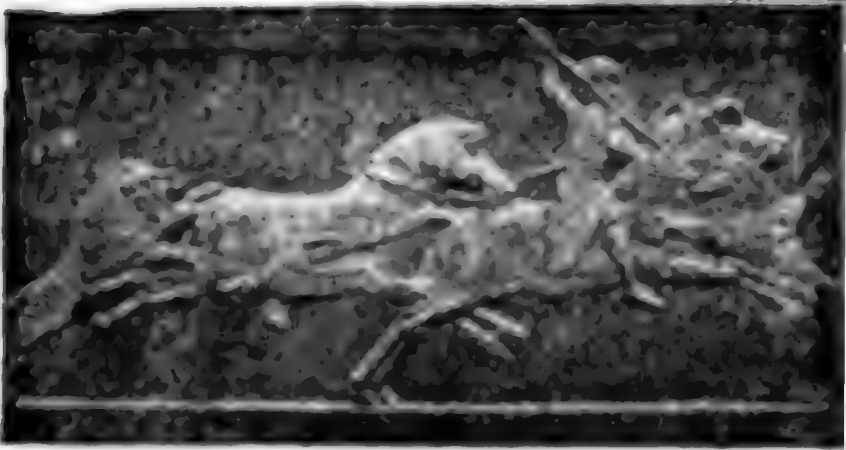
الننون الصغرى - النقش المنخفض - التماثيل - البناء - صفحة من « سردناپلس »

بلغت آشور في آخر عهدها ما باخته معلمتها بابل في الفنون ، وبزتها في النقوش المنخفضة : فقد حفزت الثروة العظيمة التي تدفقت على آشور وكلخ ونيينوى الفنانين والصناع الآشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونساء الأشراف ، وللملوك وقصور الماوك ، وللكهنة والهيكل ، حلياً مختلفة الأشكال ، فصهروا المعادن وبرعوا في تشكيلها وصناعتها كما شاهد ذلك في أبواب بلاوات العظيمة ،



شكل (٣٠) نقش آشورى يمثل مردك يقاتل تيجمات
وجد في كلخ ومحمول في المتحف البريطانى

وفى الأثاث الفخيم الجميل الشكل الدقيق الصنع المتخذ من أئمن الأخشاب ،
والمقوى بالمعادن ، والمرصع بالذهب والفضة والبرنز والأخجار الكريمة (٥٦) .
وكانت صناعة الفخار عندهم منحلة ، وفى الموسيقى لم يزدوا على ما أخذوه
منها عن البابليين ، ولكن التصوير بالطلاء الممزوج بالغراء وصفار البيض
الزاهى الألوان أصبح من الفنون الآشورية الخاصة التى انتقلت إلى بلاد
الفرس فبلغت فيها حد الكمال . وكان التصوير فى آشور كما كان على الدوام
فى بلاد الشرق القديم فناً ثانوياً تابعاً للحرب يسير فى ركابها .



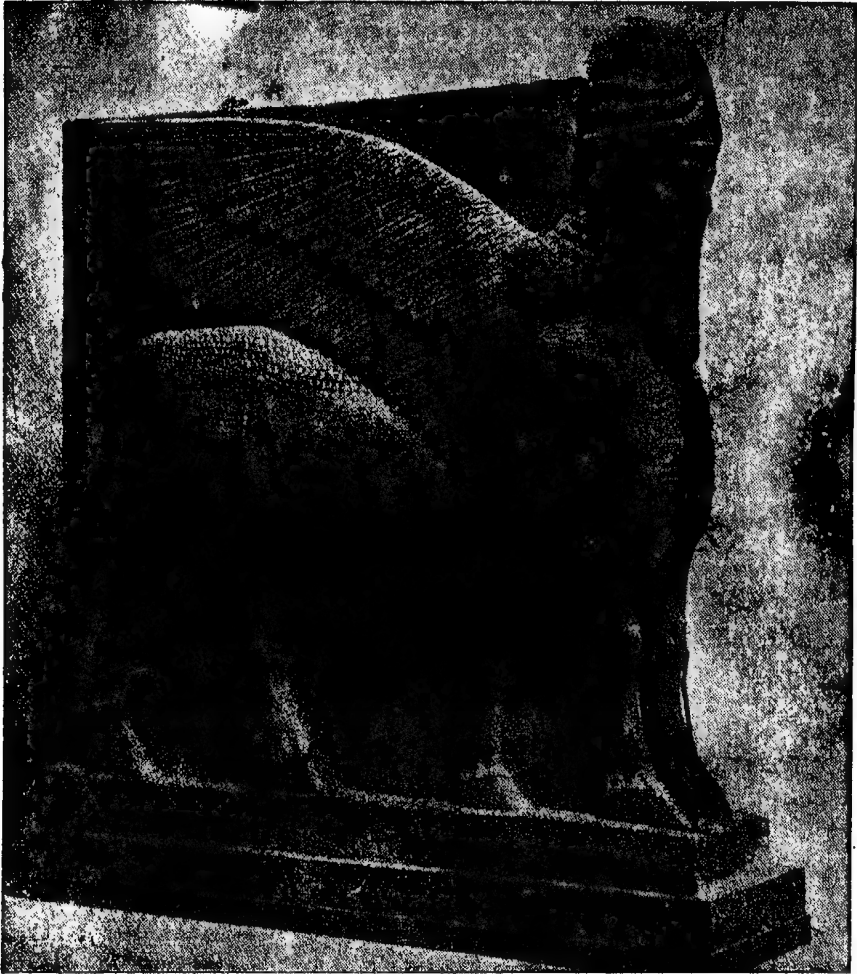
شكل (٣١) صيد الأسد
نقش على المرمر من نينوى - محفوظ فى المتحف البريطانى

وأخرج فن النقش المنخفض (القايل البروز) فى أيام المجد أيام سرجون الثانى
وسنحريب وعسر هدن وأشور بانينال وتشجيع هؤلاء الملوك روائع هى الآن فى
المتحف البريطانى . على أن من أجل آياته تحفة يرجع عهدا إلى آشور بانينال الثانى
وهى من المرمر النقى وتمثل مردك إله الخير يهزم تيامات الخبيث إله القوضى (٥٧) ،
أما صور الآدميين المحفورة فهى جامدة خشنة وكلها متائلة لا فرق بين الواحدة
منها والأخرى ، كأنما قد وضع لها نموذج واحد كامل وفرض عليها أن تحاكيه

شكلى (٢٢) البيرة المنقوشة في فينوى - في الصحف البريطاني



في جميع العهود . ذلك أن للرجال جميعهم رؤوساً ضخمة وشوارب غزيرة ، وبطناً كبيرة ، وأعناقاً لا تكاد تراها العين . وحتى الآلهة نفسها قد صورت بهذه الصور الأشورية لا تستر إلا قليلاً . ولا تظهر حيوية الرجال في صورهم إلا في أحوال



شكل (٣٣) آشور المنح
وجد في قصر شور بانينبال الثاني في كلك - وهو الآن في متحف نيويورك
(١٩ - قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)

جد نادرة ، منها قطعة المرمر المنقوشة التي تمثل الأرواح تتعبد أمام نخلة هندية (٥٨) .
وفي اللوحة الجبرية التي تمثل شمسي أداد السابع والتي عثر عليها في كلخ (٥٩) .
أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهي نقوش الحيوانات ، وما من شك في أن
الفن قديمه وحديثه لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفن الآشوري . إن
الألواح تكرر أمام الأعين مناظر مملّة تمثل الحرب والصيد ، ولكن العين
لا تمل قط من النظر إلى حركات الحيوانات القوية ونفورها الطبيعي ،
وتصويرها البسيط الذي لا تكلف فيه كأنما الفنان الذي حرم عليه أن يصور
ساداته في حقيقتهم وفرديتهم قد وهب كل علمه وحذقه لتصوير الحيوانات .
وهو يصور منها أنواعاً همة لا عديد لها - يصور آساداً ، وخيلاً ، وحيراً
ومعزاً ، وكلاباً وديبة ، وظباء ، وطيوراً ، وجنادب ، ويصورها في كل
وضع من أوضاعها ، ما عدا سكونها . وما أكثر ما يمثلها وهي تعاني سكرات
الموت ، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها مركز الحياة في صورته وفنه .

وهل هناك ما هو أروع من خيل سرجون الثاني في نقوش خراساباد (٦٠) ،
أو اللبوة الجريئة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنخرب (٦١) في نينوى ، أو اللبوة
المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر والتي استخرجت من قصر آشور بانيبال (٦٢) ،
أو مناظر صيد آشور ناصر بال الثاني وأشور بانيبال للآساد (٦٣) ، أو منظر اللبوة
المستريحة (٦٤) ، أو الأسد الذي أطلق من الشرك (٦٥) ، أو القطعة التي نقش عليها
أسد ولبوة يستظلان تحت الأشجار (٦٦) . كل هذه من أجمل روائع هذا الفن
في العالم كله . ولسنا ننكر أن تمثيل الأشياء الطبيعية عن طريق الحفر كان عند
الآشوريين فناً فجاً خشناً يجرى على سنن جامدة محددة ، وأن أشكاله ثقيلة غير
ظريفة ، وأن خطوطه قاسية عسرة ، وأن العضلات مبالغ فيها كثيراً ، وأن كل
ما روعي فيها من قواعد المنظور لا يعدو وضع الشيء البعيد في النصف الأعلى من
الصورة بنفس الأبعاد التي رسم بها ما هو أقرب منه إلى الرسم . وما وضع من

تحتة في الصورة ، على أن المثلين في عهد سنحريب عرفوا كيف يعوضون هذه العيوب بما أخرجوه من صور واقعية قوية ، مصقولة حسب الأصول الفنية ، مثل فيها الفنانون حركاتها أوضح تمثيل ، وليس ثمة فيما نقش من الحيوانات شيء



شكل (٢٤) رأس صر هدن - في متحف برلين

يفوقها حتى اليوم . لقد كان فن النقش المنخفض للأشوريين ما كان فن النحت لليونان ، أو التصوير الزيتي للإيطاليين في أيام النهضة ، كان فناً محبباً إليهم ، يعبر تعبيراً فذاً عن مثلهم الأعلى القوى في الشكل وفي الصفات

هذا ما نقوله عن النقش عند الأشوريين ، أما النحت فكان أقل منه شأنًا وأحط منزلة . ويخيل إلينا أن الحفارين في نينوى وفي كلخ كانوا يفضلون النقش عن التصوير المجسم ، ولذلك لم يصل إلينا من خرائب الأشوريين إلا القليل من التماثيل الكاملة . وليس فيما وصل إلينا منها ما هو ذو قيمة كبيرة . نرى تماثيل الحيوانات مليئة بالحياة والجلال ، كأنها لا تشعر بأنها أعظم من الإنسان قوة فحسب بل تشعر فوق هذا بأنها أرق منه خلقتاً - وحسبنا أن نذكر منها الثورين اللذين كانا يحرسان مدخل خراساباد (٦٧) ؛ وأما تماثيل الأناسى والأرباب فهي خشنة ثقيلة بدائية ، مزينة ولكنها لا فروق بينها ، منتصبة ولكنها ميتة . ولعل من الجائز أن نستثنى من هذا الوصف تماثيل آشور ناصر پال الثاني الضخم المحفوظ في المتحف البريطاني الآن . ذلك أن في وسع الناظر إليه أن يرى فيه من خلال خطوطه الثقيلة ملكاً في كل شبر من جسمه ! يرى الصولحان الملكي وقد قبض عليه قبضة قوية ، والشفتين الغليظتين تمان عن قوة العزيمة ، والعينين القاسيتين اليقظتين ، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الأعداء والمزورين في أخبار الضرائب بالشر المستطير ، ويرى قدمين ضخمتين متزنيتين على ظهر الأرض أكل اتزان .

على أننا يجب ألا نقسو في حكمنا على فن النحت الآشوري ، فأكبر الفن أن الأشوريين كانوا كلّفين بالعضلات المفتولة والرقاب القصيرة ، وأنهم لورأوا نخافة أجسامنا التي لا تكاد تشبه نخافة أجسام النساء ورشاقة هرميز الناعمة الشهوانية كما صورها بركستليز أو علّية أهلون لسخروا من هذا كله أشد السخرية . أما من حيث العمارة الآشورية فكيف نستطيع أن نقدر قيمتها إذا كان كل ما بقى منها أنقاضاً وخربات لا تكاد تعلو عما يحيط بها من رمال ، ولا تفد في شيء إلا الآن

تكون مشجراً يعلق عليه علماء الآثار البواسل ما « يستعيدونه » بخيالهم من أشكال تلك العماثر القديمة . لقد كان الآشوريون كالبابليين [الأقدمين والأمريكيين المحدثين لا ينشدون الجمال في مبانيهم بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة وينشدونهما في ضخامة الأشكال . وجرى الآشوريون في عماثرهم على سبغ الفن في أرض الجزيرة فاتخلوا اللبن مادة أساسية لمبانيهم ، ولكنهم اختلطوا لأنفسهم طريقة خاصة بهم ، بأن اتخذوا واجهاتها من الحجارة أكثر مما فعل البابليون . وورث الآشوريون الأقواس والعقود من أهل الجنوب ، ولكنهم أدخلوا عليها كثيراً من التعديل . وأجروا بعض التجارب على إقامة العمود ، مهدوا بها السبيل للعمود التي في شكل النساء . وللتيجان « الأيونية » الأولية التي نشاهدتها عند الفرس واليونان (٦٨) . ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض ، وكانوا حكماء إذ لم يعلوا بها أكثر من طبقتين أو ثلاث طبقات (٦٩) . وكان القصر يتألف عادة من عدد الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل . وكان يحرس مداخل القصور الملكية حيوانات مهووه من الحجارة ، وتصف حول جدران الردهة القريبة من مدخل القصر وتعلق عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تاريخية ، وكانت تلبط بألواح المرمر ، وتعلق على جدرانها أقسة ثمينة مطرزة مزركشة ، أو تكتسى بالأخشاب النادرة الغالية وتحف بها حلييات جميلة . أما السقوف فكانت تقوى بكتل خشبية ضخمة ، تغطي في بعض الأحيان برقائق من الفضة أو الذهب وتصور عليها من أسفلها بعض المناظر الطبيعية (٧٠) .

وكان أعظم المحاربين الستة من ملوك آشور هم أيضاً أعظم البنائين منهم ، فقد أحاد تغلت فلاصر الأول بناء هياكل آشور بالحجارة ، وقال عن واحد منها إنه « جعل داخله متلاًئلاً كقبة السماء ، وزين جدرانها حتى كانت في لآلاء النجوم المشرقة ، وجعله فخماً ذا سناء وبريق » (٧١) وكان الملوك الذين جاءوا من بعده أسعياء فيما وهبوه للمعابد ، ولكنهم كانوا كسليان يفضلون عليها قصورهم ،

فقد شاد آشور ناصر پال الثانى فى كلخ قصرآ عظيمآ من الآجر المبطن بالحجارة وزينه بالنقوش التى تمتدح التقوى والحروب . وقد كشف راسام عند بلاوات بالقرب من هذا الموضع عن بقايا بناء آخر عثر فيه على بابين كبيرين عظيمين من البرنز دقيق الصنع (٧٢) . وخلد سرجون الثانى ذكره بأن أقام قصرآ فسيحآ عند دور - شروكين (أى حصن سرجون) فى موضع خراساباد الحالية . وكان على جانبى مدخله أثار مجنحة ، وعلى جدرانها نقوش وقرميد برآقى ، وكانت حجراته الواسعة ذات أثاث بديع النقش والصنع كما كانت تزينها تماثيل تبعث فى النفس الروعة والمهابة . وكان سرجون كلها انتصر فى واقعة جاء بالأسرى ليعملوا فى هذا الصرح العظيم ، وجاء بالرخام واللازورد ، والبرنز والفضة ، والذهب ليجمعه بها . وشاد حوله طائفة من الهياكل ، وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب وشاد سنحريب فى نينوى قصرآ ملكياً سماه « المنقطع النظر » يفوق فى ضخامته كل القصور القديمة (٧٣) . وكانت جدرانها وأرضه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة ، وكانت قراميده تنافس فى بريقها آتى النهار والليل ، وصب له صنائع المعادن آسداً وأنواراً ضخمة من النحاس . ونحت له المثلون أثار مجنحة من حجر الجير والمرمر ، ونقشوا على جدرانها للأغاني الريفية . وواصل عسرهدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من عمارتها ، وفاقت مبانيه مباني من سبقوه جميعهم فى روحها وفى أثارها وأدواتها المترفة الثمينة . فقد كانت اثنتا عشرة ولاية تقدم إليه حاجته من المواد والرجال ، ونقل إلى بلاده آراء جديدة عن العمى والنقوش عرفها أثناء إقامته فى مصر ؛ ولما أتم بناء قصوره وهياكله ملأها بالنحف التى غنمها من جميع بلاد الشرق الأدنى وبما رآه فيها من روائع الفن (٧٤) .

وأسوأ ما يمكن أن يقال عن فن العمارة الآشورية أن قصر عسرهدن قد

انهار كله وأصبح أطلالا بعد ستين سنة من بنائه (٧٥) . ويحدثنا آشور بانيبال أنه أعاد تشييده ، ويخيل إلينا ونحن نقرأ نقشه أن القرون التي تفصل ما بيننا وبين هذا العصر قد انطوت ، وأنا نحترق بأبصارنا قلب ذلك الملك :

« وفي ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة في القصر . . . الذي شاده — منحرب ليقم فيه ، وذلك لظون ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداغت جذرائه . وإذ كنت أنا آشور بانيبال ، الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك آشور ، . . . قد نشأت في ذلك الحرم وحفظني فيه آشور ، وسن ، وشمش ، ورامان ، وبل ، ونابر ، ولشتار ، . . . وأنا سولي للعهد ، وبسطوا على حمايتهم الطيبة وملاذم الرضى ، . . . ولم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرتنا بأعدائنا ، وإذ كانت أحلامي وأنا على سريري في الليل أحلاماً سارة ، كما كانت خيالاتي في الصباح مبهجة جميلة ، . . . فقد مزقت خربائه ، وأردت أن أوسع رقعته فزقتها جميعاً . وشدت بناء مساحة أرضه خمسون تيكلي ، وبنيت ربوة ولكنني وقفت خائفاً أمام مزارات أربابي الآلهة العظام ، فلم أعل بهذا البناء كثيراً . وفي شهر طيب ، ويوم موت ، وضعت أساسه فوق تلك الربوة ، وأقمت البناء ، وصبيت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباء مؤنه ، كما صبيتها على جداره الطيني . ولكي أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبئات في عربات عيلام التي غنمها منهم بأمر الآلهة . وسخرت ماوك بلاد العرب الذين نقضوا الهدنة معي ، والذين أسرتهم في الحرب بيدي وهم أحياء ، يحملون الأسفاط و (يابسون) قلائس الفعلة ليشيدوا ذلك الحرم . . . وكانوا يقضون نهارهم في صنع اللبئات ويرغمون على العمل فيه أثناء عزف الموسيقى . وشدت بناءه من قواعد حتى سقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما

كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ، ووضعت فوقه كتلا طويلة من
أشجار الأرز التي تنمو على سرارا ولبنان ، وغطيت الأبواب المصنوعة
من خشب اللبارو ذى الرائحة الذكية ، بطبقة من النحاس وعاقتهما في
مداخله ... وزرعت حوله أبنكة حوت بجميع أنواع الأشجار ، والفاكهة ...
على اختلاف أصنافها . . . ولما فرغت من أعمال بنائه قربت إلقرابين
العظيمة للإلهة أربابى ، ودشنته وأنا مغتبط منشرح الصدر ، ودخلته تحت
ظلة فخمة (٧٦) .

الفصل الخامس

خاتمة آشور

آخر أيام ملك - أسباب انحلال آشور - سقوط نينوى

يبد أن « الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك آشور » أخذ في آخر أيامه يتدب سوء حظه . وآخر ما خلفه لنا من الألواح يشير مرة أخرى مسألتى سفر الجحامة وسفر أيوب :

« لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ؛ فلم إذن أصابنى المرض وحلّ بى الشقاء ؟ إني عاجز عن إخماد الفتن التى فى بلىدى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزعجة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطأ من إشرافى ، وهأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ؛ بائساً فى يوم إله المدينة ، يوم العيسد . المنية تنشب فى أظفارها ، وتنحدر بى نحو آخرتى . أندب حظى ليلاً ونهاراً ، . وأنوح وأعول وأتوجع : « أى إلهى ! هب الرحمة لإنسان وإن كان عافاً حتى يرى نورك ! » (٧٧) (*) .

(*) ويصغر ديودور هذا الملك فى صورة من أحد يتغنى عمره فى إشباع شهواته النسائية والفجور والفسق المُنْتِ . ولنا نعرف على أى شيء استند ديودور فى هذا الاتهام . ثم إنه يعزو إليه أنه هو واضع هذه العبارة التى على قبره :

إنك تعلم من العلم أنك قد ولدت للفناء
قاطرب ، وابتهج فى الأعياد .
وإذا مت فإن يبق لك بعدئذ ما يسرك ،
ومن أحل هذا فزنى ،
وقد حكمت من قبل نيلس المظيمة ،
لست الآن إلا تراباً .

ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجتها بها
فى محياى - الطعام الذى أكلته ، واللهو الذى
استمتعت به ، وملاذ الحرب ومسراتها .

أما ما عدا هذا عن الأشياء التى يراها الناس نعماً فقد تركتها خلفى (٧٨)

ولمنا لا نجد شيئاً من التناقض بين هذا المزاج وبين المزاج الذى تصوره نصوص هذا الكتاب ؛ فقد يكون أحدهما تمهيداً طيباً للآخر .

ولسنا نعرف كيف قصى آشور بانيبال نحيبه . فأما القصة التي وضعها
بيرن في قالب مسرحية ، والتي تقول إنه أشعل النار في قصره فهلك وسط
اللهب ، فإن مردها إلى اكتسياس (٧٩) وهو مؤرخ مولع بإيراد كل ما هو
غريب ، وقد لا تكون إلا أسطورة من الأساطير . ومهما تكن ميته فقد
كانت نذيراً بما سيؤول إليه أمر بلاده ورمزاً لآخرتها ؛ لقد كانت هي
الأخرى مقبلة على الفناء لأسباب بعضها من صنع يده . ذلك أن حياة آشور
الاقتصادية كان جُلّ اعتمادها على ما يصل إليها من خارجها ، وقد أسرف
ملوكها في الجرى على هذه السياسة الحمقاء ، فكان مصدر حياة البلاد هو
الفتوح الخارجية التي تأتيها بالمال الوفير من الغنائم والمتاجر . وتلك سياسة
تعرضها للخراب في أية لحظة إذا ما هزمت جيوشها في واقعة حاسمة . وسرعان
ما أخذت الصفات الجسمية والخلقية ، التي جعلت الجيوش الآشورية رهبة
لا تقهر في ميدان القتال ، تضعف بتأثير الانتصارات التي نالها هؤلاء
الجنود ؛ ذلك أن كل واقعة تنتصر فيها آشور كان يهلك فيها أقوى جنودها
وأبسلمهم ، فلا ينجو من القتل إلا الضعاف والمترددون والحدرون يعودون
إلى بلادهم ليكثر من نسلهم ، وتلك خطة مآلها إضعاف النسل ، ولعلها
كانت من أسباب ارتقاء الحضارة لأنها انتزعت من البلاد أشد الناس
وحشية ، ولكنها قوضت الأساس الحيوي الذي شادت عليه آشور قوتها .
وكان اتساع فتوحها سبباً آخر من أسباب ضعفها . ولم يكن لإفقار الحقول من
زراعتها لإطعام إله الحرب النهم هو السبب الوحيد في هذا الضعف ، بل كان له سبب
آخر وهو أن فتوحها جاءت إليها بالأسرى وبملايين من الأجانب المملقين الذين تناسلوا
كما تناسل المدمون البائسون ، فلم يبقوا على شيء من الوحدة القومية في الجسم
والخلق . وكانوا لكثرتهم المطردة قوة معادية تعمل على الضعف والانحلال بين
الفتاحين أنفسهم . وأخذ هؤلاء الرجال القادمون من البلاد الأجنبية يزداد عددهم
في الجيش نفسه بينما كان الغزاة أنصافهم يهاجمون البلاد من جميع أطرافها ،

ويستنزفون مواردها في سلسلة لا آخر لها من الحروب للدفاع عن تخومها غير الطبيعية .

ومات آشور بانيبال في عام ٦٢٦ ق . م : ، وبعد أربعة عشر عاماً من موته اجتاح البلاد جيش من البابليين بقيادة نبوخذ نصر ومعهم جيش من الميديين بقيادة سياخار وجحافل أخرى غير نظامية من السكوذيين أهل القفقاس ، وسرعان ما استولت هذه الجيوش على القلاع الشمالية بسهولة عجيبة : وخربت نينوى تخريباً لا يقل في قسوته وشموله عما فعله ملوكها من قبل بالسوس وبابل ، فأشعلت النار في المدينة ، وذبح أهلها أو سيقوا أسرى ، ونهب القصر الذي شاده آشور بانيبال من عهد قصير ثم دُمّر أشنع تدمير . وهكذا اختتمت آشور من التاريخ ، ولم يبق منها إلا بعض أفانين الحرب وأسلحتها ، وتيجان لولبية لبعض عمداء النصف « الأيونية » ، وبعض النظم الإدارية لحكم الولايات انتقلت منها إلى الفرس ومقدونية ورومة . وظل الشرق الأدنى بعض الوقت يذكر لها قسوتها في توحيد نحو اثنتي عشرة دولة صغيرة تحت سلطانها ، وتحدث اليهود عن نينوى حديثاً ينطوي على الحقد والضعينة ووصفوها بأنها : « المدينة الدموية » ، التي تفيض بالكذب والصوصية » (٨٠) . وما هي إلا فترة قصيرة حتى نسي الناس أسماء ملوكها العظام ما عدا أعظمهم قوة وبطشاً ، وأصبحت قصورهم خربات دارسة تحت الرمال السافية . وبعد مائتي عام من الاستيلاء على نينوى وطشت جيوش أكسوفون التي تبلغ عدتها عشرة آلاف مقاتل الأكوام التي كانت من قبل نينوى ، ولم يدر بخولدها قط أن هذه الأكوام بعينها هي موضع الحاضرة القديمة التي كانت تحكم نصف العالم . ولم تقع أعين هذه الجيوش على حجر واحد من حجارة الهياكل التي حاول جنود آشور الانتقاء أن يحملوا بها أعظم عواصمهم . وحتى آشور نفسه إلهها الخالد أمسى في عداد الموتي .

ملحوظة : استعنا في تحقيق أسماء الأماكن الواردة في هذا الباب وفي البابين السابقين بالخرائط الجغرافية والتاريخية التي تفضت بإمارتنا إيها المفوضية العراقية بالقاهرة ووزارة الخارجية العراقية . (المترجم)

الباب الحادى عشر

خليط من الأمم

البعض بالآفل

الشعوب الهندورية

مصرح الأجناس - الميتانيون - الحثيون - الأرمن - السكوثيون -

الفرجييون - الأم المقدسة - الليديون - كروسس -

العملة - صولون وقورش

كان الشرق الأدنى فى عهد نبوخذ نصر يبدو للعين البعيدة الفاحصة كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين ، يأثفون ثم يتفرقون ، يستعبدون ثم يستعبدون ، يأكلون ويؤكلون ، ويقتلون ويقتلون إلى غير نهاية . وكان من وراء الإمبراطوريات الكبرى ومن حولها - مصر وبابل وأشور والفرس - يضطرب هذا الخليط من الشعوب نصف البدوية نصف المستقرة : الكرميين ، والقليقيين ، والكيدوكيين ، والبنونيين ، والأشكانيين ، والميزيين ، والميونيين ، والكرييين ، والنفيليين ، والزيديين ، واللوكوانيين ، والفلسطينيين ، والعموريين ، والكنعانيين ، والإدميمين ، والعمونيين ، والموابيين وعشرات العشرات من الشعوب الأخرى التى كان كل شعب منها يظن نفسه مركز الأرض ومحور التاريخ ، ويعجب من جهل المؤرخين وتجزهم إذ لم يقتصروا إلا بفقرة أو فقرتين فى كتبهم .

وكان هؤلاء البدو طوال تاريخ الشرق الأدنى خطرا يهدد الممالك التى كانت

أكثر منهم استقراراً ، والتي كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريباً . وكان الجذب يدفع بهم من حين إلى حين إلى هذه الأصقاع الغنية ، فتشب بينها وبينهم الحرب ، أو يتطلب منها ذلك الاستعداد الدائم للحرب^(١) . وكان الذى يحدث عادة أن تموت المملكة المستقلة ، وتحيا من بعدها القبيلة البدوية التى اجتاحت أراضيها فى آخر الأمر . والعالم ملىء بالأصقاع التى ازدهرت فيها الحصار فى يوم من الأيام والتي عاد البدو يجوسون خلالها من جديد .

وفى بحر الأجناس المتلاطم أخذت بعض الدول الصغرى تتشكل ، ويكون لها نصيب صغير فى تراث الجنس البشرى ، وإن لم يزد نصيبها هذا على أن تكون ناقلة وموصلة . وبهمنا من هذه الشعوب الميتانيون ، وليس ذلك لأنهم أعداء مصر الأقدمون فى الشرق الأدنى ، بل لأنهم أول الشعوب الهندورية التى عرفناها فى آسية ، ولأنهم أول عبدة الآلهة - مبرا ، وإندرا ، وفرونا - التى انتقلت منهم إلى فارس والهند ، فأعانتنا بانتقالها على تبسح حركات الجنس الذى كان يطلق عليه من قبيل التيسير الجنس « الآرى »^(*) .

وكان الحثيون من أقوى الشعوب الهندورية القديمة ومن أكثرها حضارة ، وأكبر الظن أنهم جاءوا عن طريق البسفور والهلسينث (الدردنيل) وبحر إيجه ، أو عن طريق القفقاس ، واستقروا طبقة عسكرية حاكمة تسيطر على الزراع سكان البلاد الأصليين فى شبه الجزيرة الجبلية الواقعة جنوبى البحر الأسود والمعروفة الآن باسم آسية الصغرى . وزارهم حوالى ١٨٠٠ ق . م مستقرين قرب منابع دجلة والفرات ، ثم نشروا بعدئذ جيوشهم وبسطوا نفوذهم فى سوريا ، وأقلقوا بال

(*) كان أول ظهور لفظ الآريين عند الحىرى إحدى قبائل أمة الميتاني . وكان هذا اللفظ اسماً أطلقته على نفسها مجموعة الشعوب الفارسية بقرب ش.إطى^١ بحر قزوين أو التى كان أصلها من يضر بون بالقرب من هذه الشواطئ^٢ . أما اليوم فإن هذا اللفظ يطلق بنوع خاص على الميتانيين والحثيين ، والميديين ، والفرس ، والهنود القدا - أى على الشعبة الشرقية من الشعوب الهندورية التى صمرت شعبتها الغربية بلاد أوروبا^(٣) .

معبر القوية حيناً من الزمان . ولقد رأينا كيف اضطر رمسيس الثانى أن يعقد الصلح ، وأن يقر ملك الحثيين بأنه نده . واتخذ الحثيون عاصمتهم عند بوغاز كوى(*) وجعلوا أساس حضارتهم فى أول الأمر الحديد الذى استخرجوه من الجبال المتاخمة لأرمينية ، ثم الشرائع التى تأثرت كثيراً بشرائع حمورابى ، ثم ما طبعوا عليه من إدراك ساذج للجمال حفزهم إلى نحت تماثيل مجسمة ضخمة سمجة أو نقرها فى صخور الجبال(**) . وكانت لغتهم تنتمى فى أكثر ألفاظها إلى أسرة اللغات الهندوربية ، وقد حل رنزى رموزها من عهد قريب بدراسة الاثنى عشر ألف لوح التى عثر عليها هيوجو ونكلر فى بوغاز كوى . وهى فى اشتقاقها وتصريفها شديدة الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية ، ومن كلماتها البسيطة ما هو ظاهر القرابة لكلمات الإنجليزية (+) ٥ وكان للحثيين خط تصويرى يكتبونه بطريقتهم الخاصة العجيبة . إذ كانوا يكتبون سطرأ من الشمال إلى اليمين ، ثم يكتبون السطر الذى يليه من اليمين إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين وهكذا دواليك . وأخذوا الخط المسمارى عن البابليين ، وعلموا أهل كريت صنع الألواح الطينية ليكتبوا عليها ، ويظهر

(*) فى شرقى نهر هاليس ، وبالقرب منها على الضفة الأخرى من النهر تقع مدينة أفقرة عاصمة تركيا الحديثة ، وهى ابنة أنقورة التى كانت فى الأيام القديمة حاضرة فريجيا . وقد يكون ما يعيننا على رسم صورة ثقافية متناسبة الأبعاد أن ندرك أن الأتراك الذين نسميهم « مرعيين » يفخرون بتقديم عاصمتهم ويرثون لحال أوروبا التى يسيطر عليها البرابرة الكفرة . إن كل بقعة فى العالم لتعد بلا جدال مركزاً له .

(**) وقد كشفت البارون فون أوبنهايم عند تل حلف وغيره من الأماكن كثيراً من تحف الحثيين الفنية ، وجمعها فى متحفه ، وهو مصنع مهجور فى برلين . ويرجع كاشف هذه الآثار تاريخ منظرها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م ، ويرجع بعضها إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وتحوى هذه المجموعة طائفة من الآساد منحوتة فى الحجر نحماً سادجاً ولكنه قوى ، وتماثيل الثالوث الآلهة الحثية - إله الشمس ؛ وإله الجو ، وهبات إشار الحثيين . وأعظم ما يروعننا من هذه التماثيل تماثيل لأبى الهول قبيح المنظر ، وضع أمامه وعاء من الحجر ليقرب فيه القرابان . (+) انظر مثلاً غادر Water إذا Eat ، أو جانا أنا I (وبلاتينية Fgo) توج hee ، فث we ، مو me ، كوش who (وباللاتينية quis) ، كوت what (باللاتينية quid) وغيره(٣) .

أنهم اختلطوا بالعبرانيين الأقدمين اختلاطاً شديداً أكسب هؤلاء أنفسهم الألفى الشديد القنا . ومن ثم فإن من واجبنا أن نعد هذه الخاصة العبرية (آرية) حقة (٤) . ومن الألواح التي بقيت إلى هذه الأيام ما يحتوى على مفردات حشية وما يقابلها باللغتين السومرية والبابلية ، ومنها ما هو أوامر إدارية تكشف عن دولة عسكرية ملكية متماسكة ؛ ومنها حطام ألواح تبلغ عدتها مائتين تحوى على طائفة من القوانين من بينها قواعد لتحديد أثمان السلع (٥) . ولقد اختفى الحثيون من صفحة التاريخ اختفاء يكاد يشبه في غرابته ونموضه ظهورهم فيها ، فقد اندثرت عواصمهم واحدة بعد واحدة — ولعل سبب اندثارها أن ميزتهم العظيمة التي فاقوا بها غيرهم من الشعوب ، وهى معرفة الحديد ، أضحت في متناول منافسيهم وسقطت قرقيش آخر عواصمهم في يد الآشوريين عام ٧١٧ ق . م .

وكان إلى شمال بلاد آشور أمة مستقرة إذا قيست إلى غيرها من الأمم ، يعرفها الآشوريون باسم أرارتو ، والعبرانيون باسم أراتات ، ومن جاء بعدهم من الأمم باسم الأرمن . واحتفظ الأرمن بحكومتهم المستقلة ، وعاداتهم وفنونهم الخاصة ، قروناً كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون ، وتستمر إلى أن بسط الفرس سلطانهم على آسية الغربية بأجمعها . وأثروا في أيام أرجستس الثانى أعظم ملوكهم (حوالى ٧٠٨ ق ، م) من تعدين الحديد وبيعه في بلاد آسية واليونان ، وبلغوا درجة عظيمة من الرخاء وسهولة العيش والحضارة والآداب العامة ، وشادوا المباني العظيمة من الحجارة ، وصنعوا المزهريات والتماثيل الصغيرة الجميلة الدقيقة . ولكنهم أضاعوا ثروتهم في الحروب الهجومية الكثيرة النفقات ، وفي صد غارات الآشوريين عن بلادهم . ثم بسط عليهم الفرس سلطانهم في أيام قورش الفاتح ٥ وإلى شمال الأرمن ، وعلى ضفاف البحر الأسود ، كان يتجول السكوديون وهم عشائر حربية تتألف من خايط من المغول والأوربيين ، جابرة متوحشون ملتحمون ، يقيمون في عربات ، ويبقون نساءهم في عزلة شديدة (٦) ، ويركبون

الخليل البرية حارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، ويشربون دماء أعدائهم ، ويتخذون جلود رؤوس هؤلاء الأعداء قطائل لهم (٧) ، أضحفوا أشور بغاراتهم. اللدائمة عليها ، واجتاحوا غرب آسية (حوالى عام ٦٣٠ - ٦١٠ ق . م) أخذوا يدمرون فى طريقهم كل شىء ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى مدن دال النيل نفسها ، ثم فشا فيهم وباء غريب مجهول قضى على عدد كبير منهم ، وغلبهم آخر الأمر الميديون ، وردوهم على أعقابهم إلى مساكنهم فى الشمال (٨) (*) وإنا لنلمح فى هذه القصة ومضمة أخرى من المأساة التى تتكرر على الدوام فى جميع العصور ، وهى ما تفعله للقبائل الهمجية الرابضة وراء الأمم القديمة جميعها والمحيط بها .

وظهرت فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة فى آسية الصغرى ، ورثت بقايا الحضارة الحثية ، وكانت حلقة اتصال بينها وبين ليديا وبلاد اليونان . وكانت الأساطير التى حاول بها الفريجيون أن يفسروا للمؤرخين المتشوفين قيام دولتهم قصة رمزية لقيام الأمم وسقوطها . فهم يقولون إن جورديوس أول ملوكهم كان فلاحاً بسيطاً لم يرث من أبويه إلا ثورين اثنين (**) ، وإن ابنه ميداس ثانى أولئك الملوك كان رجلاً متلافياً أضعف الدولة يشرارته وإسرافه

(*) يحدثنا أبقراط أن « نساءهم ، طالما كن عذارى : يركبن الخيل ، ويصعدن ، ويرمين بالحرايب وهن على ظهور الخيل ، ويحاربن أعداءهن . ولا يسمحن بفحص بكاكتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من هؤلاء الأعداء . . . والمرأة التى تتخذ لها زوجاً لا تقا تل قط بعد الزواج ، إلا إذا أرضعت على هذا العمل بالاشتراك فى حملة عامة . وليس لهؤلاء النساء ثدى أيمن ، وذلك لأن أمهاتهن يأتين بأداة من البرنز متوهجة من شدة حرارتها تصنع لهذا الغرض خاصة ويكوئنهن بها وهن فى سن الرضاع فى مكان ثديهن الأيمن ، فيقف بذلك نموه وتتحول كل قوته ونمائه إلى الكتف الأيمن والذراع اليمنى » (٩) .

(**) وأمر الهاتف زبوص الفريجين أن يختاروا ملكاً عليهم أول رجل يدخل الهيكل فى عربة ، وكان هذا الداخل هو جورديوس . ووهب الملك الجديد الإله حريته . وتبعاً هاتف جديد بأن من يفلح فى حل العقدة المشكلة التى تربط النير بعريش العربة يحكم جميع بلاد آسية . فجاء الإسكندر - حسبما ترويه القصة - وقطع العقدة الجوردية بشرية سيفه .

الذين مثلهما الخلف بالأسطورة الماثورة التي تقول إنه طلب إلى الآلهة أن تهبه القذرة على تحويل كل ما يمسه إلى ذهب. وأجابت الآلهة طلبه فكان كل ما يمس جسمه يستحيل ذهباً حتى الطعام الذي تلمسه شفناه. وأوشك الرجل أن يموت جوعاً ، لكن الآلهة سمحت له أن يطهر نفسه من هذه النقمة بأن ينقل في بكتولس - وهو النهر الذي ظل بعدئذ يخرج حياً من الذهب .

واتخذ الفريجيون طريقهم من آسية إلى أوربا ، وشادوا لهم عاصمة في أنقورة ، وظلوا وقتاً ما ينازعون آشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى ، واتخذوا لهم إلهة - أمماً تدعى ما ، هم عادوا فسموها سيبيلا ، واشتقوا هذا الاسم من الجبال (سيبيلا) التي كانت تعيش فيها ، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المنزرعة ، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة . وأخذوا عن أهل البلاد الأصليين طريقة خدمة الإلهة بالدعارة المقدسة ، ورضوا بأن يضموا إلى أساطيرهم الشعبية القصة التي تقول إن سيبيلا أحببت الإله الشاب أرتيس (٥) وأرغمته على أن يخصى نفسه تكريماً لها . ومن ثم كان كهنة الأم العظيمة يضمحون لها برجولهم حين يدخلون في خدمة هياكلها (١١) . وقد سحرت هذه الخرافات الوحشية لب اليونان وتغلغل في أساطيرهم وأدبهم . وأدخل الرومان الإلهة سيبيلا رسمياً في دينهم ، وكانت بعض الطقوس الخليعة التي تحدث في حفلات المساحر الرومانية مأخوذة عن الطقوس الوحشية التي كان الفريجيون يتبعونها في احتفالهم بموت أرتيس الجميل وبعثه (١٢) .

وانتهى سلطان الفريجين في آسية الصغرى بقيام مملكة ليديا الجديدة التي أسسها الملك جيجيس واتخذ سرديس عاصمة لها . ثم حكمها أليxis أربعين سنة بلغت في خلالها درجة عظيمة من الرخاء والقوة ثم ورثها كروسس (٥٧٠ - ٥٤٦ ق . م) واستمتع بها أيما استمتاع ، ووسع رقعتها بما فتحه من أقاليم

(٥) . تحدثنا الأساطير بأن أرتيس ولدته نانا الإلهة للعداء بمعزة من المعجزات ، وبأنها حملت فيه موضع رملة بين ثديها (١٠) .

جديدة شملت آسيا الصغرى جميعها تقريباً ، ثم أسلمها آخر الأمر إلى الفرس واستطاع بفضل الرشى السخية التي كان يقدمها الساسة المحليين أن يخضع إلى ليديا اللويالات التي كانت تحيط بأملأكه واحدة بعد واحدة ، كما استطاع بضحاياه المنقطعة النظر والتي كان يقدمها قرباناً إلى الآلهة المحلية أن يهدئ من غضب شعوب تلك اللويالات ، وأن يقنعها بأنه حبيب آلهتهم . وامتاز كروسس عن غيره من الملوك بسك نقود ذهبية وفضية ذات شكل بديع تضر بها الدولة وتضمن قيمتها الاسمية . وليست هذه هي أول المسكوكات الرسمية التاريخية كما اعتقد المؤرخون زمناً طويلاً ، وليست هي بلا جدال بداية اختراع المسكوكات (*) ، ولكنها مع هذا كانت مثالا يحتذى ساعد انتشار التجارة في بلاد البحر المتوسط . لقد ظل الناس قروناً طويلاً يستخدمون معادن مختلفة لتقدير قيم البضائع وتسهيل تبادلها ، ولكنها سواء كانت النحاس أو البرنز أو الحديد أو الفضة أو الذهب كانت في أغلب البلاد تقدر قيمتها في كل عمل تجارى حسب وزنها أو حسب غيره من الاعتبارات . لهذا كان استبدال عملة قومية معترف بها رسمياً بهذه الوسائل المشعة لإصلاحاً عظيم القيمة في عالم التجارة ، فقد يسرت هذه الوسيلة الجديدة انتقال السلع ممن يحسنون إنتاجها إلى من هم في أشد الحاجة إليها ، فزاد ذلك من ثروة العالم ، ومهّدت السبيل لقيام المدينيات التجارية كمدينيات الأيونيين واليونان ، حيث استخدمت الثروة التي جاءت من طريق التجارة لتمويل الأعمال الأدبية والفنية .

ولم يصل إلينا شيء من الأدب الليدي ، كذلك لم يبق قط شيء من المزهريات الجميلة القيمة المصنوعة من الذهب والحديد والفضة والتي تقرب بها كروسس للآلهة التي غلبها . وتدل المزهريات التي وجدت في مقابر الالميديين والتي

(*) وجدت مسكوكات أقدم من هذه عهداً عند موهنجو - دارو في الهند (٢٩٠٠ ق . م ، ولقد رأينا من قبل كيف سك سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) قطعاً من النقود قيمتها نصف ثافل .

يحتويها الآن متحف الاوفر على أن ما كان لمصر وبابل من إزعامة على الفن في ليديا أيام كروسس قد أخذ يحل محله نفوذ اليونان المتزايد ، وكان لهذه المزهريات من دقة الصنع ما يعادل أمانتها وإخلاصها للطبيعة . ولما زار هيرودوت ليديا وجد أن عادات أهلها لا تكاد تمتاز عن عادات اليونان أهل بلاده ، ويقول إن ما كان باقياً لديهم من هذه العادات التي تميزهم عن اليونان هو أن بنات الغامة منهم كن يكسبن بائنتهن من الدعارة (١٣) . وهذا المؤرخ الثرثار نفسه هو أهم ما نعتد عليه من المراجع في القصة التي تروى عن كيفية سقوط كروسس . فهو يقص علينا كيف عرض كروسس ثروته على صولون ، ثم سأله عن يراه أسعد الناس . وبعد أن ذكر صولون أسماء أشخاص ثلاثة كلهم من الموتى أبي أن يقول إن كروسس سعيد ، وحجته في هذا أنه لا يعرف أى المصائب قد يأتى بها الغد . وأخرج كروسس المشرع العظيم من عنده معتقداً أنه إنسان أبله . ثم أخذ بعدئذ ياتمر ببلاد الفرس ، وما لبث أن رأى جمحافل قورش على أبوابه . وانتصر عليه الفرس بفضل ما كان لجحالمهم من راحة نكتة قوية — كما يقول هذا المؤرخ نفسه — لم تطفها جياذ الليدين ، فجمحت ودحر الليديون ، وسقطت سريديس . وتقول الرواية القديمة إن كروسس أعد كومة كبيرة من الحطب ، واتخذ مكانه عليها ومن حوله أزواجه وبناته ومن بقى على قيد الحياة من أبناء بلاده ، ثم أمر خصيائه أن يحرقوهم جميعاً . وذكر في اللحظات الأخيرة من حياته قول صولون ، فأسف على جهله وقلة تبصره ، وأخذ يلوم الآلهة التي تقبلت جميع قرابينه وجازته عليها بالخراب والهلاك . وأشفق عليه قورش — إذا جاز لنا أن نأخذ برواية هيرودوت (١٤) — وأمر بالنار أن تطفأ ، وأخذ كروسس معه إلى فارس ، وجعله من أقرب مستشاريه ومن أكثرهم جدارة بثقته .

الفصل الثاني

الأقوام الساميون

قدم العرب - الفينيون - تجارتهم العالمية - طوافهم حول أفريقيا .
مستعمراتهم - صور وصيدا - آلهتهم - نشر الحروف
الهجائية - سوريا - دشتورت - موت أدنيس
وبعثه - التضحية بالأطفال

إذا حاولنا أن نقلل من اضطراب اللغات وتباينها في الشرق الأدنى بقولنا إن معظم الشعوب التي كانت تسكن في الأجزاء الشمالية من هذا الإقليم شعوب هندورية وإن التي تقطن الأجزاء الوسطى والجنوبية منه والممتدة من آشور إلى جزيرة العرب شعوب سامية(*) ، إذا حاولنا هذا فإن من واجبنا في الوقت نفسه أن نذكر أن الحقائق ليست واضحة المعالم إلى هذا الحد ، وأن الفوارق بين الأجناس ليست بهذه الصورة التي نرسمها للنفرة بينها تيسيراً للبحث ، لسنا ننكر أن بلاد الشرق الأدنى تقسمها الجبال والصحارى إلى بيئات مختلفة منعزلة بعضها عن بعض بطبيعتها ، وأنها لذلك تختلف في لغاتها وتقاليدها . ولكن التجارة قد عملت على مزج لغات هؤلاء الأقوام وعاداتهم وفنونهم في طرقها الرئيسية (كالطريق الممتد على شواطئ النهرين الكبيرين من نينوى وقرقيش إلى الخليج الفارسي) ، هذا إلى أن هجرة الشعوب ونقل جماعات كبيرة منها قسراً لأغراض استعمارية قد مزجها الأجناس واللغات المختلفة مزجاً كان من آثاره أن صحب اختلافها في الدم بعض التجانس في الثقافة . ومن ثم فإننا إذا سمينا بعض الشعوب هندورية فلنما نقصد بهذه التسمية أن هذه هي الصفة الغالبة عليها ؛ وإذا قلنا إن شعباً ما « سامياً » فإن

(*) لفظة سامية مشتقة من سام الذي يقال إنه أبو الشعوب السامية كلها .

كل ما نعتيه أن السامية غالبية فيه : ولكن الحقيقة أنه لا توجد سلالة صافية ولم توجد قط ثقافة لم تتأثر بثقافة جيرانها أو ثقافة أعدائها . ومن واجبتنا أن ننظر إلى هذه الرقعة الواسعة على أنها بيئة تدفقت على أجناسها المختلفة طوائف من هذا الجنس أو ذاك ؛ فغلب عليها الجنس الهندوروبي تارة وغلب عليها السامي تارة أخرى ، ولكن غلبة هذا الجنس أو ذاك لم تثمر من الناحية الثقافية إلا اصطباغ هؤلاء الغالبين بالصفات الثقافية العامة في مجموع هذه الأجناس . فقد كان بين حورابى ودارا الأول مثلاً اختلاف كبير في الدم والدين ، وكان يفصل بينهما من القرون ما يكاد يفصل منها بيننا وبين المسيح ، ولما كنا إذا درسنا هذين العاهلين العظميين دراسة دقيقة ، أدركنا أن من وراء هذا الاختلاف قرابة جوهريّة بعيدة القرار .

وهند الجنس السامى ومرباه جزيرة العرب ، فمن هذا الصقع الجذب حيث ينمو « الإنسان شديداً عنيفاً ، حيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق » ، تدفقت موجة في إثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدي البأس لا يهابون الردى ، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكان لا بد لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلاً يعولهم ويقوم بأودهم . فأما من بقى منهم فى بلادهم فقد أوجلبوا حضارة العرب والبلد ؛ وأنشؤا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، ونخلقوا بالجزيرة وليدة البيئة الشاقة الضئيلة ، والشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن أمراً جدياً بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام ؛ ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة لأنهم كانوا يرونها خليفة بالنساء ومن أسباب الضعف والاخلال . وظلوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى ، تنكس في ثغورهم غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل . وشادوا في قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور

والهياكل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على الحجى إليها ورويتها .
ولقد بقى هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم ، محافظين
على عاداتهم وأخلاقهم ، متمسكين بآرائهم ، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا
فى أيام كيويس وجوديا . ولقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتنفى من
حوطهم ، ولا تزال أرضهم مأكلاً لهم يعضون عليها بالنواجذ ، ويحمونها من
أن تطأها الأقدام الدنسة أو تنظر إليها الأعين الغريبة .

والآن يحق للقارئ أن يسأل من هم أولئك الفينيقيون الذين تردد ذكرهم
فى هذه الصحف ، والذين مخرت سفنهم عباب البحار كلها فلم يكن يخلو ثغر
من تجارهم يسامون فيه ويبيعون ويشترون ؟ إن المؤرخ ليستحى إذا سئل عن
أصلهم فهو لا يرى بدا من الاعتراف بأنه لا يكاد يعرف شيئاً من التاريخ
الباكر أو التاريخ المتأخر لهذا الشعب الذى نراه فى كل مكان ، ولكنه يفلت
منا إذا أردنا أن نتمسك به لنخبره وندرسه (١٥) : فلنأنا نعرف من أين
جاء الفينيقيون ، أو متى جاءوا ، ولنا واثقين من أنهم ساميون (*)
أما تاريخ قدومهم إلى شاطئ البحر المتوسط فليس فى وسعنا أن نكذب
ما قاله علماء صور لهيرودوت ، وهو أن أجدادهم قدموا إلى بلادهم هذا من
شواطئ الخليج الفارسى ، وأنهم شادوا تلك المدينة فى العهد الذى نسميه
نحن القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح (١٦) . بل إن اسمهم نفسه لمن
المشاكل العسيرة الحل . فقد يكون معنى لفظ الفوانكس الذى اشتق منه
اليونان هذا الاسم هو الصبغة الحمراء التى كان يبيعها تجار صور ، وقد يكون
معناه النخلة التى تترعرع على الشواطئ الفينيقية (**) ، وكان ذلك الشاطئ ،
وهو شريط ضيق من الأرض يبلغ طوله ١٠٠ ميل ولا يزيد عرضه على عشرة

(*) يقول أوتران إنهم كانوا فرعاً من فروع الأقوام الذين أنشأوا الحضارة الكريتية (١٦).
(**) يكتب هذا الاسم أحياناً بالواو بدل الياء فيقال فونيقية وفونيق ولعل هذا أصوب وإن لم
يكن مؤكداً كل التأكيد ، ولكننا أقرنا اللفظ القديم المؤلف لأنه لم يفت خطؤه . (المترجم)

أميال ، محصوراً بين البحر من جهة وسوريا من الجهة الأخرى ، وكان هو دل ما يطلق عليه اسم بلاد فينيقية . ولم ير أهله أن استيطان جبال لبنان القائمة في شرق بلادهم أو إخضاع هذا الإقليم لحكمهم عملاً خليقاً باهتمامهم ، بل كانوا يقنعون بأن يظل هذا الحاجز المبارك قائماً شرق بلادهم يحجبهم من الأمم ذات النزعة الحربية التي كانوا يحملون بضائعها إلى خلجان البحار .

وقد اضطرتهم هذه الجبال إلى العيش على ظهر البحار ، وظلوا من عهد الأسرة السادسة المصرية إلى ما بعدها أنشط تجار العالم القديم ؛ ولما تحرروا من حكم مصر (حوالي ١٢٠٠ ق . م) أضحوا سادة البحر المتوسط ، ولم يكتفوا بنقل التجارة ، بل كانت لهم مصنوعات عدة من الزجاج والمعادن ، والمزهريات المنقوشة المطلية ، والأسلحة والحليّ والجواهر . وقد احتكروا لأنفسهم صنّع الصبغة الأرجوانية التي استخرجوا مادتها من حيوان بحري رخوي يكثر بالقرب من شواطئهم^(١٨) ، ومن ثم اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الزاهية الجميلة التي كن يصبغن بها ما برعن في تطريزه من الأقمشة . وكانوا ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذي يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى - من حبوب ، ونخور ، ومنسوجات ، وحجارة كريمة - إلى موانئ البحر المتوسط قريبة كانت منهم أو بعيدة عنهم ، وكانت سفنهم تعود من هذه الموانئ مثقلة بالرصاص ، والذهب ، والحديد من شواطئ البحر الأسود الجنوبية ؛ وبالنحاس ، وخشب السرو ، والغلال من قبرص^(*) ، وبالعاج من أفريقية ؛ والفضة من أسبانيا ؛ والقصدير من بريطانيا ؛ وبالعبيد من كل مكان : وكانوا تجاراً دهاة ؛ أغروا في مرة من المرات أهل أسبانيا بأن يعطوهم نظير شحنة من الزيت مقداراً من الفضة لم تتسع له سفائنهم ؛ فما كان من الساميين الماكزين إلا أن استبدلوا الفضة بما

(*) إن الاسمين الإنجليزيين للنحاس والسرو Copper & Cypress مشتقان من

لفظ قبرص .

كان في مراسى سفنهم من حديد وحجارة وأقلعوا بها مقتبطين^(١٩) . على أن هذا لم يكفهم ، فأسروا الأهليين وسخروهم في العمل في المناجم ساعات طوالاً نظير أجور لا تكاد تكفى لاقتياع أقواتهم^(*) . ذلك أن الفينيقيين ، ككل التجار الأقدمين ، لم يكونوا يفرقون كثيراً في أعمالهم ولا في لغاتهم بين التجارة والغدر ، أو بينها وبين اللصوصية ، فكانوا يسرقون الضعيف ، ويتزنون مال الغنى ، أما من عدا هذين الصنفين فكانوا يراعون معهم ما يقضى به الشرف . وكانوا أحياناً يستولون على السفن في عرض البحار ، ويصادرون ما فيها من بضاعة ، ويأسرون من فيها من الملاحين ، وكثيراً ما كانوا يخدعون الأهليين المشوقين إلى الاستطلاع فيغرونهم بزيارة سفنهم ثم يبحرون بهم ويبيعونهم عبيداً^(٢١) . وكان لهم أكبر الفضل في تسوية وسعة التجار الساميين الأقدمين وبخاصة عند اليونان الأولين ، الذين كانوا يفعلون فعلهم⁽⁺⁾ .

وكانت سفائنهم المنخفضة الضيقة البالغ طولها نحو سبعين قدماً طرازاً جديداً في بناء السفن ؛ ذلك بأنهم لم يمتثلوا فيها حذاء السفن المصرية المنحني مقدمها إلى الداخل ، بل جعلوه ينحني إلى خارجها وينتهي بطرف ربيع يشق للريح أو الماء أو مراكب الأعداء . وكان للسفينة شراع واحد كبير مستطيل الشكل مرفوع على سارية مثبتة في قاعها ، وكان هذا الشراع يساعد العبيد النذيين كانوا يدفعونها بصفيين من المجاذيف . وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق

(*) انظر ما ينوله جين « بعد شام الأعداء أن نكون أسبانيا في العالم القديم كما كانت يبرو وملكسبك في العالم الحديث . فلهذا كان كسب تلك البلاد الغريبة الغنية (يريد أسبانيا) على يد الفينيقيين . ولم أدلها الساج وسخروهم للعمل في مناجمهم لفائدة الأجانب القادمين إلى بلادهم ، كان هذا كله سابقة لا نفتقر في شيء عما فعلته أسبانيا نفسها بأمريكا في العصر الوسط »^(٢٠) .

(+) وأطلق اليونان - وقد ظلوا خمسمائة عام لا يقطعون عن القرصنة وذن النار - اسم فينيقي على كل من كان دأبه الخيل والنبلصص^(٢٢) .

المجذفين يحرسونها وهم متأهبون للاتجار أو للحرب على السواء . وكانت هذه السفن الضعيفة لا تسترشد ببيت الإبرة ولا يزيد غاطسها في الماء على خمس أقدام . ومن أجل ذلك كانت تخشى أن تبعد عن شاطئ البحر ، وظلت زماناً طويلاً لا تجرؤ على السفر بالليل ، ثم ارتقى فن الملاحة شيئاً فشيئاً حتى استطاع أدلاء السفائن الفينيقيون أن يسترشدوا بالنجم القطبي (أو النجم الفينيقي كما كان يسميه اليونان) ويتوغلوا في المحيطات ، ويطوفوا آخر الأمر حول أفريقيا ، فساروا أولاً بإزاء الساحل الشرقى متجهين نحو الجنوب و « كشفوا » رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فامسكودا جاما بنحو ألني عام . وفي ذلك الوقت يقول هيرودوت : « ولما أقبل الخريف ، نزلوا إلى البر ، وزرعوا الأرض ، وانتظروا الحصاد ، فلما أن حصلوا الحسب ، أقبلوا بسفائنهم مرة أخرى . ولما أن مرت عليهم في عملهم هذا سنتان وصلوا في السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقول (جبل طارق) » (٢٣) . ألا ما أعظم ما تقدمنا عن أولئك الأقوام !

وأقاموا لهم حاميات في نقط منبئة على ساحل البحر المتوسط ما زالت تكبر حتى أصبحت مستعمرات أو مدناً خاصة بالسكان ، أقاموها في قاذر وقرطاجنة ، ومرسيلية ، ومالطة ، وصقلية ، وسردانية ، وقورسقة بل وفي إنجلترا البعيدة . واحتلوا قبرص ، وميلوس ، ورودس (٢٤) ، ونقلوا الفنون والعلوم من مصر ، وكريت ، والشرق الأدنى ، ونشروها في اليونان ، وفي أفريقيا ، وإيطاليا وأسيانيا ، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية ، وشرعوا ينتشلون أوروبا من براثن الهمجية .

وازدهرت المدن الفينيقية التي كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة ، والتي كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء حذقت فتون السياسة الخارجية والمالية ، وضدت بثروة البلاد أن تبدد في الحروب الخارجية : وأصبحت هذه المدن على مدى الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها . ومن هذه المدن مدينة بيلوس التي كانت

تظن نفسها أقدم مدن العالم كلها ، وأنها أنشأها الإله إل في بداية الزمان . وظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقية . وكان البردى من أهم سلعها التجارية فاشتق اليونان من اسمها اسم الكتاب في لغتهم بيلوس — Biblo — ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة Bible الإنجليزية اسماً للكتاب المقدس .

وكان إلى جنوبي بيلوس وعلى بُعد نحو خمسين ميلاً منها مدينة صيدا ؛ ولم تكن في بداية أمرها إلا حصناً من الحصون ، ولكنها نمت نمواً سريعاً فكانت قرية ، ثم بلدة ، ثم مدينة مزدهرة غنية ، أمدت خشيارشأى بأحسن المراكب في أسطولها . ولما أن حاصرها الفرس فيما بعد واستولوا عليها أبت عليهم أنفتهم وعزة نفوسهم أن يسلموها طائعين إلى أعدائهم فأضرموا النار في مبانيها ودمروها عن آخرها ، وهلك في حريقها أربعون ألفاً من سكانها (٢٥) . ثم أعيد بناؤها بعدئذ حتى إذا جاءها الإسكندر وجدها مدينة مزدهرة ، وسار بعض تجارها المغامرين في مؤخرة جيشه إلى بلاد الهند بقصد « الاتجار » (٢٦) .

وكانت أعظم المدن الفينيقية كلها مدينة صور — أى الصخرة — ؛ وقد أنشئت على جزيرة تبعد عدة أميال عن البر . وبدأت هى أيضاً حصناً ، ولكن ميناءها الأمين وسلامتها من الغزو سرعان ما جعلها حاضرة البلاد الفينيقية كلها ، ومأوى الخليط من التجار والعيبد جاءوها من جميع بلاد البحر المتوسط . وما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى كانت صور مدينة غنية في عهد ملكها حيرام صديق الملك سليمان ؛ وفي أيام زكريا (حوالى ٥٢٠ ق . م) كانت الفضة التى تجمعت فيها كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه « وحل الطرقات » (٢٧) . ويقول عنها استرابون : « إن بيوتها من طبقات كثيرة ، بل إنها أكثر طبقات من بيوت رومة » (٢٨) ، وقد ظلت بفضل ثروتها وبسالة أهلها مستقلة إلى أيام الإسكندر . ورأى هذا الشاب المنغطرس في هذا الاستقلال تحدياً لعظمته فأخضعها بأن بنى طريقاً لها في البحر جعل منها شبه جزيرة . ثم قضى

عليها القضاء الأخير ازدهارُ مدينة الإسكندرية .

وكان للفينيقيين آلهة كثيرة شأنهم في ذلك شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية المعقدة . فكان لكل مدينة بعلمها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو في اعتقاد أهلها جد ملوكها ، ومخصب أرضها ، فكانت الحبوب ، والحمور ، والبتن والكتان كلها من عمل بعل المقدس . وكان بعل صور يسمى ماكرات ؛ وكان كهرقول - الذى قال اليونان إنه صورة أخرى منه - إله القوة والبطولة قام بأعمال شبيهة بأعمال منشهرزن . وكانت عشتورت (أستاوت) الاسم الفينيقي لإشتار . ومن خصائصها أنها كانت تُعبد في بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفي أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وقد جعلها اليونان في هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت . وكما كانت إشتار - ميلتا تتقبل بكارى عابداًتها من البنات في بابل ، كذلك كانت النساء اللاتي يعبدن عشتورت في بيلوس يقدمن لها غداًثرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن حبه في جوار الهياكل . وكما أُحبَّت إشتار تموز ، كذلك أُحبَّت عشتورت أدنى (أى الرب) ، وكان يحتفل في بيلوس ، وباثوس (في قبرص) كل عام بمقتله على أنياب خنزير برى بالذئب وضرب الصدور . وكان من حسن حظ أدنى أنه يقوم من بين الأموات كلما فارق الحياة ، ويصعد إلى السماء على مشهد من عبَّاده (٢٩) . وكان من آلهتهم أيضاً مولوخ (أى الملك) ، وهو الإله الرهيب ، وكان الفينيقيون يتقربون له بأطفالهم ويحرقونهم أحياء أمام ضريحه . وقد حدث في قرطاجنة أثناء حصارها (٣٠٧ ق . م) أن أحرق على مذبح هذا الإله الغاضب مائتا غلام من أبناء أرق أسرها (٣٠) .

ولكن الفينيقيين رغم هذا جديرون بأن تكون لهم مشكلة صغيرة في محراب الأهم المتحضرة ، ذلك أن تجارهم في أغلب الظن هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية ، وإن لم يكن الهيام بالأدب هو الذى وحد شعوب

البحر المتوسط بل كل سبب وحدتهم الشئون التجارية ومطالبها . ولسنا نجد خيراً من هذه المطالب مثلاً يوضح ما بين التجارة والثقافة من رابطة منتجة مشمرة . كما أننا لا نعلم على اليقين أن الفينيقيين ، هم الذين أدخلوا هذه الحروف الهجائية إلى بلاد اليونان ، وإن كانت الرواية اليونانية تؤكد هذا بالإجماع (٣١) ؛ وليس ببعيد أن تكون كريت هي التي أمدت الفينيقيين واليونان (٣٢) كليهما بالحروف الهجائية ، ولكن المرجح أن الفينيقيين أخذوا الحروف الهجائية من حيث أخذوا البردى . وإنا لنجدهم في عام ١١٠٠ ق.م يستوردون البردى من مصر (٣٣) . وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر الأمة التي تعنى بحفظ السجلات الحسابية ونقلها من مكان إلى مكان . وذلك لما فيه من اليسر إذا ووزن بالألواح الطينية الثقيلة التي كانت تستخدم في أرض الجزيرة . كذلك كانت الحروف الهجائية المصرية أرقى كثيراً من المقاطع السمعية المستخدمة في غير مصر من بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن نذكر عن هذه الحروف أن حيرام ملك صور وهب أحد عائلته في عام ٩٦٠ ق.م كوباً من البرنز عليه نقش بالحروف الهجائية (٣٤) ، وأن ميشا ملك مؤاب أراد في عام ٤٨٠ ق.م أن يخلد مجده فنتش على حجر في متحف اللوفر الآن نقشاً بإحدى اللهجات السامية مكتوباً من اليمين إلى اليسار بحروف شبيهة بالحروف الفينيقية . وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون ، والتي علموها هم أوروبا . وهذه الرموز العجيبة هي بلا جلد أثنى ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة .

على أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية لم يكشف في فينيقية بل في سيناء . فقد عثر سبروليم فلندرز پترى في سراية الخادم - وهي قرية صغيرة في موضع كان المصريون الأقدمون يستخرجون منه الفيروز - على نقوش بلغة عجيبة يرجع عهدها إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق، ولعله يرجع إلى

عام ٢٥٠٠ ق . م . ولم تحل رموز هذه النقوش بعد ، ولكن من الجلى أنها ليست مكتوبة بالخط الهيروغليفي ولا بالكتابة المسمارية المقطعية ، بل مكتوبة بحروف هجائية (٢٥) . كذلك وجد علماء الآثار الفرنسيون في زايدونا بسوريا مكتبة كاملة من الألواح الطينية بعضها مكتوب بالهيروغليفية وبعضها بحروف هجائية سامية ، ولما كانت زايدونا قد دمرت حوالى عام ١٢٠٠ ق . م قبل أن تستكمل نبوها ، فأكبر الظن أن هذه الألواح يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (٢٦) ، وهى توحى إلينا مرة أخرى بما كانت عليه الحضارة من القدم في القرون التى يحملنا فرط جهلنا على أن نعزو إليها بدايتها .

وكانت سوريا تمتد خلف فينيقية في حِجر تلال لبنان ، وتجمع فيها قبائلها تحت حكم تلك الحاضرة التى لا تزال تفخر على العالم بأنها أقدم مدنه ، والتى لا تزال تأوى السوريين المتعطشين إلى الحرية . وظل ملوك دمشق زمنأ ما يسيطرون على اثنى عشرة أمة صغيرة من حولهم ، وأفلحوا في مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لإخضاع سوريا لحكمهم ، وكان أهل هذه المدينة من التجار الساميين الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة طائلة من تجارة القوافل التى كانت تجتاز جبال سوريا وسهولها . وكانوا يستخلصون فى أعمالهم الصناعات والعبيد ، ولم يكن هؤلاء سعداء أو راضيين . فنحن نسمع أن البنائين نظموا لهم اتحادات عظيمة ؛ وتحدثنا النقوش عن إضراب الخبازين فى مجنيزيا ؛ ونشعر من خلال القرون الطوال بما كان فى إحدى المدن السورية القديمة من نزاع ؛ وما كانت تضطرب به من حركة تجارية كبيرة (٢٧) وقد حلق هؤلاء الصناع تشكيل الفخار الجميل ونحت العاج والخشب ، وصقل الحجارة الكريمة ، ونسج الأقمشة ذات الألوان الزاهية لتزين بها نساؤهم (٢٨) .

وكانت أزياء الأهلين فى دمشق وعاداتهم وأخلاقهم شديدة الشبه بنظائرها فى بابل ، باريس الشرق القديم المتحكمة فى أذواقه . وكانت الدعارة الدينية منتشرة

في البلاد ، فكان خصب التربة يرمز له في سوريا كما كان يرمز له في بلاد آسية الغربية كلها بأُم عظيمة أو إلهة اتصالها الجنسي بعشيقها هو الذي يوحى إلى جميع جهود الطبيعة وعملياتها الإنتاجية . ولم تكن التضحية بالبكارة في الهياكل عملاً يتقرب به إلى عشتورت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها في التهلكة الذي يرجى منه أن يوحى إلى الأرض لإيجاء قوياً لا تستطيع مقاومته ، وأن يتضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان (٢٩) : وكان عيد عشتورت السورية كعيد سييل في فريجيا يحتفل به في هيراپوليس حوالى الاعتدال الربيعى بجمرة تكاذ تباع حد الجنون . فكانت نغمات الناي ودق الطبول تمزج بعويل النساء على أرثى سيد عشتورت الميت . وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصاً عاصفاً عجائماً ويضربون أجسامهم بالسكاكين . وفي آخر الأمر كانت الحماسة تغلب الكثيرين من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه ، فيخلعون ثيابهم ويخصون أنفسهم ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة ، فإذا جن الليل جاء الكهنة إلى المكان بنور خفى مجهول ، وفتحوا قبر الإله الشاب ونادوا نداء الظافرين أن أدنى - الإله - قد قام بين الأموات ، ثم مسوا شفاه عبّاده بباسم في أيديهم وأسرّوا إليهم وعدهم بأنهم هم أيضاً سيقومون من قبورهم في يوم من الأيام (٣٠) .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشاً للدماء من عشتورت . نعم إن الكهنة كانوا يعترفون بإله عام يضم في شخصه جميع الآلهة ويسمونه إلى أوليو كالوهم اليهود ، ولكن الشعب لم يكن يأتى بالآل إلى هذا التجريد المعنوى الهادئ ، وكان معبوده بعلًا . وقد جرت عاداتهم على أن يوجدوا بين إله المدينة هذا وبين الشمس ، كما كانوا يوحّدون بين عشتورت والقمر ، وكانوا إذا حزبهم أمر وجلل يضحون بأطفالهم قرباناً له ، كما كان الفينيقيون يفعلون ، وكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم في يوم عيد ، وكانت دقات الطبول

وأصوات المزامير قطعت على صراخ أطفالهم وهم يخترقون في حجر الإله . على أنهم كانوا عادة يكفون بتضحكات أقل من هذه وحثية ، فكان الكهنة يطربون أنفسهم حتى تلتفخ المذبح دماؤهم ، أو تفتدى حياة الطفل بقلبه ؛ أو يذول المساواة من عليائهم فيقبلون مبلغاً من المال يقدمونه للإله بدل الغلقة . لقد كان من الواجب أن يسترضى الإله بطريقة ما حتى يرضى ، لأن عباده قد جعلوه صورة من أنفسهم ، وحلماً من أحلامهم ، ولم يكن يعنى بحياة البشر أو يأبه بعويل النساء^(٢٧)

وكانت القبائل السامية الضاربة في جنوبي سوريا ، والتي كانت تملأ الأرض باضطرابها ولعائها ، تمارس عادات شبيهة بهذه العادات نفسها ، ولا تختلف عنها إلا في أسمائها وتماصيلها . لقد حرم على اليهود أن يجعلوا أطفالهم يمرقون من خلال النار ، ولكنهم كانوا رغم هذا يفعلون هذه القعلة^(٢٨) ، ولم يكن إبراهيم وهو يوشك أن يصحى بإسحق^(*) أو أجنون وهو يصحى بإفجيتيا إلا متبعين سنة قديمة كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية ، وقد ضحى ميثا ملك مؤاب بابنه الأكبر فحرقه بالنار ليفك عن مدينته الحصار ؛ ولما أجاب ربه دعاءه وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بني إسرائيل شكراً لله على نعمته^(٢٩) ، وظل وادى نهر الأردن الذي يخترق هذا الإقليم مذ كان العموريون في عهد السومريين يجوبون سهول أمرو (حوالي عام ٢٨٠٠ ق . م) إلى أيام اليهود حين صبوا جام غضبهم المقدس على الكنعانيين ، وحين استولى سرجون ملك آشور على السامرة ، ونبوخذ نصر على أورشليم (في عام ٥٩٧ ق . م) ، نقول ظل وادى نهر الأردن ترويه دماء الضحايا البشرية التي تتهيج لها قلوب كثيرين من الأرباب . وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤابيين ، والكنعانيين ، والعموريين ، والإدميين ، والفلسطينيين ، والآراميين في سجل البشرية الثقافى .

(*) الذى يؤمن به المسلمون أن الدبيع إسماعيل لا إسحاق . (المترجم) .

لسنا ننكر أن الآراميين الكثيرى النسل قد انتشروا فى كل مكان ، وجعلوا لغتهم اللهجة العامة التى يتخاطب بها أهل الشرق الأدنى ، كما أن حروفهم الهجائية التى أخذوها عن المصريين أو الفينيقيين قد حلت محل كتابة أرض الجزيرة المسماة المقطعية ، فكانت أولاً واسطة التبادل التجارى ثم أصبحت وسيلة نقل الآداب ، وأمست آخر الأمر لغة المسيح وحروف العرب الهجائية فى هذه الأيام^(٤٤) . ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هى نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها جعلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعباً آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لخيراته ، ونعنى به اليهود ، وهم قوم لما نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لانكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدباً من أعظم آدابه ، ودينين من أقوى أديانه ، وعدداً عظيماً من أذكى رجاله وأعمقهم تفكيراً .

الباب الثاني عشر

اليهود

الفصل الأول

الأرض الموعودة

فلسطين - مناخها - عهد ما قبل التاريخ - شعب إبراهيم -
اليهود في مصر - الخروج - فتح كنعان

وسّع كاتب مثل بكل Buckle أو منتسكيو يريد أن يفسر تاريخ الأمة بالرجوع إلى موقع بلادها أن يجد ما يؤيد أقواله في فلسطين . إن بلاداً يبلغ طولها من دكان الشمال إلى بير سبع في الجنوب نحو مائة وخمسين ميلاً ، ويترأوح عرضها من مساكن الفلسطينيين في الغرب ومساكن السوريين والآراميين والعمونيين ، والموابيين والإدبيين في الشرق بين خمسة وعشرين وثمانين ميلاً - إن بلاداً ضيقة الرقعة إلى هذا الحد لا يتوقع الإنسان أن يكون لها شأن في التاريخ ، أو أن تخلف وراءها أثراً أعظم مما خلفته بلاد بابل أو آشور أو فارس ، بل لعلمه أعظم مما خلفته مصر أو بلاد اليونان . ولكن كان من - بن - حظ فلسطين أو من سوء حظها أن تقع بين عواصم النيل وعواصم دجلة والفرات . وهذا الموقع قد جاء إلى بلاد اليهود بالتجارة كما جاءها بالحرب ، وكم من مرة ضيق على اليهود فلم يجدوا مخرجاً من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين في الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى ، أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون وكم من مرة اجتاحت المصطرون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والأنبياء وعوياًهم وطلبهم الغوث من

رَبِّ السَّما ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذى تهدده الأخطار ، بين شقى الرعى ، من فوقهم دَوْل أرض الجزيرة ومن تحتهم مصر .

وبجدثنا تاريخ الأرض المناخى مرة أخرى أن صِرح الحضارة صِرح مزرع ، وأن عديوتها الألدّين - الهمجية والجدب - يترصدانها ليقضيا عليها ، لقد كانت فلسطين فى يوم من الأيام « أرضاً تفيض لبناً وعسلاً » كما تصفها كثير من القترات فى أسفار موسى الخمسة (١) ، وكان يوسفوس فى القرن الأول بعد المسيح لا يزال يقول عن فلسطين وأهلها إن بها من « الأمطار ما يكفى حاجة الزراعة ، ولها جميلة ، وإن بها كثيراً من الأشجار ، ولها مملوءة بفاكهة الخريف البرى منها والمنزوع ... وإن هذه الأشجار لا تروىها الأنهار رِيّاً طبيعياً ولكنها تنال ما تحتاج إليه من الرطوبة من ماء المطر الذى لا ينقطع عنها قط » (٢) . وكانت أمطار الربيع التى تسقى الأرض تخزن الأيام الخالية فى صهاريج أو ترفع إلى سطح الأرض مرة أخرى من آبار كثيرة العدد ، وتوزع فى أنحاء البلاد فى شبكة من القنوات ، وكان ذلك هو الأساس المادى للحضارة اليهودية . وكانت الأرض التى تروى بهذه الطريقة تنتج الشعير والقمح والذرة ، وتجود فيها الكروم ، وتثمر أشجارها الزيتون والتين والبلح وغيرها من الفواكه على منحدرات الجبال جميعها ؛ فلذا دأبت الحروب وخربت حقولها التى أخصبها الصناعة ، أو جاءها فاتح فأخرج منها إلى بلاد نائية الأسر التى كانت تعنى بهذه الحقول ، زحفت الصحراء عليها فأفسدت فى بضع سنين ما أصحته الأيدى العاملة فى أجيال . وليس لنا أن نحكم على جلدب أرض فلسطين بما نشاهده فيها الآن من فياف مقفرة ، وواحات قليلة ضئيلة ، تواجه اليهود الذين عادوا الآن إلى تلك البلاد بعد ثمانية عشر قرناً من النفى والعذاب والتشريد .

والتاريخ فى فلسطين أقدم مما كان يظنه الأسقف أسشر Ussher ، فقد

كشفت بقايا نيندرتالية قرب بحر الجليل ، كما كشفت خمسة هياكل عظيمة نيندرتالية في كهف قرب حيفا . وليس بعيد أن تكون الثقافة المُستيرية التي ازدهرت في أوروبا حوالي ٤٠٠٠٠ قبل الميلاد قد امتدت إلى فلسطين . فقد كشفت في أريحا (*) أرض حجرات ومواقد من مخلفات العصر الحجري الجديد ، وهي ترجع بتاريخ هذا الإقليم إلى عصر برنزي متوسط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق . م) جمعت فيه مدن فلسطين وسوريا من الثروة ما أغرى مصر بفتحها . وكانت أريحا في إبان القرن العشرين قبل الميلاد مدينة مسورة يحكمها ملوك يعترفون بسيادة مصر عليها . وقد وجدت في قبور هؤلاء الملوك التي كشفها بعثة جارستانج Garstang مئات من المزهريات والهدايا الجنازية وغيرها من الأدوات التي تدل على وجود حياة مستقرة في تلك المدينة وقت سيطرة الهكسوس على مصر ، وعلى وجود حضارة لا بأس بها في أيام حتشپسوت وتحتمس الثالث (٣) . ويبدو من هذا للكشف وأمثاله أن الأزمنة المختلفة التي تبدأ بها تواريخ الشعوب في ظننا إن دلت على شيء فإنما تدل على جهلنا ؛ وتدل ألواح تل العمارنة على أن الحياة في فلسطين وسوريا بالصورة التي تطالعنا في بداية تاريخ اليهود ترجع إلى قرب دخولهم في وادي النيل . ومن المرجح - وإن لم يكن من المؤكد - أن « الخيرو » الذين تتحدث عنهم هذه الألواح كانوا عبرانيين (٤) (**).

(*) Jecrico

(**) لقد أعادت الكشوف التي ذكرناها في هذا الفصل كثيراً من الثقة إلى فصول سفر التكوين التي تقص تاريخ اليهود القديم . وإذا ما استثنينا من قصة اليهود ، كما تبيط عنها اللثام أسفار العهد القديم ، حوادث المعجزات وخوارق العادات وأشباهها ، رأينا أن هذه القصة قد صمدت للنقد والبحوث التاريخية . وكل عام يمر يكشف فيه من الوثائق والآثار ما يؤيد أقوال العهد القديم . من ذلك القطع الخزفية التي استخرجت من تل الدوير في هام ١٩٣٥ تحمر من النقوش العبرية ما يؤيد أجزاء من قصة سفرى الملوك (١) : وعلى هذا فإن من حقنا أن نقبل قصص التوراة مؤقتاً حتى نجد ما ينقضيها . انظر كتاب بترى « مصر وإسرائيل Egypt & Israel » طبعة لندن ١٩٢٥ ص ١٠٨ .

ويعتقد اليهود أن شعب إبراهيم (أو أبراهام) جاءوا من أور في بلاد سومر^(٥) واستقروا في فلسطين (حوالي ٢٢٠٠ ق. م) أى قبل موسى بنحو ألف عام أو أكثر ؛ وأن انتصارهم على الكنعانيين لم يكن إلا استيلاء العبرانيين على الأرض التي وعدهم بها الله . والراجح أن أمراةل الذى يقول عنه سفر التكوين (١٤ : ١) إنه « ملك شنغار في تلك الأيام » كان هو أمريال والد حورابى الذى كان يجلس قبله على عرش بابل^(٦) . ولم تصل إلينا من مصادر معاصرة إشارات مباشرة إلى خروج بنى إسرائيل من مصر أو إلى هزيمة الكنعانيين^(٧) . وكل ما وصلنا من إشارات غير مباشرة هو ما كتب على اللوحة التي أقامها منفتاح (حوالي ١٢٢٥ ق. م والتي وردت فيها هذه العبارة :

لقد غلب الملوك وقالوا « سلاماً ! » .

ونحرب تحينو .

وهدئت أرض الحثيين ،

وانتهت كنعان ، وحلّت بها كل الشرور ، . . .

ونحرب إسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ؛

وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،

وضمت كل البلاد . وهدئت ؛

وكل من كان ثائراً قبّده الملك منفتاح .

وليس في هذه الأقوال ما يدل على أن منفتاح هو فرعون الذى خرج بنو إسرائيل من مصر في عهده ؛ وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى . ولستأ ندرى متى دخل اليهود مصر ، وهل دخلوها أحراراً أو عبيداً^{(٨)(*)} . ولربما كان من حتمنا أن نرجح أن من هاجروا منهم إلى مصر

(*) لعلهم جاءوا مصر في أئر الهكسوس ، ولعل سيطرة هؤلاء الساميين على مصر قد أتاحت لهم بعض الحماية^(٩) . ويرجع بترى تاريخ دخولهم مصر إلى عام ١٦٥٠ ق. م ، =

كانوا في بداية الأمر قليلي العدد^(١١) ، وبقى وجود الآلاف المولفة منهم في مصر أيام موسى كان نتيجة لكثرة تناسلهم ، وأن شأنهم في ذلك الوقت كأن كشأنهم في جميع العصور ، فقد كان « عددهم يتضاعف وينمو كلما زاد اضطهادهم وتعذيبهم »^(١٢) . وإن قصة « استعباد اليهود في مصر ، وتسخيرهم في أعمال البناء الضخمة ، وتمردهم ، وهرابهم — أو هجرتهم — إلى آسية لتجمل في ثناياها أدلة كثيرة على صدقها ، وإن اختلط بها بطبيعة الحال كثير من الأقوال الغريبة وخوارق العادات



شكل (٣٥) شارع في القدس الحديثة

كما يحدث عادة في جميع الكتابات التاريخية في الشرق القديم .

= وتاريخ خروجهم منها إلى عام ٢٢٠ ق . م^(١٠) ، وهو يعتمد في ذلك على ما ورد في التوراة من أن اليهود أقاموا في أرض مصر أربع مائة وثلاثين عاما .
تنبیه : رأينا في هذا الباب أن ننقل العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس بنصها لا أن نترجمها عن الأصل الإنجليزي .
(المترجم)

وحتى قصة موسى نفسها يجب ألا نتمجّل فنرفضها من غير بحث وتحقيق ، وإن كان العجيب حقاً أنه لم يرد له ذكر على لسان عاموس أو إشعيا ، وهما اللذان سبقت خطبتهما تأليف أسفار موسى الخمسة بنحو قرن من الزمان (*) .

ولما سار موسى باليهود إلى جبل سيناء ، لم يكن في سيره هذا إلا متبعاً نفس الطريق الذي كانت تسلكه البعثات المصرية التي تبحث عن الفيروز منذ ألف عام . وتبدو الآن قصة الأربعين عاماً التي ناهوا فيها في الصحراء ، والتي كان يظن من قبل أنها قصة غير معقولة ، تبدو الآن من الأمور التي يقبلها العقل ، لأنها تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طوال عهدهم قوماً رحلاً ، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلاً آخر لانقضاء جموع بجياع على جماعة مستقرين آمنين . وقتل المهاجرون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسايم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس « فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى » ،

(*) ينقل يوسفوس عن مانيثون - وهو مؤرخ مصري عاش في القرن الثالث قبل الميلاد - قوله إن سبب خروج بني إسرائيل من مصر وهو رغبة المصريين في أن يتقوا شرباء فشا بين اليهود المستعبدين المحليين ، وقوله إن موسى نفسه كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود « المهلومين » ، وإنه علمهم قواعد للنظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين (١٣) . ويفسر المؤرخون اليونان والرومان قصة الخروج هذا التفسير (١٤) ، ولكن نزعهم المعادية للسامية تجعلنا قليل الثقة بأقوالهم . وفي التوراة آية تؤيد قول وارد Ward إن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل . وهذه هي الآية المشار إليها : « فقال لها ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله إذهبوا إلى أشغالكم (١٥) » .

وموسى أمم مصري لا اسم يهودى ؛ ولعله اختصار لفظ حور (١٦) . ويقول الأستاذ جارتانج عضو هيئة مارستن Marston التابعة لجامعة ليربول إنه كشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته (في عام ١٥٢٧ ق . م بالتحقيق) الأميرة حتشبسوت ملكة حتشبسوت فيما بعد) وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها ، وإنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث (١٧) . هو يعتقد كذلك أن اللغات التي وجدت في هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا (يشوع ٦) . ويرجع سقوطها إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق . م كما يرجع الخروج إلى عام ١٤١٧ ق . م (١٨) . ولما كانت هذه التواريخ لا تعتمد إلا على ما ورد منقوشاً على الجدران والخزف ، فإن من واجبنا أن نأخذها بالشك المقرون بالاهتمام .

و « زكاة للرب » (١٩) . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلها ١٢٠٠٠ رجل : ولستنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة في تعداد القتل إلا في تاريخ الآشوريين ، ويقال لنا « إن الأرض استراحت من الحروب أحياناً » (٢٠) فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة ، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فقط ؛ وقد حكم موسى حكماً سدياً لم تسفك فيه دماء ، وفلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله ، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني ، وهو أن أكثر الناس قتلاً هو الذى يبقى حياً . وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة .

الفصل الثاني

سليمان في ذروة مجده

أصل اليهود - مظهرهم - لقمم - نظامهم - القضاة والملوك -
شاول - داود - سليمان - ثروته - الهيكل -
نشأة المشكلة الاجتماعية في إسرائيل

كل ما نستطيع أن نقوله عن أصل اليهود من ناحية جنسهم هو ذلك القول الغامض ، وهو أنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين سكان آسية الغربية ، وأنهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل إن تاريخهم هو الذي أوجدتهم . ولنا لراهم من بداية ظهورهم خائطاً من سلالات كثيرة - والحق أن وجود جنس « نقي » في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيحة لا يعقله عاقل . على أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية ، لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس إلا كارهين . ومن أجل هذا حافظوا على جنسهم ، واستمسكوا به استمسكاً عجيباً . فالأسرى العبرانيون الذين رى صورههم في النقوش المصرية والآشورية يشبهون كل الشبه يهود هذه الأيام رغم تحامل الفنانين وتحييفهم . ففي هذه النقوش نرى الأنف الحثي الطويل الأفتى(*) ، والوجنتين البارزتين ، وشعر الرأس والاحية المتلوى ، وإن كنا لا نرى في الرسوم المصرية الهزلية الأجسام الضامرة القوية ، والأرواح الخبيثة العنيدة التي امتاز بها الساميون من عهد أتباع موسى « صلب الرقاب » إلى بدو هذه الأيام وتجارها الذين لا يسبر لهم غور . وكانوا في أيام فتوحهم الأولى يرتدون جلابيب بسيطة ، وقبعات وطيفة

(*) انظر ص ٣٠٣ من هذا الكتاب .

أوقلانس شبيهة بالعمائم ، ويحتدون أخفافاً سهلة الخلع . ولما أن زادت ثروتهم استبدلوا بالأخفاف أحذية من الجلد وارتدوا فوق الجلابيب قفازين ذات أهذاب . أما نساؤهم - وهن من أجل نساء الأمم القديمة - فكن يصبغن خدودهن ويكتحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلى ، وبابسن أحسن الأزياء وأحدثها في بابل ونيوى ودمشق وصور (٢١) .

وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ، ألفاظها مليئة بالأنغام الموسيقية القوية رغم ما فيها من حروف حلقة . وقد وصفها رينان بقوله : إنها « كنانة مليئة بالسهم ، وأبواق نحاسية تدوى في الهواء » (٢٢) . ولم تكن تختلف كثيراً عن لغة الفينيقيين أو المؤابيين . وكان اليهود يكتبون بحروف هجائية وثيقة الصلة بالحروف الفينيقية (٢٣) . ويعتقد بعض العلماء أنها أقدم ما عرف من الحروف (٢٤) . ولم يشغلوا أنفسهم بإضافة الحركات إلى الحروف ، بل تركوها للاقراء يستخرجها من معنى العبارة ، ولا تزال الحركات العبرية إلى اليوم مجرد علامات تزدان بها الحروف .

ولم تتألف من الغزاة في يوم من الأيام أمة موحدة متماسكة ، بل ظلوا زمناً طويلاً يؤلفون اثني عشر سبطاً مستقلين استقلالاً واسعاً أو ضيقاً ، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة ، بل على أساس الحكم الأبوى في الأسرة . فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجالس من الكبراء هو الحكم الفصل في شئون القبيلة ، وهو الذي يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا أبلجأتهم إلى هذا التعاون الظروف القاهرة التي لا مفر من التعاون فيها . وكانت الأسرة هي الوحدة الاقتصادية التي يقوم عليها زرع الأرض ورعى قطعان الضأن وكانت مكانتها هذه مصدر قوتها ونفاذ كلمتها ، وسلطانها السياسي . وكان في الأسرة قسط من الشيوعية يخفف بعض الشيء من صرامة النظام الأبوى ، وهو الذي أوحى إلى الشعب بذكريات كان الأنبياء يرجعون إليها وهم محزونون حين غلبت على البلاد النزعة الفردية .

وذلك أنه حين دخلت الصناعة مدن اليهود وجعلت الفرد هو الوحدة الاقتصادية في الإنتاج ، ضعف سلطان الأسرة كما ضعف في هذه الأيام ، واضمحل النظام الفطرى الذى كانت تقوم عليه الحياة اليهودية .

ولم يكن « التفضاة » ، وهم الذين كانت القبائل جمعاء تطيعهم فى بعض الحالات ، موظفين عموميين ، بل كانوا زعماء عشائر أو رجال حرب — حتى إذا كانوا من الكهنة (٢٤) . « ولم يكن فى إسرائيل ملوك فى تلك الأيام ، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً » (٢٥) ؛ غير أن هذا النظام « الجفرسرى » (*) غير المعقول — إن صح أنه كان قائماً بالفعل — قد انهار أمام مطالب الحرب الملحة ، وكان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملاً هاماً فى جمع الأسباب كلهم فى وحدة شاملة مؤقته ، وحملهم على تعيين ملك ذى سلطان دائم عليهم ، وقد حذرهم النبي صمويل من بعض الأضرار التى تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد فقال :

« وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يحكم عليكم يأخذ بذيكم ويعملهم لنفسه لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ، ويعمل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خمسين فيحرقون حرثته ويحصلون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم وزيتكم أجودها ويعطيها لعبيده ، ويعشر زرعكم وكرمكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشياتكم الحسان وجهركم ويستعملها لشلغفه ، ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً ، فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم ، فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صمويل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن

(*) أى الشبيه بالنظام الذى كان يدعو إليه تومس جفرسن رئيس جمهورية الولايات

أيضاً مثل سائر الشعوب ويتقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا (٢٦) .

وعلمهم ملكهم الأول شاول الخير والشر بأعماله ؛ فحارب حروبهم بشجاعة ، وعاش عيشة بسيطة من موارد مزرعته في جلعاد ، وأخذ يطارده الشاب داود ليمتله ، وقُطع رأسه في أثناء فراره من الفلسطينيين . وسرعان ما عرف اليهود من بداية الأمر أن حروب الوراثة من مستلزمات الملكية . وإذا لم تكن ملحمة شاول ويوناثان وداود الصغيرة قصة موضوعة من روائع الأدب (*) (لأننا لا نجد ذكراً لهذه الشخصيات في غير التوراة) فإن ملكهم الأول هذا قد خلعه ، بعد فترة من الاضطرابات الدموية ، داود الشجاع قاتل جالوت ، وحبيب يوناثان وكثير من الفتيات الذى يرقص بكل قوته وهو نصف عار (٢٨) ، ويجيد الضرب على القيثارة ، ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ملك اليهود التمدير الذى ساسهم نحو أربعين عاماً . وقد استطاع الأدب في ذلك العصر البعيد أن يرسم له صورة كاملة ، صورة واقعية فيها كل ما في النفس الحية من عواطف وانفعالات متعارضة ، فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس في وقته وكما كانت قبيلته ، وكما كانت الصفات التى خلعها على إلهه ، ولكنه مع هذا كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الآشوريين ، ويأمر ابنه سليمان أن « يحد بالدم إلى الهاوية » شعبة شمعى بن جيرا الذى لعنه منذ سنين كثيرة (٢٩) ، ويأخذ امرأة أوربة الحثي بن نساءه في غير حياء ، ويرسل أوربة إلى الصف الأول في ميدان القتال ليتخلص منه (٣٠) ويقبل زجر ناثن له في ذلة ، ولكنه مع ذلك يحتفظ بيدشيع الجميلة ، ويعفو عن صمويل مرات تكاد تبلغ أربعائة وتسعين ، ولا يسلبه إلا درعه حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته وينجى مغيبوش (**) ويعينه ،

(*) كقصّة شمشون الظريقة الذى حرق حاصلات الفلسطينيين بأن أطلق عليهم ثمانية ثعلب ربطت المشاعل في أذيالها ، والذي قتل ألف رجل بعظم من فك حمار (٢٧) .

(**) انظر صمويل الثاني ٤ : ٤ .

وهو الذى قد يكون من المطالبين بالعرش ، ويعفو عن ابنه العاق أبشالوم بعد أن قبض عليه فى ثورة مسلحة ، ويحزن أشد الحزن على موت ابنه هذا فى واقعة حربية حارب فيها جيوش أبيه : « يا ابنى أبشالوم ، يا ابنى أبشالوم ، يا ليتنى مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابنى ، يا ابنى » (٣١) . ذلك وصف رجل حقيقى لا رجل خيالى ، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة ، ينطوى على جميع بقايا الهمجية ، وعلى كل مقومات الحضارة .

ولما ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه الذى أحب الملك الشاب فوهبه حكمة لم يهبها أحداً من قبله ولا من بعده (٣٢) . ولعل سليمان خليق بما نال من شهرة ، ذلك أنه لم يكفه أن يستمع فى حياته بكل نعيم ولذة وأن يقوم بجميع ما يفرضه عليه الملك من واجبات ، بل إنه علم شعبه فضل القانون والنظام (*) ، وما زال بهم حتى أقنعهم بهذا الشقاق والحرب والالتفات إلى الصناعة والسلم . وكان عهد سليمان عهد سلام بحق (**) فى حكمه الطويل أفادت أورشليم ، التى اتخذها داود عاصمة له ، من هذه السلم التى لم تألفها من قبل فزادت ثروتها وضاعفتها . وكانت المدينة (†) قد أقيمت فى بادئ الأمر حول بئر ، ثم حولت إلى حصن لأنها كانت على ربوة فوق السهل . وأصبحت فى أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية فى الشرق الأدنى وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حبرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت فى أيامه تجارة رابحة قوامها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية . وأنشأ أسطولا تجارياً فى البحر

(*) « وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمسة (٣٣) .

(**) اسمه مشتق من شالوم ومعناه السلم .

(†) سميت فى ألواح تل العمارنة باسم أور سلموا وأورو سالم .

الأحمر ، وأغرى حيرام على أن يستخدم هذا الطريق الحديد بدل طريق مصر في تجارته مع بلاد العرب وأفريقية^(٣٤) . والراجح أن جزيرة العرب هي التي استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير » الكريمة^(٣٥) ، ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة « سبأ » تخطب وده ، ولعلها جاءت أيضاً لتطلب معونته^(٣٦) . وكان « وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ستمائة وستين وزنة ذهباً »^(٣٧) ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر وبين موارد بابل أو نينوى أو صور فإنه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه^(*) .

واستخدم بعض هذه الثروة في ملاذه الشخصية ، وأخص ما استخدمها فيه إشباع شهواته في جمع السراى - وإن كان المؤرخون ينفصون « زوجاته السبعائة وسرايه الثلاثائة إلى ستين وثمانين على التوالي »^(٣٩) . ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذي حمل رمسيس الثانى على هذا العمل بعينه ، وهو رغبة في أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو . على أن سليمان قد استخدم معظم موارده في تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته ، ومن أعماله فيها ترميم الحصن الذى أقيمت حوله . وقد أقام فيها كثيراً من الحصون ، ووضع حاميات في المواضع ذات الأهمية العسكرية في مملكته ، ليرهبها الغازين والناشرين على السواء . وقسم بلاده اثني عشر قسماً إدارياً ، وتعهد أن تكون

(*) انظر ما قلناه قبل في ص ٢٠٤ لمعرفة قيمة الورنة في الشرق الأدنى . على أن هذه القيمة كانت تختلف من وقت إلى آخر ، ولكننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن الوزنة في أيام سليمان كانت لها قيمة شرائية تعادل قيمة ١٠٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام . وأكبر الظن أن الكاتب العبرى كان وهو يكتب هذا أديبا ، لا مؤرخا يتوخى الحقائق الدقيقة ، ولذلك فإن من واجبتنا ألا نأخذ أقواله على علاقها . وإذا شاء القارئ أن يعرف شيئا عن تقلبات العملة اليهودية في تلك الأيام الحالية ، فليقرأ « دائرة المعارف اليهودية » في موضوعات « المسكوكات » و « الشاقل » . ولا تظهر النقود الحقيقية - لا الحلقات ، والسبائك الذهبية والفضية في فلسطين إلا حوالى عام ٦٥٠ ق . م^(٣٨) .

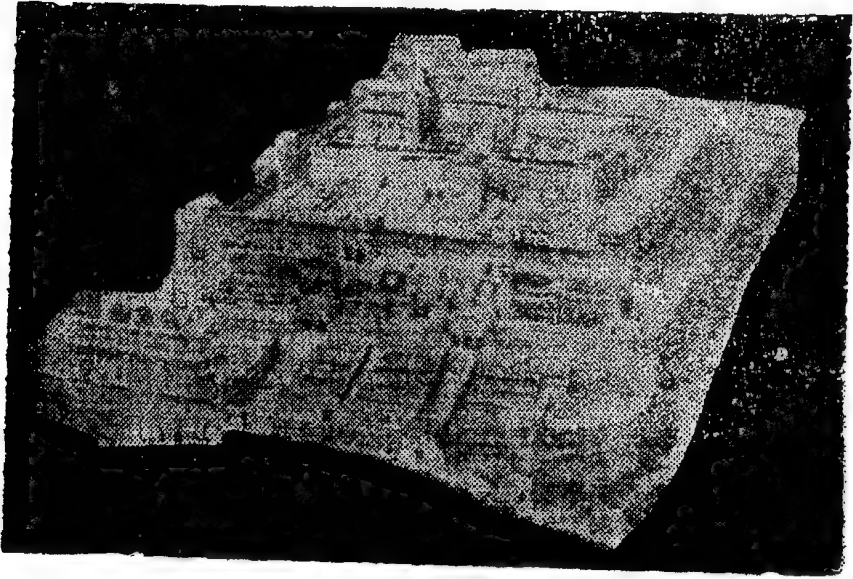
حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثني عشر ، وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً ، ولكنه أفلس في هذا وأفلست بلاد اليهود معه . ومن الوسائل التي استخدمها لتمويل حكومته لإعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيّمة النادرة ، ومن بينها « العاج والقردة والطواويس » (٥٠) — وهذه كان يمكن بيعها للأثرياء المحدثين بأثمان غالية . وكان يفرض الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين . وقد فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه ، وطالب كل قسم من أقسام دولته ما عدا قسمه الخاص بقدر من المال ، وأعاد للدولة احتكارها القديم لتجارة الحيوط والخليل والمركبات (٥١) . ويؤكد لنا يوسيفوس أن سليمان جعل الفضة في أورشليم كمحجارة الشوارع في كثرتها (٥٢) ، واعتزم أخيراً أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه ، وبقصر جديد له هو نفسه .

وفي وسعنا أن نستشف ما كان في الحياة اليهودية من اضطراب حين نذكر أن بلاد اليهود كلها حتى أورشليم نفسها لم يكن فيها قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد على ما يظهر . وكان الأهلون يقرّبون القرابين ليهوه في هياكل محلية أو في هياكل ساذجة فوق التلال (٥٣) . ثم جمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن إليهم عزمه على تشييد هيكل وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والشبّة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة ، وأوحى إلى الناس في رفق أن الهيكل يرحب بتبرعات المواطنين . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال ناقل الرواية فإنهم تبرعوا له بخمسة آلاف وزنة من الذهب ، وبضعفها من الفضة ، وبكل ما يحتاج إليه من الحديد والشبّة . ومن وجد عنده حجارة أعطها لخزينة بيت الرب (٥٤) . واختير لتشيدته مكان فوق ربوة ، وقامت جدران الهيكل كأنها امتداد للمنحدرات الصخرية (٥٥) . وكان طرازه هو الطراز

(٥٠) ليس ببعيد أن يكون مكان الهيكل هو المكان الذي يشغله الآن الحرم الشريف =

الذى أخذه الفينيقيون عن مصر ، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح ، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة . ولم يكن بناؤه الرئيسي كبير الحجم — فقد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدماً ، وعرضه حوالى خمس وخمسين ، وارتفاعه اثنتين وخمسين ، أى أنه كان فى نصف طول البارثون (٤٦) .

وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية ليعملوا فى إقامة



شكل (٣٦) صورة مستعادة لمبكل سليمان

الهيكل ، ولتعبدوا بعدئذ فيه — كان هؤلاء العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم . ومن حقهم علينا ألا نلومهم على هذا الاعتقاد ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونيونى التى لا يعد هياكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً ،

— فى المسجد الأقصى ، ولكن سائر أجزاء الهيكل لم يبق منها شيء على الإطلاق (٤٧) .

وكان في صدر البناء الرئيسي « مدخل » كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدماً ، مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلاً عن هذا يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل - إذا جاز لنا أن نصدق المصدر الوحيد الذي نعتمد عليه في هذا الوصف - : على سقف البناء الرئيسي ، والعمد ، والأبواب والجلدران ، والثريات ، والمصابيح ، ومقصات الفتائل ، والملاعق ، والمباخر ؛ وكان فيه « مائة حوض من الذهب » . وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه ، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد^(٤٧) . وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة ، أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وجميـع معظم مواد البناء من فينيقية ، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صناع من صيدا وصور^(٤٨) . أما الأعمال التي لا تحتاج إلى شيء من المهارة فقد حشد لها ١٥٠,٠٠٠ عامل سمخروا فيها تسخيـراً بلا شفقة ولا رحمة ، كما كانت العادة المألوفة في تلك الأيام^(٤٩) .

« ومضت سبع سنين والعمل في تشييد البناء قائم على قدم وساق ، ليكون مقراً فخماً ليهوه مدى أربعة قرون . ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ليشيدوا صرحاً أكبر من الهيكل يسكن فيه سليمان ونساؤه . وكان جناح واحد من أجنحته وهو - « بيت وعمر لبنان » أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله^(٥٠) . وكانت جدران البناء الرئيسي في القصر مقامة من كتل من الحجارة الضخمة طول الواحدة منها خمس عشرة قدماً ، وكانت تزينه التماثيل المنحوتة ، والنقوش المخنثورة ، والصور المرسومة على الطراز الآشوري . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه ، وعلى أجنحة للملك نفسه ، ومساكن للمحظوظات من زوجاته ، ومستودع للسلاح كان هو العباد الأخير لحكومته . على أن هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق^(٥١) .

ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين
تقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل .
ولشد ما يلومه كُتَّاب أسفار التوراة على شهامته إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية
التي كانت تعبد ها زوجاته الأجنبية ، ولا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا
عنه لعدله الفلسفى - أو لعله السياسى - بين مختلف الآلهة . وأعجب الشعب
يحكمته ، ولكنه شعر بما فى حكمه من مركزية شديدة . وكان بناء الهيكل
والتمصر قد كلف الناس كثيراً من الذهب والدماء . ولم يكن حجمهما أكثر
من حب عمال مصر لأهرامها . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر كان
يتطلب فرض ضرائب باهظة ، ولم نعهد قط أن حكومة من الحكومات
استطاعت أن تجعل الضرائب من الواجبات المحببة إلى الشعب ؛ فلما مات
سليمان كانت موارد إسرائيل قد نضبت . ونشأت فيها طائفة من العمال
الصغار لا يجدون عملاً دائماً يرتزقون منه ، فكان ما قاسوه من العذاب
هو الذى حول دين يهوه الحربى إلى دين أنبيائهم الذى لا يكاد يفرق عن
الاشتراكية فى كثير أو قليل .

الفصل الثالث

رب الجنود

عدد الآلهة - يهوه - عقيدة الإله الأعظم - خصائص الدين اليهودي -
فكرة الخطيئة - القربان - الختان - الكهنوت - آلهة عجيبة

كان بناء الهيكل أهم الحوادث الكبرى في ملحمة اليهود ، بعد نشر كتاب القانون ، ذلك أن هذا الهيكل لم يكن بيتاً ليهوه فحسب بل كان أيضاً مركزاً روحياً لليهود ، وعاصمة للملكهم ، ووسيلة لنقل تراثهم ، وذكرى لهم ، كأنه علم من نار يترأى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . ولقد كان له فوق ذلك شأن في رفع الدين اليهودي من دين بدائي، متعدد الآلهة إلى عقيدة راسخة غير متسامحة ، ولكنها مع ذلك إحدى العقائد المبدعة في تاريخ البشر .

وكان اليهود في ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال (٥٢) . ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر ، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوى آكل العشب رمزاً لإلههم . ولما لنقرأ في سفر الخروج (الأصحاح ٣٢ الآيات ٢٥ - ٢٨) كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي ، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاب لهم على عبادة هذا الوثن (*) . وفي تاريخ اليهود

(*) ونجد آثاراً أخرى من عبادة الحيوان بين اليهود الأقدمين في سفر الملوك الأول في الأصحاح الثاني عشر الآية الثامنة والعشرين ، وفي حزقيال ٨ : ١٠ ، وقد عبد أمام ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بترن واحد .

الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى . ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التى وجدت فى أقدم آثارهم (٥٤) ومنها الأفعى النحاسية التى صنعها موسى والتى عبدها اليهود فى الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالى ٧٢٠ ق . م) (٥٥) . وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم ، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصصة من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود - فضلاً عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان (٥٦) .

وكان بعض اليهود يعظمون بعل ، الذى كان يرمز إليه بمجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس ، وذلك لأنه فى رأيهم الجوهر الذكر فى التناسل ، وزوج الأرض الذى يخصها (٥٧) .

وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت فى عبادة الملائكة والقديسين ، وفى الأصنام الصغيرة المتنقلة التى كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم (٥٨) ، كذلك ظلت المعتقدات السحرية التى كانت منتشرة فى العبادات القديمة ، باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة . ويبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى موسى وهرن على أنهما ساحران ، وأنهم كانوا يناصرون السحرة والعرافين . وكان استطلاع المستقبل يحدث أحياناً برمى النرد (أريم وتيم) من صندوق (إيفود) - وهى طريقة لا تزال تستخدم لمعرفة ما يريده الآلهة . ومما يذكر بالحمد لكهنة اليهود أنهم قاوموا هذه العادات ، ودعوا الناس ألا يعتدلوا إلا على قوة سحرية واحدة هى قوة القربان والصلوات والتبرعات .

وما لبثت فكرة اتخاذ يهوه إله اليهود القومى الأوحى أن تبلورت وأكسبت الديانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سبباً فى انتشارها من فوضى الشرك التى كانت تسود أرض الجزيرة . ويبدو أن اليهود الفاتحين عملوا لإحدى آلهة

كنعان(*) فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلها صارماً ،
 ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، ثم جعلوا لهذه الصفات حدوداً تكاد تبعث
 الحب في القلوب . ذلك أن هذا الإله لا يطلب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم
 بكل شيء ، وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها
 بدماء الكباش المضحاة لئلا يهلك أبنائهم على علم منه مع من يهلكهم
 من أبناء المصريين(٦١) . كذلك لا يرى أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن
 أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ؛ ولذلك تراه يندم بعد
 فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاول ملكاً . وتراه
 من حين إلى حين شرهاً ، غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلب الأطوار ،
 نزقاً نكداً : « أترأف على من أترأف ، وأرحم من أرحم »(٦٢) . وهو
 يرضى عما استخدمه يعقوب من ختل وخداع في الانتقام من لابان(٦٣) ،
 وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسف الذي يندفع في تيار السياسة .
 وهو كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ؛ وهو حي لا يسمح للناس
 أن يروا منه إلا ظهره(٦٤) . وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله
 آدمى في كل شيء كإله اليهود هذا .

ويلوح أنه كان في بداية الأمر إلهاً للرعدة يسكن الجبال(٦٥) ، ويعبداه الناس
 لما سبب الذي كان جوركي الشاب يؤمن من أجله بالله إذا أرعدت السماء . وحول
 كاتبو أسفار موسى الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ، إله
 الرعد هذا إلى إله للحرب ، فأصبح يهوه في أيديهم القوية إلهاً للجيش يدعو
 للفتح والاستعمار ، يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التي كان يحارب بها آلهة
 الإلياذة . وفي ذلك يقول موسى : « الرب رجل - حرب »(٦٦) . ويردد داود
 صدى هذا القول نفسه فيقول : « الذي يعلم يدي القتال »(٦٧) . ويعيد يهوه أن

(*) من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا
 عصر البرنز (٣٠٠٠ ق . م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو(٦٨) .

« يطرد الحويين والكنعانيين والحثيين » يطردهم : « قليلا ، قليلا » (٦٨) ،
 « ويزعج جميع الشعوب الذين تأق عليهم ، وأعطيتك جميع أعدائك مدبرين » ،
 ويقول إن الأرض التي فتحها اليهود ملك له وحده (٦٩) . وهو لا يقطع معهم
 ولا مع أعدائهم عهداً سخيماً ؛ ويعرف أن الأرض ، حتى الأرض الموعودة
 نفسها ، لا تنال إلا بجهد السيف ولا يحتفظ بها إلا بالسيف ؛ وهو إله حرب
 لأنه لا بد أن يكون إله حرب ؛ وتمرّ عدة قرون من الهزائم العسكرية
 والخضوع السياسي ، والتطور الأخلاقي ، حتى يستحيل هذا الإله إلى والد
 همل وإلى المسيح . وهو فخور معجب بنفسه كالهندي ، يتقبل الثناء
 ويشتمه ، ويحرض على أن يتباهى بقدرته على إغراق المصريين في البحر :
 « فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه » (٧٠) .
 وهو يرتكب في سبيل انتصار شعبه من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا
 اشمئزاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك العصر عنها ، وأمر شعبه بأن
 يرتكبوا هم هذه الوحشية ؛ فهو يذبح أمماً بأكملها راضياً مسروراً من عمله
 رضاء جلغر Gulliver وهو يقاتل من أجل لليت Lillput .

ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات موآب ، قال لموسى : « خذ جميع رؤوس
 الشعب وعلقتهم للرب مقابل الشمس » (٧١) ، وتلك هى أخلاق أشور بانيبال
 وأشور ، وهو يعرض رحمته على الذين يحبونه ويتبعون أوامره ، ولكنه يفعل
 ما تفعله جرائم الأوبئة الفتاكة : « أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء
 في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضى » (٧٢) ؛ وهو إله جبار يفكر في
 إهلاك اليهود على بكرة أبيهم لأنهم عبدوا العجل الذهبي (*) ؛ ويضطر موسى
 إلى أن يراجع حتى يملك عواطفه . فيقول الرجل لربه : « ارجع عن حمو
 غضبك واندم على الشر بشعبك » ، « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أن ننقل أقوال المؤلف كما هى وأن ذلك لا يدل
 على أننا نؤمن بها . (المترجم)

بشعبه» (٧٣). ثم يريد يهوه أن يفنى اليهود أصلاً وفرعاً لأنهم عصوا موسى ، وأكن موسى يستثير فيه عواطفه الطيبة ، ويأمره أن يفكر فيما يقوله الناس عنه إذا سمعوا بفعلته (٧٤) ، وهو يختبر قومه اختباراً قاسياً فيطلب إلى إبراهيم تضحية يا لها من تضحية ؛ ويعلم إبراهيم يهوه ، كما يعلمه موسى ، مبادئ الأخلاق السامية وينصحه ألا يهلك سلوم وعمورة ، إذا وُجد فيهما من الرجال خمسون ، أو أربعون ، أو ثلاثون ، أو عشرون ، أو عشرة صالحون (٧٥) . ولا يزال يفرى إلهه بالرحمة ، ويشرح له كيف يضطر الإنسان إلى أن يعيد تصوير أربابه لتتفق مع تطورات أخلاقه . وإن اللعنات التي يهدد بها يهوه شعبه المختار إذا ما عصاه لجديرة بأن تكون تماذج في القلح والسب ، ولعلها هي التي أوحى إلى الذين حرقوا الكفرة في محاكم التفتيش الأسبانية أو حكوا على اسبنوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا :

« ملعوناً تكون في المدينة و ملعوناً تكون في الحقل . . . ملعونة تكون ثمرة بطئك و ثمرة أرضك . . . ملعوناً تكون في دخولك و ملعوناً تكون في خروجك ، يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعلمه حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني ؛ يلصق بك الرب الوباء حتى يبيلك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . . . الخ يضربك الله بقرحة مصر وبالوباسير والحرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء ، يضربك الرب بمجنون وعمى وحيرة قلب . . . أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك » (٧٦) :

ولم يكن يهوه الإله الوحيد الذي يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده ، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه في الوصية الأولى من الوصايا العشر

هو أن يقوم مقامه فوق مقام سائر الأرباب : وهو يقر بأنه « إله غيور » ،
ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم ، وتكسير أنصابهم (٧٧) وإبادتهم . وقلبا كان
اليهود قبل إشعيا يفكرون في أن يهوه إله الأسباط جميعاً ، أو حتى إله
العبرانيين جميعاً ، فقد كان للموآبيين إلههم شمش ، وكان نعوى يظن أن
لا ضير من أن يظل راعوث على ولاته له (٧٨) . وكان بلزبوب إله
عكرون ، وملكهم إله عمون : ذلك أن النزعة الانفصالية التي كانت
تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية قد أدت بطبيعة
الحال إلى ما تستطيع أن تسميه استقلالاً دينياً . ويقول موسى في أغنيته
الشهيرة : « من مثلك بين الآلهة يارب (٧٩) » ويقول سليمان : « إلهنا أعظم
من جميع الآلهة » .

ولم يكن جميع اليهود ، اللهم إلا أعظمهم علماً ، يعبدون تموز إلهاً حقاً
فمحسب ، بل إن عبادته فضلاً عن هذا كانت في وقت من الأوقات منتشرة
في بلاد اليهود حتى لقد شكوا حزقيال من أن البكاء حزناً على تموز كان
يسمع في الهيكل (٨١) . لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من
استقلال كافين لأن تبقى لطوائفهم آلهتهم الخاصة حتى في زمن إرميا :
« على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » ، ثم يظهر النبي الحزين
غضبه على بني وطنه لأنهم يعبدون بعلا ومولك (٨٢) . فلما أن نشأت
الوحدة السياسية في أيام داود وسليمان ، وتركزت العبادة في الهيكل
بأورشليم ، أخذ الدين يردد أصدااء التاريخ والسياسة ، وأمسى يهوه إله
اليهود الأوحده . ولم يحط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هذه الخطوة ، وهي
أن لليهود إلهاً واحداً يعلو على آلهة غيرهم من البشر ، حتى كان زمن
الأنبياء (*) . على أن الديانة العبرانية حتى في هذه المرحلة اليهودية كانت أقرب

(*) لقد جهه إليشع في القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد « هو ذا قد عرفت
أنه ليس إله في كل الأرض إلا في إسرائيل (٧٣) » . وجدير بنا أن نذكر أن التوحيد حتى في
يومنا هذا إنما هو توحيد نسبي ناقص ، فكما كان اليهود يعبدون إلهاً قليباً ، فلنا نحن أيضاً =

إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل في عهد إخناتون . لقد كانت اليهودية تسمو كثيراً على غيرها من أديان ذلك الوقت في عظمتها وسلطانها ، وفي وحدتها الفلسفية ؛ وفيها تنطوى عليه من حماسة أخلاقية ومن أثر في نفوس أهلها ، وكانت تضارع في عواطفها وشعريتها شرك البابليين واليونان إن لم تفقه من هاتين الناحيتين . وهذا الدين القاسى المكتئب لم يتخذ له شيئاً من الطقوس المنمقة الاحتفالات المرححة التي كانت شائعة في عبادة الآلهة المصرية والبابلية . وكان يغشى التفكير اليهودى بأجمعه شعور بضالة شأن الإنسان أمام رب قادر يسير طوع أمره . وبقيت عبادة يهوه قرونًا كثيرة ديناً قوامه الخوف لا الحب ، والرغبة لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهود لكى يجمل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب . ولسنا ندرى ، إذا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا الدين وأمثاله ، هل عادت الأديان على الإنسانية بالسلوى بقدر ما عادت عليها بالفزع . إن الأديان التي تبعث في النفوس الأمل والحب لا تكون إلا متعة من منع الأمن والنظام ، ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التي سادت طويلاً بلاد اليهود . أما الحاجة إلى قذف الرعب في قلوب الشعب ، أو التأثيرين من الأوب الخاضعين لسلطانها ، فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخفاء والرعب .

ولقد كان تابوت العهد المحتوى على ملفات السنن والذى لم يكن يسمح لأحد بأن يمسه ، كان هذا التابوت رمزاً لطبيعة العقائد اليهودية . ولما مده عزرة الصالح يديه إلى التابوت ليمتنعه أن يسقط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة « حنى غضب الرب على عزرة وضربه الرب هناك لأجل أنه مده يده إلى التابوت فمات هناك أمام الله » (٨٤)

= نعبد إلهاً أوربياً - أو إلهاً إنجليزياً أو ألمانياً أو إيطالياً . ولا نمر بنا لحظة واحدة ننواضع فيها قليلاً فذكر أن الملايين الذين يسكنون الهند والصين واليابان - بله سكان الغابات المتفقهين في دهبهم - لا يمتزفون بدين آبائنا نحن وإن يكون للعالم كله إله واحد حتى نربط الآلات الأرض وتؤلف بنها ، وتجعلها وحدة اقتصادية ، وتجمع الأمم كلها في حكومة واحدة .

وكانت الخطيئة هي الفكرة الأساسية في الدين اليهودي . ولم ير العالم شعباً آخر أُولع بالفضيلة ولع اليهود - إلا إذا استثنينا طائفة المتطهرين الذين يحيل إلينا أنهم خرجوا من بين أسفار العهد القديم دون أن تسمهم الكتلركة الطويلة العهد بسوء ، ولما كانت الطبيعة البشرية ضعيفة و « السن » معقدة صعبة فلم يكن ثمة مفر من الوقوع في الخطيئة ؛ وكثيراً ما كانت الروح اليهودية تتلبد بالغيوم لما ينجم عن الخطيئة من سبيء العواقب ، كحبس المطر أو تدمير لإسرائيل بقضها وقضيضها . ولم يكن في هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن شيول أو « أرض الظلام » التي تحت الأرض لم تكن تقل هولاً عن هذا الجحيم . وكان يأتي فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبث ، ولا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وأخنوخ وإيليا . على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود ؛ وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . ولم تدر فكرة البعث في خلود اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض ، ولعلمهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلمهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين . ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية .

وكان يمكن اتقاء الخطيئة ونتائجها بالصلاة والتضحية ، وبدأت التضحية عند الساميين كما بدأت عند « الآريين » بالضحايا البشرية^(٨٥) ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحي « بأولى ثمرات القلعان » وباكورة الطعام الذي تنتجه الحقول ؛ ثم انتهى الأمر أخيراً بالاكتفاء بالتسبيح والثناء على الله . وكان الاعتقاد السائد في أول الأمر ألا يؤكل لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه ، وعُرض وقتاً ما على الإله^(٨٦) . وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية ، ولربما كانت ندية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفى فيها الإله بأخذ جزء

من كل ، وكان الحيض والولادة ، كالخطيئة . ، يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيراً إذا مراسم وتقاليد ، وتضحية وصلاة - ، على يد الكهنة ، وكأث المحرمات تحيط بالمؤمنين من كل جهاتهم ، كما كانت الخطيئة كامنة في كل شهوة من الشهوات ، وكان لا بد من الهبات للتكفير عن هذه الخطايا ، وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن التكفير عنها بهذه الوسيلة .

ولم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرايين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ . وكان هؤلاء طبة مغلقة لا يستطيع أحد أن ينتمى إليها إلا أبناء لبني (*) . ولم يكن من حقهم أن يرثوا مالا (٨٧) ، ولكنهم كانوا معفين من الضرائب وفرضة الرؤوس وسائر الإتاوات على اختلاف أنواعها (٨٨) . وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ، وينتفعون بما يبقى في الهيكل من القرايين التي لم تستنفدها الآلهة (٨٩) . ونمت ثروة الكهنة بعد نبي اليهود بنمو المجتمع اليهودي الجديد ؛ ولذا كانت هذه الثروة المقدسة قد أحسن القيام عليها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثاني في دمشق ، كما كان أمثالهم في طيبة وبابل ، أقوى من الملوك أنفسهم .

على أن نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لم يكفي لتكثير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ؛ بل ظلت قلة التلال ، والحراج مأوى للآلهة الأجنبية ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشروت ، أو تنبأ بالغيب على الطريقة البابلية . ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبي ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية (٩١) ، أو ترغم أطفالها على أن « يمجزوا في النار » من قبيل التضحية (٩٢) ؛ بل إن بعض الملوك أنفسهم مثل سليمان وأهاب كانوا « يتملقون » الآلهة الأجانب ، وقام

(*) أحد أبناء يعقوب .

رجال صالحون كإلينا وإليشع ينادون بإبطال هذه العادات ، وإن لم يصبحوا
بعد كهنة ، وحاولوا أن يهدوا الناس إلى طريق الحق باستقامتهم وحشهم على
الاقتداء بهم . ونشأ من هذه الأحوال والبدائيات ، ومن انتشار الفاقة
واستغلال الأهلين في إسرائيل ، عظماء الرجال في الديانة اليهودية ، نشأت
طائفة الأنبياء المتحمسين ، الذين ظهروا الدين اليهودي ، ورفعوا مقامه ،
وهيأوه للعلبة على أديان العالم العربي .

الفصل الرابع

المتطرفون الأولون

حرب الطبقات -- أصل الأنبياء -- عاموس وأورشليم -- إشعيا --
نذيره بالأغنياء -- عفيمة المسيح المنقاد -- أُر الأنبياء

لما كان الفقر يذشأ من الغنى ، ولما كان الفقراء لا يعرفون أنهم فقراء إلى حين يبصرون الأغنياء بعيونهم ، فلإن حرب الطبقات لم يندلع لها في إسرائيل إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروة سليمان الطائلة .

لقد تعجل سليمان ، كما تعجل بطرس الأكبر ولينين ، حينما أراد أن يحوّل البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية . وقد تطابقت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح ، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب ؛ ولما أن تمت بعد عشرين عاما من العمل المتواصل ، وُجدت في أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى في فلسطين كما كان أمثالهم في رومة فيما بعد . وكانت الأحياء القادرة تزداد شيئاً فشيئاً كلما تمت ثروة الأفراد وزاد ترف الحاشية ، وأصبح استقلال الشعب والربا عادة مألوقة بين أصحاب الضياع الكبرى والتجار والمرابين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عاموس إن الملاك « باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين » (١٣) .

وكانت الثغرة الآخذة في الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام قيام المدن الصناعية ، من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين مملكة إفرايم (*) الشمالية وعاصمتها السامرة ، ومملكة يهوذا

(*) كثير ما كان أهل هذه المملكة يسمونها مملكة « إسرائيل » ، ولكننا في هذا الكتاب سنطلق هذا اللفظ الأخير على اليهود جميعهم لا على هذه المملكة وحدها .

الجنوبية وعاصمتها أورشليم . ولتخذ الضعف من ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى في قلوبهم من اعتماد ، وما قام بينهم من نزاع كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمض على موت سليمان إلا زمن قليل حتى استولى شيشنق ملك مصر على أورشليم ، وحتى سلمت له كل ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التي فرضها على الشعب في أثناء حكمه الطويل .

وكان هذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسي ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الديني ، هو الذي ظهر فيه الأنبياء . ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبري (نبي) أول الأمر من طبقة عاموس وإشعيا الجديدة باحترامنا ؛ بل كان بعضهم من المثبتين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور . ومنهم متعصبون مهوسون يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموسيقية الغريبة أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدداويزش ، ينطقون في أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها أصحابهم وحياً أوحى إليهم : أى بثتها فيهم روح غير روحهم^(٩٥) . وقد سخر إرميا حرية لاذعة من « كل رجل مجنون ومتنبي »^(٩٥) . وكان منهم من هوانسك نكد كليل ؛ ومنهم كثيرون يهشون في مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل ، ولكن معظمهم كانت له أملاك خاصة وزوجات^(٩٦) . ومن هذا الحشد الكبير من الذسك خرج أنبياء بنى إسرائيل وأصبحوا على مر الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم ثابتين على نقدهم . عارفين بالتبعة الملقاة عليهم ؛ وسياسيين ممتازين يسوسون بلادهم في الخفاء « أشد الناس معارضة للكهنة »^(٩٧) . و « ألداهم عداء للسامية »^(٩٨) ، وكانوا مزيجاً من العرافين والاشتراكيين . ونحطى أشد الخطأ إذا عددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ ؛ لقد كانت نبوءاتهم ، إن صح أن نسميها نبوءات ، مزيجاً من الوعد والوعيد ، أو عبارات دالة على التقى والصلاح ، يحشرونها في

أقوالهم حشراً^(٩٩) ، أو إشارات إلى حوادث بعد وقوعها^(١٠٠) ، ولم يكن
لأنبياء أنفسهم يدعون أنهم يعلمون من الغيب ما يستطيعون أن ينطقوا به ؛
بل كانوا أشبه الناس بالمعارضين البلقاء في إحدى الحكومات الدستورية
الحديثة ؛ وكانوا من بعض نواحيهم تلتسوين^(١٠١) . ثائرين على الاستغلال
الصناعي والخداع الكهنوتي ؛ خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون
اللعنات على ثراء الحواضر الفاسدة .

وقد قال عاموس عن نفسه إنه لم يكن نبياً وإنما كان راعياً ريفياً
ساذجاً ؛ فلما أن ترك قطيعه ليشهد بيت إل ؛ هاله ما شاهده فيه من تعقد الحياة
تعقداً غير طبيعي ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن منافسة مريرة
قاتلة ، وقسوة في استغلال الناس . فلما رأى هذا « وقف بالباب » وأخذ
يصب غضبه على ذوى الثراء المنغمسين في الترف الذين لا يرعون في الناس
عهداً ولا ذمة .

« من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قبح ، بنيتكم بيوتاً
من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون
خمرها . . . ويل للمستريحين في صهيون ، . . . أنتم . . . المضطجعون على أسرة
من العاج والتمتعون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولاً من
وسط الصبرة ، المذرون مع صوت الرباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء
كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر ، والذين يدّهنون بأفضل الأدهان . . .
« كرهت أعيادكم . . . إني إذا قدّمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى . . .
أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع ، وليجبر الحق كالنياه ، والبر
كهر دائم »^(١٠١) .

تلك نغمة جديدة في آداب العالم . نعم إن عاموس يثلّم حد مثاليته ، بما ينطق
به إلهه من وعيد كالتيار الجارف لا يستطيع القارئ لكثيرته وشدة أنه يحاجز نفسه

(*) أى أشبه بتولستوى الفيلسوف الروسى . (المترجم)

عن العطف في بعض اللحظات على شاربى الخمر ومستمعى الموسيقى . ولكننا هنا نرى الضمير الاجتماعى لأول مرة في آداب آسية يتخذ صورة محددة واضحة ويفيض على الدين بما يرفعه من دين حفلات وملق إلى دعوة للنيل وحث على مكارم الأخلاق ، وما من شك في أن إنجيل المسيح يبدأ في الحقيقة بظهور عاموس (*) .

ويبدو أن نبوءة من أشد نبوآته إيلاماً تحققت وهو لا يزال حياً :
« هكذا قال الرب . كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ،
هكذا ينزع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة في زاوية السرير وعلى دمس
القراش . . . فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة » (١٠٢) (**) ،
وقام نبى آخر حوالى ذلك الوقت نفسه يهدد السامرة بالخراب في عبارة من
تلك العبارات الواضحة المأثورة التى صاغها المترجمون في عهد الملك جيمس
من كنوز التوراة ليردها الناس في حديثهم كل يوم . قال هوشع : « إن
عجل السامرة يصير كسراء ، لأنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة » (١٠٤) ،
وفي عام ٧٣٣ هددت إفرايم وحليفها سوريا ، بمملكة يهوذا الناشئة ،
فاستغاثت هذه بأشور . فأغاثتها واستولت على دمشق ، وأخضعت سوريا
وصور وفلسطين وأرغمتها على دفع الجزية ، وعرفت ما يبذله اليهود من
جهود للحصول على معونة مصر ، فعزت البلاد يهوذا (١٠٥) ، وعجزت
عن الاستيلاء على أورشليم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى متقلة بالغنائم ومعها
٢٠٠٠ ر ٢٠٠ من أنرى اليهود ليكونوا عبيداً للأشوريين (١٠٦)

(*) مجدر بالقارئ أن يرجع إلى كتاب « فجر الضمير لبرسنس لبوازي بين ما فيه وبين ما ورد في هذه الأقوال فإن برسنس يرجع بداية هذه الدعوة إلى المصريين الأقدمين . (المترجم)
(**) واضح أنه يشير هنا إلى الحجرة التى بنيت كلها من العاج في قصر السامرة الذى كان يقيم فيه الملك أدب مع ملكته إيزابل (حوالى ٨٧٥ - ٨٥٠ ق . م) وقد عثرت بعثة مكتبة هارفرد في خرائب قصر يقال إنه قصر أهاب على عدد من قطع العاج (١٠٣) .

وفي أثناء حصار أورشليم أصبح النبي إشعيا من أعظم شخصيات التاريخ العبري (*). وكان إشعيا أوسع أفقاً من عاموس ، ولذلك كانت آراء أولهما أبقى أثراً في السياسة من آراء الثاني . ولم يكن يشك في أن يهوذا الصغيرة لا تستطيع الوقوف في وجه آشور الجبارة ذات السلطان الواسع ولو أعانتها مصر البعيدة — تلك القصبية المرضوضة التي تدمى يد من يحاول أن يمسكها ليدفع بها عن نفسه — فأخذ يتوسل إلى الملك أهاز ثم إلى الملك حزقيا أن يظلا على الحياد في الحرب القائمة بين آشور وأفرايم . ذلك أنه لم يكن يشك — كما لم يكن عاموس وهوشع يشكان — في أن السامرة (١٠٨) لا بد ساقطة ، وأن المملكة الشمالية مقبلة على آخر أيامها . فلما أن حاصر الآشوريون أورشليم أشار إشعيا إلى حزقيا ألا يسام المدينة . وبدأ أن انسحاب جيوش سنحريب المفاجئ مبرر قوى لهذه النصيحة . ومن ذلك علا شأنه زمناً ما لدى الملك والشعب على السواء . وكان ينصح على الدوام بأن يعامل الناس بالعدل ، وأن يترك أمرهم بعد ذلك إلى يهوه ، فيستخدم آشور أداة له يؤدبهم بها ، ولكنه سيهلكها هي نفسها في آخر الأمر . وكان من أقواله أن يهوه سيقضى على جميع الأمم المعروفة له ، وهو يقول في بعض فصول سفره (من الأصحاح السادس عشر إلى الثالث والعشرين) إن موآب وسوريا وإثيوبيا ومصر سيكون مصيرها الدمار و «كلها يولول» (١٠٩) ، وهذا الدمار بالخراب وهذه اللعنات المتكررة تفسد ما في سفر إشعيا من جمال ، كما تفسد كل ما في التوراة كلها من نبوءات ، ولولاها لكانت من أجمل ما كتب في الأدب :

على أن تشهيره هذا إنما ينصب على ما يجب أن ينصب عليه — على الاستغلال الاقتصادي والشراسة ، فهو إذا تحدث عنهما سماً في حديثه إلى أرقى

(*) يتكون الكتاب الذي يحمل اسمه من مجموعة من «التنبؤات» (أي المواعظ) كتبها مؤلفان أو أكثر من مؤلفين عاشا في الفترة المحصورة بين ٨١٠ ، ٣٠٠ ق. م (١٧٠) وتتميز الفصول من ١ إلى ٣٩ عاد إلى «إشعيا الأول» الذي نتحدث عنه في هذه المصنفات .

ما وصل إليه الأدب في أسفار العهد القديم ، في فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر في أدب العالم كله :

« الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم ، وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس في بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين ؟ . . . ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً ، ويقرنون حقلاً يحقل حتى لم يبق موضع . فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض ! . . . ويل للذين يقضرون أفضية البطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائس شعبي لتكون الأراذل غنيمة لهم ، وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي الهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة ؟ وأين تتركون مجدكم ؟ » (١١٠) .

وهو يزدرى أشد الازدراء من يتظاهرون في العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء :

« لماذا لي كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب انخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . . . رؤوس شهورك وأعبادكم بغضتها نفسي . صارت على ثقلاً . ملأت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم . وإن كثرت الصلاة لا أسمع . أيديكم ملأت دماً . اغتسلوا تنقوا . أعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني ، كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . أنصفوا المظلوم . اقضوا لليتيم . حاموا عن الأرملة » (١١١) .

وهو ممثلي القلب حقداً ، ولكنه غير يائس من شعبه ؛ وكما أن عاموس قد ختم مواعظه بنبوءة ، يحاول اليهود الآن تحقيقها وهي عودتهم إلى فلسطين (١١٢) ، كذلك يختم إشعيا مواعظه بترديد أمل اليهود في ظهور من يقضي على ما بينهم من انقسام سياسي ، وخضوع للأجنبي ، وما هم فيه من بوأس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام :

« ها ! العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل . . لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً : أباً أبدياً ، رئيس السلام . . . ويخرج قضيب من جذع يسي . . ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة وخافة الرب . . . يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لهابسي الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفثيه ، ويكون البر منطقة مثنيه ، والأمانة منطقة حقويه ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض الغر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبي صغير يسوقها . . . فيطبعون سيوفهم سكاكاً ، ورماحهم مناجل ولا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » (١١٣) .

ذلك إلهام جد عجيب ؛ ولكنه إلهام لن يعبر عن مزاج اليهود حتى تمر بهم أجيال كثيرة . وكان كهنة الهياكل ينصبون بعطف مكظوم إلى هذه الدعوة النافعة التي تحت الناس على التقى والصلاح ؛ وكانت شيع من اليهود تتطلع إلى هؤلاء الأنبياء تتلقى عنهم هذه الدعوة الملهمة ، ولعل هذه الأقوال التي تدعوهم إلى نبذ الشهوات الجسدية كان لها بعض الأثر في تقوية ما أوجدته الصحراء في اليهود من نزعة إلى التزمّت في الدين ، غير أن حياة القصور والحيام ، والأسواق والختول ، ظلت في أغلب الأحيان تجري على سننها القديم ، فكانت الحرب تفضى على من تصطفى من كل جيل ، وظل الاسترقاق مصير الغريب ، وظل التاجر يطفف الكيل ويغش في الميزان ، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة (١١٤) .

وترك الأنبياء أعمق آثارهم في يهودية ما بعد التقى ، ثم في العالم كله عن طريق اليهودية والمسيحية . وفي أسفار عاموس وإشعيا نرى بداية المسيحية والاشتراكية والمعين الذي فاضت منه الدعوات إلى إقامة عالم مطهر من الشرور يطوف به طائف الفقراء والحرب فيكدر ما فيه من أخوة وسلام . وهذه الأسفار هي منشأ العقيدة اليهودية الأولى التي تقول بمجيء مسيح

يقبض على زمام الحكم ، ويعيد إلى اليهود سلطانهم الديوى ، ويجعل الصعاليك المملقين الحاكين بأمرهم فى العالم كله . وكان لإشعيا وعاموس هما اللذان بدأ فى عصر الحروب بمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها عيسى أساماً جوهرياً لدينه . وكانا أول من اضطلع بذلك العبء الثقيل عبء تحويل رب الجنود إلى إله حب ، وهما اللذان جندا يهوه واستعاناه على نشر المبادئ الإنسانية ، كما جند المسيح متطرفو الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر ليستعيناه على نشر المبادئ الاشتراكية . وهما اللذان بثا فى عقول الألمان - بعد أن طبعت التوراة فى أوروبا - الإيمان بمسيحية جديدة وأوقدا شعلة الإصلاح الدينى ، وكانت فضائلهم القوية غير المتسامحة هى التى أخرجت طائفة المتطهرين المسيحيين . وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أجدر من غيرها بالتسجيل - وهى أن الطيب سوف يوفق وينجح ، وأن الخبيث سوف يصرع ، وقد تكون هذه نظرية مخادعة ، ولكن ما فيها من خداع - إن كان فيها خداع - هو خداع العقل النبيل . ولئن كان هؤلاء الأنبياء لا يتصورون الحرية أو يفكرون فيها ، فإنهم كانوا يحبون العدالة ويدعون إلى القضاء على ما كان يضعه الأسباط من قيود على الأخلاق الطيبة . ولقد أقاموا أمام البائسين فى العالم أملاً فى التآخى كان تراثاً غالياً ، ظلوا يتوارثونه على مدى الأجيال (*) .

(*) يبين القارئ من هذا الفصل أن دولة اليهود لم تتمك فى فلسطين فى الزمن القديم لإلافترة وجيزة ، فقد قامت فى عهد شاول وبلغت أوجها فى عهد خلفه داود ودب فيها الضعف فى عهد سليمان وانقسمت من بعده ثم زالت زوالاً سريعاً من الوجود . ترى هل هذه الفترة الوجيزة تكفى لأن تجعل لليهود اليوم حقاً فى الاستيلاء على فلسطين وإخراج أهلها منها بعد أن قاموا فيها أربعة عشر قرناً من الزمان ؟ هذا والله منطلق غريب لو صبح لكان من حق العرب أن يستولوا على أسبانيا ، جزء كبير من فرنسا وصقلية وجنوب إيطاليا وقد حكموا بعضها أكثر مما حكم يهود فلسطين . (المترجم)

الفصل الخامس

موت أورشلیم وبعثها

مولد التوراة - تدمير أورشلیم - الأسر البابلی - إرمیا -
حزقیال - إشعیا الثاني - تحریر اليهود - الهيكل الثاني .

كان أهم أثر للأنبياء في معاصريهم هو كتابة التوراة . وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، فأخذ الكهنة يتساءلون ألم بأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية . ورأوا الأنبياء يعززون إلى يهوه ما يحيش في صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها ، فاعزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه في صورة سنن إلهية تبعث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معونة الأنبياء ، وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف . وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك يوشيا . فلما كانت السنة الثامنة عشرة أو نحوها من حكمه أبلغ الكاهن خلتيا الملك أنه « وجد » في سجلات الهيكل ملفاً عجيباً قضى فيه موسى نفسه في جميع المشكلات التاريخية والخلقية التي كانت مثار الجدل العنيف بين الأنبياء والكهنة . وكان لهذا الكشف أثر عظيم في نفس القوم ، فدعا يوشيا كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم فيه « سفر الشريعة » في حضرة آلاف من الشعب (حسبما تقول الرواية) ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء في هذا السفر « وأوقف كل الموجودين في أورشلیم وبنيامين فعمل سكان أورشلیم حسب عهد الله » (١١٥) .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا . فقد يكون سفر الخروج من الأصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر تثنية الاشتراع (١١٦) ؛ وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع في تلك

الساعة ؛ فكل ما فيه أنه يقن ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد . ومهما يكن مصدرها فإن الذين استمعوا لها وهى تقرأ عليهم ، أو سمعوا بها ولم يكونوا حاضرين وقت قراءتها ، قد تأثروا بها أشد الأثر . واغتم الملك يوشيا هذه الفرصة السانحة فاستعان بهذه العواطف الجياشة على تحطيم مذابح الآلهة المنافسين ليهوه فى يهوذا ، وأخرج « من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل » ، « ولاشى كهنة الأصنام . . . والذين يوقدون للبعل ، لاشمس وللقمر والمنازل ولكل أجناد السماء » و « نَجَسْ ثُوفَهُ . . . لِكَيْلَا يُعَبَّرَ أَحَدُ ابْنِهِ أَوْ ابْنَتُهُ فِي النَّارِ لِمَوْلَاكَ . وحطم المذابح التى بناها سليمان لعموش ، وللمكوم ، ولعشتورت » (١١٧) .

ويبدو أن هذه الإصلاحات لم ترض يهوه فتحمله على أن يقدم المونة لشعبه . نعم إن نينوى قد سقطت كما قال الأنبياء ، ولكن سقوطها لم يكن له من أثر إلا أن ترك يهوذا خاضعة لحكم مصر أولاً ثم لحكم بابل فيما بعد . ولما أن حاول نخاو ملك مصر أن يمر بفلسطين فى زحفه على سوريا وقف يوشيا فى وجهه عند مجدو حيث كانت الواقعة القديمة المشهورة ظناً منه أن إلهه سيعينه على خصمه ، ولكنه هُزم وقُتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على نخاو فى قرقيش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل . وحاول حالفاء يوشيا ، بالوسائل الدبلوماسية السرية ، أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل ، وأرادوا أن يستعينوا فى سعيهم هذا بمصر ، ولكن نبوخذ نصر عالم بالأمر ، فزحف بجيوشه على فلسطين ، واستولى على أورشليم ، وأسر الملك يهوياقيم ، ورفع صديقا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود . ولكن صديقا كان أيضاً محباً للحرية أو للسلطان فخرج على بابل ، فعاد إليه نبوخذ نصر معزماً أن يحل المشكلة اليهودية حلاً نهائياً كما يظن ، فاستولى مرة أخرى على أورشليم وحررها عن آخرها وهدم هيكل سليمان وقتل أبناء صديقا أمام عينيه ،

ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع سكان المدينة تقريباً وساقهم أمامه إلى بابل (١١٨) . وقد خلد أحد شعراء اليهود فيما بعد ذكرى هذه القافلة البائسة في أغنية من أروع أغاني العالم قال :

على أنهار بابل جلسنا وبكىنا على ذكرى صهيون
وفي وسط الصفصاف علقنا أعوادنا

لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم ، والذين عذبونا
أرادوا أن نطربهم ، ونادونا هلاً أنشدتونا أحد أناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن نشد نشيد الله في بلد غريب ؟
ولئن نسيبتك يا أورشليم فلتنس يميني حلقها
هـ ليلتصق لساني بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكوني لدى خيراً من أفراسي (١١٩) .

وفي هذه الأزمة كلها ظل إرميا أفصح الأنبياء وأشدّهم حقداً على قومه
يدافع عن بابل ويعان في الملأ أنها سوط عذاب في يد الله ، ويتهم حكام يهوذا
بأنهم بلهاء معاندون ، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذ نصر ؛
حتى ليكاد من يقرأ أقواله في تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين ؛
انظر إلى قول إرميا على لسان ربه :

« إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض
بقوتي العظيمة وبذراعي المملودة وأعطيها لمن حسن في عيني ، والآن قد
وقعت كل هذه الأراضي بيد نبوخذ نصر ملك بابل عبدى . . . فنخدمه
كل الشعوب . . . ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ نصر
ملك بابل ، والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إني أعاقب تلك الأمة
بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده » (١٢٠) .

قد يكون هذا الرجل خائناً أو لا يكون ، أما من الناحية الأدبية فلإن كتاب

نبوءاته التي يقال إنه تلقاها عنه تلميذه باروخ ليعده من أبلغ ما كتب في الآداب كلها ومن أعظمها قوة ؛ وذلك لما فيه من تصوير حي واضح وتأنيب شديد لا رحمة فيه ولا هوادة . وفيه فوق ذلك إخلاص يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياح شريف في خطته وفي حياته كلها من بدايتها إلى نهايتها : « ويل لي يا أمي لأنك ولدتي إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ، لم أقرض ولا أقرضوني ، وكل واحد يلعني ... ملعون اليوم الذي ولدت فيه » (١٢١) .

واشتعلت في صدره نيران الغضب حين رأى ما عليه قومه وزعمائهم من انحطاط في الأخلاق وحق في السياسة . ورأى فرضاً عليه أن يدعو بني إسرائيل إلى التوبة والندم . وخيل إلى إرميا أن كل ما يشهده من انحلال قومي ، وضعف سياسي ، وخضوع للأجنبي ، وقد أنزله يهود باليهود عقاباً لهم ما ارتكبوا من الذنوب . « طوفوا في شوارع أورشليم ، وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا في ساحاتها ، هل تجدون إنساناً ، أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفيح عنها » (١٢٢) . لقد ساد الظلم في كل مكان وعم الفسق والفجور : ولما أشبعهم زنا ، وفي بيت زانية تزاخوا ، صاروا حصناً ملعوناً سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » (١٢٣) . ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سراة المدينة أن يسترضوا يهود فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما أن رفع الحصار فترة قصيرة من الوقت ، وخيل إليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . لقد كانت هذه فترة جمعت من تاريخ الإنسانية ما لم يستطع إرميا أن يقف أمامه صامتا ساكنا لا يبدي حراكا (١٢٤) ، فأخذ كغيره من الأنبياء يتوعد المنافقين الذين يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتق والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح للفقراء وطحن عظامهم ، ويذكروهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القربان بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين (١٢٥) ، وهو يرى أن الكهنة والأنبياء لا يكادون يقلون فسادا

عن التجار ، وألهم كالشعب نفسه في حاجة إلى أن تطهر أخلاقهم أو تصاغ من جديد ، وأن يختنوا في أزواجهم كما يختنون في أجسامهم كما يقول إرميا بعبارته العجيبة : « اختنوا للرب وأنزعوا غمركل قلوبكم (١٢٦) » .

وكان هذا النبي يخطب قومه : « بما كان منتشرأ بينهم من فساد بالفاظ من نار لا يعادها في شدتها إلا خطف الفديسين في جنيفا واسكتلندة وإنجلترا في عهد الإصلاح الديني . فكان يسب اليهود أقذع سباب ويصورهم وهو جذلان ما سيحل بمن لا يستمعون إليه من هلاك (١٢٧) . وكم من مرة تنبأ لهم بتخريب أورشليم وسبهم على يد البابليين ، ورثى لما سيحقيق بالمدينة (التي يسميها بنت صهيون) من قضاء محتوم بعبارات ما أشبهها بعبارات المسيح : « يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع ، فأبكي ليلا ونهارأ قتلى بنت شعبي (١٢٨) » .

وخيل إلى الأمراء ن حاشية صدقيا أن هذا كله غدر بالوطن وخيانة له وتفريق لآراء اليهود وأزواجهم في ساعة المحنة . ولكن إرميا لم يعبأ بأقوالهم وأخذ يسخر منهم فحمل نيرا خشبياً فوق عنقه ، وأخذ يقول إن يهوذا كلها يجب أن تخضع لنير البابليين ، وإن الخير لها أن يكون خضوعها هذا خضوعاً سلمياً بلا حرب ولا قتال : ولما انتزع منه ضانيا نيره صاح قائلاً إن يهوذا سيصيب لكل يهودي نيرا من حديد . وحاول الكهنة أن يشوه عن عمله هذا بوضع رأسه في الدهق ، ولكنه وهو في هذا الوضع ظل يشهر بهم ، فما كان منهم إلا أن يستدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه ، غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة . ثم قبض عليه الأمراء وربطوه في جبال وأنزلوه بها في بئر مملوءة بالوحل ، ولكن صدقيا تخفف هذا العقاب بأن سجنه في فناء القصر ، وفيه وجده البابليون حين سقطت أورشليم في أيديهم ، وأمر نبوخذ نصر رجاله أن يحسنوا معاملته ، وأن يعفوه من قرار النفي العام . وتقول إحدى الروايات الموثوق بها إنه كتب « مراثيه » في آخر أيامه (١٢٨) ! وهذه المراثي هي أبلغ أسفار العهد القديم بأجمعها

وقبها أخذ يندب نصره الكامل وما حل بأورشليم من دمار ، ورفع إلى السماء ذلك السؤال الذى سألَهُ أيوب ولم يجد له جواباً :

كف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب ١ كيف صارت كآرملة العظيمة ٢ فى الأمم ؟ السيدة فى البلدان صارت تحت الحزبة ١ . . أما إليكم يا جميع عابرى الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى . . أنت يارب أبرّ من أن أخاصمك ، لكن أكلملك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار ؟ اطمأن كل الغادرين غداً (١٢٩) .

وفى هذه الأثناء كان خطيب آخر فى بابل يحتمل عن إرميا عبء النبؤ ، وهما الخطيب هو حزقيال . وكان حزقيال هذا رجلاً من أسرة الكهنة سبقت إلى بابل فى أيام السبي الأول من أورشليم . وبدأ خطبه كما بدأها إشعيا الأول وإرميا مننداً أشد التنديد بما شاع فى أورشليم من وثنية فى الدين والخلال فى الأخلاق . وشبه أورشليم بالزانية . وأخذ يبدئ فى ذلك ويعيد ، لأنها باعت عبادتها للآكلة الغرباء (١٣٠) ، وشبه السامرة وأورشليم بزانيتين توأمن . وكانت هذه الكلمة تجرى على لسانه كما كانت تجرى على ألسنة الكتّاب المسرحيين أيام عودة آل استيورت إلى عرش إنجلترا . ووضع ثبناً طويلاً بذنوب أورشليم ثم قضى عليها بالتحريب والسقوط فى أيدي الأعداء . وفعل ما فعله إشعيا ، فأدان الأمم كلها من غير تمييز بينها ، وشهر بخطأ وآب وصور ومصر وأشور وألذرها بالهلاك والسقوط . وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التدمير (١٣١) ، ولكنه لم يكن فى قلبه من الحقد عليها ما كان فى قلب إرميا ، فقد رقى قلبه لها . فى آخر الأمر وأعلن أن الله سينجى « بقية » من اليهود وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية (١٣٢) . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصوّر قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكامة العليا والمقام الأعظم ، يقيم بها يهود مع شعبه أبداً الدهر .

وكان يرجو أن يُبنى هذه الخاتمة السعيدة على نفسية بني وطنه المنفيين ويؤخر اندماجهم في الثقافة البابلية وفي الدم البابلي . فقد خيل إليه كما يخيل إلى غيره في هذه الأيام أن هذا الاندماج سيقضى على وحدة اليهود وعلى كياناتهم أيضاً ، ذلك أنهم قد أثروا وحسنت حالهم في أرض الجزيرة الغنية ، حيث كانوا يتمتعون بقسط موفور من الحرية في عاداتهم ، وسرعان ما زاد عديدهم ونمت ثروتهم ، وأيسروا فيما عاد به عليهم خضوعهم من هلدوء ووفاق لم يتعودوها من قبل . وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية ، وتآلف الأساليب الشهوانية الشائعة في العاصمة القديمة ، حتى إذا كان الجيل الثاني من أبناء المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت أو كادت تمحى من أذهانهم .

وقد رأى المؤلف المجهول ، الذي أخذ على عاتقه أن يكمل سفر إشعيا ، أن يعيد ذلك الجيل المرتد إلى دين إسرائيل . وكان مما يمتاز به هذا المؤلف وهو يعمل على إعادتهم إلى دينهم القديم أن يرق بهذا الدين إلى مستوى رفيع لم يرق إليه دين من الأديان التي ظهرت في الشرق الأدنى حتى ذلك الوقت (*) ، فبينما كان بوذا في الهند ينادى بقمع الشهوات ، وبينما كان كنفوشيوس في الصين يصوغ الحكمة لشعبه ، كان « إشعيا الثاني » هذا يعلن لليهود المنفيين في نثر جزل ومشرق مبادئ التوحيد ، ويعرض عليهم لها جديداً شقيقاً عليهم رحيماً بهم ، يفوق في شفقته ورحمته ما كان عليه يهوه الغضوب كما صورته إشعيا الأول نفسه . وشرع هذا النبي العظيم يعلن في الناس رسالته بعبارات اختارها أحد الأناجيل المتأخرة ليستحث بها المسيح الشاب على أن يؤدى هو الآخر رسالته . ولم تكن هذه

(*) ولستأ نعرف شيئاً من تاريخ هذا الكاتب الذي اختار أن يتحدث على لسان إشعيا ، وهى طريقة أدبية كانت شائعة في ذلك الوقت . وكل ما نستطيع أن نحزره من أمره أنه كتب قبيل تحرير اليهود على يد قورش أو بعيد هذا التحرير . ويمزو دارسو التوراة إلى هذا الكاتب الأصحاحات من ٤٩ إلى ٥٥ كما يمزون إلى كاتب آخر مجهول أو كتاب مجهولين الأصحاحات من ٥٦ إلى ٦٦ (١٣٢) .

الرسالة الجديدة هي صلب الآعنات على الشعب لما ارتكب من الذنوب . بل كانت تهدف إلى بث الأمل في قلوبهم أيام استبعادهم . « روح السيد الرب علىَّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب مكسوري القلب ، لأنادي بالمسبيين بالعتق وللأسورين بالإطلاق (١٢٣) » ، فقد وجد هذا الكاتب أن يهوه ليس إله حرب وانتقام بل أباً محبباً ؛ وملاء هذا الكشف الجديد سعادة ، وأوحى إليه أناشيد فخمة ، فأخذ يبشر بالإله الجديد منقذ شعبه .

« صوت صارخ في البرية ، أعدوا طريق الرب ، قوموا في القفر سبيلا لإلهنا ، كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وبصير المعوج مستقيماً ، والعراقيب سهلاً (*) » ... هوذا الرب بقوة يأتي ، وذراعه تحكّم له ... كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان ، وفي حضنه يحملها ، ويقود المرضعات » . ثم يبشر هذا النبي بالمسيح المنقذ ، ويرفع من شأن هذه البشرية حتى تصير من الآراء السائدة بين شعبه ، ويصف « الخادم » الذي سينجي إسرائيل بالتضحية الأئمة :

« محترق ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ... محترق فلم نعتد به . لكن أحزاننا حملها ، وأوجعنا تحملها ، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلّولاً . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبمجبره شفيئنا ... والرب وضع عليه إثم جميعنا » (**) (١٢٤) .

ويقتبأ إشعيا الثاني بأن بلاد الفرس ستكون أداة هذا التحرير . وينادي بأن قورش رجل لا يقهر وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعودون إلى اورشليم ويشيدون هيكلًا جديدًا ومدينة جديدة تكون جنة بحق . « الذئب والحمل يرعيان معاً ، والأسد يأكل التين كالبقرة ، أما الحية فالتراب طعامها ،

(*) لعله يشير بهذا القول إلى الطريق الممتد من بابل إلى اورشليم .

(**) لا ترى البحوث الحديثة أن لفظ « الخادم » هنا نبوءة بالمسيح (١٢٤) .

لا يُؤذون ولا يُهلكون ، في كل جبل قدسى يقول الرب « (١٣٥) . ولعل الذى أوحى إلى هذا النبى فكرة وجود إله واحد لا يكون كله هو نهضة الفرس وانتشار قوتهم ، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها ، وجمعها فى وحدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حكما من أى نظام اجتماعى عرفه الناس من قبل . وهذا الإله لا يقول كما كان يقول يهوه :

« أنا الرب إلهك . . . لن تكون لك آلهة غريبة أمامى » بل يقول الآن :
« أنا الرب وليس آخر لا إله سواى » (١٣٦) . ويصف النبى الشاعر هذا الإله العالمى فى فقرة من أروع فقرات للتوراة :

« من كان بكفيه المياه ، وقاس السموات بالشبر ، وكال بالكيل تراب الأرض ، ووزن الجبال بالثقبان ، والآكام بالميزان .. هو ذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان ... هو ذا الجزائر يرفعها كدقعة ... كل الأمم كلا شيء قدامه من العدم والباطل تحسب عنده . فيمن تشبهون الله ؟ وأى شبه تعادلون به ؟ ... الجالس على كرة الأرض وسكانها كالخندب ، الذى ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن ... ارفعوا إلى العلاء عيونكم ، وانظروا من خلق هذه » (١٣٧) .

وكانت ساعة من أروع الساعات فى تاريخ إسرائيل حين دخل قورش بابل فاتحاً عالمياً بعد طول انتظار ، وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . ولكنه خيب رجاء بعض الأنبياء وأظهر ما كان فى طباعه من حضارة أرقى من حضارتهم ، إذ ترك بابل وشأنها ولم يمس أهلها بسوء ، وأظهر خضوعه لأهلها ، وإن كان فى الواقع خضوعاً مشكوكاً فيه . كذلك أعاد قورش لليهود ما كان باقياً فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما نبوخذ نصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجونه فى اثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم . ولم يتحمس شباب اليهود

لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقنوا في التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا في ترك حقولهم الحصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة في المدينة المقدسة . ومرت سنتان بعد مجيء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التي دامت ثلاثة شهور إلى الأرض التي خرج منها آباؤها قبل ذلك الوقت بمائة عام (١٢٨)

ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيباً كبيراً في وطنهم القديم ، كما لا يجد العائدون إليه في هذه الأيام . ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا في تلك البلاد ، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها ، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغربين على بلادهم وحقولهم ، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة التي كانت تحمي اليهود العائدين لما استطاعوا أن يستقروا في فلسطين . وأذن دارا الأول ملك الفرس للأمير زراً بابل أن يعيد بناء الهيكل ، واستطاع هو وشيعته أن يتموا بناءه بعد اثنتي عشرة سنة من هودة اليهود ، رغم قلة عدد أولئك المهاجرين وضآلة مواردهم ، ورغم ما كانوا يصادفونه من عقبات في كل خطوة يخطونها بسبب هجمات الأهلين المعادين لهم وتأمرهم عليهم ، وعادت أورشليم كما كانت مدينة يهودية شيئاً فشيئاً ، وترددت في الهيكل أصدااء الأناشيد التي كانت تتغنى بها بقية منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق قوتها .

الفصل السادس

أهل الكتاب

سفر الشريعة - تأليف الأسفار الخمسة - أساطير « التكوين » - الشريعة
الموسوية - الوصايا المشر - فكرة الله - السبت - الأسرة اليهودية
قيمة الشرائع الموسوية

لم يكن في وسع اليهود بعد عودتهم أن يقيموا لهم دولة حربية ، ذلك أنهم لم يكن لهم من العدد ومن الثروة ما يمكنهم من إقامة هذه الدولة . ولما كانوا في حاجة إلى نوع من الإدارة يعترفون فيه بسيادة الفرس عليهم ويهيئ لهم في الوقت نفسه سبيل الوحدة القومية والنظام ، فقد شرع الكهنة في وضع قواعد حكم ديني يقوم كما كان يقوم حكم يوشيا على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم ، وعلى أوامر الله . وفي عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا ، وهو كاهن عالم ، اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » . وظل هو وملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه ومبادئ خلقية يسировن على هديها ويطيعونها إلى أبد الأبد (١٢٩) . وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذي تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تنقيسُهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر في تاريخ العالم .

تُرى ماذا كان « كتاب شريعة موسى » هذا ؟ لم يكن هذا الكتاب هو بعينه « كتاب العهد » الذي قرأه يوشيا من قبل ، لأن هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين في يوم واحد ، على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع (١٣٠) كامل . وكل ما في وسعنا

أن نفعله هو أن نخزر أن الكتاب الكبير كان يحتوي على جزء هام من أسفار العهد القديم الخمسة يسميها اليهود «تورة» ويسميها غيرهم البنتاتوش أو الأسفار الخمسة (١٤١).

كيف كتبت هذه الأسفار؟ ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد، ويجب أن نفرغ منه هنا في فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب:

إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة كلتاهما عن الأخرى في سفر التكوين، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم «يهوه» على حين تتحدث الأخرى عنه باسم إلهوهم. ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت في يهوذا، وأن القصص الخاصة بإلهوهم (*) كتبت في إفرايم، وأن هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة بعد سقوط السامرة. وفي هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالثنائية

(*) التوراة: لمظ عبري معناه الهدى أو الإرشاد، والبنتاتوش كلمة يونانية معناها الملفات الخمسة. (المترجم)

(**) وهي تفرقة كان أول من أشار إليها جان أستروك **Jean Astruc** في عام ١٧٥٣. ومن الفقرات التي تعزى إلى كاتب قصص يهوه في سفر التكوين الفقرات المحصورة بين الآية الرابعة من الأصحاح الأول والرابعة والعشرين من الأصحاح الثالث وكذلك الأصحاحات ٤، ٦ - ٨، ١١ من ١ إلى ٩، والأصحاحين ١٢، ١٣، ١٨ - ١٩، ٢٤، ٢٧، الآيات ١ - ٤٥، والأصحاحات ٣٢، ٤٣ - ٤٤؛ وفي سفر الخروج الأصحاحين ٤ - ٥، والآيات المحصورة بين الآية رقم ٢٠ في الأصحاح الثامن إلى الآية رقم ٧ في الأصحاح التاسع، والأصحاحان ١٠، ١١، والآيات المحصورة بين الآية رقم ١٢ من الأصحاح الثالث والثلاثين إلى الآية رقم ٢٦ من الأصحاح الرابع والثلاثين؛ وفي سفر العدد الآيات من ٢٩ إلى ٣٦ من الأصحاح الحادى عشر الخ؛ أما الفقرات الإلهوية التي لا شك فيها فهي التي في سفر التكوين في الأصحاح الحادى عشر من ١٠ إلى ٣٢، وفي الأصحاح العشرين من ١ - ١٧، والحادى والعشرين من ٨ - ٣٢ والثاني والعشرين من ١ - ١٤ والأصحاحات ٤٠ - ٤٢؛ و٤٥؛ وفي سفر الخروج الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من الأصحاح الثامن عشر والأصحاحات ٢٠ - ٢٢، والآيات من ٧ إلى ١١ في الأصحاح الثالث والثلاثين؛ وفي سفر العدد الأصحاحات ١٢؛ ٢٢ - ٢٤ الخ (١٤٢).

أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار السالفة الذكر . وثمة عصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد . والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من « سفر الشريعة » الذى أذاعه عزرا (١٢٢) ، ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام ٣٠٠ ق . م (١٢٣) .

وكانت أساطير الجزيرة هى المعين الغزير الذى أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التى يرجع عهدها فى تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . ولقد رأينا صوراً قديمة من هذه القصص فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب ، ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلى فى أثناء أسرهم (١٢٤) . ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمان طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة فى جميع بلاد الشرق الأدنى .

وتقول القصص الفارسية وقصص التلمود الخاصة بالخلق إن الله خلق فى بادئ الأمر إنساناً مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين السمين ثم رأى فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الآخر . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين (الآية الثانية من الأصحاح الخامس) :

« يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكرراً وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم » ، ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكرراً وأنثى معاً — ويبدو أن أحداً من رجال الدين إذا استثنينا أرسطو فانيز لم يفتن إلى هذه العبارة (**) :

أما قصة اللجنة فتظهر فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله — فى مصر ، والهند ، والتبت ، وبابل ، وبلاد الفرس واليونان (**) وپوليتيزيا والمكسيك

(*) فارن هذا « بمائة » أفلاطون .

(**) قارن هذا بما كتبه الشاعر اليونانى هزيود (حوالى ٧٥٠ ق . م) فى العمل والأيام ، كان الناس يعيشون كالألهة مبهئين من الرذائل والشهوات والغضب والنصب ، يقضون أيامهم هادئين مسرورين سعداء فى رفقة الكائنات الإلهية . . . وكانت الأرض فى تلك الأيام أجهل مما هى الآن ، وكانت تخرج من نفسها مقداراً عظيماً من الفاكهة المختلفة الأنواع . . . وكان الرجال وهم فى سن المائة يعدون غلماناً لا أكثر (١٤٦) .

وغيرها من البلاد^(١٤٥) . وفي معظم هذه الجنان أشجار محرمة وفيها كذلك أفاع وهولات سلبت الناس الخاود أو نمشت السم في الجنة^(١٤٦) . وأكبر الظن أن الحية والثينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية .

وتشير هذه القصة إلى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تقضيان على الطهور والسعادة ، وأنهما مصدر كل الشرور . وترى هذه الفكرة بعينها في آخر « العهد القديم » في سفر الجامعة ، كما تراها هنا في بدايته .

والمرأة في معظم هذه القصص هي الأداة التي تتخذها الحية أو يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر — الجميل ، سواء كانت هذه المرأة هي حواء ، أو بوندورا ، أو يوسى الواردة في الأساطير الصينية . فقد جاء في قصص شى چنج أن « كل الأشياء كانت في بداية الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألفت بنا في ذل الاستعباد ، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة ، لأنها هي التي أضاعت الجنس البشرى » آه ! ما أشقاك يا يوسى ! لقد أشعلت النار التي أحرقتنا والتي تزداد كل يوم ضراماً . . . لقد ضاع العالم ، وطمغت الرذيلة على كل شيء . »

وقصة الطوفان أكثر انتشاراً من قصة الخلق نفسها ، فلا يكاد يوجد في الأمم القديمة أمة لم تعرفها ، وقلما يوجد جبل في آسية لم يرس عليه نوح أو شمش — نيشتم بعد أن أضناه التعب من ضربات المياه^(١٤٧) . ولقد كانت هذه القصص في العادة هي الوسيلة الشعبية أو الطريقة المجازية التي عبر بها القدماء عن قضاء فلسفى أو موقف أخلاقي لخصوا فيه بإيجاز تجارب طويلة مرت بالجنس البشرى — وهي أن الشهوة الجنسية والمعرفة تُنتجان من الآلام أكثر مما تنتجان من اللذة ، وأن الحياة البشرية تتعرض من حين إلى حين لأخطار الفيضانات أى لطغيان الأنهار العظيمة التي كان ماؤها سبباً في قيام الحضارات القديمة . وإن الذين يسألون هل هذه القصص صحيحة أو غير صحيحة ليسألون في الواقع أنفس الأسئلة

وأبعدها عن المقصود منها ، ذلك أن أهميتها ليست فيما تقصه من قصص ، بل فيما تعرضه من أحكام ، ومع ذلك فليس من العقل في شيء ألا يستمتع الإنسان ببساطتها التي تخلب اللب وبقصصها الواضح وأحداثها السريعة .

وكانت الأسفار التي تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هي التي صيغت منها القوانين « الموسوية » التي قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد . ويقول سارتن Sarton ، وهو المعروف بشدة حرصه فيما يكتب ، معلقاً على هذه الشرائع : « إن أهميتها في تاريخ الأنظمة والقوانين تفوق كل تقدير (١٤٩) » . لقد كانت أكبر محاولة في التاريخ لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم وأداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة في الحياة كلها . وفي ذلك يقول رينان Renan : « لقد صارت تلك الشريعة أضييق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية (١٥٠) » ، فقد جعلت الطعام (*) ، والدواء ، والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسي والشموات البهيمية (١٥٢) ، كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الإلهية . وفيها نشهد مرة أخرى كيف أخذ الطبيب يفترق افتراقاً بطيئاً عن الكاهن (١٥٣) — ليصبح فيما بعد ألد أعدائه . فترى سفر اللاويين يحرص أشد الحرص على وضع القوانين الخاصة لعلاج الأمراض التناسلية ، ويعنى بها أشد العناية ، فيبص على عزل المصابين وما يتطلبه علاجهم من تطهير وتبخير بل وحرق المنزل الذي فشا فيه المرض عن آخره إذا دعت الحال (١٥٤) (**). وكان اليهود الأقدمون هم الذين وضعوا قواعد الوقاية من

(*) انظر الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية . ويعزو ديناخ Reinach ، وديرتن Smith Robertson وسير جيمس فريزر Sir James Frazer تحريم لحم الخنزير إلى عبادة أسلاف اليهود الطوطمية للخنزير (أو للخنزير البري) لا إلى ما كان لديهم من معلومات صحية أو رغبتهم في انتقاء الأمراض (١٥١) . على أن عبادة الخنزير البري قد لا تكون إلا وسيلة لجأ إليها الكهنة للنهي عن أكل لحم الخنزير « لنجاسته » في اعتقادهم . وإن ما في الشريعة الموسوية من قواعد صحية حكيمة ليبرر الشك فيما فسر به ريناخ هذا التحريم .

(**) وظلت الطرق التي يشير بها سفر اللاويين (في الأصحاحات ١٣ ، ١٤) . لعلاج الجذام متبعة في أوربا حتى آخر المصور الوسطى (١٥٥) .

المرض^(١٥٦) . ولكن يلوح أنهم لم يكونوا يعرفون من الجراحة غير عملية الختان ، ولم تكن هذه السنة الدينية — الشائعة بين المصريين الأقدمين ، وبين الساميين المحدثين — مجرد تضحية لله وفريضة يفرضها الولاء للجنس^(١٥٧) ، بل كانت فوق هذا وقاية صحية من الأقدار التي تنعرض لها الأعضاء التناسلية^(١٥٨) ولعل ما في الشريعة من قواعد خاصة بالنظافة هو الذي أبقى على اليهود خلال تجوالهم الطويل وتشبههم ومحتهم .

أما ما بقي من شريعة موسى فيلدور كله حول الوصايا العشر (سفر الخروج الآيات ١ — ١٧ من الأصحاح العشرين) التي قدر لها أن يرددها نصف سكان العالم^(١٥٩) . وتضع الوصية الأولى أساس المجتمع الديني الجديد ، وهو المجتمع الذي لا يقوم على أى شريعة مدنية بل على فكرة الله الملك المتدوس الذي لا تدركه الأبصار ، والذي أنزل كل قانون ، وفرض كل عقوبة ، والذي سُمي شعبه بعدئذ شعب إسرائيل ، أى المدافعين عن الله .

لقد ماتت الدولة العبرية ولكن الهيكل ظل باقياً ، وشرع كهنة يهوذا

(*) وذلك لأن هذه العادة تجعل من المستحيل على اليهودى أن يخفى عن الناس حقيقة أمره . وبفول برفولت **Briffault** : إن هذه السنة اليهودية لم ننحذ صورتها إلى هي عليها الآن إلا في عهد متأخر كبيراً هو عهد المكابيين (١٦٧ ق . م) . وفي ذلك الوقت كانت العملية تجري بطريقة تجعل في مقدور اليهوديات أن يتقن استهزاء غير اليهوديات منهن إذ كانت هذه العملية تعمل بحيث لا يدرك الإنسان أنها عملت ، ولهذا أمر الكهنة الوطنيون أن تزال الغلفة عن آخرها^(١٥٧) .

(**) كان من المألوف في الأزمان القديمة أن تمرى كتب القوانين إلى الوصى الإلهي . لقد رأينا من قبل كيف كانت قوانين مصر القديمة تعزى إلى الإله تحوت ، وكيف أنزل شمس إله الشمس قانون جوراني . كذلك أعطى أحد الإرباب الملك ميس على جبل دكتا القوانين التي حكمت بمقتضاها جزيرة كريت . وكان اليونان يمتلكون ديونيس الذي يسمونه أيضاً «المشترع» وأمامه منصبتان محجرتان نقش عليهما القوانين . ويقول أتقيا القرس إن زردشت كان في يوم من الأيام يصلى على جبل عال فتبدى إليه «أهورا» — مزدا بين الرعود والبرق ، وأنزل عليه « كتاب القانون »^(١٥٩) . وفي هذا يقول ديودور الصقلي . لقد فعلوا كل هذا لأن الفكرة التي تسمى بالبرية فكرة رائدة قديمة ؛ أو لأن السوق تكون أكثر طاعة للقوانين إذا سولت أبصارها إلى ما يمتح به من تعزى إليهم من جلال وسلطان^(١٦٠) .

يحاولون كما يحاول بابوات رومة أن يعيدوا ما عجز الكهنة عن إنقاذه . ومن ثم كان وضوح الوصية الأولى وما فيها من تكرار ونصها على أن الكفر وذكر الله بما لا يليق يعاقب عليهما بالإعدام ولو كان للكافر أقرب أقرباء الإنسان (١٦١) . ذلك أن الكهنة الذين وضعوا القانون كانوا يعتقدون كما يعتقد رجال محاكم التفتيش الآنقياء أن الوحدة الدينية شرط أساسى لقيام النظام والنظام الاجتماعيين ، وكان هذا التعصب الدينى منضماً إلى الكبرياء الجنسى هو الذى أبقي على اليهود وأوقعهم فى كثير من المشاكل .

وسمّت الوصية الثانية بفكرة الله بقدر ما حطت من شأن الفن ، إذ حرّمت أن تصور له أية صورة منحوتة . وقد افترضت هذه الوصية وجود مستوى عقلى راق لدى اليهود ، لأنها نبذت كل الخرافات كما نبذت فكرة تجسد الإله ، وحاولت أن تصوّر الله منزهاً عن جميع الأشكال والصور بالرغم من الصورة البشرية المحضنة التى ترسمها ليهوه أسفار موسى الخمسة ، هى تخص الدين بكل ما تنطوى عليه قلوب العبرانيين من إخلاص وولاء ، ولا تترك فيهما — فى الأيام القديمة — مكاناً للعلم والفن . وحتى علم الفلك نفسه قد أهمل أمره لكيلا يزداد عدد الآلهة الزائدين أو تعبد النجوم وتتخذ آلهة من دون الله . وكان فى هيكل سليمان قبل ذلك العهد عدد من الصور والتماثيل يكاد يحل عن الحصر (١٦٢) . أما الهيكل الجديد فلم يكن فيه شيء منها ، ذلك أن التماثيل والصور القديمة قد نقلت من قبل إلى بابل ، ويبدو أنها لم تعد مع ما أعيد من آنية الفضة والذهب (١٦٤) ، ومن أجل هذا لا نجد نحتاً ولا تصوراً ولا نقشاً بعد الأسر البابلى ، كما لا نجد إلا القليل منها قبل الأسر إذا استثنينا عهد سليمان الذى يكاد يكون عهداً أجنبياً عن العبرانيين . وكل ما كان الكهنة يجيزونه من الفنون فنّا العمارة والموسيقى ، وكانت الأغاني والمراسيم التى تقام فى الهيكل هى التى تخفف من أكدار حياة الشعب وشقائه ، فكانت فرقة موسيقية معها مختلف الآلات تنضم

إلى جوقة المغنين في ترتيل المزامير ، فتبدو « صوتاً واحداً لتسبيح للرب
وحمده » وتمجيد الهيكل (١٦٥) : « وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب
بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان ، وبالرباب ، وبالدفوف ،
وبالحموك ، وبالصنوج (١٦٦) » .

وتنطق الوصية الثالثة بما كان يستمسك به اليهودى من تقى وتدين ، فهو
لا يحرم عليه أن ينطق باسم الله عبثاً فحسب ، بل يحرم عليه أن ينطق باسم
الله تحريماً مطلقاً ، فإذا ورد اسم يهوه فى صلاته وجب عليه أن يستبدل به
اسم أدنيه - الرب . ولن نجد لهذه التقوى نظيراً إلا بين الهندوس .

وقدست الوصية الرابعة يوم الراحة الأسبوعي - السبت - وصار
هذا التقديس سنة من أرسخ السنن البشرية . وهذه التسمية - ولعل هذه
العادة نفسها - قد جاءتهم من البابليين . فقد كان هؤلاء يطلقون على الأيام
« الحرم » أيام الصوم والدعاء اسم شيتو (١٦٧) . وكان لديهم فضلاً عن هذه
العطلة الأسبوعية أعياد أخرى عظيمة منها مراسم كنعانية قديمة للزرع
والحصاد ، ومنها أعياد دورية للقمر والشمس : فكان مزروث فى بادئ
الأمر عيد بداية حصاد الشعير ، وشباووث الذى سمي فيها بعد بذكست عيد
ختام حصاد القمح ؛ وسكوث عيد الكروم ، وبساتشش أو عيد الفصح عيد
بداية نتاج قطعان الضأن ؛ وكان رش - ها - شناه عيد رأس السنة .
ولم تعدل هذه الأعياد لتخلد بها حوادث هامة فى تاريخ اليهود إلا بعد
ذلك الوقت (١٦٨) . وكانوا فى أول يوم من أيام عيد الفصح اليهودى يذبحون
حملاً أو جدياً ويأكلونه ويرشون دمه على الأبواب إشارة إلى أن هذا الدم
هو نصيب الإله ، ثم ربط الكهنة فيما بعد هذه العادة بعادة قتل يهوه لأبناء
المصريين البكر . وكان الحمل فى أول الأمر طوطماً لإحدى القبائل
الكنعانية وكان عيد الفصح عند الكنعانيين عيد تقرب حمل لأحد الآلهة

الحليين(*) . ونحن حين نقرأ الآن (في الأسحاح الثاني عشر من سفر الخروج**) (قصة هذا العيد ، ثم نرى اليهود في هذه الأيام يحتفلون به على النحو الذي كانوا يحتفلون به قديماً ، ندرك قدم هذه العبادة وقوة استمسك هذا الشعب بطقوسه النديمة .

والوصية الخامسة تقدر الأسرة وتضعها من حيث بناء المجتمع في منزلة لا تفريقها إلا منزلة الهيكل . وظلت المثل العليا التي طبع بها نظام الأسرة باقية في أوروبا طوال تاريخها المتوسط والحديث حتى جاء الانقلاب الصناعي وأدى إلى انحلالها . لقد كانت الأسرة العبرانية الأبوية نظاماً اقتصادياً وسياسياً ضخماً يتألف من أكبر رجل متزوج فيها ، ومن أزواجه ، وأبنائه غير المتزوجين ، وأبنائه المتزوجين ، وأزواجهم وأبنائهم ، ومن عبيدهم إن كان لهم عبيد . وكان الأساس الاقتصادي الذي تقوم عليه هذه الجماعة هو قدرتها على زراعة الأرض ؛ أما قيمتها السياسية فتتحصر في أنها كانت تهتئ للبلد نظاماً اجتماعياً بلغ من القوة حداً تكاد الدولة أن تصبح معه لا ضرورة لها إلا في زمن الحرب . وكان للأب على أفراد أسرته سلطان لا يكاد يُحد ؛ فكانت الأرض ملكاً له ، ولم يكن في وسع أبنائه أن يبقوا على قيد الحياة إلا إذا أطاعوا أمره ، فقد كان هو الدولة ، وكان في وسعه إن كان فقيراً أن يبيع ابنته قبل أن تبلغ الحلم لتكون جارية ؛ كما كان له الحق المطلق في أن يزوجه بمن يشاء وإن كان في بعض الأحيان ينزل عن بعض حقه فيطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج(١٧٠) . وكانت الفكرة الشائعة أن الأولاد من نتاج الحصية يعني ، وأن البنات من نتاج الحصية اليسرى ، وكانت هذه في اعتقادهم أصغر وأضعف من اليمنى(١٧١) . وكان الزواج في أول الأمر

(*) وأصبح هذا الطول فيما بعد حل يسكال في الدين المسيحي ، وقيل إنه هو نفسه تمثيل ذكرى موت المسيح .

(**) في الأصل الإنجليزي الحادي عشر وهو خطأ مطبعي . (المترجم)

يستتبع انتقال الزوج إلى دار زوجته ، فقد كان عليه أن « يترك أباه وأمه وينضم إلى زوجته في عشيرتها » ؛ لكن هذه العادة أخذت تزول شيئاً فشيئاً بعد تأسيس الملكية . وكانت أوامر يهوه إلى الزوجة هي : « ستكون رغبتك لزوجك ، وسيكون له الحكم عليك » .

ومع أن المرأة كانت من الوجهة الرسمية خاضعة للزوج ، فإنها كانت في الواقع ذات كرامة وذات سلطان كبير ، واشتهرت في تاريخ اليهود أسماء سيدات مثل سارة ، وراحيل ، ومريم ، ولستر ، وكانت دبورة إحدى قصص إسرائيل (١٧٢) . وكانت النبية خلدة هي التي استشارها يوشيا في أمر الكتاب الذي وجدته الكهنة في الهيكل (١٧٣) . وكانت الأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة ، ذلك بأن هذه الأمة الصغيرة كانت تنوق إلى زيادة عددها ، لأنها تشعر كما تشعر اليوم في فلسطين بما يتهدها من الخطر وسط الأقوام المحيطين بها . ومن أجل هذا كانت تعلى من شأن الأمومة ، وترى العزوبة خطيئة وجريمة ، وتجعل الزواج إجبارياً بعد سن العشرين ، لا تستثنى من ذلك الكهنة أنفسهم ، وتزدرى العذارى التي في سن الزواج ، والنساء العاقرات ، وتنظر إلى الإجهاض وقتل الأطفال وغيرها من وسائل تحديد النسل على أنها من أعمال الكفرة البغيضة التي تؤذى خياشيم الرب (١٧٤) : « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أخيها وقالت ليعقوب هب لي بنين وإلا فأنا أموت (١٧٥) » . وكانت الزوجة الكاملة هي التي لا تنقطع عن الكد في بيتها وحوله ، ولا تفكر إلا في زوجها وأطفالها . وفي الأصحاح الأخير من سفر الأمثال وصف للمرأة المثالية كما يراها الرجل :

« امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ، تطلب صوفاً وكتاناً ، وتشغل يديها راضيتين ، هي كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد ،

وتقوم إذ الليل بعد ، وتعطى أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها ، تتأمل حقلا فتأخذها ويثمر يديها تفرس حرما ، تنطق حقوبها بالقوة وتشدد زراعتها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطفئ في الليل ، تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفها بالفلكة ، تبسط كفها للفقير وتمد يديها إلى المسكين ، لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لا يسون حلا ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها البر وأرجوان ، زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قصائنا وتبيعها ، وتعرض مناطق على الكنعاني ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتي ، تفتح فيها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطربونها ، ويقوم زوجها أيضاً فيمدحها ، بنات كثيرات عملن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعاً ، الحسن غش والجمال بأطل ؛ أما المرأة المثقة الرب فهي تمدح ، أعطوها من ثمر يديها ، وتمدحها أعمالها في الأبواب (*) .

والوصية السادسة مبدأ مثالي صعب المنال . وذلك أننا لا نرى في كتاب ما نراه في أسفار العهد القديم من حديث التقتيل والتدمير ، ففصوله كلها ما بين وصف المذايخ وتناسل لتعويض آثارها . لقد كان النزاع بين الأسباط ، والانقسامات الحزبية ، وعادة الأخذ بالثأر المتوارثة ، كل هذه كانت لا تبتقى على فترات السلم المتقطعة المملة إلا قليلا . ولم يكن أنبياء إسرائيل من دعاة السلم رغم ما جاء في بعض أقوالهم من تمجيد للمحارث ومناجل التشذيب ، وكان الكهنة أنفسهم — إذا جاز لنا أن نحكم عليهم من خطبهم التي يُنطقون بها يهوه —

(*) هذه هي المرأة المثالية في عين الرجل ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق إشعيا (٣ : ١٦ - ٢٣) فإن نساء أورشليم كن في الواقع كفساء العالم كله يحجبن الملابس الجميلة والزينة ويفرن الرجال بمطاردتهم : « من أجل أن بنات صهيون يتشاجن ويمشين بمدودات الأعناق ، وغامزات بميونهن ، وسماطرات في مشين ، ويخشحن بأرجلهن » الخ ؛ وأهل المؤرخين كانوا يحددونها على الدوام فيما يقولونه عن النساء |

مولعين بالحروب ولعهم بالمراعات . ولقد قتل ثمانية من ملوك إسرائيل التسعة عشر (١٧٧) وكانت العادة المتبعة أن تدمر المدن التي يستولون عليها في حروبهم ، وأن تقطع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وأن تتلف الأرض حتى لا تصلح للزراع إلا بعد زمن طويل ، شأنهم في هذا شأن الناس في تلك الأيام (١٧٨) . ولعل أعداد القتلى الواردة في أقوالهم كان يبالغ فيها كثيراً . فليس من المعقول مثلاً أن يقتل بنو إسرائيل من الآراميين (*) مائة ألف رجل في يوم واحد « (١٧٩) بغير آلات الحرب الحديثة . وكان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار (١٨٠) سبياً في ازدياد الكبرياء الطبيعي في أمة تشعر بما لها من مواهب متفوقة ، كما كان سبياً في تقوية ما لديهم من نزعة إلى اعتزال غيرهم من الشعوب من الوجهتين العقلية والروحية ، وفي حرمانهم من أن ينظروا إلى الأمور نظرة أممية كان أبناؤهم جديرين بأن يصلوا إليها ، لكنهم مع ذلك بلغوا درجة عظيمة من الفضائل المتصلة بصفاتهم هم أنفسهم ، وكان منشأ عنفهم هو ما كانوا يتصفون به من حيوية عارمة جامحة ، وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم ، كما كان ميلهم إلى الخصام والتدمير ناشئاً من حساسيتهم القوية التي أمكنتهم من إنتاج أعظم آداب الشرق الأدنى ، وكان كبرياؤهم العنصري أقوى سنداً لشجاعتهم في خلال قرون التعذيب الطوال ، ذلك أن الناس يكونون كما تضطرم الظروف أن يكونوا .

والوصية السابعة تعترف بأن الزواج هو الأساس الذي تقوم عليه الأسرة ، كما تعترف الخامسة بأن الأسرة هي أساس المجتمع ، وهي تضفي على الزواج كل ما يستطيع الدين أن يضفي عليه من عون . ولا تذكر شيئاً عن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولكن ثمة أنظمة أخرى تحتم على الفتاة أن تثبت أنها عذراء

(*) في الأصل الإنجليزي « من السوريين » ، ولكن التي تذكره الآية أنهم من الآراميين . (المقدم)

في يوم ذواجها وإلا رجمت حتى تموت (١٨١) ولكن الزنى كان رغم هذا منتشرأ بين اليهود ، ويلوح أن اللواظ لم ينقطع بعد تدمير سدوم وسمورة (١٨٢) ولما كان القانون فيما يلوح لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبية ، فإن السنوريات ، والموايبات والمدنيات وغيرهم من « النساء العزبات » انتشرن في الطرق العامة ، حيث كن يعشن في مواخير وخيام ، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة . ولما كان سليمان لا يتشدد كثيراً في هذه الأمور ، فإنه قد تساهل في تطبيق القانون الذي كان يحرم على تلك النساء السكنى في أورشليم ، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهنكل نفسه في أيام المكابيين مأخوذاً للفسق والفجور كما وصفه مصلح غضوب (١٨٣) .

ويلوح أن الحب كان له عندهم نصيب ، فقد « خدم يعقوب براحيل سبع سنين » وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها (١٨٤) ، ولكن الحب لم يكن له إلا شأن قليل في اختيار الأزواج . وكان هذا الزواج قبل نبي بنى لمراييل من الأمور المدنية المحضة ، يعقده أبوا الزوجين أو يعقده الخطيب وأبو العروس وفي أسفار العهد القديم شواهد على زواج السبايا ، ويميز يهوه الزواج من سبايا الجروب (١٨٥) . ولما نقص عدد النساء أوصى الكبار « بنى بنيامين قائلين امضوا واكنوا في الكروم ، وانظروا ، فإذا خرجت بنات شيلوه ليدرن في الرقص فاخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين » (١٨٦) . ولكن هذه الخطة كانت من الخطط النادرة ، أما السنة المألوفة فكانت سنة الزواج بطريق الشراء ، فقد ابتاع يعقوب ليثة وراحيل بعمله . واشترى بوعز راعوث الطليفة . شراء سافرا . وكان من أشد ما ندم عليه النبي هوشع أنه ابتاع زوجته بخمسين شاقلاً (١٨٧) . وكان الاسم الذى يطلقه العبرانيون على الزوجة وهو « بولة » (*) يعنى « المملوكة » (١٨٨) . وكان

(*) لعل هذا المعنى ذو صلة بكلمة « بولة » للبرية بمعنى بنت الرجل . (المترجم)

والد الزوجة يعطيها في متابل ما يتماضاه ثمناً لها بائنة - وهو نظام يفيد أعظم فائدة في تضيق الثغرة الفاصلة بين نصيح الأبناء الجنسي ونصيحهم الاقتصادي في حضارة المدن ، وهي ثغرة مفككة للمجتمع .

ولإذا كان الرجل ثرياً أبيع له أن يتزوج بأكثر من واحدة ، وإذا كانت الزوجة عاقراً ، مثل سارة ، أشارت على زوجها بأن يتخذ له خلية . وكان الهدف الذي ترمى إليه هذه السنن هو تكثير النسل ، وكان طبيعياً لديهم أن تقدم راحيل وليثة خادماتهما إلى يعقوب بعد أن ولدتا له كل ما تستطيعان أن تلدا من الأبناء ، لكي يلدن له هن أيضاً أبناء (١٨٨) . ولم يكن يسمح للمرأة بأن تظل عقيمًا ، ومن أجل ذلك فإن الأخ إذا مات أخوه كان يحتم عليه أن يتزوج أرملته مهما كان عدد زوجاته ، فإذا لم يكن للميت أخ فرض هذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته (١٨٩) . ولما كانت الملكية الفردية أساس النظام الاقتصادي اليهودي فقد كان لكل من الرجل والمرأة معيار خلفي خاص . فالرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما المرأة فكانت تختص برجل واحد . وكان معنى الزنى عندهم اتصال رجل بامرأة ابتاعها رجل آخر بماله ، ومن أجل ذلك كان اتصاله بها اعتداء على قانون الملكية تعاقب عليه المرأة والرجل بالإعدام (١٩٠) . وكان الفسق محرماً على المرأة غير المتزوجة ، أما الرجل غير المتزوج فقد كان عمله هذا ذنباً يغتفر له (١٩١) . وكان الطلاق مباحاً للرجل ، ولكنه كان قبل أيام التلمود من أشق الأمور على المرأة (١٩٢) . ويلوح أن الزوج لم يسرف في إساءة استعمال ماله من ميزة على المرأة في هذه الناحية ، فهو يصور لنا أنه في الجملة إنسان مخلص لزوجته وأبنائه ، غيور عليهم ، وكثيراً ما كان الزواج يثمر حباً وإن لم يكن الحب هو الذي يقرر الزواج . « وأخذ إسحق رفقة فصارت له زوجة وأحبها فتعزى إسحق بعد موت أمه » (١٩٤) . ولعل الحياة في الأسرة لم تصل في أى شعب آخر - إذا استثنينا شعوب الشرق الأدنى - إلى ذلك المستوى الراقى الذي وصلت إليه عند اليهود .

والوصية العاشرة تقدر الملكية الفردية(*) ، وكانت هي والدين والأسرة الأسس الثلاثة التي قام عليها المجتمع العبري . وتكاد الملكية كلها تنحصر في ملكية الأرض ، ذلك أن اليهود قبل أيام سليمان قلما كان لديهم شيء من الصناعات غير صناعتى الخزف والحديد . وحتى الزراعة نفسها لم ترق رقياً كبيراً ، وكانت الكثرة العظمى من الشعب منصرفة إلى تربية الضأن والماشية ، وزراعة الكروم والزيتون والتين . وكانت أغلب معيشتهم في الخيام لا في البيوت المبنية ، حتى لا يجدوا صعوبة في انتجاع مراعى جديدة ، ولما نمت ثروتهم وزاد ما ينتجون على حاجتهم بدعوا يتجرون ، وأخذت السلع اليهودية تروج في دمشق وصور وصيدا وحول الهيكل نفسه بفضل ما اتصف به التجار اليهود من مهارة صبر على المشاق . وظلوا إلى ما قبل أيام الأسر لا يستخدمون نقوداً ، وكان الذهب والغضة أساس التبادل عندهم وكانا يوزنان في كل عملية تجارية . وقامت بينهم مصارف كثيرة العدد لتمويل التجارة والمشروعات الاقتصادية . ولم يكن غريباً أن يتخذ هؤلاء « المقرضون » ساحات الهيكل موضعاً لعملهم ، فقد كانت هذه عادة شائعة في الشرق الأدنى ، ولا تزال باقية في كثير من أقطاره إلى هذا اليوم (١٩٦) . وكان يهوه يطل من عاياته مغتبطاً بسلطان رجال المال المتزايد ، ومن أقواله في هذا المعنى : « فتقرض أئماً كثيرة وأنت لا تقرض » (١٩٧) ، وهى فلسفة كريمة جمعت لليهود ثروة طائلة ، وإن لم يبد في ذلك القرن أنها من وحى الدين .

وكان اليهود يتخذون أسرى الحروب والمذنبين عبيداً لهم ، وشأنهم في هذا شأن غيرهم من أمم الشرق الأدنى ؛ ويستخدمون مئات الآلاف منهم في قطع الأخشاب ونقل مواد البناء للمنشآت العامة كهيكل سليمان وقصره . ولكن السيد

(*) لقد كانت الأرض من الوجهة النظرية ملكاً ليهوه (١٩٥) .

لم يكن له على عبده حق الحياة والموت ، كما كان من حق العبد أن يمتلك المال ويبتاع به حريته (١٩٨) . وكان يباع الرجال المدينين ليكونوا خدماً أرقاء إذا عجزوا عن أداء ديونهم ، وكان في وسعهم أن يبيعوا أبناءهم بدلاً منهم . وقد بقيت هذه العادة إلى أيام المسيح (١٩٩) ، غير أن الصدقات السخية وما كان يقوم به الكهنة والأنبياء من حملات عنيفة على استغلال هؤلاء الأرقاء قد خففت في بلاد اليهود من آثار هذه النظم التي كانت منتشرة في بلاد الشرق الأدنى . وكان من القواعد الواردة في شريعة موسى ؛ « ألا يغبن أحدكم أخاه (٢٠٠) » ، كما أنها كانت تطلب إليهم أن يطلقوا سراح الأرقاء من العبرانيين وأن يلغوا ما عليهم من الديون كل سبع سنين (٢٠١) ولما تبين أن هذا الأمر أكثر مما يطيقه سادة هؤلاء الأرقاء جاء القانون بسنة العيد الخمسيني ، فكان كل العبد والمدينين يعتقون كل خمسين سنة : « وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق في الأرض لجميع سكانها . تكون لهم يوبلا وترجعون كل إلى مالكة وتعودون كل إلى عشرته (٢٠٢) » ؛

وليس لدينا ما يدل على أن هذه الوضعية الجميلة قد أطيحت ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإننا يجب أن نقر بالفضل للكهنة الذين لم يتركوا درساً في الإحسان إلا علموه : « إن كان فيك فقير أحد من إخوانك . . فلا تنمس قلبك ولا تنبض يدك عن أخيك الفقير ، بل افتح يدك له ، وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه » ، « لا تأخذ منه رباً ولا مراهجة (٢٠٣) » ، ويجب أن تشمل عطلة السبت كل العاملين ، بل يجب أن تشمل الحيوانات نفسها فتترك ما عساه أن تكون على الأرض من النبات المنقطع وللفاكهة الساقطة من الأشجار في الحقول والبساتين يجمعها الفقراء لأنفسهم (٢٠٤) . ومع أن اليهود هم الذين كانوا مقصودين بهذه الصدقات فإن الفقير الذي عند الأبواب يجب أن يعامل هو

الآخر معاملة طيبة رحيمة ، وأن يؤوى الغريب ويطعم ويعامل معاملة كريمة . وكان اليهود يؤمرون في كل حين بأن يذكروا أنهم هم أيضاً كانوا في وقت من الأوقات لا مأوى لهم بل أنهم كانوا عبيداً أرقاء في أرض غير أرضهم .

وكانت الوصية التاسعة تطلب أن يكون الشهود شرفاء أمناء إلى أقصى حد ، وبذلك جعلت الدين عماداً للشرعية اليهودية بقضها وقضيضها . لقد كان الشاهد يقسم اليمين في حفل ديني ، ولم يكن يكتفى بأن يضع القسم يده على عورة من يقسم له كما كانت العادة قديماً^(٢٠٥) ، بل كان يطلب إليه الآن أن يشهد الله نفسه على صدقه ، وأن يُحَكِّمَهُ في أمره . وكان القانون ينص على أن يعاقب شاهد الزور بنفس العقاب الذي كان يراد توقيعه على المتهم بالاستناد إلى شهادته^(٢٠٦) . لقد كانت شريعة إسرائيل كلها هي الشريعة الدينية وحدها ، وكان الكهنة هم القضاة والمحاكم هي المحاكم ، وكان يحكم بالإعدام على من لا يخضعون لأحكام الكهنة^(٢٠٧) . وكانت هناك حالات خاصة يترك الحكم فيها لله ، وذلك بأن يشرب المتهم ماء ساماً إذا كانت جريمته مشكوكاً فيها^(٢٠٨) ، ولم تكن لديهم أداة لتنفيذ القانون سوى الأداة الدينية وحدها ؛ فكان تنفيذه يترك إلى ضمير المتهم وإلى سلطان الرأي العام ، وكانت بعض الجرائم الصغرى يذكر عنها بالاعتراف والفداء^(٢٠٩) . وكانت جرائم القتل وخطف الآدميين ، وعبادة الأوثان ، والزنى ، وضرب أحد الوالدين أو سبهما ، وسرقة العبيد ، أو « مضاجعة بهيمة » ، يحكم فيها بالإعدام بأمريهوه ، وأما قتل الخادم فلا يعاقب عليه بالإعدام^(٢١٠) ؛ كذلك كان الإعدام عقاباً على السحر : « لاندع ساحرة تعيش »^(٢١١) . وكان يرضى بهوه أن يقوم الأفراد أنفسهم بتنفيذ القانون في حالة القتل : « ولى الدم يقتل القتال » حين يصادفه يقتله^(٢١٢) . على أنهم كانوا يفردون بعض المدن يستطيع

المحرم أن يفر إليها ، فلماذا فعل كان على ولى الدم أن يؤجل تأريه (٢١٣) ،
وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن المبدأ الذى كان يهيم عليه العقاب
هو قانون القصاص : « وإن حصلت أذية تُعطى نفساً بنفس ، وعيناً بعين ،
وسناً بسناً ، ويداً بيد ، ورجلاً برجل ، وتكياً بكى ، وجرحاً بجرح ،
ورضاً برض » (٢١٤) . وما من شك فى أن هذه المبادئ كانت مثلاً علياً لم
تتحقق كلها على الوجه الأكمل ، وإذا شئنا أن نقول كلمة عامة عن قانون
اليهود الجنائى ، قلنا إن هذا الجزء من القانون لا يفضل قانون حمورابى ،
وإن كان قد كُتب بعده بألف وخمسمائة سنة على الأقل . أما من حيث تنظيم
القضاء نفسه فإن فيه رجوعاً كثيراً إلى الوراثة ، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى
السيطرة الكهنوتية البدائية .

ويتضح لنا من الوصية العاشرة كيف كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها
جزء من متاع الرجل : « لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ،
ولا ثوره ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك » (٢١٥) . ولكنها مع هذا كانت
تحتوى مبادئ قيمة عظيمة ، لو تقيد الناس بها لنجا العالم من نصف ما فيه من
قلق واضطراب . ومن أعجب الأمور أن أفضل الوصايا كلها لم تكن بين
هذه الوصايا العشر ، وإن كانت جزءاً من « الشريعة » الموسوية . ونقص
بذلك ما ورد فى الآية الثامنة عشرة من الأصحاح التاسع عشر من سفر
اللاويين تأمناً بين « طائفة من القوانين المتكررة المختلفة الأنواع » ولا يزيد
نصها على هذه العبارة : « تحب قريبك كنفسك » .

وقصارى القول أن الوصايا العشر شريعة سامية ، فيها من العيوب
ما لا يزيد على عيوب العصر الذى وضعت فيه ، ولكن فيها من الفضائل
ما لا يوجد فى غيرها من الشرائع . ومن واجبنا أن نذكر على الدوام أنها
كانت قانوناً لا أكثر ، بل أن نذكر فوق هذا أنها كانت : « طوبى
كهنوتية » (٢١٦) ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية . وكانت ككل

القوانين تعظم في عين أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتلوا عليها ، ولكن أثرها في سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية . وكان من أهم آثارها التي جعلت لليهود في خلال تجوالهم الذي بدأ عقب وضعها بزمان قليل ، والذي دام إلى عام ، « وطنياً يحملونه معهم » ، كما سماه حين Heine فيما بعد ، ودولة روحية لا تراها العين ولا تلمسها اليد ، وضمت شملهم رغم تشنهم وأبقت لهم كبرياءهم رغم هزائمهم ، وأوصلتهم خلال القرون الطوال إلى وقتنا هذا وهم شعب توى يبدو لنا أنه لن يبيد أبداً .

الفصل السابع

أدب التوراة وفلسفتها

التاريخ - القصص - الشعر - المزامير - نشيد الأنشاد - الأمثال -
أيوب - فكرة الخلاود - تشاؤم سفر الجامعة - مجيء الإسكندر

ليس العهد القديم شريعة فحسب ، بل هو فوق ذلك تاريخ ، وشعر ، وفلسفة من الطراز الأول . وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه من أساطير بدائية ، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم ، وأقررنا أن ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ما كان أجدادنا السابقون يفترضونه فيها ، إذا ما فعلنا هذا كله فإننا لا نجد في الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب ، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات ، ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل ، كما يعتقد بعض العلماء (٢١٧) ، في أثناء السبي أو بعده بقليل ، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كبير ؛ ويحتفظوا بها على مدى القرون ؛ ولكن قصة شاول وداود وسليمان تفوق في جمال مبنائها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية في الشرق الأدنى القديم . بل إن سفر التكوين نفسه - إذا استثنينا منه ما فيه من سلاسل الأنساب ، وقرأناه ونحن نترك الهدف الذي ترمى إليه الأفاضل - إن هذا السفر نفسه هو قصة ممتعة عظيمة ، قصت علينا من غير حواش ولا زينة في بساطة ووضوح وقوة . ولسنا نجد فيها تاريخاً فحسب ، بل نجد فيها نوعاً من فلسفة التاريخ . ذلك أنها أول ما دون من الجهود التي بذلها الإنسان ليؤلف من الحوادث الماضية التي لا عداد لها وحدة متناسقة بالبحث عما يسرى فيها من وحدة في الغرض ، ومن مغزى ، ومن تتابع العلة والمعلول على نحو ما ، ومن إيضاح لحاضر

الأشياء ومستقبلها . ولقد بقيت فكرة التاريخ — كما تصورها الأنبياء والكهنة واضعوا أسفار موسى الخمسة — ألفاً عام بعد اليونان والرومان . وأصبحت آراء عالمية يعتنقها المفكرون الأوروبيون من بوثنفيوس Boëthius إلى بوسويه

Bossuet

والقصص الغرامية الساحرة الوارد في التوراة وسط بين التاريخ والشعر ، وليس في المنشور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة راعوث ؛ ولا تقل عنها كثيراً قصة إسحق ورفقة ، ويعقوب وراحيل ، ويوسف وبنيامين ، وشمشون ودليلة ، وإستر ، ويهوديت ودانيال . ويبدأ الأدب الشعري « بنشيد موسى » (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و « نشيد دبورة » (القضاة الفصل الخامس عشر) ويبلغ ذروته في المزامير . وكانت ترانيم « التوبة » البابلية هي التي مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد ، ولعل أناشيد اليهود قد أخذت منها مادتها كما أخذت عنها صورتها . ويخيل إلينا أن قصيدة إخناتون الشمس كانت ذات أثر في المزمور الخامس والخمسين بعد المائة . وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي بزمان طويل ، ويغلب أن يكون ذلك في القرن الثالث قبل المسيح (٣١٨) . على أن هذا البحث التاريخي كله لا يعنيننا كما لا يعنيننا اشتقاق اسم شيكسبير أو المصادر التي استمد منها مسرحياته ، إنما الذي يعنيننا هو أن المزامير تحتل المكان الأول في شعر العالم الغنائي . ولم يكن يقصد بها أن يطالعها الإنسان في جلسة واحدة ، أو أن يطالعها مطالعة الناقد المدقق ؛ بل إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة النبي والهيام الروحي والإيمان القوى المحرك للعواطف . ولكنها يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة ، و « تأوهات » وشكايات مملّة ، وملق لا ينتهي ليهوه الذي يصب الدخان صباً من خياشيمه والنار من فمه (المزمور الثامن) ، ويتوعد الأشرار بالحرق في نار الجحيم (المزمور التاسع) : يتقبل الملق ويهدد « بقطع جميع الشفاه الملقّة » (المزمور الثاني عشر) . والمزامير مليئة بالخماسة

الحربية البعيدة كل البعد عن الروح المسيحية ، ولكنها مع ذلك تسرى فيها روح الحجيج المجاهدين . على أن من المزامير ما يفيض رحمة وحناناً وما يعد مثلاً في الخضوع والتذلل : « إننا تراب نحن ... الإنسان مثل العشب أيامه ، كزهر الحقل كذلك يزهر ، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد » (المزموران ٢٩ ، ١٠٣) . ونحس في هذه الأناشيد بأوزان الشعر الشرقي القديم ونكاد نسمع فيها أصوات المرنمين وهم يردون على المنشدين . وليس في الشعر كله ما يفوقه في تشبيهاته وتصويره ، وليس ثمة ما يضارعه في قوة تعبيراته ووضوحها . ولهذه القصائد في نفوسنا من الأثر ما يفوق أثر أية أغنية من أغاني الحب ، فهي تحرك أقدس العواطف وأكثر النفوس شكاً ، لأنها تعبر في صورة عاطفية قوية عما في العقل الناضج من شوق إلى نوع من الكمال يهب له كل جهوده . وتقابلنا في أماكن متفرقة من الترجمة الإنجليزية التي صدرت في عهد الملك جيمس عبارات بايعة جرت على لسان جميع الناطقين باللغة الإنجليزية كقولهم : *Out of the Mouths of babes* (من أفواه الأطفال والرضع في المزمور الثامن) ، *The apple the eye* (حذرة العين في المزمور السابع عشر) ، *Trust not in princes* لا تتكلموا على الرؤساء ؟ — المزمور السادس والأربعون بعد المائة) . وفي الأصل العبراني تشبيهات واستعارات لم تفقها تشبيهات واستعارات في أية لغة من اللغات . انظر إلى قوله في المزمور التاسع عشر ، إن الشمس المشرقة : « مثل العروس الخارج من حجلته يتهيج مثل الجبار للسباق » . ولا يسعنا إلا أن نتصور ما لهذه الأناشيد من جلال وجمال في لغتها الأصلية الطنانة الرنانة (*) .

وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما في الحياة

(*) ولو أننا طلب إلينا أن نختار من هذه المزامير أحسنها لوقع اختيارنا في أكبر ظننا على المزامير رقم ٢٣٨ ، ٥١ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ . وبين المزمور الأخير وبين نشيد هوتمان *Whitman* « النشوء والارتقاء » شبهة عجيبة (٢١٩) .

اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كُتَّاب العهد القديم — وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة — قد أخفوه عنا ، كما يكشف سفر الجامعة عن تشكك لا نتبينه فيما عني الكتاب باختياره ونشره من أدب اليهود الأقدمين . وفي هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين . فقد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل ، تشيد بذكر إشتار وتموز ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهلينية التي دخلت إلى بلاد اليهود مع الإسكندر الأكبر (لأن في هذه الأغاني ألفاظاً مأخوذة من اللغة اليونانية) ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت في الإسكندرية وقطعها نفس محررة من ضفاف النيل (وذلك لأن العاشقين يخاطب أحدهما الآخر بقوله أختى أو أختى كما يفعل المصريون الأقدمون) . ومهما يكن أصلها فإن وجودها في التوراة سر خفى ولكنه سر ساحر جميل . ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء :

صرة المرحبى لى بين ثلثي يبيت

طاقة فاغبة حببى لى فى كروم عين جدى (Engadi)

ها أنت جميلة يا حبيبى ، ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان

ها أنت جميلٌ يا حبيبى وحلو وسريرنا أخضر . . .

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية . .

أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جداً ،

أحلفكن يا بنات أورشليم بالطباء وبأيائل الحقول ألا تيقظن

ولا تنهين الحبيب حتى يشاء . .

حببى لى وأنا له الراعى بين السوسن

إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال ارجع وأشبه يا حبيبي الظبي
أو غفر الأيائل على الجبال المشعبة . . .
تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القرى
لنبكرن إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح القعال ؟ هل
نور الرمان ؟ هنالك أعطيك حى (٢٢٠) :

هذا هو صوت الشباب ، أما الأمثال فصوت للشيخوخة . إن الناس يتطلبون
كل شيء من الحب والحياة ، وهم ينالون ما يتطلبون إلا قليلا ، ولكنهم
يظنون أنهم لم ينالوا شيئا ، وتلك هى المراحل الثلاث التى ينتقل فيها الإنسان
المتشائم . وهكذا نرى هذا السليمان الأسطورى (*) يحذر الشباب من شر المرأة
« لأنها طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء . . . أما الزانى بامرأة
فعديم العقل . . . ثلاثة عجيبة فوق وأربعة لا أعرفها : طريق نسرى
السموات ، وطريق حية على صخر ، وطريق سفينة فى قلب البحر ، وطريق
ربل بفتاة (٢٢١) » . وهو يتفق مع القديس بولس فى أن أفضل للإنسان أن
يتزوج من أن يحترق ! « أفرح بامرأة شبابك ، الطيبة المحبوبة ، والوعلة
الزهية ، ليروك ثدياها فى كل وقت ، وبمحبها اسكر دائما . . . أكلة من
البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة (٢٢٢) » . بحقت
هل هذه ألفاظ من كانت له سبعة زوجة ؟

ويلي الكسل الدنس فى البعد عن الحكمة : « اذهب إلى النملة أيتها
الكسلان . . . إلى متى تنام أيتها الكسلان ؟ (٢٢٣) » ،
« أرايت رجلا مجتهدا فى عمله ؟ — أمام الملوك يقف (٢٢٤) » . ولكن

(*) لا يصد الكاتب أن سليمان شخص أسطورى ، فقد تحدث عنه قبل حديث من
يعتقد أنه شخصية تاريخية ، بل يصد كما يقول هو نفسه أن الأمثال ليست من وضع سليمان
وإن كان بعضها قد قالها هو نفسه هو كتب فيها بعد . إن على هذه الأمثال مسحة من الأدب
المصرى والفلسفة اليونانية ، ولعلها جمعت فى القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد ، ولعل
جامعها يهودى متأغرق من أهل الإسكندرية .

هذا الفيلسوف لا يطبق الإسراف في الطمع : « المستعجل إلى الغنى لا يبرأ » ، و « راحة الجهال (٢٢٥) تبيدهم » والعمل هو الحكمة ، أما الكلام فحمق وسخف : « في كل تعب منفعة ، وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر » . . . « الجاهل يظهر كل عبطه ، والحكيم يسكنه أخيراً » « ذو المعرفة يبقى كلامه وذو الفهم وقور الروح ، بل الأحمق إذا سكت يحسب حكماً ومن ضم شفثيه فهيها (٢٢٦) » .

ومن النصائح التي لا ينفك ذلك الحكيم يرددها حكمة تكاد تنطق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة ، تفوح بعطر مدارس الإسكندرية حيث كان علم اللاهوت العبري يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجهما العقلية الأوربية : « النطنة ينبوع حياة لصاحبها ، وتأديب الحمق حماقة . . . طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة وللرجل الذي ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة ، وريحها خير من الذهب الخالص ، هي أئمن من الآلى وكل جواهر لا تساويها ، في يمينها طول أيامك وفي يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم ، وكل مسالكها سلام (٢٢٢) » .

وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ؛ ولعل ذلك السفر قد كتب في أيام السبي ، ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلي (*) ويقول فيه كارليل وهو

(*) ويظن العلماء أن هذا السفر قد كتب في القرن الخامس قبل الميلاد (٢٢٨) . ونصوبه أكثر تهوياً حتى من الكتب المقدسة في أية أمة من الأمم القديمة . ويرفض جاسترو هذه النصوص كلها ما عدا الفصول ٣ - ٣١ ، ويرى أن ما بقى من الفصول تعديلات أدخلت عليها لتدعيمها ، وحتى الفصول التي يقبلها يظن أن فيها عبارات ليست منها قد أقحمت فيها إقحاماً ، وأن بعض العبارات الأصلية قد أسيئت ترجمتها . من ذلك ما جاء في الآية الخامسة من الفصل الثالث عشر : « هو ذا يقتلني فهذا يعود إلى خلاصى » (الأصحاح ١٣ : ١٥) فهذه الآية تجب أن ترجم هكذا : « ولكنى لا أتجف » أو « ولكنى لا أرجو شيئاً » (٢٢٩) [ونص الآيات كاملاً هو : « هو ذا يقتلنى ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أركى طريقى قدامه ، فهذا يعود إلى خلاصى » (المترجم)]

ويرى كلن وغيره في هذا السفر ما يشبه إحدى المآسى اليونانية التي كتبت على نمط مآسى يورپديز (٢٣٠) . والفصول المحصورة بين ٣ ، ٤١ مصوغة على أوازن الشعر العبرى .

من أشد الناس تحمساً له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم . . . فهو كتاب نبيل ؛ وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التي لا آخر لها - مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض . . . واعتقادي أن لا شيء في التوراة أو في غير التوراة يضارعه في قيمته الأدبية (٢٣٠) » وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا . ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها في الديانة اليهودية القديمة (٢٣١) فقد كان من الواجب الحتم أن تنال الفضيلة ثوابها في هذا العالم ، ولالام يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيراً ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثر ثروتهم (٢٣٢) » ؟ ولِمَ يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟ (٢٣٣) ، وها هو ذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأمثلة وهو أكثر ممن سبقه عزماً وثباتاً ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزاً لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (في فترات متقطعة) كما كان يعبد يهوه ؛ وكانت بابل تجرده وتكفر به ؛ ومع ذلك فقد ازدهرت بابل ، وتمرغ بنو إسرائيل في الوحل ، ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا . فاذا يقول الإنسان في هذا الإله ؟ وجاء في مقدمة هذا السفر ، لعل كاتباً أريباً قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه رجل محظوظ ؛ فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألواناً من المصائب على رأس أيوب . ويظل البطل وقتاً ما صابراً « صبر أيوب » ولكن صبره هذا يفارقه في آخر الأمر ، ويفكر في الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نذبه وتخلّى عنه . ويصر صوفراً - وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه - على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح في هذه الدنيا نفسها ؛ ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتدأ :

« إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثاكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه نحيام المُخَرَّبين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون ؛ الذين يأتون بإلههم فى يدهم هذا كله رآه عيسى ، سمعته أذن وفطنت به أما أنتم فلفقوا كذب أطباء بطلون كلاكم . ليتكم تصمتون صمتاً ، يكون ذلك انكم حكمة (٢٣٤) » .

ثم يفكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

« الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ، وبرخ كالظل ولا يقف لأن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف ولا تعدم حراً عيها أما الرجل فيموت ويبل ؛ الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفذ المياه من البحر ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يضطجع ولا يقوم إن مات رجل أفيحيا ! » (٢٣٥) .

ويظل الجدل قائماً بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه ، حتى يدعو خصيمه ، ويتمنى أن يهلك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على غمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلهية . وتوحى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تمت أقوال أيوب » — بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل كما يمثل سفر الجامعة آراء أقلية جاحدة بين اليهود (*) . ولكن فيلسوفاً آخر — إلهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه . وأخيراً يُسمع صوت من بين السحاب يتحدث حديثاً هو أجل ما فى التوراة كلها .

(*) يقول رينان وهو الفيلسوف المتشكك : « إن المتشكك لا يكتب إلا قليلاً ، ثم إن كتاباته نفسها كثيرة التعرض للضياع . ولما كانت مصائر اليهود مرتبطة كل الارتباط بالدين فقد كان لابد من التضحية بالقسم الدنيوى من أدبهم » (٢٣٦) . وإن فى تكرار هذه العبارة : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله » فى المزمورين (١٤ : ١ : ٥٣ : ١) ليدل على أن هؤلاء الجاهل كانوا من الكثرة بين بني إسرائيل بحيث يثيرون بعض المتعجب . ويدلح أن ثمة إشارة إلى هذه الأقلية فى صفحتها ١ : ١٢ .

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

« من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة . اشدد الآن حقوك
كرجل فلانى أسألك فتعلمنى . أين كنت حين أسست الأرض . أخبر إن
كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطاراً ؟ على
أى شيء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها ، عندما ترنمت
كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين
اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قاطه وضربت
عليه حدى ، وأقت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا
تتخمد كبرياء لجحلك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر
لموضعه ؟ . . . هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟
هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ هل أدركت
عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله ؟ . . . أدخلت إلى خزائن الثلج
أم أبصرت مخازن البرد ! . . . هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربطة
الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ ... من
وضع فى الضحاء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟

« هل يخاصم القدير موبخه ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك
فتعلمنى (٢٣٧) » .

ويذكر أيوب نفسه لهول ما يرى ؛ ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ، ويقبل
تضحيته ؛ وتتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية (٢٣٨) ، ويب
أيوب نفسه أربعة عشر ألفاً من الغنم ، وستة آلاف من الإبل وألف
فدان من الثيران ، وألف أتان ، وسبعة بنين ، وثلاث بنات ، وعاش بعد
هذا مائة عام وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ؛ لأن
أيوب يحصل على كل شيء إلا جواب أسئلته ؛ فالمشكلة تظل باقية ؛ وسوف
تكون ذا آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد . فى أيام دانيال (حوالى
١٦٧ ق . م) سكت يهود عن هذه المشكلة وعدوها من المشاكل التى شرحها

بعبارات تدركها العقول في هذه الحياة الدنيوية ، ولا يستطيع الإجابة عنها — كما يقول دانيال وأخنوخ و (كانت Kant) إلا إذا آمن الإنسان بحياة بعد الممات ، ترفع فيها كل المظالم ، وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسيء ، ويثاب المحسن أجزل الثواب . وكانت هذه إحدى الأفكار المختلفة التي سرت في المسيحية ، وكانت من أكبر الأسباب انتصارها على غيرها من الأديان المعاصرة لها .

ويجب سفر الجامعة عن هذه المسألة جواباً متشائماً ، فيقول إن الهناء والشقاء في هذا العالم لا شأن لهما بالفضيلة والريضة (*) .

« قد رأيت الكل في أيام بؤس ، قد يكون باراً يبيد في برّه ، وقد يكون شرير يطول في شره . . . ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجري تحت الشمس : فهو ذا دموع المظلومين ولا مقرر لهم ، ومن يظالمهم قهر . . . إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل في البلاد فلا ترتع من الأمر . . . لأن فوق العالي عالياً (٢٤١) . »

وليست الفضيلة والريضة هما اللتين تقوم عليهما سعادة الإنسان وشقاؤه ، وإنما تقوم السعادة والشقاء على المصادفة العمياء : « فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعي ليس له خفيف ، ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والفُرص يلاقينهم كافة (٢٤٢) . » وحتى الثروة نفسها لا بقاء لها ولا تسعد صاحبها طويلاً : « من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ، ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل . هذا أيضاً باطل . . . نوم المشتغل حلواً إن أكل قليلاً أو كثيراً . ووفر الغنى لا يربحه حتى ينام (٢٤٣) » . ويذكر الكاتب أهله فيجمع مبادئ مالتس *Maltus* في سطر واحد : « إذا كثرت الخيرات كثرت الذين يأكلونها (٢٤٤) » . كذلك لا يخفف من آلامه ما يقال

(*) لا يعرف مؤلف هذا السفر ولا وقت تأليفه . ويرجعه سارتن إلى الفترة الواقعة ما بين عامي ٢٥٠ ، ١٦٨ ق . م (٢٣٩) . ويطلق المؤلف نفسه اسمين أدبيين مستعارين يخلط بينهما وهما « كحيله » و « ابن داود ملك أورشليم » أي سليمان (٢٤٠) .

له عن ماضٍ ذهبي أو مستقبلٍ هنيء ، فهو يرى أن الأمور جميعها كانت في ماضٍها كما هي في حاضرها وكما ستكون في مستقبلها على الدوام : « لا تقل لماذا كانت الأيام الأولى خيراً من هذه ؟ لأنه ليس عن حكمة تسأل عن هذا (٢٤٥) » ، ومن واجب الإنسان أن يعنى باختيار مؤرخيه : « ما كان فهو ما يكون ؛ والذي صُنِعَ فهو الذي يُصنع . فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يُقال له انظر ، هذا جديد ، فهو منذ زمان كان في الدهور التي قبلنا (٢٤٦) » . وهو يطن أن الرقي وهم باطل فالمدنيات القديمة قد نسيت وستنسى أيضاً المدنيات القائمة (٢٤٧) .

وهو يرى أن الحياة بوجه عام عمل محزن . وأن لا ضير من التخلّص منها ، فهي حركة دائرية لا غاية لها ولا هدف ولا نتيجة باقية ، تنهى حيث تبدأ ، وهي صراع عقيم باطل ليس فيه شيء محقق إلا الهزيمة :

« باطل الأباطيل قال الجامعة ؛ باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس ، دور يمضي ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتلور إلى الشمال ، تذهب دائرة دوراناً ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجري إلى البحر ، والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي تجرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة . . . فنبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كاهنهما الذي لم يولد بعد ، الذي لم ير العمل الرديء الذي عمل تحت الشمس . . . الصيت خير من الدهن الطيب ، ويوم الممات خير من يوم الولادة (٢٤٨) » .

وهو يقضى بعض الوقت يبحث عن حلٍّ للأمر الحياتي في الانغماس في الملذات . « فلدحت الفرح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح » . ولكن « هذا أيضاً باطل » . والصعوبة التي تواجهنا في مسراتنا هي المرأة ، ويلوح أن الواعظ قد لاقى منها شرّاً لم يستطع نسيانه . « رجلاً واحداً

بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجده . . . فوجدت أمر من الموت المرأة التي هني شباك ، وقلبها أشراك ويدها قيود ، الصالح قدام الله ينجو منها (٢٥١) . وهو يختم استطراده في دنيا الفلسفة الغامضة بالعودة إلى نصيحة سليمان وقتير ، وعلى النصيحة التي لم يعمل بها كلاهما : « التذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلا التي أعطاك إياها تحت الشمس (٢٥٢) » .

وحق الحكمة نفسها مسألة مشكوك فيها ، فهو يكيل لها المدح جزافاً ، ولكنه يظن أن العلم إذا لم يكن بالقدر القليل كان بالغ الخطورة ، فهو يقول في غير حذر ، « لعمل كتب كثيرة لانهية ، والدرس الكثير تعب للجسد (٢٥٣) » . وفي رأيه أنه قد يكون من الحكمة أن يسعى الإنسان للحكمة لو أن الله قد جعلها تثمر مالا أكثر مما تثمره فعلاً : « الحكمة صالحة مثل الميراث بل أفضل لناظري الشمس » (*) . فإذا لم يصحبها المال كانت شركاً يقضى على طلابها (٢٥٤) . (إن الحكمة شبيهة بيهوه الذي قال ، لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش » (**)(٢٥٥)) . . والحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله وكلاهما ينتهي إلى جيفة نتنه .

ووجهت قلبي للسؤال والتمتيس بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردىء جعلها الله لبني البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح . . أنا ناجيت قلبي قائلاً أنذا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلي على أورشليم ، وقد رأى قلبي كثيراً من الحكمة والمعرفة ؛ ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل :

(*) هذا هو النص في الترجمة العربية للكتاب المقدس ، ولكن معنى النص الإنجليزي الذي أورده المؤلف : « الحكمة صالحة مع الميراث » . (المترجم)

(**) « رب أرفى أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » قرآن كريم .

فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ، لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً (٢٥٦) »

ولو أنه كان من مبادئ هذا الدين أن الرجل العادل يستطيع أن يتطلع إلى شيء من السعادة بعد الموت لكان في مقدوره أن يتحمل مهام مصائب الدهر وقلبه عامر بالأمل والشجاعة ؛ ولكن كاتِب سفر الجامعة « يحس » بأن هذا أيضاً وهم باطل ، فالإنسان حيوان يموت كما يموت غيره من الحيوانات :

« لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة ، وحادثة واحدة لهم ، موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة لكل ، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل . يذهب كلاهما إلى مكان واحد ، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما . . . فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه ، لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده ؟ . . . كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها (٢٥٧) » .

ألا ما أغرب هذا تعلية على الحكمة التي يسبِّح بحمدها سفر الأمثال ! ولا شك في أن هذه الأقوال إنما تعبر عن الحضارة التي بلغت آخر مراحلها ، فلقد نضب معين شباب إسرائيل في الكفاح المرير الذي قام بينها وبين الإمبراطوريات المحيطة بها ، والتي لم ينقذها منها يهوه الذي كانت تعتقد على معونته ، فلما تأزمت أمورها وافتقرت وتشتتت رفعت إلى السماء في آدابها هذا الصنوت وهو أشد الأصوات مرارة لتعبر به عن أعظم الشكوك التي طافت في يوم من الأيام بالنفس البشرية .

نعم إن أورشليم قد أعيد بناؤها ، ولكنها لم تعد لتكون حصناً لإله لا يقهر ، بل عادت لتكون مدينة تخضع للفرس حيناً واليونان حيناً آخر . فقد وقف الإسكندر الشاب على أبوابها في عام ٣٣٤ ق . م ، وطلب إلى تلك العاصمة أن

تستسلم له . وأبى الكاهن الأكبر في أول الأمر أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه صمدع بالأمر في صباح اليوم الثاني على أنرحلم رآه في نومه . ، فأمر الكهنة أن يرتدوا من ملابسهم أعظمها روعة وأشدّها وقعاً في النفوس ، كما أمر الأهلين أن يلبسوا ثياباً بيضاً لا شبة فيها ، ثم سار على رأس الشعب إلى خارج أبواب المدينة في هدوء وسلام ليعرضوا الصلح على الغازين . وانحنى الإسكندر تعظيماً للكاهن الأكبر وأظهر إعجابه ببني إسرائيل وبإلههم وتقبل منهم أورشليم (٢٥٨) .

على أن هذا لم يكن آخر حياة بلاد اليهود ، بل كان هو الفصل الأول من هذه المسرحية العجيبة التي تمتد فصولها المختلفة طوال أربعين قرناً من الزمان ، والتي تدور حوادث فصلها الثاني حول المسيح ، وحوادث الفصل الثالث حول أحاسوروس . واليوم يمثل من هذه المسرحية فصل آخر ولكنه ليس آخر فصولها . لقد خربت أورشليم وأعيد بناؤها ، ثم خربت وأعيد بناؤها من جديد .

الباب الثالث عشر

فارس

الفصل الأول

قيام دولة الميديين وسقوطها (*)

أصولهم - حكماءهم - معاهدة مرديس الدموية - انعطافهم

ترى من هم الميديون الذين كان لهم شأن أيما شأن في تحطيم دولة آشور .
أما معرفة أصلهم فأمر معجز الدرك عزيز المطلب ، ذلك أن التاريخ كتاب يجب أن يبلأه الإنسان من وسطه . وأول ما وصل إلينا من أخبارهم في لوحة تسجيل حملة بعث بها شلما نصر الثالث إلى بلد يسمى پارسوا في جبال كردستان (٨٣٧ ق . م) . ويلوح أنه كان في ذلك البلد سبعة وعشرون من الرؤساء - الملوك ، يحكمون سبعاً وعشرين ولاية قليلة السكان يسمى أهلها أماداي أو ماداي أو ميديين . وهم أقوام من الجنس الهندوربتي يرجح أنهم جاءوا من شواطئ بحر الخزر إلى غربي آسية قبل المسيح بنحو ألف عام ، ويشيد الزند - أبستاق وهو كتاب الفرس المقدس بذكر هذا الموطن القديم ويصفه بأنه جنة من الجنان .

ذلك أن الأرض التي نقضى فيها شبابنا ، وأيام هذا الشيب نفسه ، جميلة على الدوام على شريطة ألا تضطر إلى الحياة من جديد في تلك الأرض أو في تلك الأيام .

(*) تسمى أحياناً دولة الماديين وقد ذكرت في التوراة بهذا الاسم . (المترجم)

ويلوح أن الميديين كانوا يضربون في إقليم بخار وسمرقند ، وأنهم توغلوا منه نحو الجنوب شيئاً فشيئاً ، حتى وصلوا آخر الأمر إلى بلاد فارس^(١) ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والحجارة الكريمة في الجبال التي اتخذوها موطناً لهم جديداً^(٢) ، ولما كانوا قوماً أشداء بسطاء في معيشتهم ، فقد أخذوا يفلحون أرض السهول وسفوح التلال وعاشوا منها عيشة رخيئة .

وفي إكباتانا(*) أى « ملتقى الطرق الكثيرة » الواقعة في واد جيل المنظر أنخصبته المياه الدائبة من الثلوج المغطية لقلل الجبال أنشأ ديورسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى ، وزينها بقصر ملكى يشرف عليها ويغطي ثلثي ميل مربع من الأرض . ويقول هيرودوت في فقرة من كتابه لم تجد ما يؤيدها : إن ديورسيس هذا قد وصل إلى ما وصل إليه من القوة بما اشتهر به من العدالة . فلما أن بلغ ما بلغ طغى وتجبر وأصدر أوامر تقضى « بأن لا يسمح لإنسان بالثول بين يديه ، بل عليه أن يعرض أمره على يد رسله ، وأن يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان أو يبصق أمامه . وقد أراد بهذه المراسم التي فرضها حوله . . . أن يبدو لمن لا يرونه أنه من طبيعة غير طيعتهم^(٣) » . واشتد ساعد الميديين في أيامه بفضل حياتهم الطبيعية الاقتصادية ، وأصبحوا بتأثير عاداتهم وببئسهم ذوى جلد وصبر على ضرورات الحروب ، فكانوا بزعامته خطراً يهدد آشور ، فأغارت هذه على بلاد ميديا مرة بعد مرة ، وظنت أنها قد هزمتها هزيمة منكرة لا تجروء معها على مناوأتها ولكنها وجدتها لا تمل الكفاج لنيل حريتها . واستطاع سياخار (سياكزارس) أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . وأوحى هذا النصر آمالاً كباراً فاجتاحت جيوشه بلاد آسية الغربية حتى وصلت إلى أبواب سرديس ، ولم يرد هذه الجيوش عنها إلا كسوف الشمس . فقد ارتاع القائدان المتقاتلان لهذا الذي ظناه نذيراً لهما من السماء ، فوقعا معاهدة للصالح أبرماها بأن شرب كل

(*) والراجع أنها مدينة همدان الحالية .

منهما بجرعة من دماء عدوه^(٤) . ومات كيخسرو في السنة التالية بعد أن وسع رقعة دولته في خلال حكمه وحده فأصبحت إمبراطورية تشمل آشور وميديا وفارس بعد أن كانت ولاية خاضعة لسلطان غيرها . لكن هذه الإمبراطورية قضى عليها ولما يمض على وفاة هذا الملك جيل واحد :

وقد كانت هذه الدولة قصيرة الأجل ، فلم تستطع لهذا السبب أن تسهم في الحضارة بقسط كبير ، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد السبيل إلى ثقافة بلاد الفرس . فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية . وحرفهم الهجائية التي تبلغ عدتها ستة وثلاثين ، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين^(٥) ، ويستخدمون في العمارة العمد على نطاق واسع . وعندهم أخذوا قانونهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاعتصاف وحسن التدبير ما أمكنهم في وقت السلم ، وبالشجاعة التي لا حدها في زمن الحرب ، ودين زردشت وإلهيه أهورا - مزدا ، وأهرمان ، ونظام الأسرة الأبوي ، وتعدد الزوجات ، وطائفة من القوانين بينها وبين قوانينهم في عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانيال يجمع بينهما في قوله المأثور عن « شريعة ميدي وفارس التي لا تنسخ »^(٦) . أما أديهم وفنهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر :

على أن انحطط الميديين كان أسرع من نهضتهم نفسها : فقد أثبت استياجس ، الذي خلف أباه سياخار ، ما أثبتته التواريخ من قبل ، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمن مغبتها ، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كل القرب في وراثة الملك :

لقد ورث الملك وهو مطمئن القلب هادئ البال ، وأخذ يستمتع بما ورث ، وحدث الأمة حذوم لكيها فندسيت أخلاقها الخفاة الشديدة وأساليب حياتها الخسنة الصارمة . ذلك أن الثروة قد أسرعت إليها لإسراعاً لم يستطع أهلها معه أن يحسنوا استخداماتها ، وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة والحياة المترفة ،

فلبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة ، وتجملت النساء بالأصباغ والحلى ، بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تزين بالذهب^(٧) . وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء بمجدون السرور كل السرور في أن تحملهم مركبات بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قطعت من سوق الأشجار^(٨) ، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكلفة ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة .

وبعد أن كان الملوك الأولون يفخرون بعداتهم جاء استياجس فغضب يوماً على هرباجس فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وأرغمه على أن يأكل لحمه^(٩) ، فأكله هرباجس وهو يقول إن كل ما يفعله المليك يسره ، ولكنه انتقم لنفسه بأن أعان قورش على خلع استياجس ؛ ذلك أن قورش الشاب النابه حاكم ولاية أنشان الفارسية التي كانت تابعة للميديين خرج على طاغية إكتابانا المنحث ، وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره على ذلك الطاغية وارتضوه ملكاً عليهم ، ولم يكده يرتفع من بينهم صوت واحد بالاحتجاج عليه ، وما هي إلا واقعة واحدة حتى انقلبت الآية فلم تعد ميديا سيدة فارس بل أصبحت فارس سيدة ميديا وأخذت تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

الفصل الثانى

عظماء الملوك

قوروش صاحب الشخصية الروائية - خطته السياسة المستندة -
تميز - دارا الأكبر - غزو بلاد اليونان

وكان قوروش من الحكام الذين خلّقوا ليكونوا حكاماً والذين يقول فيهم إمرسن إن الناس كلهم يتهجون حين يتوجون ، فلقد كان ملكاً بحق فى روحه وأعماله ، قديراً فى الأعمال الإدارية والفتوح الخاطفة المسرحية ، كريماً فى معاملة المغلوبين ، محبوباً من أعدائه السابقين - فلا عجب والحالة هذه أن يتخذ منه اليونان موضوعاً لعدة روايات ، وأن يصفوه بأنه أكبر أبطال العالم قبل الإسكندر .

ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع أن نرسم له صورة موثوقاً بصحتها مما نقرره عنه فى هيرودوت أو أكسنوفون . ذلك بأن أول الرجلين قد خلط تاريخه بكثير من القصص الخرافية^(١٠) ، وأن الثانى قد جعل القيروبيديا (سيرته) مقاله عن فنون الحرب تتخللها فى بعض المواضع محاضرات فى التربية والفلسفة ؛ ونرى أكسنوفون أحياناً يخلط بين قوروش وسقراط . فإذا ما أخرجنا هذه الأقاصيص لم يبق لنا من شخصية قوروش إلا أنه طيف خيال ممتع جذاب . وكل ما نستطيع أن نقوله عنه واثقين أنه كان وسيما بهى الطاعة - لأن الفرس اتخذوه نموذجاً لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم^(١١) ؛ وأنه أسس الأسرة الأكمنية أسرة « الملوك العظام » التى حكمت بلاد الفرس فى أزهى أيامها وأعظمها شهرة ، وأنه نظم قوات ميديا وفارس الحربية فجعل منها جيشاً قويا لا يقهر ، وأنه استولى على سرديس وبابل ، وقضى على حكم الساميين فى غربى آسية فلم تقم بعدئذ قائمة ، مدى

ألف عام كاملة ، وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التي كانت من قبل تحت سلطان آشور ، وبابل ، وليديا ، وآسية الصغرى ، حتى أصبحت تلك الإمبراطورية أوسع المنظمات السياسية في العالم القديم قبل الدولة الرومانية ، ومن أحسنها حكما في جميع عصور التاريخ .

ويبدو — على ما نستطيع أن نصوره فيها يحيط به من سدُم الأساطير والأوهام — أنه كان أحب الفاتحين إلى النفوس ، وأنه أقام دولته على قواعد من النبيل وكريم السجايا ، وأن أعداءه كانوا يعرفون عنه لين الجانب فلم يحاربوه بتلك القوة المنيئة التي يحارب بها الرجال حين لا يجدون بداً من أن يقتلوا أو يُقتلوا . ولقد مر بنا من قبل — على ما يرويه هيرودوت — كيف أنجى كروسس من الحطب المحرق الذي وضع عليه في سرديس ، وكيف أكرمه وجعله من أعظم مستشاريه ، ومر بنا كذلك كرمه وحسن معاملته اليهود . وكانت أولى القواعد السياسية التي تقوم عليها دولته أن يترك الشعوب المختلفة التي تتألف منها حرية العبادة والعقيدة الدينية ، لأنه كان عليما كل العلم بالمبدأ الأول الذي يبني عليه حكم الشعوب ، وهو أن الدين أقوى من الدولة ؛ ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد ، بل نراه يبغض كثيراً من الإكبار والمجاهلة لآلهة الشعوب المغلوبة ، ويسهم بماله في المحافظة على أضرحتهم ؛ بل إن البابليين أنفسهم ، وهم الذين قاوموه طويلا ، قد التفوا حوله وتحمسوا له حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم . وكان أينما سار في فتوحه التي لم يسبقه إليها فاتح من قبله قرب القرابين إلى الآلهة المحاية في تقي وورع . وكان كنيابليون يعترف بالأديان كلها على السواء ، ويفرقه فيما يظهره من بشاشة وكياسة وهو يكرم جميع الآلهة .

وهو يشبه نابليون من ناحية أخرى ، وهي أنه مات ضحية الإسراف في المطامع . ذلك أنه لما فرغ من فتح الشرق الأدنى بأجمعه وضمه إلى ملكه ،

أراد أن يحرر ميديا وفارس من غزو البدو الهمج الضاربين في أواسط آسية ، ويلوح أنه أوغل في حملاته حتى وصل إلى ضفاف نهر جيحون شالاً إلى الهند شرقاً ، فلما وصل إلى ذروة مجده قتل فجأة وهو يحارب المسيحية إحدى القبائل المجهولة التي كانت نازلة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر ، فكان كالإسكندر افتتح إمبراطورية متسعة الرقعة ولكن المنية عاجلته قبل أن ينظمها ، لكن أخلاق قورش قد شابتها شائبة كبيرة ، تلك هي قسوته المفرطة في بعض الأحيان .

وجاء بعده ابنه قبيز وكان به شبه جنة فورث عن أبيه قوته وإن لم يرث عنه شيئاً من كرمه . وبدأ قبيز حكمه بأن قتل أخاه سمرديس منافسه في الملك ، ثم أغوته ثروة مصر الطائلة فزحف عليها ليمد حدود الإمبراطورية الفارسية إلى نهر النيل . وأفلح فيما كان يبتغيه ، ولكنه على ما يظهر أضاع في سبيل ذلك رشده . ولم يكلفه الاستيلاء على منف كبير مشقة ، ولكن الجيش الذي أرسله للاستيلاء على واحة أمون هلك في الصحراء ، كما أخفقت حملة سيرها إلى قرطاجنة لأن بحارة الأسطول الفارسي الفينيقيين أبوا أن يهاجروا مستعمرة فينيقية ، وجن جنون قبيز ، فذهبت عنه حكمة أبيه ، وما كان يتصف به من رحمة وتسامح ، فأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أبيس معبودهم وموضع إجلالهم وتقديسهم وهو يستهزئ به ، ولم يكفه هذا ، بل أخرج الجثث المخطئة من مدافنها ونبش قبور الملوك ولم يبال في ذلك بما كان عليها من لعنات قديمة ، ودنس الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من الأصنام ، ظناً منه أن عمله هذا سوف يشفي المصريين من خرافاتهم وأوهامهم ، فلما انتابه المرض — ويلوح أن مرضه كان نوبات صرع تشنجية. — لم يبق لدى المصريين شك في أن مرضه إنما هو عقاب حل به من قبل آلهتهم ، وأن دينهم لم يبق فيه بعدئذ رية لموتاب . وكان قبيز أراد أن يعبر من مرة أخرى على مساوي الملكية المطلقة ، ففعل ما فعله

نابليون في بعض ساعات امتعاضه ، إذ أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه بركسيسيس بسهم من قوسه ، ودفن اثني عشر من أعيان الفرس أحياء ، وقضى بإعدام كروسس ، ثم ندم على ما فعل ، وسر حين علم أن حكمه لم ينفذ ، ثم عاقب الموظفين الذين تأخروا عن تنفيذه^(١٢) . وعلم وهو عائد إلى بلاده أن مغتصباً قد استولى على عرش فارس ، وأن ثورة صماء اندلعت لطيها طول البلاد وعرضها لتأييده . ومن هذه اللحظة يخفى قبيز من التاريخ ، وفي بعض الروايات أنه انتحر^(١٣) .

وكان المغتصب قد ادعى أنه سمرديس ، وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد أخيه قبيز واعتزاه قتله . أما الحقيقة فإنه كان أحد رجال الدين المتعصبين من أتباع المذهب المجوسى القديم ، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمى . ثم شدت في البلاد ثورة أخرى أطاحت بعرشه . وكان الذين نظموها سبعة من أشرف البلاد اختاروا بعدئذ واحداً منهم هو دارا ابن هشتاسب ورفعوه على العرش . وهذه الوسيلة الدموية بدأ أعظم ملوك الفرس حكمه .

وكانت وراثية العرش في الممالك الشرقية تقترن بالفن في القصور الملكية تقوم بين المتنازعين على أزمة الحكم ، كما تقترن بالثورات في المستعمرات الخاضعة لحكمها ، فقد كانت هذه المستعمرات تنهز فرصة ما ينشأ عن الفن الداخلية من فوضى واضطراب ، أو عن تولى الملك حاكم غير مجرب فتعمل لاسترداد حريتها . وكان اغتصاب الملك في هذه المرة واغتيال « سمرديس » فرصة ثمينة انتهزها الولايات الخاضعة لفارس ، فخرج عليهاحكام مصر وليديا ، وثار عليها في وقت واحد سوزانه ، وبابل ، وميديا ، وأشور ، وأرمينية ، وساكيا ، وغيرهم من الولايات . ولكن دارا أخضعها جميعاً واستخدم في إخضاعها منتهى القسوة ، من ذلك أنه لما استولى على مدينة بابل بعد حصار طويل أمر بصلب ثلاثة آلاف من أعيانها ليرهب بذلك بقية الأهلىن ويرغمهم على طاعته ، ثم أتبع

ذلك بسلسلة من الوقائع الحربية السريعة « هداً » بها الولايات النائرة واحدة بعد واحدة .

ولما رأى أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد تنقطع أوصالها إذا حلت بها أزمة من الأزمات ، خلع دروع الحرب ، وأصبح من أعظم الحكام الإداريين وأعلامهم كعباً في التاريخ كله ، وأخذ يعيد تنظيم ملكه على نسق أصبح مثلاً يحتذى في جميع الإمبراطوريات القديمة إلى سقوط الدولة الرومانية . وبفضل هذا النظام نعمت بلاد غربي آسية بفترة من الطمأنينة والرخاء لم ينعم هذا الصنف المضطرب بمثلها من قبل .

وكان يرجو بعدئذ أن يحكم بلاده في ظل السلام ، ولكن سنة الأقدار قد جرت على ألا تنقطع الحروب في الإمبراطوريات ، ذلك بأن الشعوب المتهورة يجب أن يعاد قهرها من آن إلى آن ، وأن الغالبين يجب أن يحافظوا في شعوبهم على فنون الحرب وعادات المعسكرات وميادين القتال ، وأن الأقدار التي لا تترك شيئاً على حاله قد تنمخض عن إمبراطورية جديدة تتجدى لإمبراطورية القديمة ؛ وتلك ظروف تختم خلق الحروب إن لم تشتعل ناراها من تلقاء نفسها ؛ ولا بد إذن من أن يعود كل جيل على احتمال مشاق القتال ، وأن يعلم بالمران كيف يستسيع الموت في سبيل الأوطان .

ولعل هذا كان من الأسباب التي حدثت بدارا إلى أن يزحف بجوشه إلى جنوبي روسيا مجتازاً مضيق البسفور ونهر الدانوب إلى الفاجا ليؤدب السكوديين الذين كانوا لا ينفكون يفسرون على أطراف الإمبراطورية للفرسية ، وأن يقودها مرة أخرى مخترباً أفغانستان ، ويمتاز العشرات من سلاسل الجبال حتى يصل إلى وادي نهر السند ، وأن يضم بذلك إلى مملكته أقاليم واسعة الرقعة وآلاف الآلاف من الأنفس والكثير من الأموال . أما حملته على بلاد اليونان فيجب أن نبحث لها عن سبب أقوى من هذا . ويريد هيرودوت أن يحملنا على الاعتقاد بأنه خطأ هذه الخطوة

التاريخية الموفقة لأن أتوسا إحدى زوجاته كابدته بها في فراشه^(١٤) . لكن
أكرم من هذا أن نعتقد أن الملك أدرك ما قد تتمخض عنه دويلات المدن
اليونانية ومستعمراتها من إمبراطورية أو من حلف يهدد سيادة الفرس على
غربي آسية . فلما ثارت أيونا وتلقت العون من إسبارطة وأثينة رضى دارا
أن يخوض غمار الحرب وهو كاره لها . والعالم كله يعرف قصة اجتيازه بحر
إيجي ، وهزيمة جيشه في سهل مراثون ، وعودته كسير القلب إلى فارس ،
وهناك أخذ يستعد استعداداً عظيماً ليحاول ضرب اليونان ضربة أخرى ،
ولكنه أصيب في هذه الأثناء بمرض مفاجئ أضعفه وقضى على حياته .

الفصل الثالث

الحياة الفارسية والصناعات

الإمبراطورية - الشعب - اللغة - الزراعة -
الطرق الإمبراطورية - التجارة والشئون المالية

كانت الدولة الفارسية حين بلغت أعظم اتساعها في أيام دارا تشمل عشرين وية أو «إمادة» (سترية) تضم مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وليديا ، وفريجية ، وأيونيا ، وقبادوش ، وقلقية ، وأرمينية ، وأشور ، وقفقاسية ، وبابل ، وميديا ، وفارس ، والبلاد المعروفة في هذه الأيام باسم أفغانستان ، وبلوخستان ، والقسم الممتد من الهند غرب نهر السند . وسيمديانا ، وبكتريا (بلخ) ، وأقاليم المسيحية وغيرهم من قبائل آسية الوسطى . ولم يسجل التاريخ قبل هذه الإمبراطورية أن حكومة واحدة حكمت مثل هذه الرقعة الواسعة من البلاد .

ولم تكن بلاد الفرس في تلك الأيام ، وهى البلاد التى قدر لها أن تحكم هذه الأربعين مليوناً من الأنفس مدى مائتى عام ، هى بعينها البلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد فارس ، والتى يسميها أهلها بلاد إيران ، بل كانت هى الإقليم الأصغر المصاقب للخليج الفارسى مباشرة من جهة الشرق ؛ والمعروفة لدى الفرس الأقدمين باسم پارش والفرس المحدثين باسم فارس أو فارستان^(١٥) . وهذا الإقليم يكاد يكون كله صحراوات وجبالا ، أنهاره قليلة ؛ معرض للبرد القارس والحر الجفاف اللافتح^(١٦) ، ولذلك فإنه لم يكن فيه من الخيرات ما يكتفى سكانه البالغ عددهم مليونين من الأنفس^(١٧) . إلا إذا استعانوا بما قد يأتيهم من خارج بلادهم عن طريق

(*) يقول استرابون إن حرارة الصيف فى السوم تبلغ من الشدة درجة لا تستطيع بها الأفاعى والسحالى أن تمير شوارع المدينة بالسرعة التى تكفى لنجاتها من الاحتراق .
أرة الشمس^(١٦) .

التجارة والفتح. وأهل البلاد الجليليون الأشداء يتمتعون كما ينتمى الميديون إلى الجنس الهندوربي ، ولعلمهم جاءوا إلى تلك البلاد من جنوبي روسيا ، وتكشف لغتهم وديانتهم المبكرة عن صلة نسب وثيقة بينهم وبين الآريين الذين عبروا أفغانستان ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة في شمالي الهند . ولقد وصف دارا الأول نفسه في نقش - رستم بأنه ، فارسي ابن فارسي ، آرى من سلالة آرية . ويسمى الزردشتيون وطنهم الأول : إيرانا فيجواى « موطن الآريين » (**) ، ويطلق استرابون لفظ أريانا على البلاد التى يطلق عليها الآن هذا اللفظ الذى لا يكاد يختلف عن اللفظ الأول وهو إيران (١٨) ، ويلوح أن الفرس كانوا أبجل شعوب الشرق الأدنى في الزمن القديم . فالآثار الباقية من عهدهم تصورهم شعباً معتدل القامات ، قوى الأجسام ، قد وهبتهم حياة الجبال شدة وصلابة ، ولكن ثروتهم الطائلة رقت طباعهم ، وهم ذوو ملامح متناسبة متناسقة ، شم الأنوف لا يكادون يفرقون في ذلك عن اليونان ، تبدو على وجوههم سمات النيل والروعة ، ولبس معظمهم الملابس الميدية ثم تحولوا فيما بعد بالخلي الميدية . وكانوا يعدون من سوء الأدب كشف أى جزء من أجزاء الجسم خلا الوجه ، ولذلك كان كل جسمهم مغطى من عمامة الرأس أو عصابته أو قلنسونه إلى خُفسي القدمين أو حذاءيهما فكان لباسهم سروالا مثلث الطيات ، وقيصاً أبيض من التيل ، ومزراً من طبقتين ، ذا كمّين يغطيان اليدين ، ومنطقة في وسط الجسم . وكانت هذه الملابس تحفظ أجسامهم ، دفئة في الشتاء ، حارة في الصيف . أما الملك فكان يمتاز بلبس سروال مطرز قرمزى ، وحذاءين خوى أزرار زعفرانية اللون . ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا بفتحة عند الصدر ، وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رأسهم منساباً في غداثر ، ثم استبدلوا بها فيما بعد شعراً مستعاراً (١٩) . ولما زادت الثروة

(*) والاعتقاد السائد أن هذا الإقليم هو بمينه إقليم أران الواقع على نهر الأراك .

في عهد الإمبراطوية أكثر الأهلون رجلاهم وساوهم من استعمال أدوات التجميل ، فاستعملوا الأدهان لتجميل الوجه ، والأصباغ الملونة لدهن الجفون ، لكي يربدوا بذلك من سعة العينين وبريقهما في الظاهر . ومن ثم نشأت عندهم طبقة خاصة من « المزيين » سماهم اليونان « الكزمتاي » كانوا خبراء في فن التجميل ، وعملهم تجميل الأثرياء . وكان الفرس خبراء في عمل الروائح العطرية ، وكان القدماء يعتقدون أنهم هم الذين اخترعوا أدهان التجميل . ولم يكن مليكهم يخرج إلى الحرب إلا ومعه علبة ثمينة من الزيوت العطرية ، يتعطر بها في حالتي النصر والهزيمة (٢٠) .

وتكلم الفرس عدة لغات في أثناء تاريخهم الطويل . فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد في عهد دارا الأول ، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية حتى يبدو لنا جلياً أن اللغتين كانتا في وقت من الأوقات لهجتين من لغة أقدم منهما عهداً ، وأنهما هما واللغة الإنجليزية فروع من أصل واحد (*) . وتطورت اللغة الفارسية القديمة وتفرعت إلى فرعين هما الزندية — لغة الزند — أبستاق ، والهلوية وهي لغة هندية اشتقت منها اللغة الفارسية الحالية (٢٢) . ولما مارس الفرس الكتابة استخدموا في نقوشهم الخط المسماى واستخدموا الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم (٢٣) . وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة ، فأنقصوها من ثلاثمائة رمز إلى ست وثلاثين

(*) وما هي ذى بعض أمثلة تثبت هذه الصلة .

الفارسية القديمة	السنسكريتية	اليونانية	اللاتينية	الألمانية	الإنجليزية
Pitar	Piter	Pater	Pater	Vater	Pather
Nama	Nama	Anoma	Nomen	Nahme	Name
Napat	Nap	Anepsios	Nopes	Nette	Nephew
Bar	Bhr	Perein	Ferre	Führen	Bea
Matar	Matar	Meter	Mater	Mutter	Mothe
Bratar	Bhratar	Phrater	Frater	Bruder	Brother
Çta	Stha	Istemi	Sto	Steben	Stand ^(٢١)

علامة ، تبدلت شيئاً فشيئاً من مقاطع إلى حروف حتى صارت حروفاً هجائية مسمارية (٢٤) . على أن الكتابة كانت تبدو للفرس لها خلقاً بالنساء لا يكادون يقتطعون له وقتاً من بين مشاغلهم الكثيرة في الحب والحرب والصيد ، ولم ينزلوا من عليائهم فينشئوا أدباً .

وكان الرجل العادى أممياً راضياً عن أميته ، يبذل جهده كله في فلاحه الأرض . ومجدت الزند — أبستاق الأعمال الزراعية وعدتها أهم أعمال الجنس البشرى وأشرفها ، يتهيج لها أهورا — مزدا الإله الأعلى أكثر مما يتهيج بغيرها من الأعمال . وكانت بعض الأراضي يزرعها ملاكها المزارعون . وكان هؤلاء الملاك في بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من عدة أسر لتزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضي (٢٥) والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مستأجروه نظير جزء من غلته ؛ وبعضها الآخر يزرعه الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرساً) . وكانوا يستخدمون محاريث من الخشب ذات أطراف من الحديد تجرها الثيران ، وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الري الصناعية . وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم مواد الغذاء ، ولكنهم كانوا يأكلون كثيراً من اللحم ويتجرعون كثيراً من الجمر . وقد أخذ قورش بتقديم الخمر لحيوشه (٢٦) . ولم تكن مناقشة جدية في الشؤون السياسية تدور في مجالس الفرس إلا وهم سكارى (*) — وإن كانوا يحرسون على أن يعيدوا النظر في قراراتهم في صباح اليوم التالي . وكان من مشروباتهم مشروب مسكر يسمى الهوما يقدمونه قرباناً محبباً لأهلهم ؛ وكانوا يعتقدون أنه لا يبعث في مدمنه الهياج والغضب ، بل يبعث فيه التقي والاستقامة (٢٨) .

(*) وفي ذلك يقول استرابون : « وهم يصفون في أهم مناقشاتهم وهم يحتسون الخمر ، ويرون أن ما يصدرونه من قرارات وهم على هذه الحال أتقى مما يصدرونه منها وهم غير سكارى » (٢٧) .

ولم يكن للصناعة شأن في فارس ؛ فقد رضى أن تترك لأهم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية ، واكتفت بأن تحمل هذه الأمم إليها منتجاتها مع ما يأتيها من الخراج . أما في شئون النقل والاتصال فكانت أكثر ابتكاراً منها في شئون الصناعة . فقد أنشأ المهندسون إطاعة لأمر دارا الأول طرقاً عظيمة تربط حواضر الدولة بعضها ببعض . وكان طول إحدى هذه الطرق وهى الممتدة من السوس إلى سرديس ألفاً وخمسمائة ميل . وكان طولها يقدر تقديراً دقيقاً بالفراسخ (وكان الفرسخ ٣٤٤ ميل) ويقول هيرودوت : « لأنه كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونُزل فخسة ، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عامرة بالسكان (٢٩) » . وكان في كل محطة خيول بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد ، ولهذا فإن البريد الملكى كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التى يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة ، أى فى أقل قليلاً من أسبوع ، مع أن المسافرين العادى فى تلك الأيام الغابرة ، كان يجتاز تلك المسافة فى تسعين يوماً ، وكانوا يعبرون النهار الكبيرة فى قوارب ، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شاءوا أن يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهى آمنة . وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة ممرات جبال أفغانستان ، وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعاً وسطاً لثروة الشرق التى كانت حتى فى ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل . وقد أنشئت هذه الطرق فى الأصل لأغراض حربية وحكومية ، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية ، ولكنها أفادت أيضاً فى تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار ، كما أفادت فى تبادل خرافات الجنس البشرى وهى من مستلزماته التى لا غنى له عنها ، من ذلك أن الملائكة والشياطين قد انتقلت على هذه الطرق من الأساطير الفارسية إلى الأساطير اليهودية والمسيحية .

ولم تبلغ الملاحه في فارس ما بلغه النقل البرى من رقى عظيم . فلم يكن للفرس أسطول خاص بهم ، بل كانوا يكتفون باستئجار سفن الفينيقيين أو الاستيلاء عليها لاستخدامها في الأغراض الحربية ، وقد احتضر دارا الأول قناة عظيمة تصل فارس بالبحر المتوسط عن طريق البحر الأحمر والنيل ، ولكن إهمال خلفائه ترك هذا العمل العظيم تعبت به الرمال السافية .

وأصدر خشيارشأى أمره الملكى إلى قسم من قواته البحرية بأن يطوف حول أفريقية ، ولكنه لم يكد يجتاز أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) حتى عاد من رحلته يحمله الخرى والعار^(٣٠) . وكانت الأعمال التجارية ترك في الغالب لغير أهناء البلاد — للبابليين والفينيقيين واليهود ؛ ذلك أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون أن الأسواق بوثة للكذب والخداع . وكانت الطبقات الموسرة تفخر باستطاعتها الحصول على معظم حاجاتها من حقولها وحوانيتها بغير واسطة ، دون أن تدنس أصابعها بأعمال البيع والشراء^(٣١) . وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدى في بادىء الأمر سلعا ، وأكثر ما كانت تؤدى به الماشية والحبوب ، ثم جاءتهم النقود من ليديا ، وسلك دارا « الداريق » من الذهب والفضة وطبع عليه صورته^(*) ، وكانت نسبة قيمة الدريق الذهبى إلى الدريق الفضى كنسبة ١٣ إلى ١ . وكان هذا بداية وضع نسبة بين النقدين في الوقت الحاضر^(٣٢) .

(*) ليس لهذا اللفظ صله ما باسم دارا ، بل إن لفظ دريق مشتق من كلمة زريق الفارسية وهى القطعة من الذهب . وكانت قيمة الدريق الذهبى الاسمية ٥ ريالات أمريكية . وكانت ثلاثة آلاف دريق ذهبى تعدل مئاة فارسيا^(٣٢) .

الفصل الرابع

تجربة في نظام الحكم

الملك - الأشراف - الجيش - القانون - عقاب وحشى -
الخواضر - الولايات ، عمل - ليل في الإدارة

كانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية ؛ عماد ثروتها القوة لا الصناعة ؛ ومن أجل هذا كانت مزرعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعاً غير قائم على أساس طبيعي . وكان النظام الإمبراطوري يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة ولا يكاد يوجد له شبيه ؛ فقد كان على رأسه الملك أو خشيته أي المحارب (*) ، وهو لقب يدل على منشأ الملكية العسكرية ، وصيغتها العسكرية . وإذا كان تحت سلطانه ملوك يأتمرون بأمره فقد كان الفرس يلقبونه « ملك الملوك » ولم يعترض العالم القديم على هذه الدعوة ، غير أن اليونان لم يكونوا يسمونه بأكثر من باسيلوس أي الملك (٣٤) .

وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة ؛ فكانت كلمة تصدر من فمه تكفي لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب ، على الطريقة التي يتبعها أحد الحكام الطغاة في هذه الأيام . وكان في بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء (٣٥) . وقلم كان أحد من الأهلين ، ومن بينهم كبار الأعيان ، يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه ، كما كان

(*) ولا يزال هذا اللفظ باقياً حتى الآن في اسم ملك الفرس (الشاه) وكذلك لا يزال أصله باقياً في لفظ ستراب ، الذي يسمى به حكام الإقاليم في فارس وفي لفظ كساتريا أو الطبقة الحاكمة في الهند .

الرأى العام ضعيفاً عاجزاً معجزاً مصدره الحيلة والحذر ، فكان كل ما يفعله الذى يرى الملك يقتل ابنه البرىء أمام عينيه رمياً بالسهم أن يثنى على مهارة الملك العظيمة فى الرماية ؛ وكان المذنبون الذين تلهب الشياطين أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم (٣٦) . ولو أن ملوك الفرس كان لهم من النشاط ما لقورش ودارا الأول لكان لهم أن يملكوا ويحكموا ؛ ولكن الملوك المتأخرين كانوا يعهدون بأكثر شئون الحكم إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم ، أو إلى خصيان قصورهم أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم فى الحب أو لعب النرد أو الصيد (٣٧) . وكان القصر يروج بالخصيان يسرحون فيه ويمرحون ، يحرسون النساء ويعلمون الأمراء ، وقد استخدموا ما تخولهم هذه الأعمال من ميزة وسلطان فى حبك اللسائس وتدبير المؤامرات فى عهد كل ملك من الملوك (*) . وكان من حق الملك أن يختار خلفه من بين أبنائه ، ولكن وراثة العرش كانت تقرر فى العادة بالاغتياى والثورة . غير أن سلطة الملك كانت تتميدها من الوجهة العملية قوة الأعيان ، وكانوا هم الوساطة بين الشعب والعرش . وقد جرت العادة أن يكون لأسر الرجال الستة الذين تعرضوا مع دارا الأول لأخطار الثورة التى قامت على سمرديس الزائف ميزات استثنائية . وأن يستشاروا فى مهام الدولة الحيوية ، وكان كثير من الأشراف يحضرون إلى القصر ويؤلفون مجلساً يولى الملك مشورته فى أكثر الأحيان أعظم رعاية . وكان يربط معظم أفراد الطبقة الموسرة بالعرش أن الملك هو الذى يهبهم ضياعهم ؛ وكانوا فى مقابل هذا يمدونه بالرجال والعقاد إذا نفر إلى القتال . وكان لهؤلاء الأشراف فى إقطاعاتهم سلطان لا يكاد يحده شىء — فكانوا يجبون الضرائب ، ويستون القوانين ، وينفذون أحكام القضاء ويحتفظون بقواهم المسلحة .

(*) كان خمسمائة من العلمان الخصيان يرسلون من بابل فى كل عام ليكونوا « حفلة

على النساء » فى القصور الإيرانية .

وكان الجيش العماد الحقيقي لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية ، ذلك أن الإمبراطوريات إنما تدوم ما دامت محتفظة بقدرتها على التقتيل .

وكان يفرض على كل رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلما أعلنت الحرب^(١) . وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية فما كان من الملك إلا أن أمر بقتلهم هم الثلاثة ، وأرسل والد آخر أربعة من أبنائه إلى ميدان القتال ، ثم رجا خشيأشأى أن يسمح ببقاء أخيهم الخامس ليحرف على ضيقة الأسيرة فقطع جسم هذا الابن نصفين بأمر من الملك ، ووضع كل نصف على أحد جانبي الطريق الذي سيمر منه الجيش^(٢) . وكان الجنود يسرون إلى الحرب وسط دوى الموسيقى العسكرية وهتاف الجماهير التي تجاوزت سن التجنيد .

وكانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكي المؤلفة من ألفين من الفوارس وألفين من المشاة كلهم من الأشراف وكانت مهمتهم حراسة الملك .

وكان الجيش العامل كله بلا استثناء من الفرس والمليدين ، وكان يؤخذ من هذه القوات الدائمة معظم الحاميات القائمة في النقاط العسكرية الهامة في الإمبراطورية لترهيب من تجددته نفسه بالخروج عليها .

أما القوات الحربية الكاملة فكانت تتألف من فرق تجند من جميع الأمم الخاضعة لسلطان الفرس ، وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها ، وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة ، ولم يكن عوامها وأبنائها أقل اختلافا من أصولها : فهناك القسي والسهام ، والسيوف والخرايا ، والخناجر والرماح ، والمقاليب والمدى ، والروس والخوذ ، والمجنات المتخذة من الجلد ، والزرذ . وكانوا يركبون الجياد والفيلة ، ويصحبهم المنادون ، والكتبة ، والخصيان ، والعاشرات ، والسراي ، ومعهم العربات التي سلب كل جزء من عجلاتها بمنجل الصلب الكبيرة . وهذه الجحافل الجراراة التي بلغت عدتها في حملة

نخشايرشاى ٠٠٠ر ٨٠٠مقاتل لم تتألف منها قط-وحدة كاملة ، ومن أجل ذلك فإن . أول باهرة من بوادر الهزيمة كانت تحيلها إلى جموع من الغوغاء العديمة النظام . وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها لا غير ، وبمقدرتها على استيعاب قتلها ، فإذا ما لاقاها جيش حسن التنظيم يتكلم أفرادها لغة واحدة ويخضعون لنظام واحد حاقت بها الهزيمة ، وهذا هو السر فيما أصابها عند مرثون وبلائية .

ولم يكن يوجد في هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش . ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين ، كما أن التقاليد والسوابق لم تعيد نفعا إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكي سابق ، ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا تبديل لها ، وأن الوعد أو المرسوم الملكي لا ينقص بحال من الأحوال ، فقد كان اعتقادهم أن قرارات الملك وأحكامه إنما يوجهها إليه الإله أهورا — مزدا نفسه .

وعلى هذا الأساس كان قانون المملكة مستمداً من الإرادة الإلهية ، وكان كل خروج على هذا القانون يعد خروجاً على إرادة الإله فكان الملك صاحب السلطة القضائية العليا ، ولكنه كان في العادة يعهد هذا العمل إلى أحد العلماء الشيوخ من أتباعه . ثم تأتي من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة ، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة في أنحاء المملكة . وكان الكهنة هم الذين يضعون القوانين ، وظلوا زمناً طويلاً ينظرون في المظالم ، ثم كان ينظر فيها في العهود المتأخرة رجال بل ونساء من غير رجال الدين ونسائه . وكانت الكفالة تقبل من المتهم في جميع القضايا إلا ما كان منها خطير الشأن ، وكانوا يتبعون في المحاكمات لإجراءات منتظمة وكانت المحاكم تأمر أحياناً بمنح المكافآت كما كانت تأمر بتوقيع العقوبات ، وكانت وهي تنظر في الجرائم تقدم للمتهم من حسنات وما أدام من خدمات . ولكني يحولوا بين إطالة الإجراءات القضائية كانوا يحددون

زمتاً معيناً تنتهج فيه كل قضية ، ويعرضون على الخصوم أن يختاروا لهم حكماً يحاول فض ما بينهم من نزاع بالطرق السلمية .

ولما تكاثرت السوابق القانونية وتعقدت القوانين نشأت طائفة من الناس يسمون « المتحدثين في القانون » كانوا يعرضون على المتخاصمين أن يفسروا لهم القانون ويساعدوهم على السير في قضاياهم^(٤٣) وكان يطلب إلى المتقاضين أن يقسموا الأيمان ، وكانوا في بعض الأحيان يلجأون إلى الحكم الإلهي^(٤٤) (فيفرضون أمر المتهم إلى الآلة تقضى له أو عليه بوسائلها الخاصة ، بأن تنجيه من النار أو الغرق إن كان بريئاً وتقضى عليه بهما إن كان مذنباً)^(*) ، وكانوا يقاومون الرشوة يجعل عرضها أو قبولها جريمة كبرى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وكان مما عمه قبيز لضمان نزاهة القضاء أن أمر بأن يسلم جلد القاضي الظالم حياً وأن يستخدم هذا الجلد لتنجيد مقاعد القضاة ، ثم يعين ابن القاضي القاتل بدلا منه^(٤٥) .

وكانت الجرائم الصغرى يعاقب عليها بالجلد - من خمس جلدات إلى مائتي جلدة - بسوط من سياط الخيل ، وكان عقاب من يسم كلب راع مائتي جلدة ، ومن يقتل آخر خطأ كان عقابه تسعين جلدة^(٤٦) . وكانت الدولة تحصل على بعض المال اللازم للشئون القضائية من استبدال الغرامة بالجلد باحتساب كل ست روبيات للجلدة الواحدة^(٤٧) . أما الجرائم التي هي أشد من هذه فكان يعاقب عليها بالوسم بالنار أو بتشويه الأعضاء أو بتر بعض الأطراف ، أو سمل العين أو السجن أو الإعدام . وكان نص القانون يحرم على أي إنسان حتى الملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل عقاباً على جريمة صغرى ، ولكنه يحل القتل عقاباً على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو اللواط ، أو القتل ، أو الاستمناء ، أو حرق الموتى ، أو دفنهم سرّاً ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملوكي ، أو الاتصال

(*) هذا الشرح لنا وضعناه لإيضاح معنى عبارة « الحكم الإلهي » . (المترجم)

بإحدى سراريه ، أو الجلوس مصادفة على عرشه . أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالكة (٤٨) .

وكان المذنب في هذه الحالات يعدم إما بإرغامه على تجرع السم ، أو خزقه أو صلبه . أو شنته (وكان المجرم يشتق ورأسه علقاً إلى أسفل) ، أو رجمه بالحجارة أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس ، أو تهشم رأسه بين حجرين كبيرين ، أو خنقه في رماد ساخن ، أو بتوقيع ذلك العقاب الذي لا يصدقه العقل والمعروف باسم عقاب « الزورقين » (*) . وقد ورث الأتراك الذين أغاروا على البلاد فيما بعد بعض هذه العقوبات الهمجية ، وأورثوها العالم من بعدهم .

واستعان الملك هذه القوانين وهذا الجيش على حكم الولايات العشرين التابعة لدولته من عواصمه الكثيرة . وكانت العاصمة الأصلية بزارجاده ، ولكنه كان ينتقل منها أحياناً إلى برسبوليس ، وكانت إكباتانا (همدان) عاصمته الصيفية . أما معظم إقامته فكانت في مدينة السوس عاصمة عيلام القديمة التي يجتمع فيها

(*) يقول أفلوطرخس إن الحندي مثر دانس قال ساخراً وهو يحتسى الخمر أن ليس الفضل في قتل قوروش الأسير في واقعة كوناكسا للملك ، بل الفضل ففسله هو - فأمر أرت خشتير الثاني أن يعدم مثر دانس بطريقة القارين - على النمط الآتي : يؤخذ قاريان صنعا بحيث ينطبق أحدهما على الآخر تمام الانطباق . ثم يوضع المذنب الذي يراد تعذيبه على ظهره في أحدهما ، ويخطى بالقارب الثاني بحيث يترك رأسه ويدها وقدماه في خارج القارين ، أما سائر جسمه فيكون بينهما . ثم يقدم له الطعام فإذا أبى أن يطعمه أرغموه على ذلك بوضع عينيه . وبعد تناولها يستقرنه مزيجاً من اللبن والعسل يصبونه في فمه وحل وجهه بأكله . ويظل وجهه في حلم الأثناء موجهاً نحو الشمس على الدوام ، فلا يلبث أن تغطيه عن آخره أسراب الأباب الذي يحيط به . ولما كان وهو في القارب يفعل ما لا بد أن يفعله كل من يأكلون ويشربون ، فإن الحشرات والبهيدان تتكاثر في البراز والأفذار ، وتتسرب إلى أمعائه فيتآكل جسمه . فإذا اتفح لحم أن الرجل قد مات بلا ريب ، ورفع أهل القارين ، ظهر جسمه وقد تأكل لحمه ، وشوهدت هذه الحشرات الكمية تنهشه ، كأنها قد تولدت في أحشائه . وبهذه الطريقة قضى مثر دانس في آخر الأمر نحبه بعد عذاب دام سبعة عشر يوماً (٥٠) .

ملحوظة : ورد اسم Artaxerxes, Xerxes بصيغ مختلفة فسمى أولها خشيرشا وأخشيورس وسمى الثاني أردشير وأرت خشتير أو أرتخشتر وأرتخشيرشا . ويسميه المسعودي أرمخشست ، ويقول البيروني إن بهمن أردشير هو أخشيورس .

تاريخ الشرق القديم برمته ويرتبط أوله بأخرد ، وكان من مميزات هذه المدينة صعوبة الوصول إليها ، كما كان من عيوبها بعدها عن سائر عواصم الإمبراطورية ، أراد الإسكندر أن يستولى عليها كان لا بد له أن يختار لها طريقاً طوله ألفاً ميل ؛ ولكنها كان عليها أن ترسل جيوشها ألفاً وخمسة مئيل لتخضع الثورات التي تقوم في لبيديا أو مصر . ولما أنشئت الطرق العظيمة في آخر الأمر كانت كل فائدتها أن مهدت للسبل لليونان والرومان الذين غزوا بجيوشهم غربي آسية ، كما ساعدت غربي آسية على أن يغزو اليونان ورومة بعقائده الدينية .

وكانت الإمبراطورية مقسمة إلى ستريات أو ولايات لتسهل بذلك إدارتها وجباية خراجها . وكان في كل ولاية نائب « الملك الملوك » قد يكون أحياناً أميراً خاضعاً لسلطانها ، ولكنه في العادة « ستب » (حاكم) يعينه الملك ويبقى في منصبه ما دام حائزاً لرضا البلاط الملكي .

وأراد دارا أن يضمن خضوع الوالى لسلطانها فبعث إلى كل ولاية بقائد من قواد جيشه ليشرف على ما فيها من قوى مسلحة مستقلا عن الوالى ؛ ولكي يضمن خضوع هذا وذلك عين لكل ولاية أميناً من قبله مستقلا عن الوالى والقائد جميعاً ، مهمته أن يبلغ عن مسلكهما . وزيادة في الاحتياط كان للملك إدارة للمخابرات السرية تعرف باسم « عيون الملك وآذانه » يفاجئ موظفوها الولايات ليفحصوا عن سببالاتها وشئونها الإدارية المالية . وكان الوالى يعزل أحياناً بلا محاكمة ، وأحياناً يتخلص منه في هدوء ، وذلك بأن سممه خدمه بأمر الملك نفسه . وكان تحت إمرة الوالى والأمين حشد من الكتبة يصرفون من شئون الحكم ما ليس في حاجة ماسة إلى القوة . وكان هؤلاء يستمرون في عملهم وإن تغيرت الإدارات ، بل وإن تغير الملوك ، فالملك يموت ولكن البيروقراطية الحكومية باقية مغلدة . ولم يكن موظفو الولايات يتناولون روايتهم من الملك ، بل كانوا يتناولونها

من أهل الولاية التي يحكمونها . وكانت هذه الرواتب عالية تكفى لأن يكون لهؤلاء الولاة قصور وحريم ، وبساتين للصيد كان الفرس يسمونها بذلك الاسم التاريخي المأثور وهو الفردوس أى « الجنة » . وكان على كل وال فضلاً عن هذا أن يبعث إلى الملك فى كل عام قدراً معلوماً من المال والبضائع ضريبة مقررة على ولايته . فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ تالنتا (وزنة) ، وأشور وبابل ألفاً ، ومصر سبعمائة ، وولايات آسية الصغرى الأربع ترسل مجتمعة ١٧٦٠ الخ . فكان مجموع ما ترسله الولايات كلها ٥٦٠ ١٤ فى السنة ، قدرت قيمتها تقديراً يختلف من ١٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ريال أمريكى إلى ٢١٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ريال ؛ وفوق هذا فقد كان ينتظر من كل ولاية أن تمد الملك بحاجته من السلع والمون : فقد كان على مضر مثلاً أن تمده فى كل عام بما يحتاجه ١٢٠ ٠٠٠ رجل من الغلال ، وكان الميديون يمدونه بمائة ألف من الضأن ، والأرمن بثلاثين ألفاً من الأهمار ، والبابليون بنحسمائة من الغلمان الحصيان : وكانت هناك مصادر أخرى تستمد منها الخزانة المركزية الأموال الطائلة : وحسبنا دليلاً على مقدار هذه الثروة أن الإسكندر حين استولى على عاصمة الفرس وجد فى الخزائن الملكية ١٨٠ ٠٠٠ تالنت (وزنة) تبلغ قيمتها بحساب هذه الأيام ٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ريال أمريكى ، وذلك بعد مائة وخمسين عاماً من إسراف الفرس وتبديدهم ، وبعد مائة حرب وثورة باهظة النفقات ، وبعد أن حمل دارا الثالث معه فى فراره ٨٠٠٠ تالنت (٥١) .

ومع هذا كله فقد كانت الإمبراطورية الفارسية على الرغم من نفقاتها الإدارية الطائلة أن تجمع تجربة فى نظام الحكم الإمبراطورى شهدتها بلاد البحر المتوسط قبل الإمبراطورية الرومانية التى قدر لها أن ترث قسماً كبيراً من النظم السياسية والإدارية لتلك الإمبراطورية القديمة . وإذا كانت هذه الإمبراطورية قد شهدت ما كان عليه ملوكها المتأخرون من قسوة وبذخ ، وما كان فى بعض شرائعها من همجية ، وما كان ينوه به كاهل الأهلى من ضرائب فادحة ، فقد

كان يقابل هذه المساوى* ما كان يسود البلاد بفضل حكومتها من نظام وأمن أثرت في ظله الولايات على الرغم من هذه الأكلاف الباهظة ، وما كانت تستمتع به تلك الولايات من حرية لم تستمتع بها الولايات الخاضعة لأكثر الإمبراطوريات رقياً واستنارة . ذلك أن كل إقليم كان يحتفظ بلغته وشرائعه ، وعاداته ، وأخلاقه ، ودينه ، وعملته ، كما كان يحتفظ في بعض الأحيان بالأسرة الحاكمة من أهله . وكانت بغض الأمم التي تؤدي الجزية كبابل وفينيقية وفلسطين راضية كل الرضا بالوضع الذي وضعت فيه ، ظناً منها أنه لو وكل أمرها إلى قوادها وجباتها من أهلها لكانوا أكثر من حكامها الفرس قسوة وأشد بطشاً . وقد بلغت الإمبراطورية الفارسية في عهد دارا الأول من حيث النظام السياسي مبلغاً لم يصل إليه غيرها من الإمبراطوريات إذا استثنينا الإمبراطورية الرومانية في عهد تراجان ، وهديان ، والأنطونين .

الفصل الخامس

زردشت

رسالة النبي - الديانة الفارسية قبل زردشت - كتاب
الفرس المقدس - أهورا مزدا - الأرواح الطيبة
والحيثة - كفاحها للاستيلاء على العالم

تروى الأقاصيص الفارسية أن نبياً عظيماً ظهر في إيرانا - فيجو ،
« موطن الآريين » القديم قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان شعبه
يسميه زرئسترا . ولكن اليونان الذين لم يكونوا يطيقون هجاء « البرابرة »
أسموه زروسترز . وقد حملت به أمه حملاً إلهياً قدسياً : ذلك أن الملك الذي
كان يرعاه تسرب إلى نبات الهوَّما ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن
حين كان يقرب القرابين المقدسة . وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من
أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب سامقة في الشرف ،
وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان الملك والشعاع ، فنشأ زرئسترا
من هذا المزيج^(٥٣) ، فلما ولد فقهه عالياً من أول يوم ولد فيه ، ففرت
من حوله الأرواح الخبيثة التي تجتمع حول كل كائن ، وهي مضطربة
وجلة^(٥٤) . وأحب الوليد الحكمة والصلاج فاعتزل الناس وآثر أن يعيش
في بيرة جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن
يغريه ولكنه أخفق . وشق صدره بطعنة سيف وملثب أحشاؤه بالرصاص
المتنهر ، فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكاً بليمانه بأهورا - مزدا
(رب النور) الإله الأعظم : وتجلى له أهورا - مزدا ووضع في يديه
الأبستاق أى كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه .
وظل العالم كله زمناً طويلاً يسخر منه ويضطهده ، حتى سمعه أخيراً أمير إيراني

عظيم يدعى فشتسبا أو هستسبس ، فأعجبه ما سمع ، ووعدته أن ينشر الدين الجديد بين شعبه ، وهكذا ولد الدين الزردشتى . وعمر زرتسترا نفسه طويلاً ، حتى أحرقه وميض برق وصعد إلى السماء^(٥٥) .

ولسنا نعرف ما فى هذه القصة من حق وما فيها من باطل . ولعل يوشع كيوشع بنى إسرائيل هو الذى كشف هذا النبى . ولكن اليونان صدقوا أن زرتسترا هذا كان شخصية تاريخية حقة وشرفوه بأن حددوا له تاريخاً يسبق تاريخهم بخمسة آلاف وخمسمائة عام^(٥٦) . ويقرب بروسس البابلى هذا التاريخ إلى عام ٢٠٠٠ ق . م^(٥٧) . أما من يؤمن بوجوده من المؤرخين المحدثين فيحددون تاريخه فيما بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد^(٥٨) . ولما ظهر بين أسلاف الميديين والفرس ، وجد بنى وطنه بعبدون الحيوانات كما يعبدون أسلافهم^(٥٩) ، ويعبدون الأرض والشمس ، وأن لهم ديناً يتفق فى كثير من عناصره وآلهته مع دين الهندوس فى العهد الثيدى .

وكان أكبر الآلهة فى الدين السابق للدين الزردشتى مئرا إله الشمس ، وأنيتا إلهة الخصب والأرض ، وهوما الثور المقدس الذى مات ثم بُعث حياً ، ووهب الجنس البشرى دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود . وكان الإيرانيون الأولون يعبدونه بشرب عصير الهوما المسكر وهى عشب ينمو على سفوح جبالهم^(٦٠) وهال زردشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية ، وهذه الطقوس الخمرية ، فثار على « المجوس » أى الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة ويقربون لها القرابين ، وأعلن فى شجاعة لا تقل عن شجاعة معاصريه عاموس وإشعيا أن ليس فى العالم إلا إله واحد هو فى بلاده أهورا — مزدا إله النور والسماء ، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته . ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيه ديناً

(*) وإذا ثبت أن فشتسبا الذى نشر هذا الدين كان والد دارا الأول كان آخر هذه التواريخ فى ظننا أرجحها .

ملهماً لشعبه ، ودعامة لحكومته ، فشرع منذ تولي الملك يشرح بأشعواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس ، وجعل الزردشتية دين الدولة .

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التي جمع فيها أصحاب النبي ومريدوه أقواله وأدعيته . وسمى أتباعه المتأخرون هذه الكتب الأبستا (الأبستاق) ، وهي المعروفة عند العالم الغربي باسم الزند - أبستا ، بناء على خطأ وقع فيه أحد العلماء المحدثين (*) . ومما يروى القارئ غير الفارسي في هذه الأيام أن يعرف أن المجلدات الضخمة الباقية - وإن كانت أقل كثيراً من كتاب التوراة - ليست إلا جزءاً صغيراً مما أوحاه إلى زرتشترا إلهه (**).

(*) لقد أضاع أنكتيل - دوپرون (حوالى ١٧٧١ ب . م) زند إلى هذا اللفظ . وليست هذه إلا كاسعة كان الفرس يصفونها قبله للدلالة على أن ما يليها ليس إلا ترجمة أو تفسيراً للأبستاق . أما لفظ أبستاق نفسه فأصله غير معروف على وجه التحقيق ، والراجع أنه مشتق من فيد وهو الأصل الآرى الذى اشتق منه « فيدا » ومعناه المعرفة (١٣) .

(**) وتروى الرواية الفارسية قصة أبستاق أخرى أكبر من هذه في واحد وعشرين كتاباً يسمى واحداً « النسل » وتقول إن هذه الكتب الأخيرة نفسها ليست إلا جزءاً صغيراً من الكتاب المقدس الأصل ، وإن كتاباً من هذه الكتب وهو الونداد قد بقى سليماً . أما الكتب الأخرى فلم تبق منها إلا أجزاء مبعثرة في مؤلفات متأخرة كالذكرى والبنديش . ويرى مؤرخو العرب أن النص الكامل للكتاب الفارسي المقدس كان يشتمل على ١٢٠٠٠ جلد من جلود البقر . وتقول إحدى الروايات الدينية إن الأمير فشتيا كتب من هذا الكتاب نسختين ، ألهمتهما لإحدى النار حين أحرق الإسكندر القصر الملكي في برسوبوليس ، أما الأخرى فقد أخذها اليونان المنتصرون معهم إلى بلادهم ، فلما ترجموها كانت هى المصدر الذى أخذوا عنه كل معلوماتهم العلمية (كما يقول الثقات من الفرس) . فلما كان القرن الثالث بعد الميلاد أمر فلجيس الخامس أحد ملوك البارثيين من الأسرة الأرساسية أن يجمع كل ما بقى من أجزاء الكتاب المتفرقة المكتوبة منه والباقية في صدور المؤمنين . فأتخذ الكتاب من ذلك الوقت صورته الباقية إلى هذا اليوم ، وكان قانون الزردشتية في القرن الرابع الميلادى ، وأساس الدين الرسمى للدولة الفارسية . ثم عشت الأيدي مرة أخرى بهذا الكتاب لما فتح المسلمون بلاد الفرس في القرن السابع بعد الميلاد (١٣) .

ويمكن تقسم القطع الصغيرة الباقية من هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء :

١ - الزنا : وتتألف من خمسة وأربعين فصلاً من الطقوس الدينية التى كان الكهنة الزردشتيون يترنمون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلاً (من الفصل الثامن والعشرين -

وهذا الجزء الباقي يبدو للأجنبي الضيق الفكر كأنه خليط مهوش من الأدعية والأناشيد ، والأفاصيص ، والوصفات ، والطقوس الدينية ، والقواعد الخلقية ، تجلوها في بعض المواضع لغة ذات روعة ، وإخلاص حار ، وسمو خلقي ، أو أغان تنم عن تقى وصلاح . وهى تشبه العهد القديم من الكتاب المقدس فيما تثيره في النفس من نشوة قوية . وفي وسع الدارس أن يجد في بعض أجزائها ما يجده في الرج — فدا من آلهة وآراء ، ومن كلمات وتراكيب في بعض الأحيان . وتبلغ هذه من الكثرة حداً جعل بعض علماء الهنود يعتقدون أن الأبهتاق ليست وحياً من عند أهورا — مزدا ، بل هى مأخوذة من كتب الفدا . ويعثر الإنسان في مواضع أخرى منها على فقرات من أصل بابلي قديم ، كالفقرات التى تصف خلق الدنيا على ست مراحل (السموات ، فالما ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان) ، وتسلسل الناس جميعاً من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على ظهر الأرض (٦٦) ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزاه أن يسلط عليهم طوفاناً يهلكهم جميعاً إلا قلة صغيرة منهم (٦٧) . لكن ما فيها من عناصر إيرانية خالصة يشتمل على كثير من الشواهد التى تكفى لصنع الكتاب كله بالصبغة الفارسية العامة . فالفكرة السائدة فيه هى ثنائية العالم الذى يقوم عن مسرحه صراع يدوم اثني عشر ألف عام بين الإله أهورا — مزدا والشیطان أهрман ؛ وأن أفضل الفضائل

— إلى الرابع والخمسين) وتسمى الجتها ، وتشتمل على أحاديث النبى وما أوحى إليه مصوغة في عبارات موزونة كما يظهر .

٢ — الوسپرد : ويشتمل على أربعة وعشرين فصلاً أخرى من الطقوس الدينية .

٣ — الوندیداد : ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً أو فرجودا ، وهى تشرح فقه الزردشتيين وقوانينهم الأخلاقية ، وهى التى تتألف منها الآن شريعة الهارسين الكهنوتية (فى الهند) .

٤ — اليشت : أى التسميحات الغذائية ، وهى واحد وعشرون نشيداً في الثناء على الملائكة تنخلها أفاصيص تاريخية ونبوة عن آخر العالم .

٥ — وآخرها الحرد أبهتاق : أى الأبهتاق الصغيرة وهى صلوات تتلى في مناسبات في الحياة مختلفة .

هما الطهر والأمانة وهما يؤديان إلى الحياة الخالدة ؛ وأن الموتى يجب ألا يدفنوا أو يحرقوا كما كان يفعل اليونان أو الهنود القديرون ، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب أو الطيور الجارحة (٦٨) .

وكان إله زردشت في بادئ الأمر هو : « دائرة السماوات كلها » نفسها ، فأهورا مزدا « يكتسى بقبة السماوات الصلبة يتخذها لباساً له ؛ ... وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى ، رعيانه هما الشمس والقمر » . ولما أن انتقل الدين في الأيام الأخيرة من الأنبياء إلى الساسة صور الإله الأعظم في صورة ملك ضخم ذي جلال مهيب . وكان بوصفه خالق العالم وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار ، كانت تصور ألا كأنها أشكال وقوى من أشكال الطبيعة وقواها — كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والرياح ، والمطر . ولكن أكبر فخر لزردشت أن الصورة التي تصورها لإلهه هي أنه يسمو على كل شيء ، وأنه عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالة جاء في سفر أيوب :

هذا ما أسألك عنه فاصدقني الخير يا أهورا مزدا : منذا الذي رسم مسار الشمس والنجوم ؟ — ومنذا الذي يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟ . . . ومنذا الذي رفع الأرض والسما من تحتها وأمسك السماء أن تقع ؟ — منذا الذي حفظ المياه والنباتات — ومنذا الذي سخر للرياح والسحب سرعتها — ومنذا الذي أخرج العقل الخير يا أهورا مزدا ؟ (٦٩) .

وليس المقصود « بالعقل الخير » عقلاً إنسانياً ما ، بل المقصود به حكمة إلهية لا تكاد تفرق في شيء عن « كلمة الله » (*) (يستخدمها أهورا مزدا واسطة لحاق الكائنات . وكان لأهورا مزدا كما وصفه زردشت سبعة مظاهر أو سبع صفات

(*) يعتقد دارمستر أن فكرة « العقل الطيب » إن هي إلا تطبيق — شبيه بتطبيق الأوربيين — لفكرة الكلمة الإلهية عند فيلون . وهو لهذا يرجع تاريخنا إلى القرن الأول قبل الميلاد (٧٠) .

هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود . ولما كان أتباعه قد اعتادوا أن يعبدوا أرباباً متعددة فقد فسروا هذه الصفات على أنها أشخاص (سمورهم أميشا اسبينا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا العالم ويسيطرون عليه بإشراف أهورا مزدا وإرشاده . وبذلك حدث في هذا الدين ما حدث في المسيحية فانقلبت الوحداية الرائعة التى جاء بها مؤسسها شركا لدى عامة الشعب . وكان لديهم فضلا عن هذه الأرواح المقدسة كائنات أخرى هى الملائكة الحراس . وقد اختص كل رجل وكل امرأة وكل طفل - حسب أصول اللاهوت الفارسى - بواحد منها ، وكان الفارسى التقي يعتقد (ولعله كان في هذا الاعتقاد متأثراً بعقيدة البابليين في الشياطين) أنه يوجد إلى جانب هؤلاء الملائكة والقديسين الخالدين الذين يعينون الناس على التحلى بالفضيلة سبعة شياطين (ديو) أو أرواح خبيثة تحوم في الهواء ، وتغوى الناس على الدوام بارتكاب الجرائم والخطايا ، وتشتبك أبد الدهر في حرب مع أهورا - مزدا ومع كل مظهر من مظاهر الحق والصلاح . وكان كبير هذه الزمرة من الشياطين أنكرا - مينبوما أو أهرمان أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى . وهو الطراز الأسبق للشيطان الذى لا يتقطع عن فعل الشر ، والذى يلوح أن اليهود أخذوا فكرته عن الفرس ثم أخذتها عنهم المسيحية . مثال ذلك أن أهرمان هو الذى خلق الأفاعى ، والحشرات المؤذية ، والجراد ، والنمل ، والشتاء ، والظلمة ، والجريمة ، والخطيئة ، واللاواط ، والحیض ، وغيرها من مصائب الحياة . وهذه الآثام التى أوجدها الشيطان هى التى خربت البعثة حيث وضع أهورا مزدا الجدين الأعلىين للجنس البشرى (٧١) .

ويبدو أن زردشت كان بعد هذه الأرواح الخبيثة آلهة زائفة ، وأنها تجسيد خرافى من فعل العامة للقوى المعنوية الجردة التى تعترض رقى الإنسان ، ولكن أتباعه رأوا أنه أيسر لهم أن يتصوروها كائنات حية فجسدوها وجعلوها

لها صورا ما زالوا يضاعفونها حتى بلغت جملة الشياطين في الديانة الفارسية عدة ملايين (٧٢) .

ولقد كانت هذه العقائد وقت أن جاء بها زردشت قريبة كل القرب من عقيدة التوحيد ، بل إنها حتى بعد أن أفحموا فيها أهرمان والأرواح ظل فيها من التوحيد بقدر ما في المسيحية بإبليسها وشياطينها وملائكتها . والحق أن الإنسان ليسمع في الديانة المسيحية الأولى أصداء كثيرة للثنائية الفارسية ، لا تقل عما يسمع فيها من أصداء التزمت العبراني ، أو الفلاسفة اليونانية . ولعل الفكرة الزردشتية عن الإله كانت ترضى عقلا يهتم بدقائق الأشياء وتفصيلها كعقل ماثيو آرنلد . ذلك أن أهورا مزدا ، كان جماع قوى العالم التي تعمل للحق ؛ والأخلاق الفاضلة لا تكون إلا بالتعاون مع هذه القوى . هذا إلى أن في فكرة الثنائية بعض ما يبرر ما نراه في العالم من تناقض والتواء والانحراف عن طريق الحق لم تفسره قط فكرة التوحيد . وإذا كان رجال الدين الزردشتيون يحتاجون أحيانا ، كما يحتاج متصوفة الهنود والفلاسفة المدرسيون ، بأن الشر لا وجود له في حقيقة الأمر (٧٣) ، فإنهم في الواقع يعرضون على الناس ديناً يصلح كل الصلاحية لأن يمثل لأوساط الناس ما يصادفهم في الحياة من مشاكل خلقية تمثيلاً يقربها إلى عقولهم وتنطبع فيها انطباع الرواية المسرحية ، وقد وعدوا أتباعهم بأن آخر فصل من هذه المسرحية سيكون خاتمة سعيدة — للرجل العادل . ذلك أن قوى الشر ستغلب آخر الأمر ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمر العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف عام يسيطر عليه فيها على التوالي أهورا مزدا وأهرمان . ويومئذ ينتصر الحق في كل مكان ، وينعدم الشر فلا يكون له من بعد وجود . ثم ينضم الصالحون إلى أهورا مزدا في الجنة ويسقط الخبيثون في هوة من الظلمة في خارجها يطعمون فيها أبد الدهر سُماً زعافاً (٧٤) .

الفصل السادس

الفلسفة الأخلاقية في الديانة الزردشتية

الإنسان ميدان قتال - النار المحلدة - الجحيم والمطهر والخنة -
عبادة مئرا - المحوس - البارسيين

لما صورّ الزردشتيون العالم في صورة ميدان يصطارع فيه الخير والشر ، أيقظوا بعملهم هذا في خيال الشعب حافزاً قوياً مبعثه قوة خارجة عن القوى البشرية ، يحض على الأخلاق الفاضلة ويصونها . وكانوا يمثلون النفس البشرية ، كما يمثلون الكون ، في صورة ميدان كفاح بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة ، وبذلك كان كل إنسان مقاتلاً ، أراد ذلك أو لم يردده ، في جيش الله أو في جيش الشيطان ، وكان كل عمل يقوم به أو يغفله يرجح قضية أهورا مزدا أو قضية أهرمان . وتلك فلسفة فيها من المبادئ الأخلاقية ما يعجب به المرء أكثر مما يعجب بما فيها من مبادئ الدين - لذا سلمنا بأن الناس في حاجة إلى قوة غير القوى الطبيعية تهديهم إلى طريق الخلق الكريم . فهى فلسفة تضي على الحياة الإنسانية من المعنى ومن الكرامة ما لا تضيفه عليه النظرة العالمية القائلة بأن الإنسان ليس إلا حشرة دنيئة لاحول لها ولا طول (كما كان يقول أهل العصور الوسطى) ، أو آلة تتحرك بنفسها كما يقول أهل هذه الأيام . ذلك أن بنى الإنسان حسب تعاليم زردشت ليسوا مجرد يبادق تتحرك بغير إرادتها في هذه الحرب العالمية ؛ بل إن لهم إرادة حرة ، لأن أهورا مزدا ، كان يريد لهم شخصيات تتمتع بكامل حقوقها ، وفي مقدورهم أن يختاروا طريق النور أو طريق الكذب . فقد كان أهرمان هو الكذبة المحلدة ، وكان كل كذاب خادماً له .

ونشأ من هذه الفكرة قانون أخلاقي مفصل رغم بساطته ، يدور كله حول القاعدة الذهبية وهى أن « الطبيعة لا تكون خيرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً له هو نفسه(*) » (٧٥) . وتقول الأبيقور إن على الإنسان واجبات ثلاثة : « أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل عالماً » (٧٦) . وأعظم الفضائل عنده هى التقوى ، ويأتى بعدها مباشرة الشرف والأمانة عملاً وقولاً . وحرم أخذ الربا من الفرس ، ولكنه جعل الوفاء بالدين واجباً يكاد يكون مقدساً (٧٧) . ورأس الخطايا كلها (فى الشريعة الأبيقورية كما هى فى الشريعة الموسوية) هو الكفر . ولنا أن نحكم من العقوبات الصارمة التى كانت توقع على المملحين بأن الإلحاد كان له وجود بين الفرس ، وكان المرتدون عن الدين يعاقبون بالإعدام من غير توان (٧٨) . ولكن ما أمر به السيد من إكرام ورحمة لم يكن يطبق من الوجهة العامة على الكفار . أى على الأجانب ، لأن هؤلاء كانوا صفاً منخفاً من الناس أضلهم أهورا - مزدا فلم يجبوا إلا بلادهم وحدها لكيلا يغزوا بلاد الفرس . ويقول هيرودوت إن الفرس : « يرون أنهم خير الناس جميعاً من جميع الوجوه » . وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال بقدر ما يقرب موقعها الجغرافى من بلاد فارس ، وأن « شر الناس أبعدهم عنها » (٧٩) . إن لهذه الألفاظ نغمة حديثة وإنها لتطبق على جميع الأمم فى هذه الأيام .

ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فإن أول ما يجب على الإنسان فى هذه الحياة أن يعبد الله بالطهور والتضحية والصلاة . ولم تلك فارس الزردشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة على قمم الجبال ، وفى القصور ، أو فى قلب المدن ، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لأهورا - مزدا

(*) لكن جاء فى الآية السادسة من الفصل السادس والأربعين من كتاب يزنا . « غيبث من يسدى الخير للغيبث » إن الكتب الموحى بها قلما تتفق نصوصها .

أو لغيره من صغار الآلهة . وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ويسمونها أنار ، ويعتقدون أنها ابن إله النور . وكانت كل أسرة تجتمع حول مقدها ، تعمل على أن تظل نار بيتها متقدة لا تنطفئ أبداً ، لأن ذلك من الطقوس المقررة في الدين . وكانت الشمس نار السموات الخالدة تعبد بوصفها أقصى ما يتمثل فيها أهورا — مزدا أو ميثرا كما عبدها إخناتون في مصر . وقد جاء في كتابهم المقدس : « يجب أن تعظم شمس الصباح إلى وقت الظهيرة ، وشمس الظهيرة يجب أن تعظم إلى العصر ، وشمس العصر يجب أن تعظم حتى المساء . . . والذين لا يعظمون الشمس لا تحسب لهم أعمالهم الطيبة في ذلك اليوم (٨٠) » ، وكانوا يقربون إلى الشمس ، وإلى النار ، وإلى أهورا — مزدا القرابين من الأزهار ، والخبز ، والفاكهة ، والعطور ، والثيران ، والضأن ، والجمال ، والخيول ، والحمير ، وذكرور الوعول . وكانوا في أقدم الأزمنة يقربون إليها الضحايا البشرية شأن غيرهم من الأمم (٨١) . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتها ، أما ما يؤكل منها فقد كان يبقى للكهنة والمتعبدين ، لأن الآلهة — على حد قول الكهنة — ليست في حاجة إلى أكثر من روح الضحية (٨٢) ، وظلت العادة الآرية القديمة عادة تقديم عصير الهوما المسكر قرباناً إلى الآلهة باقية بعد انتشار الدين الزردشتي بزمان طويل ، وإن كان زردشت نفسه جهر بسخطه على هذه العادة ، وإن لم يرد لها ذكر في الأوستا . . وكان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ويوزعون ما بقي منه على المؤمنين المجتمعين للصلاة (٨٣) . فإذا حال الفقر بين الناس وبين تقديم هذه القرابين الشبيهة ، استعاضوا عنها بالزلق إلى الآلهة بالأدعية والصلوات ، وكان أهورا مزدا كما كان يهوه يحب الثناء عليه ويتقبله ، ومن ثم فقد وضع للمتقين من عباده طائفة رائعة من صفاته أضحت من الأوراد المحببة عند الفرس (٨٤) .

فإذا ما وهب الفارسي حياة التقى والصدق كان في وسعه أن يلقي الموت في

غير خوف ؛ ومهما يكن من الأغراض التي يهدف إليها الدين فلإن هذا
المطلب كان أحد مطالبه الخفية . وكان من العقائد المقررة أن أستواد إليه
الموت يعثر على كل إنسان أيا كان مقره ؛ فهو الباحث الواثق ، الذي
لا يستطيع الإفلات منه آدمي ولو كان من أولئك الذين يغوصون في باطن
الأرض ، كما فعل أفرسياب التركي الذي شاد له تحت أطباق الثرى قصر آ
من الحديد يبلغ ارتفاعه قدر قامة الإنسان ألف مرة ، وأقام فيه مائة من
الأممعة ، تدور في سمائه النجوم والقمر ، والشمس تغمره بأشعة النهار .
وكان في هذا القصر يفعل كل ما يحلو له ويحبها أسعد حياة . ولكنه لم يستطع
رغم قوته وسحره أن يفر من أستواد . . . كذلك لم يستطع النجاة منه من
حفر الأرض الواسعة المستديرة التي تمتد أطرافها إلى أبعد الحدود كما فعل
دهاق إذ طاف بالأرض شرقاً وغرباً يبحث عن الخلود فلم يعثر عليه .
ولم يفلده بأسه وقوته في النجاة من أستواد . . . ذلك أن أستواد المختال يأتي
متخفياً إلى كل إنسان ، لا يعظم شخصاً ، ولا يتقبل الثناء ولا الارتشاء ،
بل يهلك الناس بلا رحمة (٨٥) .

ولما كان من طبيعة الأديان أن ترهب وتندر ، كما تأسو وتبشر ، فلإن
الفارسي رغم هذا كله لم يكن ينظر إلى الموت في غير رهبة إلا إذا كان
جندياً أميناً يدافع عن قضية أهورا - مزدا . فقد كان من وراء الموت ،
وهو أشد الخفايا كلها رهبة ، جحيم ، وأعراف ، وجنة . وكان لا بد
لأرواح الموتى بأجمعها أن تتجاز قنطرة تصفى فيها ، تتجازها الأرواح الطيبة
فتصل في جانبها الثاني إلى « مسكن الفناء » حيث تلقاها وترحب بها « فتاة
عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد مليء » ؛ وهناك تعيش مع أهورا -
مزدا سعيدة منعمة إلى أبد الدهر .

أما الروح الخبيثة فلا تستطيع أن تتجاز القنطرة فتتردى في درك من الجحيم
يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب (٨٦) ، ولم يكن هذا الجحيم مجرد دارسقى
تذهب إليها كل الأرواح طيبة كانت أو خبيثة كما تصفها الأديان الأقدم عهداً

من الدين الزردشتى ، بل كانت هاوية مظلمة مرعبة تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الآبدين (٨٧) . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح على سيئاته قاسى عذاباً مؤقتاً يطهره من الذنوب ، وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير ، لم يلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام يرفع بعدها إلى السماء (٨٨) .

ويحدثنا الزردشتيون الصالحون بأن العالم يقترب من نهايته المحنومة ؛ ذلك بأن مولد زردشت كان بداية الحتمية العالمية التى طولها ثلاثة آلاف سنة ، وبعد أن يخرج من صلبه فى فترات مختلفة ثلاثة من النبيين ينشرون تعاليمه فى أطراف العالم ، يحلّ يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورا - مزدا ، ويملك أهрман هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده . ويؤمئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة جديدة فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام (٨٩) . فيُبعث الموتى ، وتعود الحياة إلى الأجسام ، وتتردد فيها الأنفاس . . . ويخلو العالم المادى كله الى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال (٩٠) .

وهنا أيضاً نستمع ، كما نستمع فى كتاب الموتى المصرى ، إلى التهديد بيوم الحساب الرهيب ، وهو تهديد يلوح أنه انتقل من فلسفة الحشر الفارسية إلى الفلسفة اليهودية أيام أن كانت للفرس السيادة على فلسطين - ألا ما أروعه من وصف خليق بأن يرهب الأطفال فيصدعوا بأوامر آبائهم !

ولما كان من أغراض الدين أن ييسر ذلك الواجب الصعب الضرورى ، واجب تذليل الصغار على يد الكبار ، فإن من حق الكهنة الزردشتيين أن نقرّ لهم بما كانوا عليه من مهارة فى وضع قواعد الدين . وإذا ما نظرنا إلى هذا الدين فى مجموعه ألفياه ديناً رائعاً أقلّ وحشية ونزعة حربية ، وأقلّ وثنية وتخريفاً من الأديان المعاصرة له ، وكان خليقاً بالألأ يقضى عليه هذا القضاء العاجل . وأتى على هذا الدين حين من الدهر فى عهد دارا الأول كان فيه المظهر الروحى لأمة فى أوج عزها . لكن نبى الإنسان يولعون بالشعر أكثر من ولعهم

بالخلق ، والناس يهلكون إذا حلت عقائدهم من بعض الأساطير ، ومن أجل هذا ظلت عبادة ميثرا وأنيثا - إله الشمس وإلهة الإنبات والخصب والتوالد والآنوثة - ظلت هذه العبادة قائمة إلى جانب دين أهورا - مزدا الرسمي تجدد لها أتباعاً مخلصين ، وعاد اسمها إلى الظهور من جديد في النقوش الملكية أيام أوت خشتر الثاني ، وأخذ اسم ميثرا بعدئذ يعظم ويقوى ، كما أخذ أهورا - مؤدا يفسح محل . وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت عبادة ميثرا الإله الشاب ذى الوجه الوسيم - الذى تعلو وجهه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس - فى جميع أنحاء الدولة الرومانية ، وكان انتشارها هذا من أسباب الاحتفال بعيد الميلاد عند المسيحيين (*) . ولو أن زردشت كان من المخلفين لتوارى خجلاً حين يرى تماثيل أنيثا أفردت فى الفرس ، تقام فى كثير من مدن الإمبراطورية الفارسية بعد بضعة قرون من وفاته (٩١) . وما من شك فى أنه كان يسوءه أن يجد صحفاً كثيرة من صحف وحيه قد خصها المجوس بطلاسم لشفاء المرضى والتنبؤ بالغيب والسحر (٩٢) . ذلك أن « الرجال العقلاء » أى كهنة المجوس قد غلبوا زردشت على أمره ، كما يغلب الكهنة فى آخر الأمر كل عاصياً كان أو زنديقاً ، وذلك بأن يضموه إلى دينهم أو يستوعبوه فيه ؛ فسلكوه أولاً فى عداد المجوس ، ثم لم يلبثوا أن نسوا ذكره (٩٣) . وما لبث هؤلاء المجوس بزهدهم ونقشهم ، واقتصارهم على زوجة واحدة ، ومراعاتهم لمثلين من الطفوس المقدسة ، ومن تطهرهم بمئات الأساليب اتباعاً لأوامر الدين وطقوسه ، وبامتناعهم عن أكل اللحوم ، وبملبسهم البسيط الذى لا تكلف ولا تظاهر فيه ، ما لبث هؤلاء أن اشتهروا بالحكمة بين الشعوب الأجنبية ،

(*) كان عيد الميلاد فى بداية الأمر عيداً شمسياً يحتفل به وقت الانقلاب الشتوى (نحو ٢٢ ديسمبر) ببداية طول النهار وبانتصار الشمس على أعدائها ، وأصبح فيما بعد عيداً لميثرا ، ثم صار من الأيام المقدسة عند المسيحيين .

ومنها اليونان أنفسهم ، كما أصبح لهم على مواطنيهم سلطان لا تكاد تعرف له حدود . لقد أصبح ملوك الفرس أنفسهم من تلاميذهم ، لا يقدمون على أمر ذي بال إلا بعد استشارتهم فيه ، فقد كانت الطبقات العليا منهم حكماء ، والسفلى متنبئين وسحرة ، ينظرون في النجوم ويفسرون الأحلام^(١٤) ، وهل ثمة شاهد على علو كعبهم أكبر من أن اللفظ الإنجليزي المقابل لكلمة « السحر Magic » مشتق من اسمهم . وأخذت العناصر الزردشتية في الديانة الفارسية تتضاءل عاماً بعد عام ، نعم إنها انتعشت وقتاً ما أيام الأسرة الساسانية (٢٢٦ — ٦٥١ م) ، ولكن الفتح الإسلامي وغزو التتار قضيا عليها القضاء الأخير . ولا يوجد أثر للديانة الزردشتية في هذه الأيام إلا بين عشائر قليلة العدد في ولاية فارس ، وبين الفارسيين من الهنود الذين يبلغ عددهم تسعين ألفاً .

ولا تزال هذه الجماعة حفيظة على كتبها المقدسة ، تخلص لها وتدرسها ، وتعبد النار والتراب ، والأرض والماء ، وتقديسها ، وتعرض موتاهها في « أبراج الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدنس العناصر المقدسة بدفنها في الأرض أو حرقها في الهواء . وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، وهم شاهد حي على فضل الدين الزردشتي وما له من أثر عظيم في تهذيب بني الإنسان وتمدينهم .

الفصل السابع

آداب الفرس وأخلاقهم

المنف والشرف — قانون النظافة — خطايا الجسد —
العذارى والأعزاب — الزواج — النساء — الأطفال —
آراء الفرس في التربية والتعليم

إن الذى يدهشنا بحق هو ما بقى لدى الميدين والفرس من وحشية رغم دينهم هذا . انظر إلى ما كتبه دارا الأول أعظم ملوكهم فى نقش بهستون : « وقبض على فراقاتش وجيء به إلى » . فجذعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وقطعت لسانه ، وفقت عينيه ، وأبقيته فى بلاطى مقيداً بالأغلال يراه كل الناس . ثم صلبته بعدئذ فى إكباتانا . . . وكان أهورا — مزدا أكبر معين لى ، فقد بطش جيشى برعاية أهورا — مزدا بالجيش الثائر . وقبضوا على سترنكخارا وجاءوا به إلى » ، فجذعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وفقت عينيه . وبقي مقيداً بالأغلال فى بلاطى يراه الناس جميعاً ، ثم صلبته^(٩٥) . وإن فى حوادث الإعدام التى يقصها أفلوطرخس فى سيرة أرت خشتر لصورة مروعة لما كانت عليه أخلاق ملوك الفرس فى العهد الأخير . لقد كان المظنة يقضى عليهم بلاشفقة ولارحمة : فكانوا يصلبون هم وزعمائهم ، ثم يباع أتباعهم بيع الرقيق ، وتنهب مدنهم ، ويختطف غلمانهم ، وتسبى بناتهم^(٩٦) . ويعلن . ولكن ليس من العدالة فى شيء أن يحكم الإنسان على شعب بأسره من سيرة ملوكه . ذلك أن الفضيلة لاتروىها الأخبار ، وأفاضل الناس لاتاريخ لهم ، شأنهم فى هذا شأن الأمم الهنيئة السعيدة . بل إن الملوك أنفسهم كانوا يبدون فى بعض المناسبات شيئاً من مكارم الأخلاق ، وكانوا يشتهرون بين اليونان الغادرين بوفائهم . فإذا عاينوا أوفوا بعهدهم ، وكان من دواعى فخرهم

أنهم لا ينتفضون كلمتهم^(٩٧) . وما يجب أن نذكره للفرس مقرونا بالثناء والتقدير ، أن من العسير علينا أن نجد في تاريخهم فارسيا قد استموجر ليحارب الفرس ، على حين أن أي إنسان كان يسعه أن يستأجر اليونان ليحاربوا اليونان^(*) ، وخلق بنا أن نذكر أن أخلاقهم لم تبلغ من القسوة ذلك الحد الذي يقادر إلى أذهاننا من قراءة تاريخهم الخافل بالدم والحديد . لقد كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد^(٩٩) ، يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصا لا يكاد يقل عن حرص الصينيين . وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان في المرتبة تعانقا وقبل كل منهما الآخر في شفتيه ، فإذا قابل الواحد منهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناء كبيرة تشعر بالخضوع والاحترام ، وإذا التقى بمن هو أقل منه قدم له خده ليقبله ، فإذا قابل أحد السوق اكتفى بإحناء رأسه^(١٠٠) . وكانوا يستنكرون تناول شيء من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق ، كما يسوءهم أن يبصق الإنسان أو يتمخط أمام الناس^(١٠١) . وقد ظلوا إلى أيام خشروشا مقتصدتين في مأكلهم ومشربهم ، لا يطعمون إلا وجبة واحدة في اليوم ، ولا يشربون إلا الماء للقراح^(١٠٢) . وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلا الحياة نفسها وأن الأعمال الطبية إذا صدرت عن أيديهم كانت لا قيمة لها ، لأن الإنسان إذا لم يقض على الفساد (ولعله يريد « الجرائم ») فإن الملائكة لا تسكن في جسمه^(١٠٣) . وكانوا يفرضون أشد العقوبات على من يتسببون في نشر الأمراض المعدية ، وكان الأهليون يجتمعون في الأعياد وكلهم يرتدون الملابس البيضاء^(١٠٤) . وكانت الشريعة الأستاقية كالشرعيتين البرهمية والموسوية مليئة بمواسم التطهير والحذر من للتذرة ، وفي كتاب الزردشتيين المقدس فقرات طويلة مملة خصت كلها بشرح القواعد

(*) لما حارب الفرس الإسكندر عند نهر غرانيقوس كانت فرق المشاة الفارسية كلها تقريبا من مرتزقة اليونان . وفي موقعة إسوس كان قلب الجيش الفارسي مؤلفا من ثلاثين ألفا من مرتزقة اليونان^(٩٨) .

الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح^(١٠٥) . وقد جاء فيها أن قلامة الأظفار ، وقصاصات الشعر ، وإخراج النفس من الفم كلها أقدار يجب على الفارسي العاقل أن يتجنبها إلا إذا كانت قد ظهرت من قبل^(١٠٦) .

كذلك كانت الشرائع الفارسية صارمة في عقاب خطايا الجسد صرامة الشرائع اليهودية ، فكان الاستمناء باليد يعاقب عليه بالجلد ، وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنى واللواط والسحاق من الرجال والنساء « أن يقتلوا لأنهم أحتق بالقتل من الأفاعى الزاحفة والذئباب العاوية^(١٠٧) » . لكن في مقدورنا أن نستدل من الفقرة الآتية التي أوردها هيرودوت على وجود الخلف المعتاد بين القول والعمل : « يرى الفرس أن خطف النساء قوة واقتداراً عمل لا يأتيه إلا الأشرار ، ولكن اشتغال الإنسان بالثأر لمن إذا اختطف من أعمال الحمقى ، أما إهمال من إذا اختطف من أعمال الحكماء ؛ فغير خاف أنهم لو لم يكن راغبات لما اختطفن^(١٠٨) » . ويقول في موضع آخر إن الفرس « قد أخذوا عن اليونان اشتها الغلمان^(١٠٩) » ، ولما وإن كنا لا نستطيع أن نثق بكل ما يقوله هذا الراوية العظيم لنستشف ما يؤيد قوله هذا في العبارات القاسية التي تشنع بها الأبستاق على اللواط . فهي تقول في مواضع كثيرة إن هذا الذنب لا يغتفر وإنه « لا شيء يمحوه قط^(١١٠) » .

ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يظللن عذارى ولا العزّاب على أن يبقوا بلا زواج ، ولكنه كان يبيح التسرى وتعدد الزوجات ، ذلك بأن المجتمعات الحربية في حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء . وفي ذلك تقول الأبستاق : « إن الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً من لا زوجة له ، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيراً من لا أسرة له ، والذي له أبناء يفضل كثيراً من لا أبناء له ، والرجل ذو الثراء أفضل كثيراً ممن لا ثروة له^(١١١) » ، وتلك كلها معايير للمركز الاجتماعي شائعة بين مختلف الأمم ، وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية .

وكان من الأسئلة التي ألقاها زردشت على أهورا - مزدا : « أى إلهى خالق العالم المادى - إلهى القدوس ! ما هو المكان الثانى الذى تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون ؟ » . ويحييه أهورا - مزدا عن سؤاله هذا بقوله : « إنه المكان الذى يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً فى داخله كاهن ، وفيه ماشية ، وفيه زوجة ، وفيه أطفال ، وفيه أنعام طيبة ، والذى تكثر فيه الماشية بعدئذ من النتائج ، وتكثر فيه الزوجة من الأبناء ، وينمو فيه الطفل ، وتشتعل فيه النار ، وتزداد فيه جميع نعم الحياة (١١٢) »

وكان الحيوان - وخاصة الكلب - جزءاً أساسياً من الأسرة ، كما كان شأنه . الوصية الأخيرة التى أنزلت على موسى ، وكان واجباً مفروضاً على أقرب الأسر إلى أنثى الحيوان الحامل الضالة أن تعنى بها (١١٣) ، وفرضت أشد العقوبات على من يطعمون الكلاب طعاماً فاسداً ، أو طعاماً شديداً الحرارة ، وكان عقاب من « يضرب كلبه عايباً ثلاثة كلاب » أن يجلد أربعائة وألف جلدة (١١٤) . وكانوا يعظمون الثور لما له من قدرة عظيمة على الإخصاب . كما كانوا يصلون للبقرة ويقربون لها القرбан (١١٥) .

وكان الآباء ينظمون شئون الزواج لما يبلغ الحلم من أبنائهم . وكان مجال الاختيار لديهم واسعاً ، فقد قيل لنا إن الأخ كان يتزوج أخته ، والأب ابنته ، والأم ولدها (١١٦) . وكان التسرى من المتع التى اختص بها الأغنياء ، ولم يكن الأشراف يخرجون للحرب إلا ومعهم سراريهم (١١٧) . وكان عدد السراى فى قصر الملك فى العصور المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية يتراوح بين ٣٢٩ ، ٣٦٠ ، فقد أصبحت العادة فى تلك الأيام ألا يضاعف الملك امرأة مرتين إلا إذا كانت رائعة الجمال (١١٨) .

وكان للمرأة فى بلاد الفرس مقام سام فى أيام زردشت كما هى عادة القدماء ؛

فقد كانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه ، وكانت تمتلك العقار وتصرف شئونه ، وكان في وسعها أن تدبر شئون زوجها باسمه أو بتوكيل منه . ثم انحطت منزلتها بعد دارا ، وخاصة بين الأغنياء ؛ فأما المرأة الفقيرة فقد احتفظت بحريتها في التنقل لاضطرارها إلى العمل ، وأما غير الفقيرات فقد كانت العزلة المفروضة عليهن في أيام حيضهن كلها تمتد حتى تشمل جميع حياتهن الاجتماعية ، وكان ذلك أساس نظام البردة عند المسلمين . ولم تكن نساء الطبقات العليا يجرؤن على الخروج من بيوتهن إلا في هودج مسجفة ، ولم يكن يسمح لهن بالاختلاط بالرجال علناً . وحرم على المتزوجات منهن أن يرين أحداً من الرجال ولو كانوا أقرب الناس إليهن كأبائهن أو إخوتهن . ولم تذكر النساء قط أو يرسمن في النقوش أو التماثيل العامة في بلاد الفرس القديمة . أما السراى فكان أكثر من غيرهن حرية ، إذ كان يستعان بهن على تسليبة ضيوف أسيادهن . وقد كان للنساء في جميع الأوقات سلطان قوى في بلاط الملوك حتى في العهود الأخيرة ، وكن ينافسن الخصيان في تدبير المؤامرات ، والملوك في تمحيص وسائل التعذيب (١١٩) (*).

وكان الأبناء كما كان الزواج من الشروط الأساسية للإجلال والإكبار . فالذكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لأبائهم وحربية للموكلهم ، أما البنات فلم يكن يرغب فيهن ، لأنهن كن ينشأن لغرب بيوتهن ، وليستفيد منهن غير آبائهن . ومن أقوال الفرس في هذا المعنى : « إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات ، والملائكة لا تحسبن من النعم التي أنعم بها على بني الإنسان » (١٢٠)

(*) كانت استائيرا زوجة أرت خشتر الثاني مثلاً صالحاً للأزواج ، ولكن أمه باريستا قتلها مسمومة غيرة منها وحسدًا ، وشجعت الملك أن يتزوج ابنته أنوسا ، وحدث أن أخذت تلعب النرد معه وتراهته على حياة أحد خصميائه ، فلما كسبت الرهان أمرت بسلخه حياً . وأمر أرت خشتر مرة بإعدام جندي كاري ، فإذ كان من باريستا إلا أن هذبت أمره ، فاستبدلت بهذا الإعدام شدة على عذراء عشرة أيام كاملة وسمل عينيها ، وصبب مصهور الرصاص في أذنيه حتى يموت (١١٩) .

(العذراء شيء من الحديد يعذب به الإنسان لإقراره بأمر أو نحوه — المحيط)

وكان الملك في كل عام يرسل الهدايا إلى الآباء الكثيري الأبناء ، كأن هذه الهدايا ثمناً لدمائهم يدفع مقدماً (١٢١) ،

وكان الحمل سفاحاً سواء ممن لم يتزوجن من البنات أو ممن تزوجن منهن يغتفر أحياناً إذا تجهض الحامل ، ذلك أن الإجهاض كان في تقديرهم أشد جرماً من سائر الجرائم ، وكان عقابه الإعدام (١٢٢) .

وقد ورد في أحد الشروح القديمة المسماة بالبندھش وصف الجملة وسائل لمنع الحمل ، ولكنها تحذر الناس الالتجاء إليها .

ومما جاء فيها : « وفيما يختص بالتناسل قيل في الكتاب المنزل إن المرأة إذا خرجت من الحيض تظل عشر ليال وعشرة أيام عرضة للحمل إذا اقترب منها الرجال » (١٢٣) .

وكان الوليد يبقى في حضانة أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة . وفي هذه السن يدخل المدرسة . وكان التعليم يقصر في الغالب على أبناء الأغنياء ويتولاه الكهنة عادة . فكان التلاميذ يجتمعون في الهيكل أو بيت الكاهن ؛ وكان من المبادئ المقررة ألا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سبباً في إفساد الصغار (١٢٤) . وكانت الكتب الدراسية هي الأبستاق وشروحها ، وكانت المواد الدراسية تشمل الدين ، والطب أو القانون ؛ أما طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب ، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً (١٢٥) . أما أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يفسدون بتلقى ذلك النوع من التعليم ، بل كان تعليمهم مقصوراً على ثلاثة أشياء — ركوب الخيل ، والرمي بالقوس ، وقول الحق (١٢٦) . وكان التعليم العالي عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين ، وكان منهم من يعد لإعداداً خاصياً لتولى المناصب العامة أو حكم الولايات ؛ وكانوا كلهم بلا استثناء يلربون على القتال . وكانت حياة الطلاب في هذه المدارس العليا

حياة شاقة . فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين ، ويدربون على الجرى مسافات طويلا ، وعلى ركوب الخيل الجالحة وهى تركض بأقصى سرعتها ، والسباحة ، وصيد الحيوان ، ومطاردة اللصوص ، وفلاحة الأرض ، وغرس الأشجار ، والمشي مسافات طويلا في حر الشمس اللافتح أو البرد القارس ؛ وكانوا يدربون على تحمل جميع تقلبات الجو القاسية ، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط ، وأن يعبروا الأنهار دون أن تبتل ملابسهم أودروعهم (١٢٧) .

لقد كان هذا في الحق تعليما ينشرح له صدر فردرك نثشة في اللحظات التي يستطيع فيها نسيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق .

الفصل الثامن

العلوم والفنون

الطب - الفنون الصغرى - قبرا قورش ودارا -
قصور بارسبوليس - نقش الرماة - قيمة الفن الفارسي

ياوح أن الفرس قد تعمّدوا ألا يعلموا أبناءهم أى فن من الفنون عدا فن الحياة . فأما الأدب فقد كان فى رأيهم ترفاً قل أن يحتاجوا إليه ، وأما العلوم فقد كانت سلعاً يستطيعون أن يستوردها من بابل . نعم لأنهم كانوا يستسيغون بعض الاستساعة الشعر والروايات الخيالية ، ولكنهم تركوا هذين للفنّين للمستأجرين وذوى المنزلة الدنيا منهم ، وآثروا منعة الحديث الفكه على لذة السكون والوحدة فى البحث والقراءة .

وكان الشعر عتدهم يغنى أكثر مما يقرأ ، فلما مات المغنون مات الشعر معهم .

وكان الطب فى بادئ الأمر من أعمال الكهنة ، وكانوا يمارسونه على أساس أن الشيطان خلق ٩٩٩٩٩ مرضاً يجب أن تعالج بمزيج من السحر ومراعاة قواعد الصحة العامة . وكانوا يعتمدون فى علاج المرضى على الرقى أكثر من اعتمادهم على العقاقير ، وحجتهم فى هذا أن الرقى ، إن لم تشف من المرض ، لا تقتل المريض ، وهو ما لا يستطيع قوله عن العقاقير (١٢٨)

إلا أن الطب مع ذلك قد نشأ بين غير رجال الدين حينما زادت ثروة الفرس زيادة مطردة ، حتى إذا كان عهد أرت خشتر الثانى تكونت فى البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم - كما حددها قانون هورابى - وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية (١٢٩) .

وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة من غير أجر ، وكان يطلب إلى الطبيب الناشئ عند الفرس أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب ،

كما نفعل نحن في هذه الأيام ، إذ يقضى الطبيب المقيم سنة أو سنتين في المران على أجسام المهاجرين والفقراء . بذلك قضى ربُّ النور نفسه إذ قال : « يا خالق الكون يا قلدوس ، إذا شاء عبد من عباد الله أن يمارس فن العلاج ، فأى الناس يجب أن يجرب فيهم حذقه ؟ أيجربه في عباد أهورا — مزدا أم في عبدة الشياطين ؟ . فأجاب أهورا — مزدا بقوله : يجب أن يجرب نفسه في عبدة الشياطين لا في عباد الله ؛ فإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين فمات ، كان غير صالح أبد الدهر ، ويجب أن تمتنع عن علاج أى عبد من عباد الله . . . وإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين وشفى ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين وشفى ، وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين وشفى ، كان صالحاً أبد الدهر ، وكان له إذا أراد أن يعالج عباد الله ، ويشفيهم من أمراضهم بالمبضع » (١٣٠) .

ولما كان الفرس قد وهبوا أنفسهم لإقامة صرح الإمبراطورية ، فإن وقته لم يتسع لغير الحرب والقتال ، ولذلك كان جل اعتمادهم في الفنون على ما يأتيهم من البلاد الأجنبية ، شأنهم في هذا شأن الرومان سواء بسواء . نعم لأنهم كانوا يتذوقون جمال الأشياء ، ولكنهم كانوا يكلون إلى الفنانين الأجانب أو إلى من في بلادهم من الفنانين أبناء الأجانب صنع هذه الأشياء ؛ ويحصلون من الولايات التابعة لهم على المال الذي يؤدون منه أجور أولئك الفنانين . وكانت لهم بيوت جميلة وحدائق غناء ، تستحيل في بعض الأحيان بساتين للصيد ومسارح للحيوان ؛ وكان لهم أثاث قيم غالى الثمن : من نضد مصفحة برقائيق الفضة والذهب أو مطعمة بها ، وسرر فرشت عليها أغطية جاءوا بها من غير بلادهم ، وطنافس لينة جمعت كل ألوان الأرض والسماء يفرشون بها أرض حجراتهم (١٣١) . وكانوا يشربون في كوؤوس من الذهب ،

ويزينون نضلهم ورفوفهم بمزهريات من صنع الأجانب(*) . وكانوا مولعين بالعزف والغناء وبأنغام الناي والقيثار والنقر على الطبول والدفوف ، وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط ، إلى خلاخيل وأحذية مذهبة . وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزبنون بها أعناقهم وأذانهم وأذرعهم . وكانوا يستوردون اللؤلؤ ، والياقوت ، والزمرد ، واللآزورد من خارج بلادهم . أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من الماجم الفارسية ، وكان هو المادة التي تصنع منها الطبقة الموسرة أختامها . وكانت لهم حلى ذات أشكال رهيبة غريبة تمثل في ظنهم ملاحح الشياطين المعروفة لديهم . وكان ملكهم يجلس على عرش من ذهب تغطيه أكنان ذهبية مرفوعة على قوائم من الذهب (١٣٢) .

ولم يكن للفرس طراز فني خاص إلا في العبارة . فقد شادوا في أيام قورش ، ودارا الأول وخشيارشاي الأول مقابر وقصوراً ، كشف علماء الآثار القليل منها ، وقد يستطيع المعول والحجراف — وهما المؤرخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب — أن يكشفوا لنا في المستقبل القريب ما يعلى من تقديرنا لنفن الفارسي (**). ولقد أبقى لنا الإسكندر بفضل ما أثر عنه من كريم الشيم قبر قورش في بازار جادة ، فأصبح طريق القوافل في هذه الأيام يمر بالطوار العارى الذى كان يقوم عليه من قبل قصر قورش وقصر ابنه المخبول . ولم يبق الآن من هذين القصرين غير عمدة قليلة محطمة في مواضع متفرقة ، أو كتف باب أو نافذة عليها نقوش تمثل ملامح قورش . وعلى مقربة من هذا الطوار فى السهل المجاور له يشاهد القبر وقده

(*) وقد عرضت إحدى هذه المزهريات فى المعرض الدولى للفن الفارسى الذى أقيم فى لندن عام ١٩٣١ . وكان عليها نقش يثبت أنها من مزهريات أرت خسترن الثانى (١٢٣) .

(**) تعمل الآن بعثة من بعثات معهد الشرق التابع لجامعة تشكاجو فى التنقيب فى أنماص پرسوپايس بإشراف الدكتور جيمس . ه . برستد . ولقد كشفت هذه البعثة فى عام ١٩٣١ عن طائفة من التماثيل لا يقل عددها عن كل ما كان معروفا قبلها من التماثيل الفارسية (كتب هذا قبل وفاة الدكتور برستد) . (المترجم)

عدا عليه الزمان في خلال القرون الأربعة والعشرين ، التي مرت به ؛ فهو الآن ضريح حجري بسيط ، يوناني في شكله وتخرج صانعه ، يرتفع إلى ما يقرب من خمس وثلاثين قدما فوق قاعدة مدروجة . و١٠ من شك في أن هذا الأثر كان أعلى مما هو الآن ، وأنه كانت له قاعدة تتناسب مع ضخامته . أما الآن فإنه يبدو عاريا هطلا من الزينة مهجورا ، توحى صورته بالجمال الذي لا يكاد يبقى منه أثر فيه ؛ وكل ما يبعثه في النفس هو الأسى والحزن ، لأن الجهاد أبقي على الزمان من سواه . وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من پرسپولیس يقوم قبر دارا الأول منحوتاً في واجهة صخرة في الجبل كأنه ضريح هندوسي ، رقد نقش مدخله يمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر ، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عمود دقيقة حول باب ، غير شامخ . ومن فوق هذا الباب شخصوس قائمة كأنها فوق سقف يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل منصة رسم عليها الملك كأنه يعبد أهورا — مزدا والقمر . والفكرة التي أوحى بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسرى فيهما روح البساطة والرقّة الأرستقراطية .

والمباني الفارسية الأخرى التي نجت من الحروب والغارات والسرقات وفعل الجواء مدى ألفين من الأعوام ، هي خرائب القصور . فقد شاد ملوك الفرس الأولون في إكباتانا مسكناً من خشب الأرز والسرور المصفح بالمعادن ، كان لا يزال قائماً في أيام پوليبوس (حوالي ١٥٠ ق . م) ، أما الآن فلم يبق له أثر . أما أروع الآثار الفارسية القديمة التي تنفجر عنها الأرض القابضة الكتوم يوماً بعد يوم فهي الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التي كشفت في پرسپولیس . ذلك أن دارا ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصوراً يحاولون أن يرجئوا الوقت الذي تنسى فيه أسماؤهم . ولستنا نجد في تاريخ العماثر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التي كان التادم من السهل يرقاها إلى الربوة التي شيدت عليها القصور .

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى الزجورات ، أى أبراج أرض الجزيرة ، وتلتف حولها ، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من المباني . ذلك أنها كانت سهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من ركاب الخيل أن يصعدوها جنبا إلى جنب (١٣٥) (*). وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلا بديعا إلى الطوار الفسيح الذى يعلو عن الأرض المجاورة له علواً يتراوح بين عشرين وخمسين قدماً ، والذى يبلغ طوله خمسمائة وألف قدم . وعرضه ألفاً ، والذى شيدت عليه القصور الملكية (**). وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامى كبير نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رعوس بشرية كأبشع ما خلفه الفن الأشورى . وكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل آية العائز الفارسية على الإطلاق ، ونعني بها الجهل - منار أو الردهة العظمى التي شادها خشييارشاي الأول ، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها تشغل رقعة من الأرض تربي مساحتها على مائة ألف قدم مربعة ، فهي أوسع - إذا كان للسعة قيمة - من معبد الكرنك الفسيح ومن أية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان (١٣٨) :

وكانت هناك مجموعة أخرى من الدرج تؤدي إلى هذه الردهة الكبرى ، وتحف بها من كلا الجانبين جدر لزيئتها قليلة الارتفاع ، وعلى جوانبها نقوش بارزة قليلا هي أجمل ما كشف من النقوش الفارسية القليلة البروز إلى هذا اليوم (١٣٩). ولا يزال ثلاثة عشر عموداً من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشييارشاي باقية إلى اليوم بين خرابات القصر ، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة . وتعد هذه الأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريية من الكمال ، رهي أرفع من

(*) و وصفها فرجسون بأنها « أروع مثل للدرج وجدت في أية بقعة من العالم » (١٣٦) .

(**) وكانت تجري تحت هذا الطوار سلسلة مةقدة من القنوات لتعريف النساء يبلغ قطر الواحدة منها ست أقدام تحت للكثير منها الصخر الأصم (١٣٧) .

(٢٩ - قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)



شکل (۳۷) خراشید بر سپر لیبی

مبيلاتها في مصر القديمة أو اليونان ، وتعلو في الجو علواً لا تصل إليه معظم الأعمدة الأخرى ، إذ يبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدماً ، وقد خطت في جذوعها ستة وأربعون محزاً . وتشبه قواعدها أجراساً تغذيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع ، ومعظم تيجانها في صورة لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف « الأيونية » ، يعلوها صلدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف . ولسنا نشك في أن هذه العوارض كانت من الخشب ، لأن أمثال هذه العمود المتباعدة السريعة العطب لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة . وكانت أكتاف الأبواب وكفافات النوافذ من حجارة سود مزخرفة برأقة كالأبنوس . أما الجدران فكانت من الآجر يغطيها القرميد المصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهاراً . وكانت العمود والفصوص والدرج من حجر الجير الجميل أو الرخام الأزرق الصلد . وقام من خلف الجهل — منار ، أى من شريقها « للبهو العمود المائة » . ولم يبق من هذا البهو سوى عمود واحد والحدود الخارجة لتصميمه العام . ولعل هذين القصرين كانا أجمل ما شاهده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء .

وأقام أرت خشتر الأول والثاني في مدينة السوس قصرين لم يبق منهما إلا أساسهما : ذلك أنهما شيئا من الآجر المكسو بأجمل ما عرف من القرميد ذي الطلاء الزجاجي . وفي السوس عثر المتقربون على « نقش الرماة » وهم أكبر الظن « المخلدون » الأمناء حراس الملك . ويبدو لناظر إلى هؤلاء الرماة ذوي الطلعة المهيبة أنهم قد ازينوا لحضور حفلة في القصر وليسوا خارجين لقتال أو حرب . فجلايبيهم تحطف الأبصار بألوانها الزاهية ، وشعورهم ولحاهم مجمدة تجعداً عجيباً ، وهم مسكونين بأيديهم في قوة وخيلاء وماحهم رمز مناصبهم الرسمية ، ولم يكن التصوير والنحت في السوس وفي غيرها من العواصم فنين مستقلين ، بل كانا تابعين لفن العبارة ، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع



شكل (٣٨) نقش « الرماة »

نقش ملون على القرميد وجد في السوس - محفوظ في متحف اللوفر

فنانين جىء بهم من آشور وبابل وبلاد اليونان (١٤٠)

وفى وسع الإنسان أن يقول عن الفن الفارسى ما يستطيع أن يقوله عن
الفنون كلها تقريباً ، وهو أن عناصره كلها مستعارة من خارج البلاد ،
فقير قورش استعير شكله الخارجى من ليديا ، وعمده الحجرية الرفيعة
منقولة عن مشيلاتها من العمدة الأشورية مع شيء من التحسين ، وهو
العمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحى بها أبهاء
مصر ونقوشها ، وتيجان الأعمدة التى على صورة الحيوان جدوى تسربت
إليهم من نينوى وبابل . أما الذى جعل فن العمارة الفارسى فناً قائماً بذاته
مختلفاً عن غيره من فنون العمارة فهو اجتماع هذه العناصر كلها والموازنة
بينها ، وهو الذوق الأرستقراطى الذى رقق العمدة المصرية المهولة وكتل
أرض الجزيرة الثقيلة فأحاطها بريقاً ورشاقة ، وتناسباً وتنغمساً ، يطالعنا
فى برسهوليس .

وكان اليونان يستمعون إلى وصف هذه الأبهاء والقصور وهم أشد
ما يكونون دهشة وإعجاباً بها ، لأن تجارهم المجلدين للعاملين وساستهم
المطلعين كانوا يحدثونهم عن فنون الفرس وترفعهم بما يثير عواطفهم
ويحفزهم إلى منافستهم . وسرعان ما استبدلوا برءوس العمدة المزروجة
وبالحوانات ذوات الأعناق الجالدة المتصلبة القائمة فوق العمدة الرشيفة ،
نقول سرعان ما استبدلوا بها الفصوص المساء التى نراها فى تيجان العمدة
الأيونية ، ثم قصرها سوقها ، وزادوها قوة لكى تتحمل أية عارضة ترتكز
عليها سواء أكانت من الخشب أم من الحجر . والحق أنه لم يكن بين فن
العمارة فى برسهوليس وأثينة إلا خطوة واحدة ، فقد كان عالم الشرق الأدنى
على بكرة أبيه موشكاً أن يستغرق فى سبات عميق كأنه الموت إلا أنه
موت لا يدوم إلا ألف عام ، كان عالم الشرق يتأهب ليستودع اليونان
تراثه للقديم .

الفصل التاسع

الانحطاط

- كيف تدمرت الأمم - خشيارشاي - فقرة عن التقتيل -
- أرت خشتر الثاني - قورش الأصغر - دارا الصغير -
- أسباب الانحطاط السياسية والحربية والمالية -
- الاسكندر - فتح فارس والزحف على الهند

لم تكند الإمبراطورية التي أقامها دارا تعمر إلا قرناً من الزمان : ذلك أن قواها الطبيعية المادية والأدبية قد تصدعت على أثر الهزائم التي منيت بها في مراثون ، وسلاميس ، وبلاطية . وأهمل الأباطرة شؤون الحرب ، وانغمسوا في الشهوات ، وتردت الأمة في مهاوى الجحود والفساد . ويكاد الممحلل فارس أن يكون في جملته وتفصيله صورة معجزة من سقوط رومة ؛ فقد اقترن فيه عنف الأباطرة وإهمالهم بفساد أخلاق الشعب وانحلالها ، وحل بالفرس ما حل بالميديين قبلهم ، إذ استحال ما كانوا يتصفون به من تقشف وزهد منذ أجيال قليلة إلى استمتاع طليق ، وأصبح أكبر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيت الأكل والمشراب ؛ وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتألت مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيراً ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملأوا بطونهم باللحوم السمينة النادرة ، وتفننوا في ابتكار أنواع المشهيات والحلوى (١٤٠) . وغصت بيوت الأثرياء بالخدم الفاسدين المفسدين ، وأصبح السكر وذيلة شائعة بين كل الطبقات (١٤١) . وملاك القول أن قورش ودارا قد خلقا بلاد الفرس وأن خشيارشاي ورثها عنهما ثم جاء من خلفهم من الملوك فدمروها تدميراً .

وكان خشيارشاي الأول ملكاً اجتمعت فيه كل صفات الملوك —
الجسمية — ؛ كان طويل القامة ، قوى الجسم ، يقر له له الملوك بأنه أجل
إنسان في الإمبراطورية كلها^(١٤١) . ولكن الرجل الوسيم غير المغتر لم يخلق
بعد في هذا العالم ، كما لم يخلق فيه بعد الرجل المغتر بقوته الذي لم تقده امرأة
من أنفه . لقد كان خشيارشاي نبهاً لسراريه ، وما كان أكثرهن ، وضرب
أسوأ الأمثال لشعبه في الفسق والفجور . ولقد كانت هزيمته في سلاميس
هزيمة طبيعية متوقعة ؛ ذلك أن كل ما كان له من أسباب العظمة هو حب
التعاطف لا قدرته على مغالبة الخطوب ، والتحلل بصفات الملوك الحقبة إذا دعا
الداعي وتآزمت الأمور . وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاماً في غمرة
الدسائس الشهوانية ، والتراخي والإهمال في شئون الحكم ، اغتاله
أرتيان(*) أحد رجال حاشيته ، ثم ووري في قبره باحتفال ملكي مهيب
واغتيال شامل .

وليس في التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذين تظالعا
بهما سجلات الفرس الملكية إلا سجلات رومة بعد تيبيريوس . لقد اغتال
أرت خشتر الأول مغتال خشيارشاي ، وبعد أن حكم أرت خشتر حكماً
طويلاً خلفه خشيارشاي الثاني ، ثم اغتاله بعد بضعة أسابيع من حكمة أخ له
غير شقيق يدعى سجديانوس ، ثم قتله دارا الثاني بعد ستة أشهر كما أمر بقتل
تريستشميس فأحمد بقتله فتنة أثار مجاجها في البلاد ، ثم أمر بتفطيع زوجته
لرباً ودفن أمه وإخوته وأخواته أحياء . وخلف دارا الثاني على العرش ابنه
أرت خشتر الثاني ، واضطر هذا الملك أن يقاتل في واقعة كونسكا أخاه
قورش الأصغر قتالاً مريعاً ، لأن هذا الشاب حاول أن يفتصب
الملك . وحكم أرت خشتر حكماً طويلاً ، وقتل ابنه دارا لأنه ائتمر
به ، ثم مات بانساً حزيباً إذ وجد أن ابناً آخر له يدعى أوكوس
يأتمر به ليقتله . وحكم أوكوس عشرين سنة ثم مات مسموماً على يد

(*) يكتب أحياناً أردوان ويسميه اليونان أرتيانوس . (المترجم)

قائده بجواس ، وأجلس هذا القائد السفاح « صانع الملوك » ابناً لأكوس يسمى أرسيس على العرش ، واغتال أخا لأرسيس ليثبت بذلك مركز صبيحته ، ثم اغتال أرسيس وأبناءه الصغار ، ورفع على العرش كودومانوس ، وهو صديق له مخفث مطواع ، وحكم كودومانوس ثمانى سنين ، سمي باسم دارا الثالث ثم مات وهو يحارب الإسكندر فى واقعة إربيل حين كانت بلاده تلفظ آخر أنفاسها . ولسنا نعرف فى دولة من الدول حتى الدول للدمقراطية فى هذه الأيام قائداً أقل كفاية وجدارة بقيادة الحيوش من هذا القائد :

إن الإمبراطوريات بطبيعة تكوينها سريعة الانحلال ، وإن الذين يرثونها تعوزهم جهود الذين ينشئونها ، ذلك فى الوقت الذى تهب فيه الشعوب الخاضعة لسلطانها وتستجمع قواها لتنافل فى سبيل ما فقدته من حريتها ، كذلك ليس من طبيعة الأشياء أن تبقى الأمم التى تختلف لغاتها وأديانها وأخلاقها وتقاليدها متحدة متماسكة زمناً طويلاً . ذلك أن هذه الوحدة لا تقوم على أساس متماسك يحفظها من التصدع ، ولا بد من الالتجاء إلى القوة مرة بعد مرة للاحتفاظ بهذه الرابطة المصطنعة . ولم يعمل الفرس فى عهد إمبراطوريتهم الذى دام مائتى عام شيئاً يخفف ما بين الشعوب الخاضعة لحكمهم من تباين ، أو يضعف من أثر القوى الطاردة التى تعمل على تفكك دولتهم ، بل قنعت هذه الإمبراطورية بأن تحكم خليطاً من الأمم ، ولم تفكر فى يوم من الأيام فى أن تذئ منها دولة حقيقية . لذلك أخذ الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية يزداد صعوبة عاماً بعد عام ، وكلما تراخى عزم الأباطرة قويت أطماع الولاة وزادوا جرأة ، وأخذوا يرهبون أو يبتاعون بالمال قواد البلخيش وأمناء الإمبراطور الذين أرسلوا إلى الولايات ليشتروا مع الولاة فى الحكم ويحدوا من سلطانهم . ثم أخذ الولاة يقودون جيوشهم ويزيدون مواردهم كما يحلو لهم ، ويأتمرون بالملك المرة بعد المرة . وأهنت الثورات والحروب المتكررة حيوية فارس الصغيرة ، ذلك أن الحروب قد قضت على زهرة شبابها القوى حتى لم يبق من

أبنائها إلا كل حذر محتاط . فلما أن جند هؤلاء لمواجهة الإسكندر تبين أنهم لا يكاد يوجد فيهم إلا كل منحوب القلب جبان . ولم يكن شيء من التحسين قد أدخل على تدريب الجنود أو على عتادهم الحربى ، ولم يكن قوادهم على علم بما يستجد من فنون القتال . فلما دارت رحى الحرب ارتكب هؤلاء للقواد أشنع الأغلاط ، وكانت عساكرهم المختلة النظام ، والى كان معظمها مسلحاً بالسهم ، أهدافاً صالحة لرمح المقلونين الطويلة وفيالقهم المتراسة (١١٢) لقد كان الإسكندر يلهو ويعبث ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا بعد أن يتم له النصر ، أما قواد الفرس فقد جاءوا معهم بسراريهم ، ولم يكن منهم من هو راغب فى القتال ، ولم يكن فى الجيش الفارسى جنود جديرون بهذا الاسم إلا مرتزقة اليونان .

ولقد تبين منذ اليوم الذى فر فيه خشيارشأى بعد هزيمته فى سلاميس أن اليونان سيتحدون الدولة الفارسية فى يوم من الأيام . ذلك أن فارس كانت تسيطر على أحد طرفى الطريق التجارى العظيم الذى يربط غربى آسية بالبحر المتوسط ، وأن بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثانى ، وكان ما ركب فى طباع الناس من أقدم الأزمنة من طمع وحرص على الكسب مما يجعل هذه الحال مثاراً للحرب بين الأمتين ، ولم يكن اليونان ينتظرون لبدء الهجوم إلا أن يقوم بينهم سيد منهم يضم شتاتهم ويؤلف بين قلوبهم

واجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقي مقاومة ، ومعه قوة من رجاله ، خالها الآسيويون ضئيلة ، إذ كانت دولة من ثلاثين ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان (*) : وحاول جيش فارسى مؤلف من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الإسكندر عنه نهر غرانيقوس ، فعسكر الفرس فى الواقعة عشرين ألف مقاتل ، ولم يخسر الجيش اليونانى إلا ١١٥ رجلاً (١١٤) ، واتجه

(*) ويقول يوسفوس : إن كل من كان فى آسية كان مقتنعا بأن اليونان لن يجرؤوا على الاشتباك فى حرب مع الفرس لكثرتهم (١١٣) .

الإسكندر جنوباً وشرقاً ، يخضع بعض المدائن ، ويستسلم له الهعص الآخر ،
ودام على ذلك عاماً كاملاً . وجمع دارا الثالث في هذه الأثناء خليطاً
من ٦٠٠ر٠٠٠ رجل بين جندى ومغامر . وتطلّب عبورهم نهر الفرات
على جسر من القوارب خمسة أيام ، كما تطلّب حمل أموال الملك ستمائة بغل
وثلاثمائة حمل (١٤٥) . ولما تقابل الجيشان عند إسوس ، لم يكن مع الإسكندر
إلا ثلاثون ألفاً من رجاله ، ولكن دارا كان يتصف بـكل ما تتطلبه تصاريـف
الأقـدار من غباء ، فاخـتار للقتال ميداناً لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه
أن يقاتل اليونان على حين يبقى سائرهم معطلا . فلما انتهت المجزرة وجد أن
اليونان قد خسروا نحو ٤٥٠ رجلاً ، وخسر الفرس ١١٠ر٠٠٠ رجل ،
قتل معظمهم وهم يفرون مذعورين . وطارد الإسكندر الجيوش المهزومة
مطاردة طائشة عبر في أثناءها مجرى مائياً على جسر من جثت الفرس (١٤٦) ،
وفر دارا من الميدان فرار الأندال ، وترك فيه أمه وزوجة من أزواجه
وابنتين وعربة وخيمة مترفة ، وعامل الإسكندر السيدات الفارسيات بشهامة
أدهشت المؤرخين اليونان ، واكتفى بأن تزوج إحدى ابنتي دارا . وإذا
جاز لنا أن نصدق ما قاله كوثنس كورثيس ، فإن أم دارا أحبت الإسكندر حباً
لم تر معه بدءاً من أن تقضى على حياتها بالامتناع عن الطعام حين علمت
بوفاته (١٤٧) .

وواصل الشاب الفاتح بعدئذ سيره في بطن ، يخيل إلى الإنسان أنه بطء
المستمر ، يريد أن يبسط سلطانه على غربي آسية بأجمعه ، غير أن بطأه هذا كان
ناشئاً من رغبته في ألا يتقدم قبل أن ينظم فتوحه ، ويؤمن مواصلاته . وخرج
سكان مدينة بابل على بكرة أبيهم ، كما خرج أهل بيت المقدس من قبل للترحيب به ،
وقدموا له مدينتهم وما فيها من ذهب ، فتقبل منهم ما عرضوه في لطف وبشاشة ،
وسرهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم التي هدمها خشيارشاي من قبل دون تدبر
وروية . وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصلح ، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر

عشرة آلاف تالنت من الذهب^(*) ، إذا رد إليه أمه وزوجته وابنتيه ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة في غرب الفرات ، وأنه لا يطلب إليه في نظير هذا كله إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتخذ صديقاً له . وقال پارمنيو القائد الثاني لجيوش اليونان إنه لو كان الإسكندر لقبيل هذه العروض الطيبة مسروراً فينجزو بشرفه من شر هزيمة قد تكون ساحقة . فما كان جواب الإسكندر إلا أن قال إنه لو كان هو پارمنيو لقبيل هذه العروض ، أما وهو الإسكندر فقد رد على دارا بأن عروضه لا معنى لها ، لأنه (أى الإسكندر) يمتلك بالفعل ما يعرضه عليه من بلاد آسية ، ولأن في وسعه أن يزوج ابنة الإمبراطور متى شاء . ووجد دارا أن لا أمل له في عقد الصلح مع هذا المنطيق المستهتر ، فوجه همه على كره منه لجمع جيش آخر أكبر من جيشه الأول .

وكان الإسكندر في أثناء ذلك قد استولى على صور ، وضم مصر إلى أملاكه ، ثم اخترق إمبراطوريته العظيمة متجهاً نحو حواضرها النائية . وبعد مسيرة عشرين يوماً بعد بابل وصل جيشه إلى مدينة السوس ، واستولى عليها دون أن يلقى مقاومة ، ثم تقدم إلى برسبوليس بسرعة لم تمكن حراس الخزائن الملكية من إخفاء ما فيها من أموال . وفيها أتى الإسكندر عملاً يعد وصمة عار في حياته الحافلة بمجالات الأعمال ، أنه رغم نصيحة رمنيو ليكسب بلملك — كما يقول مؤرخوه — رضاء تيبس لإحدى سراييه^(**) . ذلك أنه أحرق قصور برسبوليس عن آخرها ، وأباح لجنوده نهب المدينة . فلما أن رفع روح جنوده المعنوية بما أباح لهم من السلب ، وبما أغدقه عليهم من العطايا ، اتجه نحو الشمال ليلقى دارا لآخر مرة .

وكان دارا قد جمع من الولايات الفارسية — وخاصة من ولاياته الشرقية —

(*) تقدر قيمتها على الأرجح بنحو ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي من فقود هذه الأيام

(**) يتفق ألو طرخس ، وكوكلس كورقيس ودودور فيما يرونه من هذه القصة ، وهي لا تتعارض مع ما عرف عن الإسكندر من تهور وانفداع ، ولكن من واجبنا مع ذلك أن نقابل هذه الرواية بنهى من الشك .

جيشاً جديداً عدته ألف ألف مقاتل (١٤٨) — يتألف من فرس ، وميديين ، وبابلين ، وسوريين ، وأرمن ، وكبادوكيين ، وبلخيين ، وصغد ، وأرخزيان . وساكي ، وهنود . ولم يسلحهم بالقسى والسهام ، بل جهزهم بالحرباب ، والرماح ، والدروع ، وأركبهم الخيل والقيلة والعربات ذات الدواليب التي ركبت فيها المناجل لكي يحصد بها أعداءه حصنه الحنطة في الحقول .

حشدت آسية العجوز هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن نفسها أوربا الناهضة الفتية . والتقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان ، وأربعون ألفاً من المشاة بهذا الخليط المختل النظام غير المتجانس ، ودارت رحى القتال عند كواكميلا (*) . واستطاع بتفوق أسلحته وحسن قيادته وشجاعته أن يبدد شمله في يوم واحد — واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان ، ولكن قواده ساءهم هذا القرار المزمى للمرة الثانية ، فقتلوه غيلة في خيمته . وأعدم الإسكندر من استطاع أن يقبض عليهم من قاتليه ، وأرسل جثة دارا مكرمة إلى برسبوليس في موكب حافل ، وأمر أن تدفن كما تدفن أجسام الملوك الأكمنيين . وسرعان ما انضوى الشعب الفارسي تحت راية الإسكندر إعجاباً منه بكرم أخلاقه ونضرة شبابه . ونظم شئون فارس وجعلها ولاية من ولايات الدولة المقدونية وترك فيها حامية قوية لحراستها ، ثم واصل زحفه إلى الهند .

(*) وهي مدينة تبعد سبعين ميلاً عن إيرل ، وقد سميت هذه الواقعة باسمها .

المراجع

الباب السابع

1. Cambridge Ancient History, i, 86, 361; Childe, *The Most Ancient East*, 126; Keith in *N.Y. Times*, April 3, 1932.
2. Breasted, J. H., *Oriental Institute*, 8.
3. Childe, 128, 146.
4. De Morgan, 208; CAH i, 362, 578.
5. Moret, 199; CAH, i, 361-579.
6. Woolley, C. L., *The Sumerians* 189.
7. Jastrow, Morris, *The Civilization of Babylonia and Assyria*, 101.
8. CAH, i, 127.
9. Pijoan, i, 104; Ball C. J. in Parmelee, M., *Oriental and Occidental Culture*, 18.
10. Childe, 160, 173; Maspero, O., *Dawn of Civilization*, 718-20.
11. CHA, i, 456.
12. Berosus in CAH, i, 150.
13. Maspero, *Struggle of the Nations*, iv.
14. Woolley, 69; CAH, i, 387.
15. Ibid., 388.
16. Woolley, 73; CAH, i, 403.
17. Harper, R.F., ed., *Assyrian and Babylonian Literature*, 1.
18. CAH, i, 405.
19. Woolley, 140; Maspero, *Dawn*, 637; CAH, i, 427.
20. Ibid., i, 435.
21. Ibid., i, 472.
22. Jastrow, 7; Maspero, *Dawn*, 554; Childe, *Ancient East*, 124; CAH, i, 463.
23. Woolley, 112-4.
24. Childe, 170.
25. Woolley, 13.
26. Delaporte, L., *Mesoostamia*, 112.
27. Woolley, 13; Delaporte, 172.
28. CAH, i, 507; *N.Y. Times*, Aug. 2, 1932.
29. Childe, 141.
30. Ibid., 169; *Encyc. Brit.*, ii, 845; Delaporte, 106.
31. Ibid., Woolley, 117-8, CAH, i, 427.
32. Woolley 92, Delaporte, 101.
33. Woolley, 126. CAH, i, 461.
34. Maspero, *Dawn*, 709f.
35. Ibid., 606-7, 722, Woolley, 79, CAH, i, 540.
36. Maspero, *Dawn*, 721-3.
37. CAH, i, 461.
38. Woolley, 93.
39. Maspero, 655.
40. CAH, i, 443-4, 448.
41. Jastrow, 277.
42. Woolley, 126.
43. Jastrow, 130.
44. Woolley, 13.
45. Ibid., 120.
46. CAH, i, 400.
47. Langdon, S., *Babylonian Wisdom*, 18-21.
48. Woolley, 108-9.
49. Ibid., 13.
50. Jastrow, 466.

(+) مثبت اسم الكتاب كاملاً عند أول وروده في هذا التبت ثم نكتف بعد ذلك بذكره مختصراً.

31. Woolley, 106.
52. CAH, i, 370-4; Woolley, 40, 43, 51.
53. *Ibid.*, 92, 101.
54. CAH, i, 376.
55. Maspero, *Dawn*, 723-8; CAH, i, 371-2.
56. Maspero, *Struggle*, iv.
57. CAH, i, 550; iii, 226.
68. Woolley, 87.
59. Delaporte, 172.
60. Woolley, 87, 191.
61. Maspero, *Dawn*, 709-18.
62. Jastrow, 106; Woolley, 40, 144; Maspero, 630.
63. *Ibid.*, 601.
64. Schäfer, H., and Andrae, W., *Die Kunst des Alten Orients*, 469; Woolley 66.
65. CAH, i, 440.
66. Woolley, 46; N. Y. *Times*, April 18, 1934.
67. Schäfer, 482.
68. *Ibid.*, 486.
69. Woolley, 188; CAH, i, 463.
70. Moret, 164; Childe, *Ancient East*, 216.
71. Hall, H.R., in *Encyc. Brit.*, viii, 45.
72. Maspero, *Dawn*, 46; CAH, i, 255.
73. *Ibid.*, 372.
74. *Ibid.*, 255, 263, 581, De Morgan, 102, Hall, A.R., l.c.
75. *Ibid.*, CAH, i, 579.
76. CAH, i, 263. 561.
77. CAH, i, 252, 581, Hall, l.c., 44-5.
78. De Morgan 107.
79. Hall, l.c. CAH, i, 581.
80. Such objects are pictured for comparison in De Morgan, 102.
81. Woolley, 187, Hall, l.c., 45.
82. Smith, G. Elliot, *The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization*, xii.

الباب الثامن

1. Strabo, *Geography*, i, iii, 4.
2. Maspero, *Dawn*, 24.
3. Erman, A., *Life in Ancient Egypt*, 13, CAH, i, 317.
4. Erman, 29.
5. Diodorus Siculus, i, i xiv, 3. The face value of the talent in the time of Diodorus was \$ 1,000 in gold, worth in purchasing power some \$ 10,000 today.
6. *Encyc. Brit.*, vii, 42.
7. In Capart, J., *Thebes*, 40.
8. The Harris Papyrus in Capart, 237.
9. Capart, 27, Breasted, J. H., *Ancient Records of Egypt*, ii, 131.
10. CAH, i, 116, ii, 110.
11. Breasted, *Ancient Times*, 97, 455, CAH, i, 117.
12. *Ibid.*, 116.
13. De Morgan, 25, CAH, i, 33-6, Keith in N. Y. *Times*, Oct. 12, 1930, Moret, 1171.
14. Breasted in CAH, i, 86.
15. *Encyc. Brit.*, viii, 42, Moret, 119, De Morgan, 92.
16. Moret, 119, CAH, i, 270-1.
17. Smith, G. Elliot, *Human History*, 264, Childe, *Ancient East*, 38.
18. Pittard, 419, CAH, i, 270-1, Smith, G. Elliot *Ancient Egyptians*, 50.
19. CAH, i, 872, 255, 263, De Morgan, 102.
20. Maspero, *Dawn*, 45, CAH, i, 244-5, 251-6, Pittard, 413, Moret, 158, Smith *Ancient Egyptians*, 24.
21. Maspero, *Passing of the Empires*, viii, De Morgan, 101.
22. Diodorus, i, xciv, 2. Diodorus adds, by way of comparison: "Among the Jews Moses referred his laws to the god who is invoked as Iao."

23. *Ibid.*, I, xiv, 1.
24. *Encyc Brit.*, viii, 45.
25. Schäfer, 209.
26. *Ibid.*, 247.
27. *Ibid.*, 211.
28. *Ibid.*, 228-9.
29. Herodotus, II, 124.
30. Capart, J., *Lectures on Egyptian Art*, 98.
31. CAH, I, 335.
32. Maspero, *Art in Egypt*, 15.
33. Schäfer, 248.
34. Herodotus, II, 86.
35. In Cotterill, *History of Art*, I, 10.
36. Breasted, J. H., *Development of Religion and Thought in Ancient Egypt*, 203.
37. CAH, I, 308.
38. Breasted, J. H., *History of Egypt* 266-7.
39. Breasted, *Ancient Records*, II, 78-121, Maspero, *The Struggle of the nations*, 236-7.
40. *Ibid.*, 237-9, Breasted, *History*, 273, White, E. M., 49.
41. CAH, II, 65.
42. *Ibid.*, ch. iv.
43. *Ibid.*, 79.
- 43a. Breasted, *History*, 320.
44. Weigall, A., *Life and Time of Akhnaton*, 8.
45. Erman, 20.
46. So a stele of Amenhotep III expresses it in Capart, *Thebes*, 182.
47. *Ibid.*, 182, 197.
48. Diodorus, I, xxxi, 8.
49. Herodotus, II, 14.
50. Erman, 199.
51. Herodotus, II, 95.
52. Maspero, *Dawn*, 330.
53. Genesis xlvii, 26.
54. Erman, 441.
55. Erman, A., *Literature of the Ancient Egyptians*, 187.
56. Maspero, *Dawn*, 65, Lippert, 197.
57. Maspero, *Dawn*, 331-2.
58. Moret, 357.
59. Rickard, T. A. I, 192-203, De Morgan, 114.
60. Diodorus, III, xli. tr. by Rickard, I, 209-10.
61. Erman, *Life* 45-5.
62. Breasted, *Ancient Times*, 64, Maspero, *Struggle* 739.
63. Müller-Lyer, *Social Development*, 105.
64. Diodorus, I, lxxiv, 6.
65. *Ibid.*
66. Hobhouse, *Morals in Evolution* 283.
67. Erman, *Life*, 124-5.
68. Maspero, *Struggle*, 441.
69. Diodorus, I, lii, Rickard, I, 183.
70. N. Y. Times, April 16, 1933.
71. Herodotus, II, 124, Wilkinson in Rawlinson's Herodotus, II, 200n.
72. Capart, *Thebes*, 32.
73. Erman, *Life* 488-93, Borchardt and Rieke, *Egypt*, p. v.
74. CAH, II, 423.
75. Erman, *Life*, 494.
76. Maspero, *Struggle*, 109.
77. *Ibid.*, 285, 289, 407, 582, CAH, II, 79.
78. Maspero, *Dawn*, 330, Schneider H, I, 86.
79. CAH, II, 212.
80. Diodorus, I, lxxvii, 2.
81. Diodorus, I, lxxv, 3.
82. Summer, *Folkways*, 236.
83. Diodorus, I, lxxviii, 3.
84. Hobhouse, 108, Maspero, *Dawn*, 337, 479-80, Erman, *Life* 141.
85. Maspero, *Dawn* 337.
86. Capart, *Thebes*, 161.
87. Breasted, J. H., *Dawn of Conscience*, 208-10.
88. Erman, *Life*, 67; Diodorus, I, lxx.
89. Erman, *Life* 121.
90. Moret, 124.
91. Erman, *Literature*, 27.
92. Maspero, *Dawn*, 278.
93. Breasted, *History*, 75.
94. Erman, *Life*, 153, Summer, *Folkways*, 485.

95. Maspero, *Dawn*, 51.
96. Erman, *Life*, 76.
97. In Briffault, i, 384.
98. In White, E. M., 46.
99. Petrie, Sir W. F., *Egypt and Israel*, 28.
100. Hobhouse, 187.
101. Ibid., 187.
102. Ibid., 186; Erman, *Life*, 185.
103. Petrie, 23.
104. Frazer, *Adonis*, 397.
105. Briffault, i, 384.
106. Diodorus, i, lxxvii, 7; lxxv, 3
107. Maspero, *Struggle*, 272.
108. Briffault, ii, 174.
109. Ibid., 383.
110. Maspero, *Struggle*, 503; Erman, *Life*, 155.
111. Ibid., Sanger, W. W., *History of Prostitution*, 40-1; Georg, 172.
112. Erman, *Life*, 2471.
113. Sumner, *Folkways*, 541; Maspero, *Struggle*, 526.
114. Erman, *Life*, 387.
115. In Breasted, *Dawn of Conscience* 324; cf. Proverbs, xv, 16-7. For further correspondence between the Egyptian and the Jewish authors cf. Breasted, 372-7.
116. Hobhouse, 247; Maspero, *Dawn* 269; *Struggle*, 228.
117. Strabo, XVII, i, 53.
118. Erman, *Literature*, xxxix; 47.
119. Maspero *Dawn*, 195 *Encyc. Brit.*, vii, 329.
120. Spearing, 230.
121. Maspero, *Dawn*, 47 8, 271.
122. CAH, ii, 422.
123. Breasted, *History*, 27, Erman, *Life*, 229f, Downing, Dr. O., *Cosmetics, Past and Present*, 2088f.
124. CAH, ii, 421.
125. Maspero, *Struggle*, 504, Erman, *Life* 212.
126. Schäfer, 235.
127. Sumner, *Folkways*, 191, Maspero, *Struggle* 494, CAH, ii, 421.
128. Maspero, *Dawn*, 57, 491 f.
129. CAH, ii, 421.
130. Diodorus, i, lxxxi, Mencken, H. L., *Treatise on the Gods*, 117.
131. Spencer, *Sociology*, iii, 278.
132. Erman, *Life*, 328, 384.
133. Ibid., 256, Erman, *Literature*, xlii.
134. Ibid., 185.
135. Erman, *Life*, 256, 328.
136. Schneider, H., i, 94.
137. Erman, *Life*, 447, Breasted; *History*, 97.
138. Erman, *Literature*, xxxvii, xlii.
139. Maspero, *Dawn*, 46.
140. Erman, *Life* 333f Breasted *Ancient Times*, 42, Maspero, *Dawn*, 221-3, De Morgan, 256.
141. Father Batin, address at Oriental Institute, Chicago, March 29, 1932, CAH, i, 189, Sprengling, M., *The Alphabet, posstm.*
- 141a. N. Y. Times, Oct. 18, 1934.
142. Maspero, *Dawn*, 398.
143. CAH, i, 121, Erman, *Literature*, i, Breasted, *Development*, 178.
144. Breasted, J. H., *Oriental Institute*, 149f.
145. Erman, *Life*, 370.
146. Erman, *Literature*, 30-1
147. Ibid., 22-8.
148. Maspero, *Dawn*, 438.
149. Maspero, *Struggle*, 499.
150. Maspero, *Dawn*, 497.
151. Breasted, *Dawn of Conscience*, 71.
152. Erman, *Literature* 35-.
153. CAH, ii, 225.
154. Fxs. in Erman, *Literature*, xxx-xxxiv.
155. Erman, *Life*, 386.
156. Schneider, H., i, 81.
157. Breasted, *Ancient Records*, i, 51
158. Schneider, H., i, 91-2.
159. Erman, *Literature*, 109.
160. Erman, *Literature*, xxv-vii, Maspero, *Struggle*, 494f.
161. Maspero, *Dawn*, 204.
162. Hall, M. P., *An Encyclopedia Outline of Masonic, Hermetic.*

- Qabbalistic and Rosicrucian Symbolic Philosophy*, 37
- 163 Sedgwick, W T, and Tyler, H W., *A Short History of Science*, 312.
- 164 Maspero, *Dawn*, 326.
- 165 Sedgwick and Tyler, 29.
- 166 Schneider, H., i, 85-6.
- 166 Schneider, H., i, 85-6.
167. CAH, ii, 216, *Encyc. Brit.*, viii, 57.
- 168 Sedgwick and Tyler, 29.
169. Ibid., 89. Breasted, J. H., *Conquest of Civilization*, 88.
- 170 Williams, H. S., *History of Science*, i, 41
171. Ibid., i, 34.
172. Spencer, *Sociology*, iii, 251.
173. Tabouis, G.R. *Nebuchadnezzar*, 318; Breasted, *Ancient Times*, 91.
174. Strabo, XVII. i. 46; Diodorus, I, I, 2.
- 175 Herodotus, II, 4; CAH, i, 248, Breasted, *History*, 14, 33; *Ancient Times*, 45; Erman, *Life* 10; Childe, *Ancient East*, 5; Wil' ms, H. S., i, 38f, Maspero, *Dawn*, 16-7, 205-9, Moret, 134, Schneider, H., i, 85, Sedgwick and Tyler 34 Fraze *Adonis*, 280, 286-9, *Encyc. Brit.*, iv, 576, v, 654.
176. Ebers Papyrus, 99, 1f in Erman, *Life*, 357-3
177. Ibid., 353.
178. Garrison, 57.
179. Herodotus, II, 84; III, I.
180. Erman, *Life* 362.
181. Garrison, 55-9, Maspero, *Dawn*, 217, Breasted *Conquest of Civilization*, 88.
182. Smith, G. Elliot, *The Ancient Egyptians*, 57.
- 182a. Himes, Norman *Medical History of Contraception*, Chap. II, § 1. The suppositories contained chemicals identical with those now used in contraceptive pills. The matter, however, is not beyond doubt.
183. Erman, *Life*, 360, Maspero, *Dawn*, 219-20, Harding, T. Swann. *Fads*, 325
184. Garrison, 53
185. Smith, G.E., *Ancient Egyptians*, 62, Diodorus, I, xxviii, 3.
- 186 Breasted, *Dawn of Conscience*, 353n.
187. Diodorus, I, lxxxii, 1-2.
188. Pliny, *Historia Naturalis*, VIII, in Tyrrell, Dr. C. A., *Royal Road to Health*, 57.
189. Herodotus, II, 77.
190. Erman, *Life*, 167-69, Capart, *Thebes*, figs. 4 and 107-9.
191. Maspero, *Art*, 132.
192. Pijon: i, 101. Fregusson, Jas., *History of Architecture in All Countries*, i, 22. Breasted, *History*, 100.
193. E. g., Maspero, *Struggle*, m.
194. At Beni-Hasan, Light. etc.
195. At Medinet-Habu.
196. Maspero *Art*, 84.
197. Schäfer, *Tafel* VI, Breasted; *Dawn*, 218
198. Fry, R.E. *Chinese Art*, 13.
199. Schäfer, 358, Capart, *Lectures*, fig. 176.
200. Maspero, *Art*, 174.
201. Schäfer, 343, CAH, ii, 103.
202. Baikie, Jas., *Amarna Age*, 241, 256. All three are in the State Museum, at Berlin.
203. Cairo Museum, Maspero, *Art*, fig. 461, Schäfer, 433.
204. Athens Museum, Maspero, *Struggle*, 535.
205. Schäfer, 445.
206. Louvre, Schäfer 190
207. Cairo Museum Schäfer, 246-7.
208. Cairo Museum, Schäfer, 254.
209. Capart, *Thebes*, 173f.
210. Cairo Museum, Breasted, *History*, fig. 55, Maspero, *Art*, fig. 92.
211. Ibid., fig. 194.
212. Schäfer, *Tafel*, IX.
213. E.g., Schäfer, 305, 418.
214. Maspero, *Art*, fig. 287.

215. Schäfer, 367.
216. Ibid., *Tafel* XXI.
217. Maspero *Art.* 67.
218. Erman, *Life*, 448; CAH, ii, 422
219. CAH, ii, 105; Erman, 250-1.
220. Breasted, *Ancient Records*, ii, 147.
221. Spencer, *Sociology*, iii, 299.
222. Cf. Plato, *Timæus*, 22B.
223. Maspero, *Dawn*, 399.
224. Brown, B., *Wisdom of the Egyptians*, 96-116; Breasted *Dawn*, 186f.
225. Ibid., 198.
226. Breasted, *Development*, 215.
227. Ibid., 189; *Dawn of Conscience* 168.
228. Breasted, *Development*, 182.
229. Maspero, *Dawn*, 639.
230. Ibid., 86.
231. Ibid., 95, 92.
232. Ibid., 156-8.
233. Ibid., 120-1.
234. Renard, 121
235. Capart, *Thebes*, 66; Maspero, *Dawn*, 119 *Struggle*, 536.
236. Maspero, *Dawn*, 102-3.
237. Briffault, iii, 187.
238. Hommel in Maspero, *Dawn*, 45.
239. Howard, Clifford, *Sex Worship*, 98.
240. Diodorus, I. lxxxviii, 1-3; Howard, C., 79; Tod, Lt-Col. Jas., *Annals and Antiquities of Radjasthan*, 270, Briffault, iii, 205.
241. Carpenter, *Pagan and Christian Creeds* 183.
242. Maspero *Dawn*, 110-1.
243. Breasted, *Development*, 24-33, Frazer, *Adonis*, 269-75, 883.
244. Diodorus, I, xiv, 1.
245. Frazer, *Adonis*, 346-50, Maspero, *Dawn*, 131-2, Macrobius, *Saturnalia*, I, 18, in McCaCabe, Jos., *Story of Religious Controversy*, 169.
246. *Encyc. Brit*, 11th ed., ix, 52.
247. Moret, 5, Maspero, *Dawn*, 265, 248, Herodotus, II, 37.
249. Breasted, *Dawn of Conscience*, 46, 83.
250. Breasted, *Development*, 293, Brown, B., *Wisdom of the Egyptians*, 178, Maspero, *Dawn* 199.
251. Translation by Robert Hillyer, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 237.
252. In Maspero, *Dawn*, 189-90.
253. Breasted, *Development*, 291.
254. Erman, *Life* 353, exs in Erman, *Literature*, 39-43.
255. Maspero, *Dawn*, 282, Briffault, ii, 510.
256. Erman, *Life*, 352.
257. Herodotus, II, 82.
258. Breasted *Development*, 296, 308.
- 258a. Capart *Thebes*, 95.
259. Ibid., 76.
260. In Weigall, *Akhnaton*, 86.
261. Breasted, *Development*, 315.
262. E.g., Breasted, *Ancient Records*, ii, 369.
263. Breasted, *Development*, 324f.
264. The parallelisms are listed in Weigall, *Akhnaton*, 134-6, and in Breasted, *dawn of Conscience*, 182f.
265. Breasted, *Development*, 314.
266. Weigall, 102, 105.
267. Capart, *Lectures*, fig. 104.
268. Weigall, 103.
269. Peirce in Weigall, 178., Breasted *History*, 378.
270. Weigall, 116, Baikie, 284.
272. Baikie, 435.
273. CAH, ii. 154, Breasted, *History* 446.
274. Ibid., 491.
275. Capart, *Thebes*, 69.
276. Erman, *Life*, 129.
277. Weigall, A., *Life and times of Cleopatra*.
278. Faure, Elie, *History of Art*, i, p. xlvii.

الباب التاسع

1. Maspero, *Passing of the Empires*, 783.
2. CAH, i, 399.
3. The quotation are from Heraclitus, *Fragments*, and Mallock, W., *Lucretius on Life and Death*.
4. Harper, R. F., *Code of Hammurabi*, 3-7.
5. Jastrow, M., *Civilization of Babylonia and Assyria*, 283.4.
6. Sumner, *Folkways*, 501.
7. CAH, iii, 250.
8. Harper, *Code*, 99-11.
9. CAH, i, 489; Maspero, *Struggle*, 43-4.
10. Maspero, *Dawn*, 759; Rawlinson, *Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World*, iii, 22-3; McCabe, 141-2; Delaporte, 194-6.
11. CAH, ii, 429; iii, 101.
12. Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, 220.
13. Maspero, *Passing*, 567.
14. Jastrow, 466.
15. Danil, iv, 30.
16. Rawlinson, it, 510.
17. Herodotus, I, 178. Strabo, to prove his moderation, says 44 XVI, i, 6).
18. Tabouis, 306.
19. Rawlinson, ii, 514; Herodotus I, 180.
20. Diodorus, II, x, 6; Strabo, XVI,
21. Tabouis, 307.
22. Herodotus, I, 181.
23. CAH, i, 503.
24. Diodorus, II, x, 6; Strabo, XVI, i, 6; Maspero, *Passing*, 564, 782; CAH, i, 506-8; Rawlinson, ii, 517.
25. Maspero, *Dawn*, 761.
26. CAH, i, 541.
27. Berosus in Tabouis, 307.
28. Maspero, *Dawn*, 763-4; Delaporte, 107.
29. Maspero, *Dawn*, 556.
30. Strabo, XVI, i, 15. Attendants extinguished the flames with torrents of water.
31. Layard, A. H., *Ninevah and its Remains*, ii, 413.
32. *Code of Hammurabi*, sections 187-9; Delaporte, 113.
33. Lowie, *Are We Civilized?* 119; CAH, i, 501.
34. Lowie, 60, Maspero, *Dawn*, 760; CAH, i, 107, 501; ii, 227.
35. East India House Inscription in Tabouis, 287.
36. Xenophon, *Cyropaedia*, V, iv, 33. The probable invention of this letter by Xenophon hardly lessens its pertinence.
37. Tabouis, 210.
38. Maspero, *Dawn*, 751-2
- 38a. Jastrow, 29n.
39. Ibid., 326; CAA, i, 515, Maspero *Dawn*, 749, 761, Delaporte, 118, 126, 231, Tabouis, 241.
40. Cf. e. g., Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, xlviii-iv.
41. *Encyc. Brit*, ii, 863.
42. *Code*, 48.
43. CAH, i, 526, Maspero, *Dawn*, 760, Delaporte, 110, Jastrow, 299.
44. Delaporte, 122, Maspero, *Dawn*, 720.
45. CAH, i, 520-1, Maspero, *Dawn*, 742-4, Jastrow, 326.
46. Maspero, 735.
47. Ibid., 708.
48. Olmstead, A. T., *History of Assyria*, 525-8.
49. *Code*, 2, 132.
50. Delaporte, 134.
51. *Code*, 196.
52. 210.
53. 198.
54. Ibid.
55. 202-4
56. 195.
57. 218.

58. 194.
59. 143.
60. CAH, i, 517-8.
61. *Code*, 2281.
62. Jastrow, 305, 362; Maspero, *Dawn*, 748, CAH, i, 526.
63. Harper, *Code*, p. II.
64. Jastrow, 488, CAH, i, 518.
65. CAH, iii, 237.
66. Maspero, *Dawn*, 679, 750, CAH, i, 535.
67. Delaporte, 133-4.
68. Maspero, 636.
69. CAH, i, 529-32.
70. Maspero, 645-6.
71. *Ibid.*, 644.
72. *Ibid.*, 644.
73. Briffault, iii, 169.
74. CAH, i, 208, 530.
75. *Ibid.*, 500.
76. Briffault, iii, 88.
77. Maspero, 537.
78. Cf. Langdon, *Babylonian Wisdom*, 18-21.
79. Maspero, 546.
80. *Ibid.*, 566-72.
81. Jastrow, 433-9, Frazer, *Adonis*, 6-7, Briffault, iii, 90, CAA, i, 461, iii, 282.
82. Briffault, iii, 90, Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, liii.
83. Cf. e.g. Harper, 420-1.
84. Tabouis, 387.
85. Jastrow, 280, Maspero, 691-2.
86. *Ibid.*, 687.
87. *Ibid.*, 681-6.
88. *Ibid.*, 689, Jastrow, 381, CAH, i, 531.
89. Jastrow, 249.
90. Maspero, 902.
91. Tabouis, 159, 165, 351.
92. Briffault, iii, 94.
93. Woolley, 165.
94. CAH, iii, 216-7.
95. Harper, *Literature*, 433-9.
96. Maspero, 682.
97. Jastrow, 253-4, Maspero, 643, Harper, lix.
98. Jastrow, 2141-9.
99. *Ibid.*, 267, Tabouis, 343-4, 374.
100. Williams; H. S., i, 74.
101. Tabouis, 365.
102. Herodotus, i, 199, Strabo, XVI, i, 20.
103. "This view is now generally discredited."—Briffault, iii, 203.
104. So Farnell thinks — Sumner *Folkways*, 541. Frazer (*Adonis*, 50) rejects this interpretation.
105. Frazer, 53.
106. Briffault, iii, 203.
107. Amos ii, 7, Sumner and Kelir, ii, 1273.
108. Frazer, 52, Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, i, 21-4, 109.
109. Briffault, iii, 220.
110. Jastrow, 309.
111. Maspero, 738-9.
112. Schneider, H., i, 155.
113. CAH, i, 547.
114. *Ibid.*, 500-3, Hobhouse, 180, Maspero, 734.
115. *Ibid.*
116. Herodotus, i, 166. Several writers, however, described the custom as flourishing 400 years after Herodotus, cf. Rawlinson's *Herodotus*, i, 271.
117. Maspero, 737.
118. Section 182.
119. Sumner, *Folkways* 378.
120. 141-2, Jastrow, 302-3.
121. 143.
122. CAH, i, 524, Maspero, 735-6, *Code*, 142.
123. *Encyc. Brit.*, ii, 663.
124. Maspero, 739.
125. Harper, *Literature*, xlviii, CAH, i, 520.
126. Woolley, 118, White, E. M., 71-5.
127. Maspero, 793.
128. *Ibid.*, 735-8.
129. III, 159.
130. Layard, ii, 411, Sanger, 42.
131. Herodotus, i, 198.
132. V, I, in Tabouis, 366.
133. Delaporte, 199.

134. Jastrow. 31. 69-97; Mason. W. A. 266; CAH. i. 124-5.
135. Jastrow. 275-6; Delaporte. 198; Schneider. H. i. 181; Breasted. *Conquest of Civilization*. 152.
136. Schneider. i. 168
137. Maspero. 564; CAH. i. 150.
138. Leonard. W. E. *Gilgamesh*. 3.
139. Ibid.. 8.
140. Maspero 670f.
141. Delaporte. ix.
142. Jastrow. 415.
143. Pratt. *History of Music* 45; Rawlinson. iii. 20; Schneider. i. 168; Tabouis 354; CAH. i. 533.
144. Perrot and Chipiez *History of Art in Chaldea and Assyria* II. 292 .
145. Cf. "The Lion of Babylon" Jastrow Plate XVIII. a work of glazed tile from the reign of Nebuchadrezzar II.
146. Herodotus. I. 180.
147. Tabouis. 313.
148. Jastrow. 10; Maspero. 624-7.
149. Jastrow. 258. 261. 492 (Maspero. 778-80; Strabo. XVI. i. 6; Rawlinson. II. 580.
150. Sarton. Geo.. *Introduction to the History of Science*. 71.
151. Rawlinson. II. 575; Schneider. i. 171-5; Lowie. 268; Sedgwick and Tyler 29; CAH. III. 288f
152. Tabouis. 47. 317
153. Schneider. i. 171-5.
154. Maspero. 545.
155. Tabouis. 204. 356.
156. New Orleans *States*. Feb. 24, 1932.
157. *Code*. 215-7.
158. 218.
159. Maspero 780f; Jastrow. 230 f.
160. Ibid; Tabouis. 294. 393.
161. Herodotus. I. 197; Strabo XVI. i. 20.
162. Schneider. i. 160.
163. Jastrow. 475-83; Landon. II. 35-6.
164. Ibid. 1.
165. Jastro. 461-3.
166. Tabouis. 254. 382.
167. Daniel. iv. 33.
168. Tabouis. 230. 264, 388.
169. Maspero *Passing* 626.
170. CAH. III. 208. Jastrow. 184. believes that it was the priestly party which, disgusted with the heresies of Nabonidus, admitted Alexander.
171. Jastrow, 185; CAH, I, 568.

الباب العاشر

1. CAH, i. 468.
2. New York *Times*. Dec. 26. 1932.
3. CAH. II. 429.
4. Olmstead. 16; CAH. I. 126.
- 4a. N. Y. *Times*. Feb. 24. 1933; Mar. 20. 1934.
5. CAH II. 248.
6. Harper. *Literature*. 16-7.
7. Jastrow. 166-7; Maspero. *Struggle*, 668-4.
8. Ibid, 50-2; Maspero. *Passing*. 27. 50.
9. Ibid, 8b. 94-5; CAH. III. 25.
10. Diodorus. II. vi-xx; Maspero. *Struggle*, 617; CAH, III, 27.
11. Maspero *Passing*. 243.
12. Olmstead. 309.
13. Maspero. *Passing*, 275-6.
14. Ibid. 345; CAH. III. 79.
15. Harper. *Literature* 94-127.
16. Delaportie. 343-4.
17. Maspero, *Passing*. 412f.
18. Olmstead. 488. 494; CAH. III. 88' 127; Jastrow. 182; Delaporte 223.
19. Diodorus. II. xxiii. 1-2.
20. Olmstead. 519. 525-8. 531. Maspero. *Passing*, 401-2.
21. Rawlinson. II, 235.
22. CAH, III, 100.
23. Maspero. *Passing*, 7.
24. Ibid., 9-10. ⁽¹⁾

25. Rawlinson, i, 474.
26. Ibid., 467.
27. Maspero, *Struggle*, 627-38.
28. EAH, iii, 104-7; Rawlinson, i, 477-9.
29. CAH, I c.
30. *Encyc Brit*, ii, 865.
31. Ibid., 868. (f)
32. Maspero. *Passing*, 422-3.
33. Olmstead, 510, 531.
34. Ibid., 522-3, 558.
35. CAH, iii, 186.
- 35a. Olmstead, 331.
36. Rawlinson, i, 405.
37. Olmstead, 537.
38. Ibid., 518; Maspero, *Passing*, 317-9; CAH, iii, 76, 96-7; Delaporte, 353; Rawlinson, i, 401-2.
39. CAH, iii, 107.
40. Ibid.; Delaporte, 285, 352.
- 40a. Olmstead, 624.
41. Maspero, *Passing*, 269.
42. Delaporte, 282; CAH, iii, 104-7.
43. Maspero, *Passing* 91, 262.
44. Olmstead, 87.
45. CAH, iii, 18.
46. Delaporte, viii.
47. Faure, i, 90.
48. Maspero, 545-6.
49. CAH, iii, 90-1.
50. Ibid., 89-90.
51. Delaporte, 354.
52. CAH, iii, 102, 241, 249.
53. Breasted, *Ancient Times*, 161; Jastrow, 21.
54. Maspero, 461-3.
55. *Encyc. Brit*, ii, 851.
56. Rawlinson, i, 277; Delaporte, 338; Jastrow, 407; CAH, iii, 109.
57. Schäfer, 555; now in the British Museum.
58. Schäfer, 581.
59. Ibid., 546; in the British Museum.
60. Oriental Institute, Chicago.
61. British Museum.
62. Schäfer, *Tafel XXXIV*.
63. Ibid., 587, 558-9; Jastrow, f. p. 24.
64. Faure, i, 91; Br. Mus.
65. Rawlinson, i, 509.
66. Schäfer, 656.
67. E.g., Baikie, f. p. 213; and Pijoan, i, figs. 175-6.
68. Fergusson, *History of Architecture*, i, 85, 174-6, 205.
69. Rawlinson, i, 299.
70. Layard, ii, 262f.
71. Jastrow, 374; translation slightly improved.
72. Br. Mus.
73. Rawlinson, i, 281.
74. CAH, iii, 16, 75-7; Maspero, *Passing*, 45; 260; Pijoan, i, 121, 111-8; Jastrow, 415; Schäfer, 542-3.
75. Maspero, *Passing* 460.
76. Harper, *Literature*, 125-6.
77. CAH, iii, 127.
78. Diodorus, ii, xxiii, 3.
79. Preserved in Diodorus, II, xxvii, 2. Cf. Maspero, *Passing*, 418, 4.
80. Nahum, iii, 1.

إِلْبَابُ الْحَادِي عَشَرَ

1. Cowan, A. R., *Master-cues in World-History*, 311; Petrie, *Egypt and Israel*, 26.
2. Breasted, *Conquest of Civilization*, 192n.
3. *Encyc. Brit.*, xi, 600-1.
4. Horzny, F., *ibid.*, 603.
- 4a. New York *World-Telegram*, Mar. 16, 1935.
5. Ibid., 606. Certain archeologists (e. g., Hrozný) have been especially moved by the lenience of the Hittite code with sexual 'perversions.
6. CAH, iii, 200.
7. Herodotus, IV. 64.
8. Maspero *Passing*, 479f. Hippocrates, *Airs, Waters, Places*,

- xvii-xxii.
 9. Ibid., xvii.
 10. Frazer, *Adonis*, 219f.
 11. Ibid., Maspero, *Passing*, 333.
 12. Frazer, 34, 219-24; Hall, M. P., *An Encyclopedic Outline of Masonic Philosophy*, 86.
 13. Herodotus, I, 93.
 14. Ibid., I, 87.
 15. Febvre, L., *Geographical Introduction to History*, 322.
 16. Moret, 350.
 17. Herodotus, II, 44.
 18. Strabo, XVI, II, 32.
 19. Diodorus Siculus V, xxxv; Rickard, I, 276.
 20. *Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. 1908, I, 296, in Rickard, I, 278.
 21. Maspero, *Struggle*, 192f, 203, 585; Day, Clive, *A History of Commerce*, 12-14; Briffault, I, 463; Sedgwick and Tyler, 14.
 22. Rickard, I, 283.
 23. Herodotus, IV, 42.
 24. Maspero, *Struggle*, 199, 740-1.
 25. Arrian, II, xv.
 26. Ibid., VI, 220.
 27. Zechariah, ix, 3.
 28. XV, II, 23.
 29. Frazer, *Adonis*, 183-4; Maspero, *Struggle*, 174-9; Bebel, A, *Woman under Socialism*, 39; Briffault, III, 220; Sanger, *The History of Prostitution*, 42.
 30. Sedgwick and Tyler, 15; Doane, T. W., *Bible Myths*, 41.
 31. E.g., Herodotus, V, 68.
 32. Dussaud, in Verkateswara, 328.
 33. CAH, I, 189.
 34. Maspero, *Struggle*, 572f.
 35. *Proceedings of the Oriental Institute*, Chicago, March 29, 1932.
 36. *New York Times*, Aug. 8, 1930.
 37. Ward, C. O., *The Ancient Lowly*, II, 83, 85.
 38. CAH, II, 328-9.
 39. Frazer, *Adonis*, 32-5.
 40. Ibid., 225-7; Maspero *Struggle*, 154-9.
 41. Ibid., 160-1.
 42. Deut., xviii, 10; 2 Kings, xxiii, 10 Summer. *Folkways*, 554.
 43. Frazer, 84; Maspero, *Passing*, 80; CAH III, 372.
 44. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 306; Maspero, *Passing*, 35; Rivers, W. H., *Instinct and the Unconscious*, 132.

الباب الثاني عشر

1. Exod. III, 8; Numb. xiv, 8; Deut. xxvi, 16, etc.
2. Quoted in Huntington, E., *The Pulse of Asia*, 368.
3. *New York Times*, Jan. 20, 1932, May 17, 1932.
4. CAH, II, 719n; *Encyc. Brit.* xiii, 42.
5. Gen. xi, 81.
6. Petrie, *Egypt and Israel*, 17.
7. CAH, II, 356.
8. Breasted, *Dawn of Conscience*, 349.
9. Maspero, *Struggle*, 70-1, 442-3.
10. Exod. xii, 40, Petrie, 38.
11. Exod. I, Deut. x, 22.
12. Exod. I, 12.
13. Josephus, *Works*, II, 466, *Contra Apion*, I.
14. Strabo, XVI, II, 35, Tacitus, *Historiae*, V, III, in Murphy, London, 1930, 498.
15. Exod. v, 4-6, Ward, *Ancient Lowly*, II, 76.
16. Schneider, I, 285.
17. United Press Dispatch from London, Jan. 25, 1932.
18. *New York Times*, April 18, 1932.
19. Numb. xxxi, 1-18, Deut. vii, 16, xx, 13-17, Joshua viii, 26,

- x. 24f, xii.
20. Ibid., xi, 23; Judges v, 31.
21. CAH, iii, Maspero, *Passing*, 127; *Struggle*, 762; Buxton, *Peoples of Asia*, 97.
22. Renan, *History of the People of Israel*, i, 86.
23. Schneider, i, 300; Mason, *Art of Writing*, 289.
- 23a. N. Y. Times, Oct. 18, 1934.
4. Maspero, *Struggle*, 684.
25. Judges xvii, 6.
26. 1 Sam. viii, 10-20; cf. Dent. xvii, 14-20.
27. Judges xiii-xvi; xv, 15.
28. 2 Sam. vi, 14.
29. 1 Kings ii, 9.
30. 2 Sam. xi.
31. 2 Sam. xviii, 33.
32. 1 Kings iii, 12.
33. 1 Kings iv, 32.
34. 1 Kings ix, 26-8.
35. Ibid.
36. 1 Kings x.
37. Ibid., x, 14.
38. *Jewish Encyclopedia*, ix, 250; Graetz, H., *Popular History of the Jews*, i, 271.
39. Kennu, ii, 100.
40. 2 Chron. ix, 21.
41. Maspero, *Struggle*, 737-40.
42. Josephus, *Antiquities*, VII, 7.
43. 1 Kings iii, 2.
44. 1 Chron. xxix, 2-8.
45. CAH, iii, 347.
46. Ibid.
47. 2 Chron. ii, 4-7; iv, *passim*.
48. 2 Chron. ii, 7-10, 16; 1 Kings v, 6.
49. 2 Chron. ii, 17-18.
50. Cf. 1 Kings vi, 1, with vii, 2.
51. Fergusson, *History of Architecture*, i, 209-11.
52. Shotwell, J., *The Religious Revolution of Today*, 30.
53. Josephus, VIII, 18.
54. CAH, iii, 428.
55. Numb. xxi, 8-9; 2 Kings xviii, 4.
56. Allen, O., *Evolution of the Idea of God*, 1921; Howard, C., *Sex Worship*, 154-5.
57. Smith, W. Robertson, *Religion of the Ancient Simes*, 101.
58. Reinach, *History of Religions* (1930), 176-7.
59. Exod. vii.
60. New York Times, May 9, 1931.
61. Exod. xii, 7, 31.
62. Exod. xxxiii, 19.
63. Gen. xxxi, 11-12.
64. Exod. xxxiii, 23.
65. 1 Kings xx, 23.
66. Exod. xv, 3.
67. 2 Sam. xxii, 35.
68. Exod. xxiii, 27-30.
69. Lev. xxv, 28.
70. Exod. xiv, 18.
71. Numb. xxv, 4.
72. Exod. xx, 5-6.
73. Ibid., xxxii, 11-14.
74. Numb. xiv, 13-18.
75. Gen. xviii.
76. Deut. xxviii, 16-28, 61. Cf. the formula of excommunication in the case of Spinoza, in Willis, *Benedict de Spinoza*, 84.
77. Exod. xx, 5; xxxiv, 14; xxiii, 24.
78. Ruth i, 15; Judges xi, 24.
79. Exod. xv, 11; xviii, 11.
80. 2 Chron. ii, 5.
81. Ezek. viii, 14.
82. Jer. ii, 28; xxxii, 35.
83. 2 Kings ii, 15.
84. 2 Sam. vi, 7; 1 Chron. xiii, 10.
85. Sumner, *Folkways*, 554.
86. CAH, iii, 451f.
87. Numb. xviii, 23.
88. Ezra vii, 24.
89. Numb. xvii, 9f.
90. Isaiah xxviii, 7; Judges viii, 33; ix 27; 2 Kings xvii, 9-12, 16-17; xxlii, 10-18; Lamentations ii, 7.
91. Ezek. xvi, 21; xxiii, 37; Isaiah, lvi, 5.
92. Amos ii, 6.
93. CAH, iii, 458-9; Frazer, *Adonis*, 66.
94. Jer. xxix, 26.
95. Maspero, *Passing*, 783.
96. Applied by O. B. Shaw to Christ

- in "The Revolutionist's Handbook," appended to *Man and Superman*.
98. CAH, vi, 188.
99. Like Isaiah xl-lxvi.
100. CAH, iii, 462.
101. Amos v-vi.
102. Ibid., iii, 12, 16.
103. New York Times, Jan. 7, 1934.
104. Hosea viii, 6-7.
105. Kings xviii, 27; Isaiah xxxv, 12.
106. Maspero, *Passing*, 290; CAH, iii, 390.
107. Sarton, 58.
108. Isaiah vii, 8.
109. Ibid., xvi, 7.
110. III, 14-15; v, 8; x, 1f.
111. I, 11f.
112. Amos ix, 14-16.
113. Isaiah vii, 14; ix, 6; xi, 1-6; ii, 4. The final passage is repeated in Micah iv, 3.
114. Hosea xii, 7.
115. 2 Kings xxii, 8; xxiii, 2; Chron. xxxiv, 15, 31-2.
116. Sarton, 63, CAH, iii, 482.
117. 2 Kings xxiii, 2, 4, 10, 13.
118. 2 Kings xxv, 7.
119. Psalm CXXXVII.
120. Jer. xxvii, 6-8.
121. XV, 10; xv, 14.
122. V, 1.
123. V, 8.
124. XXXIV, 8f.
125. VII, 22-3.
126. XXIII, 11, v, 31; iv, 4; ix, 26.
127. XVII, 23.
128. IV, 20-31; v, 19; ix, 1.
- 128a. Arguments for doubting Jeremiah's authorship of *Lamentations* may be found in the *Jew. Encyc.*, vii, 598.
129. Lam. i, 12, iii, 38f; Jer. xii, 1.
130. Ezek. xvi, xxiii.
131. Ibid., xxii, xxxviii, 2.
132. Ibid., xxxvi.
- 132a. CAH, vi, 183; *Enc. Brit.*, iii, 503.
133. Isaiah lxi, 1.
134. Ibid., xl, 3, 10-11; lili, 9 6. >
- 134a. AH. iii, 498.
135. LXV, 25.
136. XLV, 5.
137. XL, 12, 15, 17, 18, 22, 26.
138. Ezra i, 7-11; Maspero, *Struggle*, 638f; *Bassing*, 784.
139. Nehemiah x, 29.
140. 2 Kings xxii, 10; xxiii, 2; Nehem. viii, 18.
141. CAH, vi, 175.
142. *Enc. Brit.*, iii, 502.
- 142a. *Jew. Encyc.*, v, 322.
143. Ibid.; Sarton, 108; Maspero, *Passing*, 131-2.
144. CAH, iii, 481.
145. Doane, *Bible Myths*, chapter I., *passim*.
146. Ibid., 10.
147. Ibid., ch. i.
148. Cf. Doane, 18-48.
149. Sarton, 63.
150. Renan, iv, 163.
151. Reinach (1930), 19; Frazer, Sir J. G., *The Golden Bough*, 472.
152. Exod. xxi-ii; Lev. xviii.
153. Spencer, *Sociology*, iii, 189.
154. Garrison, *History of Medicine*, 67.
155. Ibid.
156. Ibid.
157. Briffault, iii, 331.
158. Renan, i, 105.
159. Diodorus Siculus I, xciv, 1-2; Doane, 59-61.
160. Diodorus, Ibid.
161. Lev. xxiv, 11-16; Deut. vii, xlii, xvi, 2-5.
163. Petrie, *Egypt and Israel*, 60-1; CAH, iii, 427-8.
164. Ezra i, 7-11.
165. 2 Chron. v, 13.
166. 2 Sam. vi, 6.
167. *Enc. Brit.*, 11th ed., xv, 311; *Jew. Encyc.*, vii, 88.
168. Briffault, ii, 433; Sumner and Keller, ii, 1113.
- 168a. Reinach (1930), 195; *Jew. Encyc.*, v, 377.
169. Gen. xxiv, 58; Judges i, 12.
170. Howard, 58.

172. Judges iv, 4.
173. 2 Kings xvii, 14.
174. Briffault, iii, 362; Howard, 49; Dubois, 312; Sumner, *Folkways*, 316, 321.
175. Gen. xxx, 1.
176. Cf. Maspero, *Struggle*, 733, 776; CHA, II, 373.
177. Maspero, *ibid.*
178. Cf. 2 Kings iii, 18-19; Joshua vi, 21, 24.
179. 1 Kings xxi, 29.
180. Deut. vii, 6; xiv, 9; 2 Sam. vii, 23, etc.
181. Sanger, *History of Prostitution*, 36.
182. *ibid.*, 35; Gen. xiv, 24-5.
183. Sanger, 37-9.
184. Gen. xxix, 20.
185. Deut. xxi, 10-14.
186. Judges xxi, 20-1.
187. Gen. xxxi, 15; Ruth iv, 10; Hobhouse, *Morals in Evolution*, 197f; Briffault, ii, 212; Lippert, 310.
- 187a. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 609; White, E. M., *Woman in World History*, 169f.
188. Gen. xxx.
189. Dent. xxv, 5.
190. Lev. xx, 10; Deut. xxii, 22.
191. Westermarck, i, 427.
193. Deut. xxiv, 1; Westermarck, ii, 649; Hobhouse, 197f.
194. Gen. xxiv, 67.
195. Lev. xxv, 28.
196. Renard, 160; CAA, I, 201.
197. Deut. xv, 6; xxviii, 12.
198. Sumner, *Folkways*, 276.
199. 2 Kings iv, 1; Matt. xviii, 26.
200. Lev. xxv, 14, 17.
201. Exod. xxi, 9; Deut. xv, 12-14.
202. Lev. xxv, 10.
203. Deut. xv, 7-8; Lev. xxv, 36.
204. Exod. xxi, 10; Deut. xxiv, 19-20.
205. Gen. xxiv, 2-1.
206. Graetz, i, 173.
207. Deut. xvii 8-12.
208. Numb. v, 27-9.
209. *Ibid.*, 6-8.
210. Exod. xxi, 15-21; xxii, 19.
211. Exod. xxii, 18.
212. Numb. xxxv, 19.
213. Deut. xix.
214. Exod. xxi, 23-5; Lev. xxiv.9-20.
215. Exod. xx, 17.
216. Renan, ii, 307.
217. *Jew. Encyc*, vii, 381; Graetz, i, i, 224.
218. *Enc. Brit.*, iii, 504. The *Psalms* seem to have been collected in their present form ca. 150 B.C.—*ibid.*, xxii, 539.
219. In the poem entitled "Walt Whitman," sect. 44; *Leaves of Grass*, 84-5.
219. The *Jew Encyc.*, xi, 467, assigns its composition to 200-100 B.C.
220. *Songs of Solomon* i' 13-16; ii, 1 5, 7, 16, 17; vii, 11, 12.
221. Prov. vii, 26; vi, 32; xxx, 18-19.
222. *Ibid.*, v, 18-1-19; xv, 17.
223. *Ibid.*, vi, 6, 9.
224. XXII, 29.
225. i, 32; xxviii, 20.
226. XIV, 28; xxviii, 11, xvii, 28.
227. XVI, 22; iii, 13-17.
228. *Enc. Brit.*, iii, 504.
229. Jastrow, M., *Book of Job*, 121.
230. Kallen, H., *Book of Job as a Greek Tragedy*, Introduction.
- 230a. Carlyle, Thos., *Complete Works*, Vol. I, *Heroes and Hero-Worship* p. 280, Lect. II.
231. Job vii, 9-10; xiv, 12.
232. Psalm LXXIII, 12.
233. Psalms XLii, XLiii, 28; LXXIV 22; LXXXIX, 46; CXV, 2.
234. Job xii, 2-3, 6; xiii, i, 4-5.
235. XXXI, 35.
236. Renan, v, 148; Jastrow, *Job*, 180.
237. Job xxxviii, 1-xi, 2. It has been argued that these chapters are an independent "nature-poem," artificially attached to the *Book of Job*.
238. Job xlii, 7-8.
239. Sartou, 180.
240. Eccles i, 1.

241. *Ibid.*, vii, 15; IV 1; v, 8.
 242. IX, 11.
 243. V, 10, 12
 244. V, 11.
 245. VII, 10.
 246. I, 8-10.
 247. L 11.
 248. I, 2-7, iv, 2-3; vii, 1.
 250. VIII, 15; ii, 24; v, 18; ii, 1.
 251. VI, 28, 26.
 252. IX, 8.
 253. XII, 12.
 254. VII, 11, 16.
 255. *Exod.* xxxiii, 20.
 256. *Eccles.* i, 13-18.
 257. III, 19, 22; xix 10; For the Talmudic interpretation of the final chapter of *Ecclesiastes*, cf. Jastrow, M., *A Gentle Cynic*. 189f.
 258. Josephus, *Antiquities*, XI, 8; *Works*, I, 417. The account is questioned by some critics—cf. *Jew. Encyc.*, i, 342.

الباب الثالث عشر

1. Huart, C. *Ancient Persian and Iranian Civilization*, 25-6.
 2. Maspero, *Passing*, 452
 3. Herodotus, I, 99.
 4. *Ibid.*, i, 74.
 5. Rawlinson, ii, 370.
 6. Daniel vi, 8.
 7. Rawlinson, ii, 316-7.
 8. Huart, 27.
 9. Herodotus, I, 119.
 10. *Encyc Brit.*, xvii, 571.
 11. Rawlinson, iii, 389.
 12. Maspero, 668-71.
 13. Rawlinson, iii, 393.
 14. Herodotus, III, 184.
 15. Sykes, Sir P., *Persia*, 6.
 16. XV, iii, 10.
 17. The population estimates are those of Rawlinson, iii 422, 241.
 18. Strabo, XV, ii, 8; Rawlinson, ii, 306; iii, 164; Maspero, 452.
 19. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 211, 222, 259; Rawlinson, iii 202-4; Köhler, Carl, *History of Costume* 75-6.
 20. Rawlinson, iii, 211, 248.
 21. Adapted from Rawlinson, -iii, 250-1.
 22. Huart 22.
 23. Schneider, i, 350.
 24. Mason, W. A., 264.
 25. Dhalla. 141-2.
 26. Herodotus, I, 126.
 27. Strabo, XV, iii, 20; Herodotus, I, 133.
 28. Dhalla, 187-8.
 29. Herodotus, V, 52.
 30. CAH, iv, 200.
 31. Dhalla, 218.
 32. *Ibid.*, 144, 257; Müller, Max, *India : What Can It Teach Us?*, 19.
 33. Rawlinson, iii, 427.
 34. CAH, iv, 185-6.
 35. Rawlinson, iii, 245.
 36. *Ibid.*, 171-2.
 37. *Ibid.*, 228; Plutarch, *Life of Artaxerxes*, chs. 5-17.
 38. Rawlinson, iii, 221.
 39. Dhalla, 237.
 40. *Ibid.*, 89.
 41. Rawlinson, iii, 241.
 42. Herodotus, VII, 39. But perhaps Herodotus had been listening to old wives' tales.
 43. Dhalla, 95-9.
 44. *Ibid.*, 106.
 45. Herodotus, V, 26.
 46. Darmesteter, J., *The Zend-Avesta* i, p. lxxxiii f.
 47. *Ibid.*
 48. Huart, 78; Darmesteter lxxxvii; Rawlinson, iii, 246.
 49. *Ibid.*, Sumner, *Folkways*, 236.
 50. Plutarch, *Artaxerxes*, in *Lives*, iii, 464.
 51. Rawlinson, iii, 427; Herodotus, III, 95; Maspero, *Passing*, 690f;

- CAH, iv, 1981.
53. Maspero, 572f.
54. Vendidad, XIX, vi, 45.
55. Darmesteter, i, xxxvii; *Encyc. Brit.*, xxiii, 987.
56. Dawson, M. M., *Ethical Religion of Zoroaster*, xiv.
57. Rawlinson, ii, 323.
58. Edouard Meyer dates Zarathustra about 1000 B.C.; so also Duncker and Himmelf (Encyc Brit., xxiii, 987; Dawson, xv); A. V. W. Jackson places him about 660-683 B.C. (Sarton, 61).
59. Briffault, ii, 191.
60. Dhalla, 72.
61. Schneider, i, 332; CAH, iv, 210f; Rawlinson, ii, 323.
62. *Encyc Brit.*, xxiii, 942-3; Rawlinson, ii, 322; Dhalla, 38f.
63. Ibid., 40-2; *Encyc Brit.*, xxiii, 942-3; Maspero, *Passing*, 575-6; Huart, xviii; CAH, iv, 207.
64. *Encyc Brit.*, l.c.
65. Darmesteter, xxvii, Our, Sir Hari Singh, *Spirit of Buddhism*, 12.
66. Vend. II, 4, 29, 41.
67. Ibid., 22-43.
68. Darmesteter, lxiv-iv.
69. Yasna, xlv, 4.
70. Darmesteter, iv, lxx.
71. Dawson, 52f.
72. *Encyc. Brit.*, xxiii, 988.
73. Dawson, 46.
74. Maspero, *Passing*, 583-4; Schneider, i, 336; Rawlinson, ii, 340.
75. Dawson, 125.
76. *Shayast-Shayast*, XX, 6, in Dawson, 131.
77. Vend. IV, 1.
78. Ibid., XVI, iii, 18.
79. Herodotus, i, 134.
80. *Shayast-Shayast*, VII, 6, 7, 1, in Dawson, 36-7.
81. Westermarck, *Morals*, ii, 434; Herodotus, VII, 114; Rawlinson, iii, 350n.
82. Strabo, XV, iii, 13; Maspero, 502-4.
83. Reinach (1930), 73; Rawlinson, ii, 338.
84. The "Ormuzd" Yast, in Darmesteter, ii, 21.
85. Nask VIII, 58-73, in Darmesteter, i, 380-1.
86. Vend., XIX, v, 27-34; Yast 22; Yasna LI, 15; Maspero, 550.
87. Yasna XLV, 7.
88. Dawson, 246-7.
89. Ibid., 250f.
90. Ibid., 250-3.
91. CAH, iv, 211.
92. Cf., e.g., Darmesteter, i, pp. lxxii-iii.
93. CAH, iv, 209.
94. Dhalla, 201, 218; Maspero, 595.
95. Harper, *Literature*, 181.
96. Dhalla, 250-1.
97. Herodotus, IX, 109; Rawlinson, iii, 110.
98. Ibid., iii, 518, 524.
99. Ibid., 170.
100. Strabo, XV, iii, 20.
101. Dhalla, 221.
102. Herodotus, I, 80; Xenophon, *Cyropaedia*, I, ii, 8; VII, viii, 9; Strabo, XV, iii, 18; Rawlinson, ii, 236.
103. Dhalla, 155; Dawson, 36-7.
104. Dhalla, 119, 190-1.
105. E.g., Vend. IX.
106. Darmesteter, i, p. lxxviii.
107. Vend. VIII, 61 5.
108. I, 4.
109. I, 135.
110. Vend. VIII, v, 32; vi, 27.
111. Strabo, XV, iii, 17; Vend. IV, iii, 47.
112. Ibid., iii, 1.
113. XV, ii, 20f.
114. XX, i, 4; XV, iv, 50 1.
115. XXI, i, 1.
116. Maspero, 588. These cases were apparently confined to the Magi.
117. Herodotus, VII, 83; IX, 76; Rawlinson, iii, 238.
118. Esther, ii, 14; Rawlinson, iii, 219.
119. Dhalla, 74-6, 219; Rawlinson, iii, 222, 237.

- 119a. Plutarch, *Artaxerxes*, *Lives*, iii, 463-6.
120. Dhalla, 70-1.
121. Herodotus, I, 139; Dhalla, 219.
122. Vend. XV, 9-12; XVI, 1-2.
123. Bhandari, XVI, 1, 2, in Dawson, 156.
124. Venkateswara, 177, Dhalla, 225.
125. Ibid., 83-5; Dawson, 151.
126. Herodotus, I, 136.
127. Strabo, XV, iii, 18.
128. Darmesteter, I, p. lxxx.
129. Vend. VII, vii, 41f.
130. Ibid., 36-40.
131. Rawlinson, iii, 235.
132. *N. Y. Times*, Jan. 6, 1931.
133. Dhalla, 176, 195, 256; Rawlinson, iii, 234.
134. *N. Y. Times*, Jan. 23, 1933.
135. Dhalla, 253-4.
136. Rawlinson, iii, 278.
137. *N. Y. Times*, July 28, 1932.
138. Fergusson, *History of Architecture*, i, 198-9, Rawlinson, iii, 298.
139. Broadcast in *N. Y. Times*, March 9, 1932.
140. CAH, iv, 204.
- 140a. Dhalla, 260-1.
- 140b. Rawlinson, iii, 244, 400.
141. Maspero, 715.
142. Arrian, *Anabasis of Alexander*, I, 15.
143. Josephus, *Antiquities*, XI viii, 3.
144. Arrian, I, 16.
145. Quintus Curtius, III, 17.
146. Arrian, II, 11, 13; Plutarch, *Life of Alexander*, ch. 20.
147. Quintus Curtius, X, 17, CAH, vi, 369.
148. Plutarch, *Alexander*, ch. 31; Arrian, III, 8.

فهرس الاعلام

أبيس (الجل) من معبودات المصريين

٤٠٥

أبيقور والايقورية الخ ١٥٤

أتوسا زوج دارا الأول (حوالي ٥٠٠

ق. م.) ٤٠٨

أتوسا ابنة أرت خشستر الثاني وزوجته

(حوالي ٣٧٥ ق. م.) ٤٢٥ *

أتون (إله إخناتون) ١٦٩ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ،

أثينة (أو أثينسا) - أثينية ، أثينيون

٨ ، ١٠٠ ، ١٣٨ ، ٤٠٨ ، ٤٥٣ ،

إثيوبيا (الحبشة) ، الإثيوبيون ٧ ، ٦٥ ،

١٨٤ ، ٣٥٢

أبجاء ١٣ ، ١٨ ، ١٩

أجمتون ٣١٩

أخاسوروس ٣٩٨

أحمس (بردية) ١٢٠

أحمس ، ملكة مصر (حوالي ١٥٠٠

ق. م.) ٧٧

أحمس الثاني ملك مصر (٥٦٩ - ٥٢٦

ق. م.) ٧ ، ٣٢٦

أخشويرش ملك الفرس (انظر خشيارش)

إخناتون ملك مصر (انظر أمندوتب الرابع)

٦ ، ٣٠ : ١٠٢ ، ١١٨ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٥ ، ٣٤٤ ، ٣٨٦ ،

٤٣٣

أخنوخ ٣٩٤

الآخيون ١٨٣

(أ)

إبراهيم ١٠٩ * ، ١١٩ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،

٣٢٤ ، ٣٤٢

الإبستاق ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ،

٤٤٣ ، ٤٤٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٣

إسماتيك الأول ملك مصر وأمير ساو

(٦٦٣ - ٦٠٩ ق. م.) ٧ ، ١٨٤

إسماتيك الثاني ملك مصر (٥٩٣ - ٥٨٨

ق. م.) ٧

إسماتيك الثالث ملك مصر (٥٢٦ - ٥٢٥

ق. م.) ٧

أسو المحيط ٢١٧

إسبن ٢٣

أبشالوم بن سلومان (حوالي ٩٥٠ ق. م.)

٣٣٢

أبقراط ١٢٣ ، ٣٠٥ *

ابن خلدون ١٩٤ *

إبشار ٣٩

أبو (الإله) ٢٩ ، انظر تموز

أبو أو أبي سبيل ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٨٠ ،

١٨١

أبو شهرين ١٣٠

أبو صير ١٣٩

أبو الهول ٤٤٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ١٠٧ ،

١٣٠ ، ١٣٦ ، ٣٠٢ *

أبولون ٢٩٢

أبور (الفيلسوف المصري) ١٤٩ ،

١٥١ ، ٥١٥

(*) هذه العلامة تشير إلى هامش الصفحة .

أرطخشث انظر أرت خشتر
الأرمين ، وأرمينية ٧ ، ١٤ ، ٧٦٧ ،
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٦٠ ،
إرميا ٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ،
٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
أرورو (عراية جلميش) ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
أروك أوارك ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٩٠ ،
١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ،
آرى - آريون - آرية ١٠ ، ٣٠١ ،
٣٠٣ ، ٣٤٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،
أريئس إله الفريجيين ٣٠٥ ،
أريحا ٣٢٣ ، ٣٢٦ ،
إريدو ١٣ ، ١٤ ، ٣٠ ، ١٣٩ ،
إسهارطه ٤٠٨ ،
سپانيا ١٨٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
امپتوزا (باروخ) الفيلسوف اليهودي
الهلنسى (١٦٧٢ - ١٦٧٧) ٣٤٢ ،
امتاثير ٤٤٢ ،
إستر ٩ ، ١٦٠ ، ١٩٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦ ،
استرابون (الجغرافى اليونانى ٦٣ ؟ ق. م.
- ٢٤ م. ب. ٤٨ ، ٧٠١ ، ٣١٤ ،
٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ،
استروك : جان ، ككاتب فرنسى فى القلعة
(١٦٨٤ - ١٧٦٦) ٣٦٧ ،
أستواد إله الموت عند الفرس ٤٣٤ ،
أسقياجيس ملك الميديين (حوالى ٥٦٠ ق. م.)
٤٠١ ، ٤٠٢ ،
استيوارت : ملوك إنجلترا ٣٦١ ،
إسحق : ٣١٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦ ،
إسرائيل ٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ،
٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

أدابا حكيم إزيديو ٣٠ ، ٢٨٥ ،
آدم ٣٤٠ ، ٣٦٨ ،
الإدمين ٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،
دناى ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٧٣ ،
أدنيش ١٦ ، ١٦٩ ، ٢١٨ ، ٢٦٧ ،
٣٠٨ ،
إدون اسميث (بردية) ١٢٤ ،
أراتو وأارات (انظر الأرمين)
الأراك (جبل) ٤٤ ، ٦٥ ،
الأراك (نهر) ٤١٠ ،
أراق ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
الارامية ، (الأراميين) ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٧٧ ، ٤١١ ،
أران ٤١٠ ،
إريلا أو إزبل (مدينة ومملكة) ٨ ،
٢٦٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ،
أرتبان أو أرتباقوس أو أردوان من حاشية
خشيارشاى الأول ٤٥٥ ،
أرت خشتر الأول ملك فارس (٤٦٤ -
٤٢٣ ق. م.) ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ،
أرت خشتر الثانى ملك فارس (٤٠٤ -
٣٥٩ ق. م.) ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ،
٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
أرت خشتر الثالث (أوكوس) ملك فارس
(٣٥٩ - ٣٣٨ ق. م.) ٨ ، ٤٥٥ ،
أرتكز ركس (انظر أرت خشتر)
أرجستس الثانى ملك أرمينية (حوالى
٧٠٨ ق. م.) ٣٠٣ ،
أرخزبان ٤٦٠ ،
أودشير ، انظر ارتكز ركس ملك الفرس
الأردن (نهر) ٣١٩ ،
الارساسيين ٤٢٦ ،
أرسطوفانيز ٣٦٨ ،
أرسيس ملك الفرس ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٤٥٦ ،
أوسهونى ٩٥ ،
أرشكجال ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٤٢٢ ، ٤٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥
 أسيوى وأسيون ٤٤ ، ٦٦ ، ٧٨ ،
 • ١٩٨ ، ١٨١ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٨٤
 ٤٥٧ ، ٢٦٥

إشتار ٢٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ،
 ٣١٥ ، ٣٨٨ (انظر أيضاً عشقوت)

إشتارق ٢١٥ (انظر أيضاً عشقوت)
 إشعيا الأول من أنبياء بني إسرائيل (سواى
 ٧٢٠ ق. م) ٧ ، ١٧٥ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٤٠٤ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ،
 ٤٢٥

إشعيا الثانى ٢١٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣

الإشكانيين ٣٠٠

أشور — المدينة — الدولة — الآلهة :
 ٦ ، ٧ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٤٢ ،
 ٤٣ ، ١٨٣ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
 ٢٠٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٦٣ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٤٤١ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢

أشور بانيبال الأول ملك أشور (٦٦٩
 ٦٢٦ ق. م) ٧ ، ١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٤٠ ،
 أشور بانيبال الثانى ملك أشور ٢٨٧
 ٢٨٩

أشور ناصر بال الثانى ملك الاشوريين

٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٢٥
 أسركون الأول ملك مصر (٩٢٥ - ٨٨٩
 ق. م) ٦

أسركون الثانى ملك مصر (٨٨٠ - ٨٥٠
 ق. م) ٧

إسشر : الأسقف ٣٢٢

إسكلندة ٣٦٠

الإسكندر الأكبر ملك مقدونية (٣٣٦ -

٣٢٣ ق. م) ٨ ، ١٧ ، ٤٧ ، ٥٤ ،
 ٩٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،
 ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،
 ٤٦٠

الإسكندرية ٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
 ١٢١ ، ١٤٨ ، ٣١٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠

الإسلام ٣٠٩

إسماعيل ٣١٥

استشروتقر الموسيقى المصرى ١٤٦

أسوان (مدينة وخزان) ١٢٩

أسوس (مدينة ومدرسة) ٨ ، ٤٣٩ ،
 ٤٥٨

آسية ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢١ ،
 ٤٤ ، ٤٤ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٤ ،

١٠٧ ، ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
 ٢٦٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٨ ، ٣٥١ ، ٣٦٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ،
 ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٥٣٤ ،
 ٤٥٧ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،
 آسية الصغرى ٢٠٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ،

- أكسفورد ٢٥
الأكينيون ٤٠٣ ، ٤٦٠
إل أولو ٣١٨
إلفنتين ١٢٩
اللمان ، ألمانى ٣٤٤ ، * ٤١١ ، ٣٥٥
ألننى القائد البريطانى فى الحرب العالمية الأولى ٧٩
ألوهم ٣١٨ ، ٣٦٧
إلياذة هوميروس ٣٤٠
ألئت اسمت (بردية) ٤٤ *
إليتيس أو إلياطس ملك ليديا ٧ ،
إليش ٣٤٣ ، ٣٤٦
إليو ٣٩٢
أماسيز (انظر أجوس)
الأمثال (سفر) ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧
٣٩٨
أخوتب ٦٦ ، ١٤٧ ، ١٥٣
امرفال والد جورابى ٣٢٤
إمرسن رلف وللو الكاتب الفيلسوف
الأمريكى (١٨٠٣ - ١٨٨٢) ٤٠٣ ،
٤١٣ ، ٤١٩
أمريكا وأمريكى ٩ ، ١٠ ، ١٥ ، ٩٦ ،
١٠٠ ، ١٠٣ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، *
أمنحوتب بن جابو ، المهندس والمثال المصرى
(حوالى ١٤٥٠ ق. م) ١٤٨
أمنحوتب الثانى ملك مصر (١٤٤٧ -
١٤٢٠ ق. م) ٨٠ ، ٩٤
أمنحوتب الثالث ملك مصر (١٤١٢ -
١٣٧٦ ق. م) ٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٠ ،
٩٥ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ،
١٦٨ ، ١٦٩ ، * ١٩٥
أمنحوتب الرابع ملك مصر (١٣٨٠ -
١٣٦٢ ق. م) ١٦٨ (انظر إخناتون)
أمنوب (كتب خطأ أمنحوتب) ١٠٠
أمون أو أمون رع إله المصريين الأقدمين
٧٧ ، ٩٩ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
(٣١ - قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)
- (٨٨٤ - ٨٥٩) ٦ ، ٢٦٧ ، ٢٩٠ ،
٢٩٢ - ٢٩٤
أشور نيرارى ملك آشور (٧٥٣ -
٧٤٦) ٥٦٦ *
أشورى - آشوريون الخ ٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ،
٢٣٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٦ ، * ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، * ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
٣٠٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
٣٣٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣
إفرايم ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧
إفرديت أو أفرديتى ٢١٥ ، ٣١٥ ، ٤٣٦
أفريسياب ٤٣٤
أفريقية وأفريق ٤٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤
أفغانستان ٢ ، ٩٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣
أفلاطون ١٠٠
إفيجينيا ٣١٩
إفريطش (انظر كريت)
الإقصر ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ،
١٢٨ ، ١٨٢
الإقطاع ٢٦ ، ٢٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
٨٣ ، ٩٣
إكباتانا مدينة فارسية مكان همدان الحديثة
٤٠٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢٨ ، ٤٤٨
أكبر إمبراطور المغول (١٥٦٠ - ١٦٠٥
ب. م) ١٦٩ ، ١٩٢ *
أكتينوس ٥٤
أكد ، أكدي ، أكديون ٥ ، ١٣ ،
١٦ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ١٨٨ ،
١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٨٥
أكربلاد ٦٣
أكزركس (انظر خشيرشا وأخشويرش)

(ب)

بابل ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١٢ ١٣
٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩
١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩
١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠
٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩
٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١
٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١
٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥
٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣
٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢
٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤
٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢
٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤

بابلون ١٩٥ * ٢٢٩

بابل - بابليون - بابلية ١٤ * ٣٤
٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢
١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤
١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢
٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤
٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢
٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩
٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠
٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨
٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩
٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠

باتوس ٣١٥

باتيسي أو الملك الكاهن ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢

البارثون ٣٣٥

بارسيا ١٩٠

بارسوا ٣٩٩

البارسيون ٤٢٦ * ٤٢٧ * ٤٢٨ * ٤٢٩ * ٤٣٠ * ٤٣١

٤٣٢

الإمبراطور الروماني الفيلسوف (١٦١ -

١٨٠) ٢١

أور - نينا ملك لكش (٣١٠٠ ق.م.)

٣٩ ٤٠

أوروك ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤

أورو كاجينا ٥ ١٧ ٣١

أورية الحثي ٣٣١

أوزير إله المصريين ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢

١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤

أوكوس ملك الفرس ٨ ٤٥٥ (انظر

أرت خشت الثالث)

أونا : الفتنان المصري ١٧٦

إي : إله الحكمة عند السومريين ٣٠

٢١٨

إيجرز (بردية) ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥

إيجره (بحر) ٣٠١

إيران ١١ ٢٣٦ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣

إيراني وإيرانيون ٤١٦ * ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩

٤٢٧

إيرمن المؤرخ الألماني ٥٠

إيريانا فيجو ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦

إيزابل ٣٥١ *

إيزوب (خرافات) ١٠٢

إيزيس إلهة المصريين ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥

١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥

إيطاليا ٣١٣

إيطالي وإيطالية الخ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣

٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١

إيليا النبي العبراني (حوالي ٨٩٥ ق.م.)

٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١

إينانوم ٣٩

أيوب وسفر أيوب ٨ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠

٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧

٣٩٣

أيونيا وأيونية وأيونيون ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤

٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤

بركليز ٢١ ، ٥١ ، ٥٤
 برلين (المتحف الفني) ١٢١ ، ١٣٢ *
 ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ،
 ، ١٩٨ * ، ٢٩١ ، ٣١٥ *
 البرهمية (الشريعة) ٤٣٩
 بروسس ١٤ * ، ٤٢٥
 بريدلانيا ٣١١
 بريطاني (المتحف) ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٧ ،
 ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٦٩ * ، ٢٣٩ ،
 ، ٢٨٦ * ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ * ، ٢٩٢
 بساتش ٣٧٣
 بسنة (انظار وبسطة)
 البسفور ٣٣١ ، ٤١٧
 بيسكل (أسكر فرديناند العالم الجغرافي
 الألماني ١٨٤٦ - ١٨٧٥) ٨٦ ،
 ٣٢١
 بيسوس ١٦٣
 البطالة ٨ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١٤٢ ، ١٨٤
 بطرس الأكبر إمبراطور روسيا (١٦٨٢
 - ١٧٢٥) ٣٤٨
 بطليموس ٦٢
 بعل إله الفينيقيين ٣١٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ،
 ٣٥٧ ، ٣٤٦
 بغداد ٤٠ ، ٢٧٩ *
 بك : المثال المصري (حوالى ١٣٧٠ ق.م)
 ١٧٦ ، ١٤٨
 بكتريا ٤٠٩
 بكتوبس (شهر) ٣٠٥
 بل ١٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢١٤
 بلاتيه ٤٥٣
 بلخين ٤٦٠
 بل مردك ٢١٤
 بلاوات ٢٨٦ ، ٢٩٤
 بلزبوب ٣٤٣

بارمينو ٤٥٩
 باروخ ٣٥٨
 بارميستا ٤٤٢ *
 بازار جاده ٤٤٧ ، ٤٢٠
 باسليوس ٤١٥ *
 بيلوس ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥
 بتاج أو فتاح إله المصريين ١٦١
 بتاج حوتب ٩٧ ، ١١٤ ، ١٥٠
 بتروفيش ٨٠
 البثوثين ٣٠
 بجواس ٤٥٦
 البحر الأبيض المتوسط ٤٧ ، ٤٨ * ، ٥٣٠
 ، ٥٣ * ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٨ ،
 ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،
 ، ٣٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٣١٦ ، ٤١٤ ، ٤٥٧
 البحر الأحمر ٤٣ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
 ١٤١ ، ١٨٢ ، ٣٣٣ ، ٤١٤
 البحر الأسود ٩ ، ١٨٣ ، ٢٠١ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٣ ، ٣١١
 بحر إيجة ١٨٣
 بخاري ٤٠٠
 البدارى ٥ ، ٦٣ ، ٦٤
 هرورياش الأول ملك بابل ٦
 هرورياش الثاني ملك كورديناش ١٩٥ *
 برهما ٢١٧
 برسيوليس ١٨٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ * ،
 ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ * ، ٤٥٠ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠
 برستد (جيمس . ه . عالم الآثار الكبير)
 ، ١١ * ، ٤٤ ، ٥٩ ، ١١٠ * ، ١٥١ ،
 ، ١٧٥ ، ٣٥١ * ، ٤٤٧ *
 بوفولت (ريرت) ٣٧١ *
 بروكسين ٤٠٦
 بركتلين ١٣٠ ، ٢٩٢

بوليميس المؤرخ اليوناني (حوالي ٢٠٦ -
١٢٨ ق. م.) ٤٤٨
بولينيزيا ٣٦٨
بومهر المهندس المصري ١٤٨
بنو الثاني ملك مصر (٢٧٢٨ - ٢٦٤٤
ق. م.) ٧٤ ، ٥
بوبيبا ٢٣١
بيت المقدس ٤٥٨ (انظر أيضاً أورشليم)
بيترى (سير ولیم فلندرز عالم الآثار المصرية)
٥٩ ، ٦٤ ، ٩٧ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
٣١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٢٣ *
بير سبع ٣٢١
بيتيو ١١٣ ، ١١٣ *
بيجنج أو بيكنج أو نيكن ٧٦
بيرن : جورج چوردن نول ، البارون
الشارع الإنجليزي (١٧٨٨ - ١٨٢٤)
٢٣٩ ، ٢٨٢ *
بيرو ٣٢١ *
البيروني ٤٢٠ *

(ت)

الثالث حملة ووزن ٢٠٤ ، ٣٣٨ ، ٤١٤ *
ثاني - أفول - أنليل
الثبت ٥٢ ، ٣٦٨
تبي جورا ٢٦٥
تجتوح (شخصية خرافية عند السومريين)
٣١
تحتس الممثل المصر (حوالي ١٣٧٠ ق. م.)
١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٨
تحتس الأول ملك مصر (١٥٤٥ -
١٥١٤) ٦ ، ٧٦ ، ١٢٨ ، ١٤٨
تحتس الثاني ملك مصر (١٥١٤ -
١٥٠١) ٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١١٧
تحتس الثالث ملك مصر (١٤٧٩ -
١٤٤٧) ٦ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
٨٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٩

بلعا - أرتوا ٢٥٦
بلنجا ٣٩٣
بلنح الأصغر ١٢٦
بلونارخ ٤٢٠ * ، ٤٣٨ ، ٤٥٩
بلوخستان ٤٠٩
بلوزيم ٢٠٣ ، ٢٦٨ *
بليت (إله الأشوريين) ٢٨٤
بمهي الأكبر (نيس بميس مجلس) القائد
الروماني (١٠٦ - ٤٨ ق. م.) ٤٧
المفيلين ٣٠٠
بنت (بونت أو بلاد السومال) ٧٧ ،
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢
بفتكست ٣٧٣
البنادية ١٠٤
البندهش ٤٢٦ * ، ٤٤٣
بندورا ٣٦٩
بفسلانايا (جامعة) ١٤ *
بلميامين ٣٥٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦
بني حسن ١٢٨ ، ١٤٢
بهيثون (نقش) ٤٣٨
الهلوية ٤١١
بو إلهة السومريين ٣١
بويطة ٦
بوثندوس ٣٨٦
بوذا ١٤٩ ، ٣٦٢
بورسها ٢٣٦
بوسويه (جاك بينجين أسقف مو الواعظ
الفرنسي ١٦٢٧ ~ ١٧٠٤) ٣٨٦ ، ١٥٨
بوسى ٣٦٩
بوسز ٣٧٨
بوعاز كوى ٣٠٢
بولاق (بردية) ٩٧
بولقة (أى المملوكة) ٧٨
بولس (القديس) استشهد عام ٦٧ ب. م.
١٨٩
بولونيوس ٧٤

توت منخ أمون ٦ ، ٥٥ ، ٨٠ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٠
التوراة ١٩١ ، ١٩٥ ، * ٣٢١ ، ٣٢٧ ،
٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ،
٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، *
٣٩٥ ، * ٤٢٦
تورين (متحف) * ١٣٦ ، ١٤١
توفه ٣٥٧
تولستوى - الكونت ليو نيقولا يفتش ،
الكاتب والمصلح الروسى (١٨٢٨ -
١٩١٠) ٣٥٠
قى - أم إخناتون ١٠٢
تيامات ٢١٧ ، ٢٨٧
تيزيريوس إكلوديس نيرو قيصر إمبراطور
رومة (١٤ - ٣٧ م .) ٤٤٥
تيمن الأتقى : شخصية فى رواية شيكسبير
بهذا الاسم ١١٣
تين هيبوليت (أدلف ١٨٢٨ - ١٨٩٣)
الناقد الفرنسى ١٥٧
تيزيس ٤٥٩

(ج)

جار ستانج (بعثة) ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، *
جاسپرو : موديس ٣٩٠
جالوت ٣٣١
الجار (كوكبة) ١٥٦
جروتفند : جورج فردريك العالم الألمانى
(١٧٧٥ - ١٨٥٣) ٢٣٦
جريجورى : البابا جريجورى الثالث عشر
واسمه الأول أوجو بكنيانى (١٥٧٢ -
١٥٨٥) ١٥٢
الجزيرة (أرض الجزيرة أو ما بين النهرين)
١٣ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ،
١٢٠ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، * ١٩٧ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ،
٣٣٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ،

١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٧٢ ، ٣٢٣ ،
* ٣٢٦
تحتس الرابع ملك مصر (١٤٢٠ -
١٤١٢) ٨٠
تخوت (توت) إله الحكمة عند المصريين
٦٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
* ٣٨٤ ، * ٣٧١
نحيثو ٣٢٤
تراچان : ماركس اليوس الإمبراطور الرومانى
(٩٨ - ١١٧) ٤٢٣
الأتراك ٣٠٢ ، * ٤٢٠
التركتستان ٢٥ ، ٥٢
تركيا ٣٠٢ ، *
ترويلور ١١٥
توينشميش ٤٥٥
تشكاجو (جامعة) ٢٨٠ ، * ٤٤٧ ، *
تشندراجونيا بوريا ملك مجدها (٣٢٣ -
١٩٨ ق . م) ٩٣
تشوسر - چوفرى : الشاعر الإنجليزى
(١٣٢٨ - ١٤٠٠) ١١٨
تغلث فلاصر الأول ملك آشور (١١١٥ -
١١٠٢ ق . م) ٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٩٣ ، ٢٧٢
تغلث فلاصر الثالث ملك آشور (٧٤٥ -
٧٢٧) ٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢
تفوت أحد الآلهة المصرية ١٦١
تكوشت ١٣٧ ، ١٣٨
التكوين (سفر) ١٨٨ ، * ٣٨٥ ،
تل بسطة (انظر بسطة)
تل المارئة (الواح) ٣٢٣ ، ٣٣٢ ، *
انظر أيضاً المارئة
التلمود ٣٦٨ ، ٣٧٩
تلو ٣٥
تموز ١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
٣٨٨ ، ٣١٥
توت (شهر) ١٦٦

جفرسن : رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٤٨ - ١٨٢٦)

٣٣٠

جلجميش ١٦ ، ٣٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٩ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

جلقباد ٣٢١

جلشر ٣٤١

الجليل ٣٢٣

الجمعية الآسيوية الملكية ٢٣٧

جنيشا ٣٦٠

جهل - منار ٤٤٩ ، ٤٥١

جونة : چرهان ولفجانج فن ، الشاعر والفيلسوف الألماني (١٧٤٩ - ١٨٣٢)

٥٤

جوتنجن (جامعة) ٣٤٦

جوديا ٥ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٦ ،

٣٨ ، ٣١٠

جوركى : مكسيم وهو الاسم المستعار لـ لـكسى مكسيموفتش بيشكوف الروائى

الروسى المولود عام ١٨٦٨ : ٣٤٠

چوزفين إمبراطورة فرنسا (١٧٦٣ - ١٨١٤) ٢٣١

جيجيس ملك ليديا (حوالى ٩٥٢ ق.م)

٣٠٥ ، ٧

جيجون (نهر) ٤٠٥

الجزيرة : ٦٩

جيمس الأول ملك إنجلترا جلس على عرش اسكتلنده عام ١٥٦٧ وعلى عرش إنجلترا

عام ١٦٠٣ وفي عام ١٦٢٥ : ٣٥١

(ح)

حارحب ملك مصر (١٣٤٦ - ١٣٢٢ ق.م)

١٨٠ ، ٦

الأحباش ، انظر الإثيوبيين

الحبشة ٤٤ ، ٢٧٠

حبو (مدينة) ١٢٩

حبوسنب : المهندس المصر ١٤٨

حتحور ٩٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨

حتشبسوت ملكة مصر (١٥٠١ - ١٤٧٩)

٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٦ ،

١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ٣٢٣ ،

* ٣٢٦

الحثية والحثيون الخ ٦ ، ١٧٨ ، ١٧٨ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٢

حزقيال (حوالى ٥٨٠ ق.م) * ٣٣٨ ، ٧

٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦١

حلقيا (الكاهن) ٣٥٦

حورابى ملك بابل (٢١٢٣ - ٢٠٨١)

٣ ، ٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٣ ،

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، * ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، * ١٩٣ ، * ١٩٤ ، ١٩٦ ،

٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ،

٢٧٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٧١ ،

٣٨٣ ، ٤٤٥

حورابى - تخوش : يفتىء (قناة) ١٩٢

حنانيا ٣٦٠

حواء ٣٦٩

حور. المهندس المصرى (حوالى ١٤٠٠ ق.م)

١٦٩

حورس ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ١٦١

حوريوس ملك الفريجيين ٣٠٤

الحويون ٣٤١

حيرام ملك صور (حوالى ٩٥٠ ق.م)

٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣٣ ،

حيثا ٣٢٣

(خ)

الخبرو ٣٢٣

خراساباد ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

دانتي الشاعر الإيطالي ١١١ ، ١١٨
 الذانوب (نهر) ٤٠٨
 دانيال ١٩٦ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ،
 ٤٠١
 داود ملك اليهود (١٠١٠ - ٩٧٤)
 ٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
 *٣٩٤
 ديورن لإحدى نبيات بني إسرائيل (القرن
 الثالث عشر قبل الميلاد) ٣٧٥ ، ٣٨٦
 دجلة (نهر) ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٣ ،
 ٤٥ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٦٥ ، ٢٠١ ،
 ٣٢١
 درتلو ١٩٠
 الدرديليل ٣٠١ ، ٤١٣ ، ٤٥٧
 دكتا (جبل في كريت) *٣٧١
 دليلة ٣٨٦
 دمتري ١٦٠ ، ٢١٥ ، ٢١٨
 دمشق ٧ ، ٢٦٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٨٠
 دنجر داجو ١٨
 دنجي ٢١ ، ٢٧
 دندره ١٠٨
 الدنكرد ٤٢٦ *
 دهاق ٤٢٤
 ده سرزك ٣٥
 ده مرجان . جاك - عالم الآثار الفرنسي
 (١٨٥٧ - ١٩٢٤) *١١ ، ١٩ ، ٦٤
 دور - شروكين ٢٩٤
 الدورين ٥٧ ، ١٢٩ ، ١٨٣ ، ١٩٣ *
 الدوير *٣٢٣
 اللير البحري ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ،
 ١٤٨
 ديموطية ٦٣ ، ١١٠
 ديو (الأرواح الحبيثة عند الفرس) ٤٢٩
 ديودور الصقلي المؤرخ اليوناني (القرن

الخرد - أبستاق ٢٧ : *
 الحارطوش ٦٣
 الحروج (سفر) ٣٨٦
 الحزر (بحر) ٣٩٩
 خشترا (المحارب) ٤١٥
 خشير شاي الأول ملك الفرس (٤٨٥ -
 ٤٤٦ ق. م) ٨ ، ١٩٣ ، *٢٣٦ ،
 ٣١٤ ، *٤٢٠ ، ٤١٧ ، *٤٣٩ ،
 ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ،
 ٤٥٩
 خشيارشاي الثاني ٤٥٥ ، ٤٥٧
 خفوع ٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ،
 ١٣٠ ، ١٣٢
 خفرن (انظر خفوع)
 خله ٣٧٥
 خنوم ١٢٩
 خنو محوَّب ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 خورفو ملك مصر (٣٠٨ - ٣٠٧ ق. م)
 ٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢

(د)

دارا الأول ملك الفرس (٥٢١ - ٤٨٥ ق. م)
 ٨ ، ٢٣٦ ، ٣٠٩ ، ٣٦٥ ، ٤٠٣ ،
 ١٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،
 ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٤
 دارا الثاني ملك الفرس : أو كوس :
 (٤٢٣ - ٤٠٤) ٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
 ٤٥٦
 دارا الثالث ، أو كودومانوس ملك الفرس
 (٣٣٨ - ٣٣٠ ق. م) ٨ ، ٤٢٢ ،
 ٤٥٦ ، ٤٦٠
 دارمستتر : جيمس للناقد الفرنسي (١٨٤٩
 - ١٨٩٤) *٢٢٨
 دال ، النيل ٤٨ ، ٥٣
 دان ٣٢١

رسميس الرابع ملك مصر (١١٧٢ -
٢١٦ (١١٦٦
الرمسيوم ١٠٥ ، ١٢٩ ، ١٨١
رنوفر ١٠٣ ، ١٣٢
الرواقية والرواقيون ١٥٤
دودس ٣١٢

الروسيا ٩ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩
رولسن سير هنرى حرسوك المستشرق
الإنجيزى (١٨١٠ - ١٨٩٥) * ١٤ ،
٢٢٦ ، ٢٣٧

الرومان والرومانيسة ٨ ، ١٠ ، * ١٤ ،
٤٥ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٩ ،
١٠٤ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،
١٨٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٧١ ،
٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ،
٣٨٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣

رومه ١٢ ، ٥٣ ، ٨١ ، ١٠٩ ، ١٦٠ ،
١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٣ ، ٢٦٤ ،
٢٧٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٨ ، ٤٢١ ، ٤٥٤
رى (انظر ر ع)

ريمرى - پتاح ، الموسيقى المصرى ١٤٦
ريناخ ٣٧٠
رينان - جوزف إيرنست العالم الفرنسى
(١٨٢٣ - ١٨٩٢) ٣٢٩ ، ٣٧٠ ،
* ٣٩٢

(ز)

زابونا ٣١٧
زجروس (جبال ١٩
زجورات پرسبا (مراحل الأفلاك السبعة)
٢٤٧
زر بابل ٣٦٥
زرقسترا (انظر زردشت)
زردشت وزردشتى الخ ٧ ، * ٣٧١ ،

الأول قبل الميلاد) * ٥٢ ، ٦٦ ، ٨٥ ،
* ٨٦ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٩٧ ،
٢٦٧ ، ٢٧١ ، * ٢٩٧ ، * ٣٧١ ،
ديوسيز ملك الميديين (٧٠٩ ق . م) ٧ ،
٤٠٠
ديونيس * ٣٧١

(ر)

راحيل زوج يعقوب ٢٧٥ ، ٣٧٨ ،
٣٨٦ ، ٣٧٩
رأس الرجاء الصالح ٣١٣
راسام ٢٩٤
راعوت ٣٤٤ ، ٣٧٨ - ٣٨٦
رامان ٢٩٥
ربرتسن اسمث (وليم) المستشرق الإسكتلندى
(١٨٤٦ - ١٨٩٤) ٣٧٠
رينسن كروزو ١١٠
الرج قدا ٤٢٧
رهميستنس ٦٩
رسكن (جون) إلناقد الإنجيز (١٨١٩
١٩٠٠) ١٣٦
رسن - هاشناه ٣٧٣
رشيد (حجر) ٦١ ، ٦٢ ، ٢٣٦
رع لاله المصرين ١١٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٨
رع حوتب ٧١ ، ١٣٢
رفقة زوج إسحق ٣٧٩ ، ٣٨٦
ركسانا أخت قميز ٤٠٦

رسميس الثانى ملك مصر (٨٠٠ - ١٢٣٣
ق . م) ٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١١٦ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،
١٤٠ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٠٢ ،
٣٣٣
رسميس الثالث ملك مصر (١٢٠٤ -
١١٧٢) ٦ ، ٨٦ ، ١٨٢

سبيل أو قبييل ١٦٠
 ست إلهة المصريين ١١٦ ، ١٥٩
 ستر وبسترية ٤٢١
 ستر نكاخارا ٤٣٨
 ستموت المهندس المصري ١٤٨
 ستوريس المؤلف اللاتيني ١٢٢
 سجديانوس ٤٥٥
 سدوم : مدينة ٣٤٢ ، ٣٧٨
 سراءة الخادم ٣١٦
 مرارا ٢٩٥
 مرجون الأول ملك أكد وسومر
 (٢٧٧٢ - ٢٨١٧ ق. م) ٥ ،
 ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣٧ ،
 ٣١٩
 مرجون الثاني ملك آشور (٧٢٢ -
 ٧٠٥ ق. م) ٧ ، ٢٦٦ * ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤
 مردائية أو سردينية ٣١٣
 مردابالس (افظر آشوربانيبال) ٢٦٤ ،
 ٢٨٦
 مرديس ٨ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ،
 ٤١٣ ، ٤٠٤
 سترانس ٤٧
 سقارة وهرمها ١٣٩
 سقراط الفيثاغورس اليوناني (٤٦٩ -
 ٣٩٩) ٣٩٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣ ،
 ٣٧٣
 السكوديون ٢٧٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠٣ ، ٤٠٧
 سلايمس (معركة) ٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
 ٤٥٧
 سلمانصر الأول ملك آشور (١٢٦٧ ق. م)
 ٦ : ٢٦٦
 سلمانصر الثالث ملك آشور (٨٥٩ -
 ٨١٤ ق. م) ٦ ، ٢٦

٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 ٤٢٦ ، ٤٢٦ * ، ٤٢٧ * ، ٤٢٨ ،
 ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ،
 ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤١
 زكريا ٣١٤
 زئد ٤٢٦ *
 الزئد - أبستاق ٣٩٩ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،
 ٤٢٦
 زنون ٢٩٩ ، ٤٠٣ *
 زوسر ملك مصر حوالي (٣١٥٠ ق. م)
 ٦٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٧
 زيورس ٣٠٤ *
 (ن)
 ساحو إله المصريين ١٥٦
 سارة زوج إبراهيم ٣٨٥ ، ٣٧٩
 سارتق : چورچ ٣٧٠ ، ٣٩٤ *
 السامانيون ٤٣٧
 ساشيا ٤٠٦
 سباكي ٤٥٠
 السامرة السامراء ٧ ، ٤٢ ، ٣٦٨ ،
 ٣٨٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٨
 الساموراي ٩٢
 السام والسميون إلى ١٤ * ، ١٥ ، ١٧ ،
 ١٨ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٤ ،
 ٦٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ٢٦٥ ، ٣٠٨ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ،
 ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٤٠٣
 سار (سايس) والملوك الساريون ٧ ، ٥٠ ،
 ٧٣ * ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٨٤
 سبأ ٣٣٣
 سبرلا ١٣
 سيك إله المصريين ١٥٨
 سبيتو ٢٤٣

٢٢٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٤٠٨
 السوربون ٧٩ ، ٨٨ ، ١٨٦ ، ٢٩٧ ،
 ٢٦٩ ، ٣٢١ ، ٤٦٠
 سوزانا ٤٥٦
 السوس ٥ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ،
 ١٩ ، ١٩٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٩ ، ٤١٣ ،
 ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩
 سومر ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
 ١٤ ، ١٤ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣٢٤
 سومري - سومريون - سومرية ١٣ ،
 ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
 ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ،
 ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ١٥٧ ،
 ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ،
 ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣٦٨ ،
 سوتيرن : الجرانون تشارلس : الشاعر
 الإنجليزي (١٨٣٧ - ١٩٠٩) ١٥٢
 السويس ١٨١ ، ١٨٤
 سواخار ملك الميديين (٦٤٠ - ٥٨٤ ق.م)
 ٧ ، ١٩٩ ، ٢٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
 انظر أيضاً سواكسار ،
 سيبو إله المصريين ١٥٦
 سيني الأول ملك مصر (١٣٢١ -
 ١٣٠٠ ق.م) ٦ ، ٥٤ ، ١٢٩ ،
 ١٣٩
 سيني الثاني ملك مصر (١٢١٤ -
 ١٢١٠ ق.م) ٦ ، ١٢٨
 سيجيت من آلهة المصريين ١٠٦
 سيرل ١٨٤
 سيريف ١٦٠
 سيزوستريس : انظر ستوسيرث

شليمان ملك اليهود (٩٧٤ - ٩٣٧ ق.م)
 ٦ ، ١٠٠ ، ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،
 سمرديس ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ،
 سمرقند ٤٠٥
 سمورات ٢٦٧
 سميراميس ملكة آشور (٨١١ -
 ٨٠٨ ق.م) ٢٦٧
 سن ٢٩ ، ٢١٥ ، ٢٩٥
 سنحريب ملك آشور (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م)
 ٧ ، ١٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣٥٢
 السند ٤٠٧ ، ٤٠٩
 السندباد البحري ٢١١
 سندرلا ١١٢
 السيسكريتية (اللغة) ٤١١
 سنسكر ١٤ ،
 سنوحى ٩٤ ، ١١٠ ، ١١١
 سنوسريت الأول ملك مصر (٢١٩٢ -
 ٢١٥٧ ق.م) ٦ ، ٧٥ ، ١٣٥
 سنوسريت الثاني ملك مصر (٢٥١١ -
 ٢٠٩٩ ق.م) ١١٧
 سنوسريت الثالث ملك مصر (٢٠٩٩ -
 ٢٠٦١ ق.م) ٦ ، ٧٥ ، ٨٧ ،
 ١٣٤
 سني چنج ٣٦٩
 سوق المهندس المصري ١٦٩
 سوتيس (الشعرى) ١٢١
 سوريا ٦ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٢٦ ،
 ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٤٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،

شمش - نبشتم ، ٢١٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٣٦٩

شمعون ٢٣٩ ، ٢٣١ ، ٣٨٦

شمعى بن حيرا ٣٣١

شنعار ٢٢٤

شول إله المصريين ١٦١

شوب - آد ملكة السومريين (حوالى

٣٥٠٠ ق.م) ٤٢ ، ٣٣ ، ٣٨

شوينور ، آرثر ، الفيلسوف الألماني

١٧٨٨ - ١٨٦٠ (١٥١

شوشان ١١ ، ١٢

شومر - انظر سومر

شوينفرت ٤٣ ، ٤٤ *

شيشق الأول ملك مصر (٩٤٧ - ٩٢٥)

٦ ، ٢٤٩

شيشق الثاني ملك مصر (٨٥٠ - ٨٢٥) ٧

شيشق الثالث ملك مصر (٨٢١ - ٧٦٩

ق.م) ٧

شيشنة الرابع ملك مصر (٧٦٣ - ٧٢٥) ٧

شوكسير : ولیم ، الشاعر الإنجليزي،

المعروف (١٦٦٤ - ١٦١٦) ١١٣ ،

١٢٨ ، ٣٨٦

شيلوه ٣٧٨

شيول (أرض الظلام عند بني إسرائيل)

٣٤٥

(ص)

صبا الحجر - انظر ساو

صدوقيا ملك يهوذا (٥٩٧ - ٥٨٦)

٣٥٧ ، ٣٦٠

صفد ٤٦٠

سقلية ٣١٣

الصليبيون ١٧

صعويل أحد القضاة البرانيين (حوالى

١٠٢٥ ق.م) ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٨٥

سيمديانا ٤٠٩

سيناء : انظر طور سيناء ٣٢٦

(ش)

شارف ١٢٢

شارلمان ٧٤

شارون ١٦٣ ، ٣٨٨

الشاكل عملة بابلية ٢٠٤ ، ٢٠٦

الشاه ٤١٥ *

شاؤل ملك الجود (١٠٢٥ - ١٠١٠)

٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٧٣ ،

٣٨٥

شيتو (السبت) ٣٧٣

شباووت ٣٧٣

شرباخ (شهر) ١٦١

شرجال إله الآشوريين ٢٨٥ *

شرغات : قلعة : ٢٦٥

الشرق الأدنى ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ،

٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ،

٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٦٢ ،

٣٦٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ،

٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٥٣ ،

الشرق الأقصى ٣٠٩ ، ٣١١

الشرق الأوسط ٣٢٨

الشمرى ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٦

شامانصر : انظر سلمانصر

شميليون : جان فرنسوا عالم الآثار الفرنسي

(١٧٩٠ - ١٨٣٢) ٥٧ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٣ ، ٢٣٦

شمى أداد السابع ملك آشور (٨٢٤ -

٨١١ ق.م) ٦ ، ٢٩٠

شمش (إله الشمس عند البابليين) ٢١ ،

٢٨ ، ١٨٩ * ١٩٠ ، ٢١٤ ، ٢٣١ ،

٢٣٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩٥ ، ٢٤٣ ، ٣٧١ *

شميرز ٢٣٢

شمش - شم - أوكن ، أخو آشور بانيبال

٢٧٦

٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٠ * ٤٣٠
 العذراء ٢١٥
 العذراء الأم ٢١٥
 العذراء المقدسة ٢١٥
 العناية ٧٥ ، ١٢٩ ، ١٣٩
 العراق ١١
 العرب ٤٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ١٠٢ ،
 ١١٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ،
 ٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٣ ،
 *٤٢٦
 العربية : اللغة *٢٨٣
 عزرا ٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠
 مصر هلون ملك آشور (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م)
 ٧ ، ١٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩١
 هشتروت أو هشتورت ٢١٥ ، ٣٠٨ ،
 ٣١٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧
 عصر البرنز ٣٢٣
 العصر الحجري ٢٢٣
 العمود الراسي ٢٨٠
 عطار * ١١٩ ، ٢٨٤ *
 حكا ٧٩
 حكرون ٣٤٣
 الحمار ٢١٧
 الحارثة - وسائل تل ، ٦ ، ١٣٦ ،
 ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ،
 ١٩٥
 عمانويل ٣٥٤
 عمورة والعمرورين ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤٢ ،
 ٣٧٨ ، ٣١٩
 عمون ٢٤٣
 العمونيين ٣٠٠ ، ٣٢١
 المهدي القديم ٧ ، ٤٢٧
 ميسي ٣٥٥
 ميلايم والعميلاميون ٥٠ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ،

صهيون ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٧٦
 صور ٢٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
 ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ،
 ٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٨٠ ، ٤٥٩
 صوفر ٣٩١
 صولون أو سولون - المشتري الأثيني
 (٦٤٥ - ٥٥٨ ق. م) ٣٠٠ ،
 ٣٠٧
 صيدا ٢٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ،
 ٣٨٠ ، ٣٣٦
 الصين ١٤٤ ، *٣٤٤
 يثية والصينيون ٩٢ ، ١٤٩ ، ٣٦٩
 ٤٣٩

(ط)

طارق (مضيق جبل طارق) انظر هرقول
 ٣٢١
 طاهر قا ملك مصر (٦٨٩ - ٦٦٢ ق.م) ٧
 طرواده ١٨٣
 طور سيناء ٥٢ ، ١٠٩
 الطوطم ١٥٥ ، ٢٠٣ ، *٣٧٤
 الطوطمية ٣٧٠
 طيبة ٧ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٢ ،
 ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ،
 ١٨٦ ، ٣٤٦

(ع)

عاموس ٣٢٦ ، ٣٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
 ٤٢٥
 العبري والعبراني الخ ١٦ ، ١١٣ ، ١٥٢ ،
 ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢٣ ،
 *٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ،
 ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ،

قرتميش ٧٦ ، ١٩٦ ، ٧٠٣ : ٣٠٣ ،

٣٠٨

القرنة ١٢

القرنة : انظر الكا

قزوين ٣٠١ *

قشتبا ٤٢٥ ، ٢٢٥ ، ٤٢٦ *

القضاة : سفر : ٣٧٥ ، ٣٨٦

القنفاس : ١٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٩٩

٣٠١ ، ٤٠٩

قمبوز ملك الفرس (٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م)

٨ ، ١٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،

٤١٩

قنسططين

فورسقة ٣١٣

قورش الأول ملك الميديين والفرس

(٥٥٥ - ٥٢٩ ق.م) ٨ ، ١٧ ،

١٢٤ ، ٢٠٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،

٣٠٧ ، ٣٦٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،

٣٦٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ،

٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤

قورش الأصغر الأمير الفارسي (٤٢٤ -

٤٠١ ق.م) ٨ ، ٤٢٠ ، ٤٥٤ ،

٤٥٥

قويونجك : بلدة ٢٦٥ -

قيديل أو سيبل : إلهة الفريجيين ٣٠٥ ،

٣١٨

قيصر ، كيس يوليوس : القائد والحاكم

والمؤرخ الروماني (١٠٠ - ٤٤ ق.م)

٤٧ ، ٥١ ، ١٢١ ، ١٨٤ ، ٢٣٢ ،

٢٧٥ ، ٣٣١

قيلقة ٤٠٩

القيلقيين ٣٠٠

الكا (القرنة) ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٦٢

فلسطين ٦٠ ، ٤٧ ، ٧٥ ، ١٠٩ ،

١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ٣٠٣ ، ٢٣٥ ،

٢٧٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٣ ،

٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ،

٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ،

٤٣٥

الفلسطينيون ٢٦٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٠

فلوتارخ أو بلوتارخ المؤرخ اليوناني (٤٦ ؟

- ١٠٢ ب.م) ١٥٨

فور - إلى ، ١٨٦

الفيد ٤٢٧

فيلو (جوديوس) : الفيلسوف اليوناني

اليهودي (٢٠ ق.م - ٥٠ ب.م)

* ٤٢٨

فيثوس (الزهرة) ٢١٥ ، ٢١٨

فينيقية (فونيقية) ٦ ، ٨٩ ، ١٠٨ ،

١٨٣ ، ٢٣٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٩ ،

٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٣٣ ، ٤٢٣ ،

الفيليقية والفينيقية ١٨٣ ، ١٨٦ ،

٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ،

٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٤٠٥ ، ٤١١

فيوبس ١٣٢

الفيوم ٨٧

(ق)

قادش - بلدة ومملكة - ١٨١

القاهرة ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٤ ،

٦٩ ، ٧٥ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٨٤ ،

قبادوقس وقبادوشين : ٤٠٩ ، ٤٦٠

قبرص ٨٩ ، ٢٣١ ، ٢٦٨ ، ٣٠٥ ،

٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥

قرطاجة ١٨٣ ، ٣١٣ ، ٣٦٥ ، ٣٥٧ ،

٥٠٥

كش ١٢٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ١٩٢
 كمپرو تبيخ البلد : ١٣٢
 الكناخ ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤
 الكلدان ٢١ ، ١١٩
 كلديا ١١٩
 كليوپطره ٥٣ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ١٨٤
 كبردج : تاريخ جامعة : ١٢٢
 الكرية والكريون ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣٠٠
 كتمان ٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠
 الكتمان والكتمانين ٣١٩ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦
 كنفوشيوس الفيلسوف الصيني (٥٥١ -
 ٤٧٩ ق. م) ١٤٩ ، ٣٦٢
 كنسوتب (عمال) ١٣٣
 كواكيلا (معركة) ٤٦٠
 كودمانوس (انظر دارا الثالث) ٤٥٦
 كوش ١٧٢ ، ٣٥٧
 الكولوسيوم ٢٠

كوقنس كورتيس رونس المؤرخ الرومان
 (٤١ - ٥٤ م . ب) ٢٣٤ ، ٤٥٨
 * ٥٥٩
 كونسكا (معركة) ٨ ، ٤٢٠ ، * ٤٥٥
 كينسرو (انظر سياخار وسيكارس)
 ٤٠١

كيويس (انظر خوفور) ٣٠١

(ل)

لايان (حويمقوب) ٣٤٠
 لانيقة ٤٣ ، ٣٠٢ ، * ٤١١
 لارسا (الاسار) ١٣ ، ٢١ ، ٢١٣
 لافنتين (جان ده) القمصى الفرنسى
 (١٦٢٦ - ١٦٩٥) ١١٢
 اللادويون ٣٢٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٨٣
 لبنان ٧٩ ، ٢٩٦ ، ٣٦١ ، ٣١٧
 لفرهول ٣٢٦

(ك)

كابار : ٥٩
 كابول (مدينة) ٢٠٣
 الكاثوليك ١٠٤
 كارتر : هوارد : عالم الآثار الإنجليزي
 (١٨٧٣) ٥٩
 كارليل : تومس ، الكاتب والمؤرخ
 والفيلسوف الإنجليزي (١٧٩٥ -
 ١٨٨١) ٣٩٠
 كاري * ٤٤٢
 الكاشيون ٦ ، ٧٦ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦
 كالى ١٦٠
 كانت : إيمانول ، الفيلسوف الالماني
 (١٧٢٤ - ١٨٠٤) ٢٩٤
 كاهون (بردية) ١٢٥
 كهبادوشين ، انظر قبادوشين
 كتاب الموتى ١٦٣
 كث إله المصريين ١٦١
 كحيلة * ٣٩٤
 الكرد ٢٩٦
 كردستان ٣٩٩
 كردناش * ١٩٥
 كرسيفردوش ، انظر دوش
 الكرنك ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
 ٥٩ ، ٦٠ ، * ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ،
 ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤٤ ، ١٦٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٤٤٩
 كروسس (قارون ؟) ملك لىديا
 (٥٧٠ - ٥٤٦ ق. م) ٧ ، ٣٠٠
 ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦
 كريت ٥ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧
 الكريتية والكريتيون ٨٩ ، ٢٦٤ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٣

(م)

ما ، إلهة المريجين ٣٠٥
 ماثيو آرفلد ، الشاعر والناقد الإنجليزي
 (١٨٢٢ - ١٨٨٨) ٤٣٠
 ماجوج ٣٦١
 مارستين - سير تشارلس ١٠٩ *
 مارستين - بعثة جامعة لفريرول ٣٢٦ *
 مالتس - ربرت تومس ، العالم الاقتصادي
 الإنجليزي (١٧٦٩ - ١٨٣٤) ٣٩٤
 مالطة ٣١٣
 مبرا ٣٠١ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦
 مبرداتس - الضابط القارسى ، (حوالى
 ٤٠٠ ق. م) ٤٢٠ *
 مجدو - هار ، ٧٩
 مجنيزيا ٣١٧
 المخوس ٤٠٦ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٦
 محمد (صلى الله عليه وسلم) ٣٠٩
 ملكوتو ٢٧٠
 مديشى ٨٠
 مدين والمدنيين ٣٧٨
 مراثون (سهل ومعركة) ٨ ، ٤٠٨
 ٤٥٤
 مراکش ٥٢
 مردك أو مزدوك إله البابليين ١٩٠ ،
 ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ،
 ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤ *
 ٢٨٦ ، ٢٨٧
 مردك - شبيك - زرماني ، ملك بابل
 ١٩٥ *
 مردك - شبيك - زهرى ١٩٥ *
 مرسلية ٣١٣
 مرنبتاح ملك مصر (انظر منفتاح) ٦
 مريم ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٣٧٥
 ٣٢ - قصة الحفصارة ج ٢ - مجلد ١

لكش ١٨ ، ١٧ ، ١٤ * ، ١٣ ، ٥
 ٣١ ، ٢٩ ، ٢٠
 للبيت ٣٤١
 لندن ٤٤٧ *
 القوار (نهر) ٣٠١
 لوبيا ١٨٣
 اللوبيون ١٨٤ ، ٦ ، ٦٥ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ،
 ١٨٤
 لوثر - مارتن ، المصلح الدينى الألماني
 (١٥٤٦ - ١٥٨٣) ٣٠
 لوجال - أندرفونجنا ١٨
 لوجال - رجبى ، ملك السومريين
 ١٩ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩
 لوجال - شجنجور ١٨
 لوجال كيجوب - تدرود ١٨
 اللوفر - متحف ١٩ ، ٢٠ ، ٤٠ ،
 ١٨٩ * ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ٣١٦ ،
 ١٨٩ * ، ١٩٠ * ، ٣٠٧ ، ١٣٦ ،
 ٤٥٢
 لوكلس - لوسيس ليسينيس ، القائد
 الرومانى ١١٠ - ٥٦ ؟ ق. م) ٢٠١
 اللاوكونيون ٣٠٠
 ويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣ -
 ١٧١٥) ٦٣
 ليثة ٣٧٨ ، ٣٧٩
 لبيثز - كنفوايد فهام ، رون فن
 الفيلسوف والعالم الألماني فى الرياضيات
 (١٦٤٦ - ١٧١٦) ٣٩٢
 ليدن ٨٤ ، ١٥٣
 ليديا ٧ ، ٣٢١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧ * ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
 ٤١٤ ، ٤٢١ ، ٤٥٣
 الليديون ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
 يوفى ٣٤٦
 يفين ٣٤٨

مقابر الملوك ٨٧
مقدونية ١٨٤ ، ٢٩٩ ، ٤٦٠
المقدونيون ٤٥٧
المقير ١٣
المكايين ٣٧١ * ، ٣٧٨
المكسيك ٣١٢ * ، ٣٦٨
ملر : فردرك مكس ملر للمسلم الغسوى
الانجليزى (١٨٢٣ - ١٩٠٠) ٩٦
ملكولم ٣٤٣ ، ٣٥٧ .
متون : تمثالا : ٥٢ ، ٥٤
متسكو : قشارلن ده سكندا ، يازون. ده
الأديب للفرنسى (١٦٨٩ - ١٧٥٥)
٣٢١
ننيوحيث ١٣٧ ، ١٣٨
نديس ١٥٨
نشتوسو ملك أكد ٢٧
متشهورون ٣١٥
منف ٧ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٩٢ ، ١٤٩
٢٦٩ ، ٤٠٥
مفتاح ملك مصر (١٢٣٢ - ١٢٣٣) :
الظر مرتباح
منفيس : الظر منف
منقورج ٧٣ ، ٧٣ * ، ١٣٠
منيتون (مانيتون) التاريخ المصرى (حوالى
عام ٣٠٠ ق. م) ١١٩ ، ٣٢٦ *
مزاب ٣١٦ ، ٣٥٢ ، ٣٦١
المزابيين ٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ،
٣٧٨
موريس : بحيرة : ٨٧
موسى ١٨ ، ١٨١ ، ١٩٢ * ، ٣٢٢ ،
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ،
٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٤١ ،

مزامير داورد ٢٢٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
٣٩١
مزوت ٣٧٣
مسيزو ، جاستن ، عالم الآثار المصرية
الفرنسى (١٨٤٦ - ١٩١٦) ٥٩ ،
٦٤ ، ٦٩ ، ١٣٢ ، ١٣٦
المستيرية (الثقافة) ٣٢٣
المسيحية (القبائل) ٤٠٥ ، ٤٠٩ ،
المسمودى ٤٢٠ *
المسلمون ٣١٩ ، ٤٢٦ *
المهارية (الكتابة) ١٤ * ، ١٩ ، ٣٤ ،
٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٤١١ ، ٤١٢
المسيحية ١٥٢ ، ١٦٠
سيرينس (انظر منقورج)
مصر ١٠٤٩ ، ١٠٩ ، ٨٤٧ ، ٦٤٥ ، ١٤٠ ،
١٢ ، ١٤ * ، ١٥ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٤٥ - ٤٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ،
٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ،
٣٧١ * ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ،
٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩
مصرى ومصريون الخ ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٤٥ ، ٤٦ ، ٤٦ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٣١٢ ،
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ * ، ٣٢٨ ،
٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ * ، ٤٠٥ ، ٤٣٥ ،
٤٥٣
المنقول - منقول ١٥ ، ٥٣ ، ٧٦ ،
٣٠٣
مفيوشت ٣٣١

هرپاجس ٢٤٠
هرسى (بردية) ١١٥
هرقول البطل اليونانى الأسطورى ١٣٥ ،
٣١٥ ، ٣١٣
هرقول (أمحدة) ٤٤٤
هرم ٥١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
٧٣ ، انظر أيضاً أهرام
هرميز إله الحكمة عند اليونان ١١٩ *
٢٨٤ *
هرون ٣٢٦ * ، ٣٢٩
هزيرية (الأميرة المصرية) ١٣٩
هزيود الشاعر اليونانى (حوالى ٨٠٠
ق . م) ٣٦٨ *
هستس (انظر قشتمبا) ٢٣٦ ، ٤٠٦
الحكسوس ٦ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٨ ،
٩٨ ، ١٣٥ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ،
٢٢٣ ، ٣٢٤ *
هلمبش ٢٧٠
الهلسنت (انظر الدردنيل) ٣٠١
هلمان (انظر الدردنيل) ٣٠١
الهند ٩ ، ١١ ، ٢٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ،
١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٩٣ * ،
٢٠٣ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٤٤ ،
٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،
٤٢٢ ، ٤٢٧ * ، ٤٥٤ ، ٦٠ ،
الهند : جزائر الهند : ٣٠٩
الهندود : ٧١ ، ٣٠١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٣٠ ، ٤٦٠
الهندوربية ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٣٠٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٩
الهندوس ٣٣٩ ، ٣٧٣ ، ٤٨٥
هندوسى ٤٤٨
هندية ٤١١
هتكرز : إدورد ، عالم الآثار الإيرلند
(١٧٩١ - ١٨٦٦) ١٤ *
هوانج ١٩٣ *

نهرينا ٩٥
النوبة ٥٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٨١
النوبيون ٦٥ ، ٧٥
نوح ٣٦٩
نويث الإلهة المصرية ١٥٦
نيثشه ، فردرك فهنم الفيلسوف الألماني
(١٨٤٤ - ١٩٠٠) ١١٥ ، ٤٤٤
نيشتين ٢٣٩
الزول ٢٥ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ،
٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٨٨ ،
٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤١ ،
١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ،
١٨٨ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٨٨ ،
٤٠٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥
ثينا ٢٦٥
نيندرتال ٣٧٣
نيس ٢٩٧ *
نيدوى ٧ ، ١٢ ، ٤٢ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ،
٢٣٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ،
٢٨٧ ، ٢٨٨ * ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ،
٣٣٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٤٠٠ ، ٤٥٣ ،
نيويورك (متحف الفن) ٣٨ ، ٥٧ ،
٧٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ٢٨٩

(هـ)

هارديف ١٥٣
هارفرد (جامعة) ٣٥١
هايس (نهر) ٣٠٢ *
هيات ٣٠٢ *
هديران ، هديرانس بيليس إيليس
امبراطور الرومان (١١٧ - ١٣٨
ب . م) ٤٢٣

(ى)

اليابان واليابانيون ٩٢ ، ٩١ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٤٦ ، ٣٤٤ ،
 ياه أو يامو * ٣٤٠ ،
 يزنا * ٤٢٦ ، * ٤٢٨ ، ٤٣٢ ،
 اليزيديين ٣٠٠ ،
 ٢٥٤ ،
 اليشب * ٤٢٧ ،
 يشيع ٣٣١ ،
 يشوع * ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 يعقوب ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
 ٣٨٦ ،
 يملكس ١١٩ ،
 اليمن ٤٣ ،
 ينج ، دوس : العالم والفلسفة الانجليزية
 (١٧٧٣ - ١٨٧٩ / ٦٣) ،
 اليهود ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٤ ، * ١٥١ ،
 ١٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٣٦٨ ،
 ٢٦٩ ، ٣١٨ ، ٣٩٨ ،
 ٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٩ ،
 يهوديت ٣٨٦ ،
 اليهودية ٤٤٠ ، ٤٣٥ ،
 يهوذا ٦ ، ١٨٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ،
 يهو ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ،
 ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ،
 ٤٢٣ ،
 يهوياقيم : الملك ٣٥٧

هوتمان ٣٨٧ *

هوشع ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٧٨ ،
 الهوما ٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ،
 الهون ٧٦ ،
 هيباشيا ١٨٤ ،
 هيرابوليس ٣١٨ ،
 هيرات ١٣٠ ،
 هيراطية : الكتابه : ١٠٩ ، ١١٠ ،
 هيرودوت المؤرخ اليوناني (حوالي ٤٨٤ -
 ٤٣٥ ق . م) ٥٠ ، ٥١ ، ٤٩ ،
 * ٥١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢ ،
 ٨٧ ، ١٢٦ ، ١٦٩ ، ١٩٧ ،
 ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ،
 ٣٩٣ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ ،
 هيروغليفية ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٨ ،
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ٣١٧ ،
 الحليانية : الحضارة ٧ ، ٣٨٨ ،
 مين : هينريخ : الشاعر الألماني (١٧٩٩ -
 ١٨٥٦) ٣٨٤ ،
 هيوجو ٣٠٢

(و)

وارد ٣٢٦ ،
 الوجه البحري ٤٧ ، ٥٠ ،
 الوجه القبلي ٤٧ ،
 الوركاء ١٣ ،
 الوسپرد ٤٢٧ ،
 ولي ، تش . ليونارد * ١٤ ، ١٦ ، ٣٣ ،
 الونديداد * ٤٢٦ ، * ٤٢٧ ،
 وتيفيس ١٣٩ ،
 ويحال ٥٩ ،
 ويزي - وفه ، انظر طيبة

6 1Y2 6 1Y1 6 1A 6 1.9
 6 1Y7 6 1Y9 6 1YV 6 1Y0
 6 109 6 10d 6 1Z9 6 1Z4
 6 1AY 6 1A7 6 1A2 6 1A3 6 17.0
 6 172 6 1Y2 6 1.0 6 1.0 6 1.99
 6 193 6 1A3 6 1Y1 6 17A 6 17V
 6 1.7 6 1.0 6 1.2 6 1.3 6 1.4
 6 113 *113 6 113 6 11.0 6 1.0
 *1V1 6 *127 6 121 6 117 6 110
 6 19.0 6 *1A9 6 1A8 6 1A7 6 1V8
 6 1.0 6 1.0 6 1.3 6 1.4 6 *1.0
 6 111 6 110 6 *111 6 111 6 11.0
 6 11.0 6 1Y8 6 *127 6 1Yd 6 1Y2
 6 122 6 12.0 *127 6 129 6 127
 6 10A 6 10V 6 113 6 10.1

يورپديز : الرواق اليوناني ٤٨٠ -
 ٤٠٦ ق م) ٣٩٠ *
 يوسف : الشئ المباني (حوالي ١٩٠٠
 ق م) ٣٨٦
 يوسفوس : فللغوس : المؤرخ اليهودي
 (٢٧ - ٩٦ ب م) ١١٦ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٤٥٧ *
 يوشع ٢٥
 يوشيا ملك اليهود (٦٤١ - ٦١ ق م)
 ٧ ، ٦٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٥
 يوناثان ٣٣١
 اليونان ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ،
 ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٨

قم الإيداع بدار الكتب ٤٥٦١ / ١٩٧١

مطابع الدجوى

عابدين - القاهرة

فهرس

الكتاب الأول

الشرق الأدنى

الموضوع	الصفحة
جدول مسلسل لتاريخ الشرق الأدنى	٥
الباب السابع : سومر	٩
توجيه - فصل. الشرق الأدنى مل الحضارة الفريية	
الفصل الأول : عيلام	١١
ثقافة السوس - عجلة الفخارى - عجلات المركبات	
الفصل الثانى : السومريون	١٣
١ - تاريخهم	١٣
الكشف عن أرض سومر - جغرافيتها - أهلها وجنسياتهم - مطهرهم - الطوفان السومرى - الملوك - مصلح قديم - سرجون ملك أكد - عصر أور النهمى	
٢ - الحياة الاقتصادية	٢٣
الزراعة - الصناعة - التجارة - طبقات الناس - العلوم	
٣ - نظام الحكم	٢٦
الملوك - الخطط الحرية - أمراء الإقطاع - القانون	
٤ - الدين والأخلاق	٢٨
مجمع الآلهة السومريين - طعام الآلهة - الأساطير - التعليم - صلاة سومرية - عاهرات المعابد - حقوق المرأة - أدهنة الشعر والوجه	
٥ - الآداب والفنون	٣٤
الكتابة - الأدب - الهياكل والقصور - صناعة النماثيل - صناعة الفخار - الحلى - كلمة موجزة عن المدينة السومرية	

الفصل الثالث : الانتقال إلى مصر ٤٢

أثر السومريين في الجزيرة - رحلات الميناء القديمة -
أثر بلاد الجزيرة في مصر

الباب الثامن - مصر

الفصل الأول : هبة النيل ٤٧

١ - في الوجه البحري ٤٧

الإسكندرية - النيل - الأهرام - أبو الهول

٢ - مشرقة النهر ٥٢

منف - روائع الملكة حتشپسوت - تمثالاً ممنون - الأقصر
والكرنك - عظمة الخضارة المصرية

الفصل الثاني : البتانون العظيم ٦١

١ - كشف مصر ٦١

شمبلون وجيجو رشيد

٢ - مصر في ما قبل التاريخ ٦٣

المصر الحجري القديم - مصر الحجري الحديث - عصر البدائي -
عصر ما قبل الأسر - جنس المصريين

٣ - الدولة القديمة ٦٦

الأقسام الإدارية - الشخصية التاريخية الأولى - كيوس -
خفرن - الغرض من بناء الأهرام - فن المقابر - التعطيل

٤ - الدولة الوسطى ٧٣

عهد الإقطاع - الأسرة اثثافة عشرة - سيطرة الحكوم

٥ - الإمبراطورية ٧٦

الملكة العظيمة - تحتمس الثالث - ذروة العهد

الفصل الثالث : حضارة مصر ٨٢

١ - الزراعة ٨٢

٢ - الصناعة ٨٤

المعدنون - الصناع - العمال - المهنيون -
النقل - البريد - الساعات وشئون المال - الكتابة

٣ - نظام الحكم ٩١

الموظفون - الشرائع - الوزير - الملك

٤ - القانون الأخلاق ٩٥

مضاجعة الملك لأقاربه - الحريم - الزواج - مركز المرأة -
سلطان الأم في مصر - القوانين الأخلاقية الخاصة بملقة
الرجال والنساء

الموضوع	الصفحة
٥ - المعاداة	٩٩
الأخلاق الشخصية - الألباب - المظهر	
الخارجي - الأصباغ والأدهان - الملابس - الحل	
٦ - القراءة والكتابة والتعليم	١٠٤
التعليم - مدارس الحكومة - الورق والحبر -	
مراحل تطور الكتابة - أشكال الكتابة المصرية	
٧ - الآداب	١١٠
التصوير ودور الكتب - السندباد المصري -	
قصة سنوحى - الروايات الخيالية - قصة غرامية	
أشعار الحب - التاريخ - ثورة في الأدب	
٨ - العلوم	١١٨
منشأ العلوم المصرية - الرياضيات - علم الفلك	
والتقويم - التشريح ووظائف الأعضاء -	
الطب والجراحة والقوانين الصحية	
٩ - الفن	١٢٧
الفن - التمتع في الدولة القديمة والدولة الوسطى	
والإمبراطورية وفي عهد الملوك السابين - النقوش -	
التصوير - الفنون الصغرى - الموسيقى - الفنون	
١٠ - الفلسفة	١٤٩
تعاليم بتاح حوتب - تحذيرات إيهور - محاورات	
كاهن المجتمع - أسفار الحكمة المصرية	
١١ - الدين	١٥٥
آلهة السماء - آلهة الشمس - آلهة الزرع -	
الآلهة الحيوانية - آلهة العلاقات الجنسية -	
الآلهة البشرية - أوزير - إيزيس وحورس -	
الآلهة الصغرى - الكهنة - هدية الخلود -	
كتاب الموتى - الاعترافات السلبية -	
السحر - الفساد	
الفصل الرابع : الملك المارق	١٦٨
أخلاق إخناتون - الدين الجديد - ترنيمة الشمس - التوحيد -	
العقيدة الجديدة - الفن الجديد - الارتكاس - نفرتيتي -	
تفكك الإمبراطورية - موت إخناتون	

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس : اغتصاب مصر وسقوطها	١٨٠
توت عنخ آمون - جهود رمسيس الثاني - ثروة الكهنة -	
فقر الشعب - فتح مصر - خلاصة في فضل مصر على الحضارة	
الباب التاسع : بابل	
الفصل الأول : من حوراي إلى نبوخذ نصر	١٨٧
فضل بابل على المدنية الحديثة - أرض ما بين النهرين -	
حوراي - عاصمة ملكه - سيطرة الكاشيين -	
رسائل تل البهارنة - فتح الآشوريين - نبوخذ نصر	
بابل في أيام مجدها	
الفصل الثاني : الكادحون	٢٠٠
الصيد - الحرب - الطعام - الصناعة - النقل -	
أخطار التجارة - المراكب - الرقيق	
الفصل الثالث : القانون	٢٠٧
قانون حوراي - سلطة الملك - تحكيم الآلهة -	
القصاص - أنواع العقاب - قوانين الأجور والأثمان -	
رد البضائع المسروقة عن طريق الدولة	
الفصل الرابع : آلهة بابل	٢١١
الدين والدولة - واجبات الكهنة وسلطانهم - الآلهة	
الصفار - مردك - إشتار - القمص المبابلية عن	
خلق العالم والطوفان - حب إشتار وتموز - نزول	
إشتار إلى الجحيم - موت تموز وبعثه - الطقوس الدينية	
والصلوات - تسابيح التوبة - الحطية - السحر - الخرافات	
الفصل الخامس : أخلاق البابليين	٢٢٩
انفصال الدين عن الأخلاق - المهر المقدس - الحب	
الحر - الزواج - الزنى - الطلاق - مركز المرأة -	
انحلال الأخلاق	
الفصل السادس : للكتابة والأدب	٢٣٥
الكتابة المسماة - حل رموزها -	
اللة - لأدب - ملحمة جاجميش	
الفصل السابع : الفناون	٢٤٤
الفنون الصغرى - الموسيقى التصوير -	
النحت - النحت المنخفض - العمارة	

الموضوع	الفصل
علوم البابليين	الثامن : ٢٤٩
الرياضة - الفلك - التقويم - الجغرافية - الطب	
الفلاسفة	التاسع : ٢٥٥
الدين والفلسفة - أيوب البابليين - كحولت البابليين - رجل يقاوم الكهنة	

الفصل العاشر : قبرية	٢٦١
----------------------	-----

الباب العاشر : آشور

الفصل الأول : أخبارها	٢٦٤
بداية تاريخها - مائها - أصل سكانها - الفاتحون - سنجريش - عصر هدون - سردنا بالوس	
الفصل الثاني : الحكومة الآشورية	٢٧٢
الازعة الاجتماعية - الحروب الآشورية - الآلهة المهنددة - القانون - لذة الانتقام والتعذيب - الإدارة - عصف ملوك الشرق	

الفصل الثالث : الحياة في آشور	٢٧٨
الصناعة والتجارة - الزواج والآداب العامة - الدين والعلم - الكتابة ودور الكتب - المثل الأعلى للرجل الكامل عند الآشوريين	

الفصل الرابع : الفن الآشوري	٢٨٤
الفنون الصغرى - النقش المنخفض - التماثيل - البناء - صفحة سردنا بالوس	

الفصل الخامس : خاتمة آشور	٢٩٧
آخر أيام ملك - أسباب انحلال آشور - سقوط نينوى	

الباب الحادى عشر : خليط من الأمم

الفصل الأول : الشعوب الهندورية	٣٠٠
مشرح الأجناس - الميتانيون - الحثيون - الأرمن - السكوذيون - الفريجيون - الأم المقدسة - الأيديون - كروسس - العملة - صولون وقورش	

الفصل الثاني : الأقوام الساميون	٣٠٨
قدم العرب - الفينيقيون - تجارهم للعالمية - طوائفهم - حزل إفريقية - مستعمراتهم - صور وصيدا - آلهتهم - نشر الحروف الهجائية - سورى - مشهورات - موت أدنيس وبه - التضحية بالأطفال	

الباب الثاني عشر : اليهود

الفصل الأول : الأرض الموعودة ٣٢٢

فلسطين - مباحها - عهد ما قبل التاريخ - شعب
إبراهيم - اليهود في مصر - الخروج - فتح كنعان

الفصل الثاني : سليمان في ذروة مجده ٣٢٨

أصل اليهود - مظهرهم - لغتهم - نظامهم - القضاة -
والملوك - شاول - داود - سليمان - ثروته -
الهيكل - نشأة المشكلة الاجتماعية في إسرائيل

الفصل الثالث : رب الجنود ٣٣٨

تعدد الآلهة - يهوه - عقيدة الإله الأعظم - خصائص
الدين اليهودي - فكرة الخطيئة - القربان - الختان
الكهنوت - آلهة عجيبة

الفصل الرابع : المتطرفون الأيوون ٣٤٨

حرب الطبقات - أصل الأنبياء - عاموس وأورشليم -
إشعيا - تنديده بالأغنياء عقيدة المسيح المنقذ - أثر الأنبياء

الفصل الخامس : موت أورشليم وبعثها ٣٥٦

مولد التوراة - تدمير أورشليم - الأسر البابلي - إرميا -
حزقيال - إشعيا - تحرير اليهود - الهيكل الثاني

الفصل السادس : أهل الكتاب ٣٦٦

سفر الشريعة - تأليف الأسفار الخمسة - أساطير
التكوين - الشريعة الموسوية - الوصايا العشر -
فكرة الله - السبت - الأسرة اليهودية -
قيمة الشرائع الموسوية

الفصل السابع : أدب التوراة وفلسفتها ٣٨٥

التاريخ - القصص - الشعر - المزامير - نشيد
الإنشاد - الأمثال - فكرة الخلود - تشاؤم سفر
الجامعة - مجيء الإسكندر

الباب الثالث عشر : فارس

الفصل الأول : قيام دولة الميديين وستوطها ٣٩٩

أصولهم - حكماءهم - معاهدة نرديس الدموية - انحطاطهم

الفصل الثاني : عظمة الملوك ٤٠٣

قورث صاحب الشخصية الروائية - خطله السياسية
المستنيرة - قمبيز - دارا الأكبر - غزو بلاد اليونان

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : الحياة الفارسية والمهناعات	١٠٩
الإمبراطورية - الشعب - اللغة - الزراعة - الطرق	
الإمبراطورية - للتجارة والشئون المالية	
الفصل الرابع : تجربة في نظام الحكم	١١٥
الملك - الأشراف - الجيش - القضاة - عقاب	
وحش - الحواضر - الولايات - عمل جليل في الإدارة	
الفصل الخامس : زردشت	١٢٤
رسالة النبي - الديانة الفارسية قبل زردشت - كتاب	
الفرس المقدس - أهورا مزدا - الأرواح الطيبة	
والحيثية - كفاحها للاستيلاء على العالم	
الفصل السادس : الفلسفة الأخلاقية في الديانة الزردشتية	١٣١
الإنسان ميدان قتال - النار المخلدة - الجحيم والمطهر	
والجنة - عبادة ميثرا - الميوس - السارسين	
الفصل السابع : أدب الفرس وأخلاقهم	١٣٨
العنف والشرف - قانون النظافة - خطايا الجسد -	
العذارى والأعزاب - الزواج - النساء - الأطفال -	
آراء الفرس في التربية والتعليم	
الفصل الثامن : العلوم والفنون	١٤٥
الطب - الفنون الصغرى - قبرا قرورش ودارا -	
قصور پرسبوليس - نقش الرماة - قيمة الفن الفارسي	
الفصل التاسع : الانحطاط	١٥٤
كيف تموت الأمم - خشيار شوى - فقرة عن القشتيل -	
أرت خشتر الثاني - قرورش الأصغر - دارا الصغير -	
أسباب الانحطاط السياسية والحربية والخلقية - الإسكندرية -	
فتح فارس والزحف على الهند	
المراجع	٦١
فهرس الأعلام	١٧٨

فهرس الخرائط والصور

الصفحة	الصورة
تمثال من الحجر الأعلل لرئيسى الثانى فى صدر الكتاب	
١	خريطة الشرق الأدنى
٢٠	جوديا الصغير
٣٩	لوحة نارام سن
٤٦	خريطة مصر
٥٦	البهو والعمد فى الهيكل العظيم فى الأقصر
٥٨	صورة مسماة للبهو ذى السقف المقام على العمد فى الكرنك
٥٩	عمد تحمل سقف البهو الكبير فى الكرنك
٦٢	حجر رشيد
٦٨	رأس الملك خفرع منحوت من حجر الديريت
٧٨	هيكل الدير الحمرى
٩٠	تمثال الكاتب
١٣١	تمثال شينخ البلد
١٣٤	رأس من حجر الخرسان
١٣٤	رأس ملك
١٣٥	الصعتر الملكى والأفنى
١٣٥	رأس تحتتمس الثالث
١٣٧	رئيسى الثانى يقرب قربانا
١٣٨	تمثال من البرنز لتكوشست
١٣٨	تمثال منتيو محبت
١٤٠	تماثيل ضخمة لرئيسى الثانى مع تماثيل للملكة نذر نرع
١٤١	الراقصة
١٤٣	قطعة ترقب فريستبا
١٤٥	كرسى توت عنخ آمون
١٤٧	رأس نفرتيتى
١٨٩	الإله شمش ينزل بالقوانين على حورابى

الصفحة	الصورة
٢٤٥	أسد ياهل
٢٨٩	ستشور سنحريب
٢٨٦	نقش آشوري يمثل مردك يقاتل تيامات
٢٨٩	صيد الأسماك
٢٨٨	البقرة المحتضرة
٢٨٩	الثور الممنوح
٢٩١	رأس عسر هدن
٣٢٥	شارع في القدس الحديثة
٣٣٥	صورة مستعمدة لمبكل سليمان
٤٥٠	خرائب بربسيو ليس
٤٥٢	نقش الرصاة